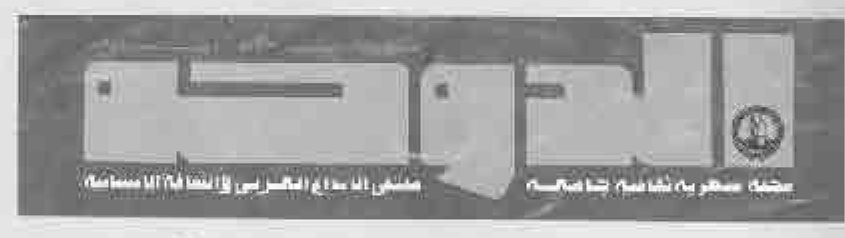


اتصالات فاروق بالألمان

حوار خاص بالدوحة مع المفكر الفرنسي جارودي

بقلم: الدكتور محمد جابر الأنصاري

ارفضوا الواقع قبل أن ترفضكم الحياة

بقلم: خالد محمد خالد

قصة الفاتنة التي أسرت بطل البحار



بقلم : خالد محمد خالد

هذا المقال ليس مقالا فى الفلسفة ، إنما هو كبقية مقالاتى التى تحدوها « الانسانيات » التى أومن بها وأهش لها .. لقد أتى على الانسان العربى حين من الدهر كان من سادة الأرض ، إن لم يكن سيدها جميعاً !!

وحين نستشرف الأسباب التى جعلت منه ذلك السيد المهيب ، نجدها ماثلة فى «ارادة التقدم» التى كانت تحمله على تخطى الواقع والتطلع بعينين مفتوحتين ، وعزم أيدٍ وشديد الى المستقبل .. لقد حل الانسان العربى المسلم فى عصر نهضته الأزمنة القائمة بين «فكرة التقدم» و «فكرة الواقعية» .. حلها قبل أن يحلها الأنسان الأوروبى بزمان .

واختار الوقوف الى جانب «فكرة التقدم» ورفض علماؤه وفلاسفته وفنانوه ، بل وقواد فتوحاته .. رفضوا جميعاً أن يكبلهم الواقع بقيوده ، ويحتجزهم وراء سدوده . وحين نتذكر من علمائنا المسلمين أمثال ابن مسكويه ، وابن النفيس ، وجابر بن حيان ، والخوارزمى ، وأبى بكر الرازى .. حين نتذكر هؤلاء وأمثالهم معهم نرى صفوة تطلعت الى المستقبل فى شغف ، ومضت ترتاد أرضه المجهولة ، وآمنت بفكرة التقدم ، ولم يسلبها الواقع رؤيتها ولا عزمها ولم يصب العرب والمسلمون بما هم فيه من تخلف واستكانة إلا يوم سمحوا للواقع أن يشد اليه أبصارهم وبصائرهم ، ويقعد بعزمهم الذى كان جسوراً وقديراً ، وينسيهم تبعاتهم تجاه المسيرة التى بدأها آباؤهم .. مسيرة التقدم والنهوض .

لقد كان الانسان العربى فى مساعيه العلمية والاجتماعية وفى فتوحاته العسكرية انسانا تخلص نهائيا من هيمنة الواقع عليه ، ورفض ان يخضع له او ان يخلد اليه ..

وبنى ذلك الانسان عالما كان قبل قيامه يبدو حلما من اغرب الأحلام !!

وعلى الرغم من انه لم يحقق كل اهدافه إلا انه حقق جميع الممكن من هذه الأهداف

وبجهوده استطاع الانسان عامة ان يدرك ـ لأول مرة فى التاريخ ـ ان اقتحام المستقبل واخراج خَبئه لم يعد حلما ، وان السيطرة على دوافع التقدم الانسانى صارت فى قبضة الانسان .

وانه لولا الانسان العربى والمسلم بجسارته وبهمته الماضية كالسيف المرهف لظلت فكرة التقدم وهما على مدى دهر طويل !!

وإن اوروبا لاتنكر ان الحضارة الاسلامية العربية هى التى امدتها بالقدرة وبالشجاعة للقيام بالأعمال الكبرى التى انجزتها ...

ولقد تعلمت أوروبا من ابائنا وروادنا تخطى الواقع الى الممكن وحمل لواء إرادة التقدم .

كان العقل العربى جبارا فى خطواته التقدمية الهائلة ، وكانت ثقته بنفسه تفوق كل حد .

وكانت «شجاعة المعرفة» سيماه التى ميزته ومنحته الثقة بالعلم وحطمت الشك النامى فى قدرة الانسان الذاتية على ان يكون شيئا عظيما ، كما علمته الا يتجنب الوحى من اجل العقل ، والا يهمل العقل من اجل الوحى .

وكان ذلك من اعظم منجزات ذلك الانسان ، ومنجزات الحضارة الاسلامية كلها ..

● ● ●

ولما كانت القيم والمعايير ضرورية للحياة الانسانية ، فقد استلهم الانسان العربى قيمه ومعاييره من الوحى والعقل معا .

وادرك انه لكى يعرف ما هو الخير للانسان وما هو الشر له ، عليه ان يعرف اولا طبيعة الانسان .

ومن هنا اخضع اخلاقياته لفكرة التقدم ذاتها .. مدركا ان فضيلة واحدة او بضع فضائل لاتدلنا على الرجل الفاضل ، وان رذيلة واحدة او بضع رذائل لاتدلنا على الرجل الشرير .. وسبق الفلاسفة من ابائنا علماء النفس فى عصرنا الحديث ، سبقوهم الى ان الموضوع الحقيقى للبحث الاخلاقى هو الشخصية الفاضلة والشخصية الشريرة ، وليس هو الفضائل المجردة ولا الرذائل المجردة ..

واعانهم على هذا الفهم الكثير من نصوص القرآن والسنة التى تنظر الى الانسان ككل ، والتى ترفض تبعيضه ، كما ترفض ان تهدم الشخصية باسرها ، لان لها نقاط ضعف فى سلوكها .

ولعل الفيلسوف «إريك فروم» الالمانى المولد ، الامريكى الجنسية كان متاثرا بهذه النظرية لفلاسفتنا وهو يقول :

« إن علم الشخصية الذى يقوم على اساس التحليل النفسى برغم حداثته لاغنى عنه لتطور النظريات الأخلاقية .. ولامناص من ان تبقى جميع الفضائل والرذائل التى يعالجها علم الأخلاق التقليدى غامضة ، لانها كثيرا ما تدل بلفظة واحدة على مواقف إنسانية مختلفة وعلى شىء من التناقض ، وهى لاتفقد غموضها إلا اذا فهمت من حيث علاقتها ببناء شخصية الفرد الذى تعزى اليه الفضيلة او الرذيلة .. »

« إن الفضيلة المنفصلة عن محيط الشخصية قد تكون عديمة القيمة كالتواضع الذى ينشا عن الخوف ، او الذى يعوض به صاحبه عن كبرياء مكبوته .. كما ان الرذيلة قد تدل على شىء اخر اذا فهمت فى محيط الشخصية كلها كالكبرياء التى تعبر عن فقدان الطمأنينة او عن شعور المرء بانحطاط قدره .. »

« وهذا الاعتبار له بالأخلاق علاقة وثيقة .. ومعالجة الفضائل والرذائل متعزلة باعتبارها صفات مستقلة معالجة مضللة ..

إن موضوع الاخلاق هو الشخصية ، ولايمكن ان تقوم صفات منعزلة او اعمال منفصلة دون الاشارة الى بناء الشخصية باسرها »

إن القيم والمعايير لم تكن قيود كبت وقهر عند فلاسفتنا الأولين لانهم تعلموا من نبيهم السمح ان الله حين خلق العقل قال له : اقبل . فبك احاسب وبك احاكم .

ولانهم تعلموا ان الاسلام لم يعزل العقل باسم الوحى ، بل ايد الوحى بالعقل .

واذا كانت مشكلة الاخلاق والسلوك لاتزال تمثل مشكلة كبرى للبشرية . فقد حلها اسلافنا من العلماء والفلاسفة بالتوفيق السديد بين العقل والوحى . وكان سبيلهم لهذا إيمانهم العميق بفكرة التقدم ، وبعدهم عن التنطع فى فهم مرامى دينهم وجوهر اهدافه .

● ● ●

وبايمان ابائنا بالتقدم واحتضانهم فكرته واتخاذه مبدأ للعقل وللحياة استطاعوا أن يشيدوا حضارة سامقة فى كل المجالات ..

والتحقيقات العلمية الرائعة التى قدمتها العقلية العربية هى التى منحت اوروبا والغرب نور المعرفة .

وان اعظم المخترعات التى تبهرنا اليوم يرجع الى ابائنا الذين احيوا فى انفسهم ارادة التقدم ورفضوا الاذعان للواقع .. يرجع اليهم قبل سواهم فضل الارهاص بها وتحقيق بداياتها الناجحة . وحسبنا مثلا واحدا تحكيه لنا مؤلفة كتاب «شمس العرب تشرق على الغرب» فتقول :

« اننا نقف مشدوهين متعجبين امام تطور فن الصواريخ العظيم دون أن نسأل انفسنا الى من تدين بهذا الاختراع ؟؟ » ثم

ارفضوا الواقع

قبل أن ترفضكم الحياة

تثبت انهم علماء العرب والاسلام الذين يدين لهم الشرق والغرب بهذا الاختراع ، إذ كانوا أول من وضع نظرية تركيب البارود المندفع فى القرن الثانى عشر ... !!!

والرائد العظيم «البيرونى» هو الذى سبق «كوبرنيكس» وغيره بخمسمائة عام الى اكتشاف أن الأرض تدور حول نفسها ، وانها وكواكب أخرى تدور حول الشمس .. ومن دورة الأرض هذه ينشا الليل والنهار .

واظننى قد سقت فى احد مقالاتى السالفة الكثير من البراهين ومن الشخصيات التى كان لها فضل كبير فيما تحياه البشرية اليوم من رفاهية وحضارة .

خلاصة الحديث أن انساننا العربى والمسلم قد ناصر فكرة التقدم على فكرة الواقع فاعطى غَدَقا واعطى كثيرا ..

وان هذه المناصرة كانت فخر حياته ومجدها ، وبها استطاع ان يقدم لقومه وللعالم من بعده اذكى أدوات العمل من اجل النهوض والارتقاء

فعل ذلك فى عالم القيم والمعايير ، وفعله فى عالم المخترعات وفعله فى مجال الفتوح .

لم يكن ينظر الى امسه ، ولايقف عند يومه ، بل كان يرسل بصره وعقله وعزمه عن طريق الغد مؤمنا بان العمل من اجل تقدم قومه وعالمه جزء من عبادته وتقواه !!

• • •

فماذا دهى الأسلاف حتى امسوا عبرة ومثلا .. ؟!

دهاهم انهم لاذوا بالواقع واستسلموا له وخروا سجدا صاغرين تحت اقدامه .

وعلى الرغم من انه واقع ذليل ومهين ومتهتك ، فانهم عشقوه عشق الجاهلى لأطلال حبيبته ، أو اطلال قبيلته !!

ادر بصرك فى ربوع عالمنا العربى والاسلامى تجد هذه العلة القاتلة .

تجد اقواما يستكينون للواقع ، ويلوذون بالواقعية ، ويقولون فى تبرير خيبتهم وعجزهم : هذا هو الواقع ولاحيلة لنا فيه ..!! ولاأحد يهزم الواقع أو يتحداه ...

أو لم يعلموا أنه كان لهم اباء وأسلاف هزموا الواقع وتجاوزوه الى الممكن ، بل احيانا الى المستحيل فى استبسال عظيم ؟!

فى كل امر من أمورنا نستسلم للأمر الواقع ، ولا نحاول التصدى له ، ومجاوزته الى غد اكرم وحياة افضل ..

مفكرونا وحكامنا وزعماؤنا .. كلنا أصبحنا أسرى الواقع ، وفقدنا ملكة التمييز وإرادة التقدم .

نصف العالم الاسلامى شعوب تفتك بها المجاعة ، ونصفها الآخر شعوب قتلها الترف .

وكلا الفريقين ــ هؤلاء وأولئك ــ بسطوا ايديهم وارجلهم للواقع يطوقها بسلاسله واغلاله .

ثم ماذا .. ؟؟

اقول : لاباس .. اجل لاباس فلا يزال الطريق امامنا مفتوحا ، والفرصة مواتية لكى نوقظ قدرتنا وننفق منها على حاضرنا ومستقبلنا .

هناك حكمة قالها فيلسوف أوروبى .. هى ذى :

« إن القدرة على العمل تخلق الحاجة الى استخدام هذه القدرة وإن الفشل فى استخدامها ينتهى بشل العضو عن اداء وظيفته ، كما ينتهى بالبؤس والشقاء .. ويمكن أن نتبين صحة هذا المبدأ بسهولة بالنسبة لوظائف الانسان الفسيولوجية فالانسان ــ مثلا ــ لديه القدرة على المشى وعلى الحركة ، فاذا ما حيل بينه وبين استخدام هذه القدرة نشا عن ذلك المرض والعجز الجسمانى» ..

إن صحة هذا المبدأ تظهر فيما يتعلق بقدرات المرء النفسية والعقلية ، كما تظهر فيما يتعلق بقدراته الجسمانية فهل نحن قادرون على العمل من اجل تقدمنا وخلاصنا .. ؟؟

إن اعداءنا لايصنعون بنا اكثر من ان يحولوا بيننا وبين استخدام قدراتنا وذلك عن طريق تخويفنا وإرهابنا وزرع الياس فى نفوسنا ، وبث الفرقة بين صفوفنا .. !!

إننا قادرون .. وبكل التفسيرات والاحتمالات فنحن قادرون ..

وآفتنا اذن لا تتمثل فى عدم القدرة ، بل فى عدم استخدام هذه القدرة .

وهذه النقطة من الحديث بالغة الأهمية .. فشعورنا بالعجز شعور كاذب ، آت من عدم استخدامنا لقدراتنا ، وليس من افتقادنا هذه القدرات ..

نحن نملك الثروة ، ونملك التاريخ ، ونملك المواقع الاستراتيجية النادرة ، ونملك الأعداد الهائلة من البشر .

نملك العقول المفكرة ، والادارة المهياة ، واليد العاملة .. ومعنا القدرة على التحكم فى جميع الظروف والدول والاشخاص الذين يلهون بمقدراتنا ويحقدون علينا ويسعون لتدميرنا .

فلماذا لانستخدم هذه القدرات جميعا لأننا واقعيون !!!!

انى لاكاد اجزم بان اسرائيل قد انتهت من التخطيط لخمسين عاما مقبلة ..!!!

ولقد داست كل واقع يشل حركتها ، وانها لتستخدم جميع قدراتها وترنو الى المستقبل فى عشق المراهق المموله واستخدامها قدراتها وعدم استخدامنا قدراتنا هو الفارق الحقيقى بيننا وبينها ..

فيامن صنع اباؤكم التاريخ ..

يامن قهر اباؤكم الواقع وجاوزوه الى المستقبل فى قدرة وشجاعة وذكاء .

ارفضوا الواقع ، قبل ان ترفضكم الحياة ...

خالد محمد خالد

الشاعر الكبير الدكتور غازي القصيبي ألقى هذه القصيدة الجميلة في مساء الخميس ١١ نوفمبر ١٩٨٢ بمناسبة حفل وضع حجر الأساس للجسر الذي يربط بين السعودية والبحرين :



الجسر

شعر :
الدكتور غازي القصيبي



ضَرْبٌ من العِشْقِ لا دَرْبٌ من الحَجَرِ
هذا الذي طارَ بالواحاتِ للجُزُرِ

ساقَ الخِيامَ إلى الشُّطآنِ فانزلقتْ
عَبْرَ المياهِ شِراعاً أبيضَ الخَفَرِ

ماذا أرى ؟.. زورقاً في الموجِ مُنْدَفِعاً
أم أنّهُ جَمَلٌ ما مَلَّ من سَفَرِ

وهذهِ أُغنياتُ الغَوْصِ في أذني
أم الحُداةُ شَدَوْا بالشِّعْرِ في السَّحَرِ ؟

واستيقظتْ نَخْلةٌ وسنَى تُوَشْوِشُني
مَنْ طَوَّقَ النَّخْلَ بالأصْدافِ والدُّرَرِ ؟

نَسِيتُ أينَ أنا .. إنّ "الرِّياضَ" هُنا
مَعَ "المنامةِ" مشغولانِ بالسَّمَرِ

أمْ هذهِ "جُدّةٌ" جاءتْ بأنْجُمِها
أم "المُحَرَّقُ" زارتنا معَ القَمَرِ

وهذهِ ضِحْكاتُ الفجرِ في "الخُبَرِ"
أم "الرِّفاعُ" رَنَتْ في موسمِ المَطَرِ

أم أنّها "مَسْقَطُ" السمراءُ زائرتي
أم أنّها "الدَّوْحَةُ" الخضراءُ في قَطَرِ

أمْ "الكُوَيْتُ" التي حيَّتْ فَهِمْتُ بها
أم أنّها "العَيْنُ" كَمْ في العَيْنِ من حَوَرِ

بَدْوٌ وبَحّارةٌ ما الفَرْقُ بينهما
والبَرُّ والبَحْرُ ينسابانِ من مُضَرِ

خَليجُ .. إنّ حِبالَ اللهِ تَرْبِطُنا
فهل يُقَرِّبُنا خَيْطٌ من البَشَرِ ؟

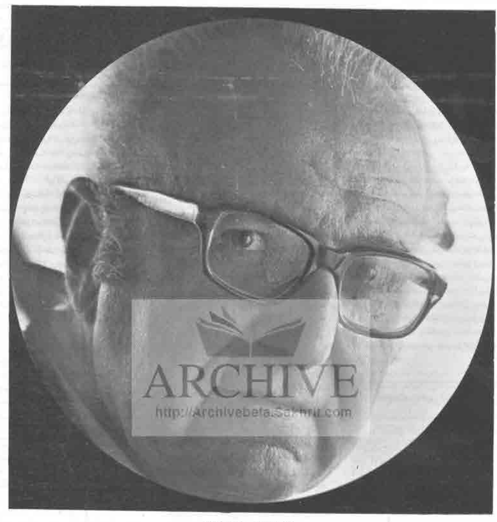
محاورة خاصة بالدوحة

بقلم : الدكتور محمد جابر الأنصاري

المفكر الفرنسي روجيه جارودي ورحلة فكر



ـ من العمل المسيحى البروتستانتى المتحرر ..
ـ الى ليبرالية يسارية اجتماعية ..
ـ الى التزام ماركسى كامل متقيد بالنظرية وبالحزب ..
ـ الى ثورة ضد الماركسية فى النظرية وفى الممارسة ..
ـ الى عودة للدين فى جوهره الصوفى الكونى الانسانى ، مع ميل خاص الى صوفية ابن عربى فى كونيته وانسانيته .
ـ الى اهتمام متزايد بالاسلام كنظام شامل يجمع بين الايمان والعمل ، وبين الانسانى والالهى ، ويجعل للتقدم الحضارى هدفا متساميا يتجاوز النمو المادى الى الآفاق الروحية .. مع رفض الصيغة الراهنة للحضارة الغربية الانمائية المادية ..
ـ الى ... اعتناق كامل وعلنى للاسلام !



المفكر الفرنسى روجيه جارودى

من يقدر على هذه المسيرة المتشعبة الشاقة ؟

من يتحمل هذه التجارب الفكرية والروحية المتباينة والمتناقضة ؟

قليلون ـ حتما ـ من يستطيعون فتح الروح والقلب والعقل لهذا العدد المتسع من التجارب الكيانية الخطيرة بحثا عن الحقيقة ...

واقل من هؤلاء من يجرؤون على التصريح بتحولاتهم مرحلة بعد مرحلة ، والتحدث عنها بصدق وامانة امام الآخرين .. وامام التاريخ .

ولكن هذا ما يفعله اليوم المفكر الفرنسى روجيه غارودى الذى مر بكل هذه التجارب التى احصيناها واحدة بعد الاخرى الى أن وصل الى محطته الاخيرة .. فاشهر اسلامه رسميا ـ بعد أن اعتنقه نظريا وقلبيا لبعض الوقت ـ فدخل بذلك تلك السلسلة الشهيرة من رجالات الفكر الانسانى فى التاريخ الذين مروا بعقائد ومذاهب مختلفة ثم وجدوا فى الاسلام ضالتهم فاعتنقوه عن قناعة ومحبة واضافوا الى تراثه الانسانى الخصب تجارب جديدة .. فريدة ومتميزة ..

رجل كهذا يثير فى النفس فضول الفكر ، فيود أن يسبر اغواره ليرى سر هذه التحولات المتعاقبة التى لا تهدا ولا تتوقف

التقيه بباريس فى جلسة خاصة .. احاول أن ادعه يسترسل فى الكلام دون سؤال محدد .. لأن السؤال يحصر الحضور الانسانى فى بوتقة ضيقة .. اريد أن اكتشف شاغله هو كما يعبر عن نفسه بعفوية دون استثارة الاسئلة فى بداية رحلة التعارف والحوار ..

● ارسطو .. كارثة !

يبدا بالقول :

فلسفة ارسطو كارثة ! .. وكذلك فلسفة

المفكر الفرنسي روجيه جارودي ورحلة فكر

من المادية إلى الإسلام

ابن رشد فى الاسلام .. وفلسفة توما الاكوينى فى المسيحية !»

فهمت ما يعنيه ـ من منطلقه الصوفى الروحى الجديد ـ ولكنى وجدت الآن الفرصة سانحة لعاصفة من الاسئلة ..

ـ كيف ؟ هؤلاء الفلاسفة العظام فلسفاتهم «كارثة» ؟ وقد دخلت فى تاسيس الحضارة العالمية ؟

يرد : «هؤلاء ظنوا أن بالعقل ، وبالعقل وحده ، يعيش الانسان . كم كانوا مخطئين ! .. العقل يدرك فقط الحدود بين الأشياء . لكنه لا ينفذ الى جوهر الاشياء لابد من ملكة اخرى .. غير العقل .. وفوق العقل .. لتجاوز الجزئيات اللامتناهية فى هذا الكون ، والنفاذ الى ما هو كلى فيه .. ولكن المأساة أن الحضارة الحديثة اعتنقت ما قاله أرسطو ، وابن رشد ، والاكوينى عن العقل واهملت الاتجاه الآخر .. فانتهت الى الطريق المسدود ..»

اسأل : اى اتجاه آخر تقصد ؟

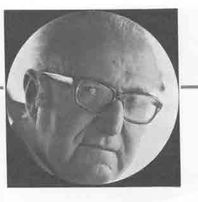
يجيب : افضل اتجاه ما قبل سقراط ، فى الفلسفة الاغريقية ، ذلك الاتجاه فوق ـ العقلى المتأثر بالفلسفة الروحية الهندية ..

ـ لماذا تذهب بعيداً الى الفلسفة الهندية ولديك الفلسفة الروحية المسيحية؟

يجيب : «آباء المسيحية تأثروا تأثرا عميقا بالفكر الهندى . هذه الحقيقة الراسخة يحاول الغرب التهرب منها تحت تأثير الدعاية اليهودية . لقد رسخت اليهودية فى العقل الغربى الادعاء القائل ان المسيحية كملت اليهودية واتمت رسالتها . هذا خطأ تماما . المسيحية نقيض لليهودية وثورة عليها . خذ «موعظة الجبل» وهى أهم واكمل نص فى التراث المسيحى .. انها تناقض التعاليم اليهودية وتقترب كثيرا من الروح الهندوكية ..»

ـ هل تعتمد فى ذلك على التحليل والاستنتاج ام لديك شواهد تاريخية محددة بشأن تأثر المسيحية بالروح الهندية ؟

يرد : «التاريخ كله بحاجة الى اعادة كتابة . لقد كانت منطقة الشرق الادنى تعج بالمؤثرات الروحية الهندية زمن المسيح وما قبله . حتى الافلاطونية المحدثة فى التراث الهيلينى متأثرة بالصوفية الهندية . وبواسطتها ، وبالتأثير المباشر ايضا ، استمدت المسيحية الطابع الروحى العميق من تراث الهند .. »



● كيف طمس اليهود دور مصر ؟

«اليهود لم يرق لهم ذلك ، فعتموا على هذه الحقيقة . وعملوا على الربط المتعسف بين التراثين اليهودي والمسيحي واعتبارهما تراثا واحداً متواصلا لجعل اليهودية نقطة البداية فى تاريخ الغرب ، وفى تاريخ الإنسانية . ولماذا نذهب بعيدا .. الا يزعم اليهود بانهم اصحاب فكرة «التوحيد» فى التاريخ الانسانى ؟ وهذا كذب صريح لأن المصريين القدماء ـ كما هو ثابت تاريخيا ـ هم أول من طرح فكرة التوحيد كفكرة محورية فى الديانة والحضارة والحياة بعامة . ولكن الدعاية اليهودية اسقطت دور مصر أيضاً لتحتكر وحدها شرف اكتشاف هذه الفكرة ..»

يصمت روجيه غارودي قليلا ..

واحدث انا نفسى بصمت : «إذن فعداء اليهود وعداء اسرائيل التاريخي لمصر اقدم من قضية فلسطين .. واقدم من الصراع العربى ـ الاسرائيلى .. إنه عداء عميق الجذور متصل بصميم الوجود الحضارى للطرفين . كما اخذت اسرائيل دور مصر فى التوحيد ونسبته الى ذاتها ، تاخذ اسرائيل اليوم دور مصر فى قيادة المنطقة لتحتكرها لذاتها وتحيط مصر بسياج من العزلة والنسيان والاختناق .. متى ندرك ذلك ؟! .. متى ندرك ان الصراع بيننا وبين اسرائيل ، هو صراع وجود ، لا خلاف حدود ؟!» .

واعود من همنا الى هموم غارودى لأسأله :

ـ حدثنا عن تحولاتك وتجاربك الفكرية المتتالية كيف توالدت ؟

يقول :

«كنت فى شبابى مسيحيا مؤمنا بالاختيار لا بالوراثة . وكنت رئيسا للطلبة المسيحيين البروتستانت . وامنت بالدين على انه عمل وفعل وتحرك والتزام . ثم تحت تاثير قراءاتى تحولت فكريا الى الماركسية ، كان تحولا فكريا . اما فى الشعور القلبى فقد بقيت مؤمنا ، وكان همى فى الحزب الربط بين الايمان المسيحى والفكرة الماركسية على اساس ، ان الماركسيين يناضلون فى الأرض ليجد المسيحيون بداية السماء .. ولكنى وجدت بالتجربة ان الواقع فى الحزب الشيوعى شيء اخر مختلف عن تصورى هذا ، فانفصلت عنه . ويقول البعض عنى اليوم باننى اكتشفت الدين متاخرا . ليس هذا صحيحاً . الدين كان حاضرا فى وعيى منذ البداية . الدين كايمان جوهرى ، لا كنصوص حرفية وطقوس محددة .. لقد لازمنى هذا الايمان فى اشد مراحل التزامى بالماركسية» .

● خالد محيي الدين تأثر به !

هنا تذكرت تأثير غارودى فى الفكر العربى حينذاك .. وكيف كان هذا الجمع بين الايمان والجدلية المادية يجد صداه ايضا لدى بعض الشباب العربى بالأربعينات والخمسينات ..

اذكر على سبيل المثال ما قاله السيد خالد محيي الدين بهذا الصدد : «لقد بدأت فى الاخوان المسلمين . فقد كونا تنظيما من الضباط اقمنا عن طريقه صلة بحركة الاخوان .. وفى احدى المرات جاءنى ضابط واعطانى كتابا فى الماركسية ، هو : «الاقتصاد محرك التطور الاجتماعى» لجارودى ، وقد تأثرت بهذا الفكر ، ولم اجد تعارضا بينه وبين الاسلام» .

أيا كان الأمر فقد تطور فكر غارودى نفسه ووصل الى حد اعتناق الاسلام . فهل يتطور ، بالمثل ، الفكر العربى الذى تأثر به أيام ماركسيته ؟

هذا سؤال لا يستطيع الاجابة عليه غارودى . وهو متروك للمعنيين به من رجال الفكـر والسياسة العرب ..

ولكن غارودى معني جداً بالاجابة على سؤالنا :

– لماذا انقلبت ضد الماركسية .. وضد الحضارة الغربية الراسمالية وصرت تدعو الى نظام جديد ؟

● ماذا بعد «النمو» ؟

يقول : «الخطيئة الكبرى فى الحضارة الغربية انها اعتمدت صيغة النمو المادى التراكمى .. نمو الانتاج ونمو الاستهلاك كمعيار اوحد للتقدم وللسعادة وللعمل الانساني . ولكن ماذا بعد ؟ ماذا بعد المزيد والمزيد من انتاج السيارات والماكنات واجهزة الكومبيوتر ؟ ماذا بعد المزيد والمزيد من البنوك والارباح المالية ..؟ ماذا بعد المزيد والمزيد من المدن والطرق والمصانع؟ إلى اين سنصل بعد ذلك .. واين النمو فى القيم والاخلاق والمعاملات والسعادة الحقيقية ؟

إن النتيجة الوحيدة لنظرية النمو التراكمية الحالية ان العالم اصبح يملك وسائل تدميره وليس مرة واحدة ولكن مئات المرات ، دون « نمو » مقابل فى الضوابط والروادع الاخلاقية والروحية التى من شانها كبح قوى الدمار .. وجاءت الماركسية لترتكب نفس الخطا باسلوب اخر . اعتمدت الماركسية نظرية النمو المادي الراسمالية ذاتها مقياساً للتقدم ، ومعياراً للسعادة الانسانية ، بل واتخذت وصف النمو الراسمالي قانونا دائما بالنسبة لنمو الاشتراكية ذاتها ، فوقع النظامان فى سباق واحد . سباق الانتاج المادي المتزايد إلى ما لا نهاية وإلى ما لا غاية . والفارق فقط فى الاسلوب بين نظام يعتمد المبادرة الفردية ونظام اخر يعتمد الدكتاتورية الجماعية . ولكن التاريخ لا يعود إلى الوراء ولا يكرر نفسه . ولابد من نظام اخر للنمو . فمن المؤكد فى نظري ان لا إشتراكية حقيقية بنظرية النمو المادي الحالية . فلا إشتراكية بدون تسام وتعال روحي فوق المادة وفوق النمو الاقتصادي المحض . وتحقيق ذلك مستحيل فى النظام الراسمالي وفى النظام الماركسي لأن الاثنين واقعان فى نفس الخطا وهو محاولة اقامة حضارة بدون ايمان وبدون تسام.» . »

احدق في وجه غارودي .. يخيل إلى ان قائل هذه العبارات الأخيرة هو سيد قطب . فقد كان هذا المفكر العربي يؤكد على هذه المقولة ، خاصة في كتبه الأخيرة .. ولاشك ان قطب كان سيتقبل اعتناق غارودي للاسلام كخاتمة طبيعية لا مفر منها ..

يقطع غارودى تاملي الصامت بملاحظة جانبية !

« هل تعلم ان اخر مقالة للينين في « البرافدا » كانت بشان تطبيق الجماعية فى الريف . ولكن النظام السوفياتي اهمل ذلك وابتعد عنه .. »

يشرد بعيداً ثم يقول : « حتى الفلسفة ماتت فى الغرب لأن التقدم المادي قضى عليها . هيغل كان اخر الفلاسفة العظام . ومن بعده اتجه نيتشه الى الشعر ، واتجه ماركس الى السياسة والاقتصاد ، وانتهت الفلسفة كبحث عقلي حر خاضع لقوانينه الذاتية وتطوره الطبيعي » .

ويضيف : « فى الحضارة الاسلامية لم يحدث هذا الفصل وهذه التجزيئية بين الأشياء . فى الاسلام العلم متصل بالدين والعمل مرتبط بالايمان ، والفلسفة مستوحاة من النبوة ، والنبوة متصلة بالعقل ، والارض غير بعيدة عن السماء ، والسماء على اتصال بالارض . والتقدم الحضاري يسير صعداً نحو الله .. هذه الوحدانية فى مفهوم الحضارة ومفهوم الجماعة يحتاج إليها عالم اليوم المجزا فى كل شيء .. وهذا ما جذبني نحو المفهوم الإسلامي للوجود .. »

اتركه بلا اسئلة ، كما فعلت فى البداية ، لانه بلغ حالة من الصفاء لا تحتاج الى سؤال ..

يواصل :« اريد ان يصبح الابداع الفني الشعري وفعل الايمان ، وفعل العمل السياسى فى كائن واحد .. هكذا يبلغ الانسان الكمال .. وهذا ما يفتقر إليه اليوم ساسة الغرب ومفكروه ، واجده متجسداً لدى المتصوف المسلم محي الدين بن عربي الذى اعتبره اعظم من عبر عن وحدة الحضارة الانسانية فى التاريخ .. كما اعتبر الشاعر جلال الدين الرومي اكبر شاعر فى العالم .. »

– ولكن هل تعتقد ان الشعر قادر على مواجهة العصر ؟ .

– « نعم .. الشعر بمعناه الحدسي .. بمعنى الرؤية النافذة الى جوهر الاشياء واعمقها . الشعر ، كالرؤيا الصادقة ، يستوعب العالم فى كليته وشموله ، اما الفكر العقلاني فيتعامل معه فى جزئياته فلا ينفذ إلى روحه الكلية . الشعر يدرك الحقيقة البعيدة . اما اللاهوتي – على سبيل المثال – فياتي للشرح والتعليق على تفاصيل تلك الرؤيا الكلية . وهناك مثل بوذي يقول : عندما يرى الغبي احداً يؤشر باصبعه الى القمر ، لا يرى إلا الاصبع ! .. هذا ما يفعله اللاهوتي . »

قلت له : نرجو ان نكون ممن يرون القمر ولا يقفون عند رؤية الاصبع !

قال : هذه ماساة حضارتنا اليوم . انها لاترى غير الاصبع ..

قلت : رغم انها وصلت الى القمر ..

ضحك قائلا : « لكنها لم تصل الى قمر الحقيقة الذي تحدث عنه ابن عربي وجلال الدين الرومي .. »

واحسست انه غاب معهما فى مكان ما ثم تهيا لكلمة الختام :

– « هناك رسالة واحدة ابدية خالدة فى هذا الكون .. وقد جاءت النبوات المتعددة فى مراحل مختلفة لتقدم الاشكال المناسبة من تلك الرسالة الواحدة ، كل فى مرحلته وبطريقته واسلوبه . والاسلام يقر بوجود هذه الرسالة الواحدة وينطلق منها ويعمل لاكمالها . وعلى المسلمين اليوم استيحاء روح الاسلام لتطبيقها على المرحلة الجديدة بالشكل المناسب الذى يلائمها . لابد من استنباط هذا الشكل الجديد المتلائم مع روح العصر . تلك هي المهمة التى تنتظرهم .. »

وبلهجة لا تخلو من العتب ذكرنا فى النهاية : « الدراسات الاسلامية فى الغرب لاتنال ما تستحقه من رعاية . بينما الدراسات المعادية للاسلام تنال التشجيع الصهيوني الرسمي مثل كتاب نيبول المسمى « غسق الاسلام » والذى ترجم الى اكثر من لغة .. »

قلت : ولكن رغم تقصيرنا هذا .. فان المفكر روجيه غارودي قد اعتنق الاسلام !

د. محمد جابر الانصاري

"سارة برنار" لم تفقد ذاكرتها

بقلم : عبد الله الجفري

تذكرت انني تخيلت مرة ان ذاكرتي فقدت ، او انني انسان بلا ذاكرة !!

برغم تخيلي .. فاني اتذكر تلك المرة وكان الفصل ربيعا .

لابأس ـ ثانية ـ اني اجلد ذاكرتي لتنشط ، وتحس ، وتستعيد !

كنا في زيارة لعاصمة الضباب والبيوت السوداء القديمة الشاهقة ، والمنازل الكوخية المحدودبة الاجورية .

كنا مجموعة شباب يعتني بذاكرته ، ويحشدها ، ويحاول إثراءها بصور التجارب ، والافكار ، والمعرفة .

وعبر بنا القطار ـ ذلك اليوم ـ وسط بيوت ريفية على الجانبين ، والحشائش الخضراء تكسو وتغطي الأرض الممتدة المريحة للنظر ، وطرحنا مطلبا لايبدو صعبا على الذين دعونا وتكلفوا باطلاعنا على بلاد الانجليز .

ـ قلنا : نود ان نرى الريف الانجليزي ، وقلت وحدي مستطردا : وندخل بيتا من بيوته لمشاهدته من الداخل !!

وجاءت إجابة في اذني نادرة : انتم تعرفوننا أكثر مما نعرف انفسنا !

ـ واجبت بصوت منخفض يلائم هدوء ذلك الجو : لكننا ايضا نريد ان « نعرف » نفوسنا !!

ودخلنا بيتا ريفيا .. كان يلوح من الخارج فقيرا .. متواضعا جدا ، ورأيناه من الداخل بسيطا رائعا ، ومنظما مغريا ، ومريحا فاتنا .. إنه خلاصة ذوق ، او كما قال « جاك بيرك » : إن الذوق قمة الحضارة !!

ووقفت عند نافذته القريبة من الارض مبعدا الستائر .. اكاد اخرج ساقي ، واقفز الى خارج البيت لاجري على هذه الحشائش .. اجري حتى اضيع ويتأكد ان لايمكن العثور علي ، واهيم بلا حدود .. بلا ظنون !

وعند وقوفي .. اقترب مني زميل يقول : اني اتمنى شيئا مريحا ، ورائعا هذه اللحظة ؟!

ـ قلت : ماذا تتمنى بهذه الشجاعة المتناهية ؟!

ـ قال : اتمنى ان افقد ذاكرتي !!

ـ قلت : سأتناول قضيبا من الحديد ، ومضربة « ذات مقابض » أهوى بها على رأسك ، ليس الى درجة الموت ، وسوف لاتموت ، وتخرج من المستشفى فاقدا للذاكرة !

ـ قال : دعني أكتب لك اقرارا .. ان ماستفعله بي هو برغبتي !

ـ قلت : تريث .. لا اوافق ان اعطيك فرصة للراحة وحدك !

ـ قال : حتى في الضرب والايذاء ؟! .. صدقني انها تجربة عظيمة ، وغامرة بالسعادة .. ان تفقد ذاكرتك ، فانت مولود جديد !!

ـ قلت : ما الذي اوحى اليك بهذه الخواطر

ـ قال هذه الجنة على الأرض !

ـ قلت : وعدنا الله باحسن منها في الاخرة !

ـ قال : يبدو ان موعد موتي بعيد .. فدعني اختلس من هنا الان !!

ـ قلت : واذا فقدت ذاكرتك ؟!

ـ قال : سأبدأ حياة جديدة ... انسى فيها كل ما يقرع ذهني من مشاكل الانسان ، وكل ما يخرم صدري من معاناة والام الأرض . سأكون انسانا جديدا أستطيع ان ابني لنفسي واقعا يغاير ما هو « شيء » ذاكرتي اليوم !

ـ قلت : ولاتتمنى بعد ذلك ان تفقد ذاكرتك من جديد ؟!

ـ قال : الذين يعيشون فصولا متعددة مابين باردة ، وحارة ، ودافئة ... هم وحدهم الذين يتمنون ذلك الذي تتحدث عنه ، لكنني حينما افقد ذاكرتي فلن تكون حياتي بعد ذلك إلا فصلا واحدا .. إما شتاء مستمرا ، شديد البرودة ، وإما صيفا ساخنا لايتركني استعيد انفاسي ، وإما دافئا رغيدا اعيش فيه كهذه العجوز صاحبة هذا البيت الريفي .. تعرف ماذا تفعل عندما تستيقظ ، وماذا يتسلسل ويتعاقب في ساعات اليوم ، وتعرف متى تنام !

ـ قلت : هذه دعة ، وشيخوخة !

ـ قال : خطأ .. هذه هي السعادة ، اسألها كم مرة أحبت ؟ .. انها لاتتذكر سوى انها مرتاحة الآن .. وانها كانت جميلة وعشقها الكثيرون ، وتزوجت الرجل الذي احبت ، ولم تبك عليه يوم مات .. لانها مقتنعة انها استمتعت معه كل ايامه التي عاشها معها ، وانه لم يتبق لها ماتريد .. فهي كالذي فقد ذاكرته ، و .. استلقى على سرير متحرك يريه كل ما في الجهات الاربع ، وما عليها !

ـ قلت : لكنك شاب ، وخلفك صغار ، وحياة لم تتكامل بعد ، وكفاح مرير من اجل لقمة العيش ، وتحقيق احلام الحياة الرغدة !

ـ قال : اذا فقدت ذاكرتي شعرت انني ملك الأرض ، وملك المطر ، والشمس ، والنجمة ، والعشب المنسرح .. اما بهذه الذاكرة فالغرور طاغ ، والرغبات لاتنتهي ،



سارة برنار

والمتابعة من الآخرين تتحول ظلا لكلماتك .. فتشعر أن الأرض ملكى ، وأن المطر يجب أن يسقى هذه الأرض ، والشمس تدفئها ، والنجمة تزين ليلها ، والعشب يتحول الى نخلة تطرح جنيا ، او هكذا اريد !

قلت : وهذه هى الحياة .. الأرض ملك لك اذا ما حافظت عليها ، والمطر يروى كل الأرض ، والنجمة فى السماء الواحدة . انك تتحدث كانك اسطورة ، او كانك زمن سابق لاوانه !

ـ قال : لم اقصد هذا .. فانا لا اهتم بالتفاصيل ، إنى فقط اتخلص من الشواغل ، وابدو انسانا جديدا .

قلت : تستطيع .. اذا احسنت تربية نفسك وتاديب خلقك ، واضاءة ذهنك !

ـ قال : ذلك كله ممكن ، وسهل فى دنيا الناس ، المرهق فقط اننا لانقدر أن نتخلص من اخطائنا ، انى اتمنى ان افقد ذاكرتى حتى انذ كل اخطائى ، واغسل سوءاتى ، واتذكر فقط انه ينبغى أن أكون انسانا !

ـ قلت ضاحكا : تريد ان تتعاطف مع الاستطلاع النفسى الذى اجرته على نفسها مرة « سارة برنار » .. فرغم انه قيل : (كان الارجنتينيون يصنعون لها بساطا من مناديلهم الموشاة المطرزة فى بيونس ايرس) .. الا انها كانت دائما تود الهروب من هذا التواجد الملح والعنيف .. حتى انها ذات مرة ، وهى تفكر فى الاختفاء من عيون الناس واعجابهم ، وحقدهم .. قالت لفيكتور هيجو :

« فيكتور أيها الأديب الرائع : انك تكتب المسرحيات التى امثلها ويصفق الناس لى انا ، وانت كاتب حوارها ، لكنك لم تقل لى مرة : احبك ياسارة ! .. لانك تجامل خجلك ، ولانك تحب نفسك كثيرا . كم اتمنى يا فيكتور لو افقد ذاكرتى ، واهيم فى الحقول ، ثم اصادفك عابرا فاتعرف عليك .. انسانين مجهولين يعرفان بعد ذلك كيف يحب كل منهما الآخر » !

واراد أن يجيب الكاتب الكبير .. لكنها وضعت يدها على فمه برفق ، وقالت له مستطردة :

« دعنى اكمل .. اعرف ما تريد أن تجادلنى به ، وتبرره . انت تعرف ـ بير لوى ـ اديب فرنسا . لقد كتب الى يقول : انتى مجنون .. لم اعد ادرك ماذا افعل .. انتى ابكى .. ارتجف . سارة .. انتى احبك ! »

كان من الاجمل والامتع أن احبه ايضا .. لكنه كان صاحب ذاكرة فظيعة . يا الهى .. لو فقد ذاكرته ، كنت احببته !!

وتطلعت الى وجه زميلى ، وكان صامتا ومغمضا ، ومنصتا ..

وسكت انتظر حواره ، او جدله ، لكنه لم يتكلم ، فقلت :

ـ ما بالك.؟! .. لم تجب على ما رويته لك .. ما رايك فى سارة برنار ، وفيكتور ، وبير لوى .. فى هذه الحادثة ؟!

ـ ورفع راسه وقال : حتى طلب فقدان الذاكرة مشكلة ، لقد كانت « سارة » تبحث عن شىء خيالى .. كانت مجنونة فى حالة عقل تعيس . وكان فيكتور معذبا بين الجنون والعقل ، اما بيير لوى فقد كان عاقلا فى حالة جنون !!

ـ قلت : فما الذى تبحث عنه ؟!

ـ قال بذهول : لا ادرى !!

ـ قلت : تبحث عن دفء الربيع فوق خط استواء دائم . اننا نفقد ذخائرنا فى لحظة انشغالنا ، او فى شتاء نفوسنا القارس .. اننا لايمكن أن نكون مجانين كليا ، او عقلاء ، باستمرار ! .. ان فيكتور هيجو لم يفرط فى حب سارة برنار ، وايضا لم يبل صادية نفسه من الحب ، ويستمتع به ! هؤلاء هم : « نحن » .. هؤلاء هم الناس ..

إننا نحتفل بالربيع فى الصيف ، ونرتعش من البرودة والشمس ساطعة فى كل مكان !

• • •

وسرت قشعريرة خفيفة فى كيانى .. طغت على الدفء ، واكتشفت انتى لم افعل اكثر من التذكر ، وان عنقى تصلب من كثرة « نهوضه » بين كتفى .. والليل يحمل فكرة الربيع . والمباشرة في الرؤية اعمق من وجوه البشر .. ينبغي إذن ان اريح راسي وانـــام !! .

عبد الله الجفري ـ جدة

مصر وفلسطين في العصر العثماني

من خلال وثائق المحكمة الشرعية المصرية

بقلم: الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
جامعة قطر

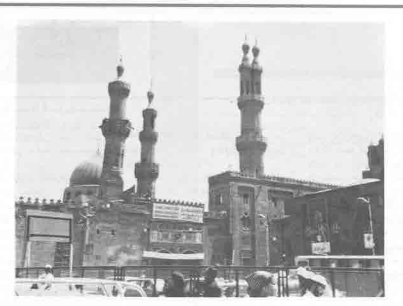
علاقات مصر بفلسطين فى العصر العثمانى الاول (١٥١٧ ـ ١٧٩٨ م) ، تعتبر امتدادا تاريخيا وطبيعيا ، للعلاقات التى كانت قائمة بينهما ، منذ اقدم العصور ، والذى يعنينا فى هذا البحث ، وضع لمسات على هذه العلاقات ، وبخاصة فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، من خلال وثائق المحكمة الشرعية ، والتى يتبين منها للباحث ضخامة الدور الذى كان يقوم به ابناء المدن والقرى الواقعة فى الجزء الجنوبى من بلاد الشام (فلسطين) «١» فى تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ، بل والسياسى . خلال هذا العصر .

ومن المعروف ان بلاد الشام باقاليمها المختلفة ، كانت فى العصر المملوكى تكون جزءا من الدولة المملوكية . وكان حكام اقاليمها نوابا للسلطان المملوكى بالقاهرة ، ولم تكن هناك حدود او حواجز سياسية تفصل بين الاقليمين ، وبانهيار النظام المملوكى ، دخلت كل من مصر وبلاد الشام فى حوزة دولة واحدة وهى الدولة العثمانية ، وظللت الصلة بين الاقليمين قائمة ، حيث لم يعرفا كذلك الحدود السياسية بالمعنى المعروف لنا اليوم ، والباحث فى مصادر تاريخ العصر ، سواء منها الكتابات المعاصرة او وثائق المحكمة الشرعية ـ التى تعتبر تسجيلا دقيقا للحياة اليومية آنذاك ، فانه يجد كما وافرا من هذه الوثائق التى تتعلق بابناء المدن والقرى والمناطق الجنوبية من بلاد الشام (فلسطين) ونشاطاتهم المختلفة فى المدن والقرى المصرية ، وهذا ما يعنينا فى هذا البحث وبخاصة فى المجالات السابق الاشارة اليهـــا «٢» .

اما عن الارتباط السياسى بين مصر وفلسطين . فقد سبقت لنا معالجة هذا الجانب ، فى بحث اخر ضمن علاقات بلاد الشام بمصر فى العصر العثمانى (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) . وتكفى الاشارة هنا الى ان ارتباط احداث البلدين السياسية خلال العصر العثمانى ، وبخاصة فى النصــف الثانى من القرن الثامن عشر ، حيث ازداد نفوذ القوى المحلية ، فى كلا الاقليمين ، وحدث تنسيق فى العمل بين هذه القوى المحلية ضد الحكم العثمانى (٣) ، وارتبطت احداث البلدين ارتباطا وثيقا ، **كما هي مسجلة في كتابات التاريخ السياسي** الذى سبق لنا معالجته ، ولذا فان تركيزنا هنا منصب على المجالات الاخرى من واقع سجلات المحكمة الشرعية .

اولا : العلاقات الاقتصادية :

لعب ابناء المدن والقرى الفلسطينية ، دورا بارزا ، فى تاريخ مصر الاقتصادى ، خلال العصر العثمانى ويوجد كم ضخم من وثائق المحكمة الشرعية ، التى تتعلق بنشاط الفلسطينيين الاقتصادى فى مصر خلال هذا العصر . وترسم هذه الوثائق



رواق الأزهر الشريف اعداداً ضخمة من العلماء الفلسطينيين الذين تلقوا تعليمهم داخل اروقته .

صورة تفصيلية وواضحة للعلاقات الاقتصادية التى كانت قائمة بين المنطقة الجنوبية من بلاد الشام (فلسطين) وبين مصر ، كما أن هذه الوثائق توضح دور ابناء فلسطين فى تاريخ مصر الاقتصادى ونوعية هذا الدور وضخامته ، **فقد اتيحت لأبناء المدن والقرى الفلسطينية ـ كما هو واضح من نسبتهم إلى هذه المدن والقرى ـ فرص الاشتغال بالنشاط التجاري في** داخل مصر ، وفى شتى ارجاء شمالها وجنوبها على السواء ، كما عمل بعضهم على ممارسة هذا النشاط ما بين مصر وبلاد الشام ، وقد شمل نشاطهم مختلف السلع التى كانت رائجة فى مصر ، وبلاد الشام فى تلك الفترة ، فمن بين السلع التى يرد ذكرها فى هذه الوثائق ، الاقمشة القطنية والحريرية ، البن ، التبغ ، الصابون ، المشروبات ، الحلوى ، وغير ذلك من السلع الاخرى (٤) . وتمكن بعض الفلسطينيين عن طريق ممارسة النشاط التجارى ، من تكوين راس مال ضخم استثمره فى تكوين شركات تجارية كبيرة ، او فى تملك العقارات فى المدن المصرية المختلفة او فى التزام الاراضى الزراعية ، او فى بعض الصناعات المحلية . ويكفى ان يقف الباحث من خلال هذه الوثائق على علو نسبة التجار من أبناء فلسطين الذين كانوا يمتلكون محلات تجارية فى سوق الصاغة بالقاهرة . وكذلك فى سوق الحمزاوى ، وهى السوق التى كانت متخصصة فى تجارة الاقمشة المحلية والمستوردة ، وبصورة خاصة الاقمشة الحريرية والقطنية (٥) وفى نفس الوقت فان هذه السلع كانت من بين السلع التى تستورد من بلاد الشام ، كما ذكر ذلك شابرول احد علماء الحملة الفرنسية ضمن قائمة البضائع المستوردة إلى مصر عام ١٧٧٥ م (٦) وقد كان إقبال الشعب المصرى على السلع الشامية فى تلك العصر كبيرا . كذلك اشتغل بعض الفلسطينيين بالمتاجرة فى الحلوى وصناعتها وكذلك عمل البقسماط (٧) هذا الى جانب اشتغالهم بالحرف المهنية الاخرى مثلا: الحلاقة والحياكة . وصناعة الأسلحة وبخاصة فى مدينتى القاهرة والاسكندرية (٨) والمتتبع لخريطة القاهرة العمرانية فى العصر العثمانى ، من خلال وثائق المحكمة الشرعية ، يجد كثيرا من الوكالات التجارية التى كانت قائمة آنذاك ، والكثير من أحياء القاهرة ، كانت عامرة بالشوام الذين ينتمون إلى القرى والمدن الفلسطينية ، وامتد نشاط هؤلاء الفلسطينيين الى التجارة الخارجية ، فمارسوا عمليات الاستيراد والتصدير من مصر وإليها واصبح لهم وكلاء تجاريون ، يعملون باسمهم فى موانى البحر الاحمر ، مثل جدة والمخا والسويس كما كان لهم وكلاء ببلاد الشام ، ولم يقتصر نشاطهم على التجارة فى السلع الشامية وإنما امتد الى جميع السلع المستوردة من اوروبا وبلاد الشرق فشمل البن والاقمشة الهندية والاسلحة والحلى وغيرها (٩) .

ومن واقع وثائق محكمة القسمة العسكرية بارشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة ، يستطيع الباحث ان يقف على ضخامة التركات والثروات التى خلفها ابناء فلسطين لورثتهم سواء الموجود منهم بمصر او ببلاد الشام ، حيث ان حجج إعلام الوراثة ، وتحديد الورثة كانت فى كثير من الاحيان تصدر من محاكم بلاد الشام ، ويقرها القضاء فى مصر بعد ثبوت صحتها (١٠) ولما كان المجتمع فى ذلك الوقت يقوم على اساس التنظيم الطائفى ، فابناء كل مهنة يكونون طائفة لها شيخها ووكيلها ، وكذلك المشتغلين بالتجارة ، فتجار كل سلعة يكونون فيما بينهم اتحادا او طائفة لها شيخها ووكيلها كذلك بهدف حماية السلعة والتحكم فى أسعارها ، فان كثيرا من الشوام الذين ينتمون الى المناطق الفلسطينية اساسا تمكنوا من الوصول إلى منصب مشيخة الطائفة التى ينتسبون إليها . فقد استطاع الخواجا محمد الشامى الفلسطينى الاصل ان يصبح « شيخ الشرب » « بسوق الشرب » ، واستطاع الحاج أحمد الفلسطيني الشامى أن يصبح « شيخ **طائفة القطانين** » اى المشتغلين بصنع الملابس القطنية فى وكالة القطن ببولاق ، وهناك عدد كبير تسجل الوثائق

اسماءهم كشيوخ لطوائف المهن التى يعملون بها ويوصفون بوصف الفلسطينى الشامى (١١) .

وقد كان هؤلاء التجار والحرفيون كما يتضح من الوثائق ينتمون إلى جميع المناطق الفلسطينية ، فنجد من بينهم الغزى والحيفاوي والنابلسى والخليلى والصفدى ، والقدسى . والرملى واليافى وغير ذلك من البلدان الفلسطينية التى كانوا ينتسبون إليها (١٢) .

اما عن استثمار هؤلاء الفلسطينيين لرؤوس الأموال التى تكونت لديهم ، فقد استثمروها بحرية كما يتضح من الوثائق فى كل أوجه الاستثمار الممكنة ، مثل شراء العقارات والدور فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية ، وفى التزام الاراضى الزراعية فى مختلف انحاء مصر ، وفى عمليات الاستيراد والتصدير ما بين مصر وبلاد الشام واليمن والهند ، حتى انه ليصعب على اى باحث فى تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر العثمانى ان يغفل الدور الاقتصادى البارز الذى لعبه التجار الفلسطينيون فى هذا التاريخ ، وبذلك حافظ هؤلاء التجار على استمرار العلاقات الاقتصادية بين مصر وفلسطين فى ذلك العصر (١٣) .

ثانيا : العلاقات الثقافية

يكفى للباحث كى يدرك ضخامة العلاقات الثقافية بين مصر وفلسطين أن يرجع إلى كتب التراجم وسجلات المحاكم الشرعية ، ووثائق العصر ، وبخاصة ما يتعلق منها بالازهر فانه ولاشك سوف يقف على سلسلة كبيرة ومتصلة الحلقات من المثقفين الفلسطينيين الذين تلقوا تعليمهم بالازهر ، كما انه سوف يجد من بين علماء الازهر كثيرا من الفلسطينيين حيث أن بعضهم تصدى للتدريس والافتاء بالجامع

الأزهر بعد ان اجيزوا من علمائه ونعتوا بانهم « من اعيان اهل الافادة والافتاء بالجامع الازهر» بل ان هناك علماء فلسطينيين جمعوا بين وظيفتى التدريس والافتاء فى نفس الوقت مثل الشيخ « **حسن المقدسي الحنفي** ، فقد ذكرت الوثائق انه كان « من اعيان اهل الافادة **والافتاء** والتدريس بالجامع الأزهر » (١٤) .

وقد كان للشوام رواقهم الخاص بهم فى الجامع الأزهر ، عرف باسم رواق السادة الشوام ، وكانت مشيخة هذا الرواق ونظارة اوقافه توكلان الى احد علماء الشوام باختيارهم ، بشرط ان يكون ممن يشتغلون بالتدريس فى الجامع الأزهر (١٥) ، وتسجل الوثائق ذلك فتذكر ان « الشيخ الإمام العلامة الهمام شهاب الملة والدين مولانا الشيخ احمد الفالوجى ، شيخ رواق السادة الشوام المجاورين بالجامع الازهر ـ الشافعى عين اعيان اهل الافادة والتدريس بالجامع الازهر (١٦) و « الشيخ شهاب الدين احمد بن المرحوم الشيخ عنبر الشامى شيخ رواق السادة الشوام بالجامع الأزهر (١٧) » ، هكذا نرى ان الذى يتولى مشيخة رواق السادة الشوام ، كان ولابد ان يكون شاميا ، ومشتغلا بالتدريس فى الأزهر ، حتى يستطيع أن يشرف على المجاورين (طلاب) الشوام إشرافا دقيقا وصادقا . وقد كان رواق الشوام من اكبر اروقة الأزهر جميعها وقد اوقف عليه بعض الأمراء المماليك ، منذ عصر السلطان قايتباى كثيرا من الأوقاف وقد كان العلماء الشوام فريقين ، احدهما : ولد ونشا وتعلم فى مصر ولكنه ظل يحتفظ بنسبه إلى بلاد الشام ، مثل إبراهيم بن ابى بكر بن اسماعيل العوفى .

كان من اعيان الافاضل له اليد الطولى فى الفرائض والحساب ، مع التبحر فى الفقه وغيره من العلوم الدينية ، وهو حنبلى المذهب ، نشا بمصر واخذ الفقه عن العلامة منصور البهوتى ، والحديث عن جمع من شيوخ الأزهر ، واجازه غالب شيوخه والف مؤلفات منها شرح على منتهى الارادات فى فقه مذهبه فى مجلدات ، ومناسك الحج فى مجلدين ، ورسائل كثيرة فى الفرائض والحساب ، وكان لطيف المذاكرة،حسن المحاضرة ، قوى الفكرة ، واسع العقل ، وكان فيه رياسة وحشمة موفورة (١٨) ، ومروءة .

والفريق الثانى من هؤلاء العلماء ، كان يأتى الى مصر للالتقاء بعلماء أزهرها ، والأخذ عنهم فى بعض العلوم وإجازتهم . وكانت مدة اقامتهم فيها لفترات قد تطول وقد تقصر ، حسب قدراتهم التى تمكنهم من الحصول على الاجازة المطلوبة مثل غرس الدين **محمد بن احمد الازدي الخليلي ١٦٤٧ و ياسين بن**محمد **الخليلي كذلك المتوفى** ١٦٧٥ م ، والعلامة شمس الدين حامد الصفدى الشافعى المتوفى ١٥٨٢» وغيرهم كثير ، واحيانا كان نفر من هذا الفريق يشتغل الى جانب طلبة العلم ببعض الأمور التى تمكنه من كسب عيشه مثل ابراهيم بن علي بن احمد بن علي السعدى الذى كان « ياكل من كسب يمينه ، ويتردد الى القاهرة للتجارة ولقي بها الجلة من العلماء مثل النجم الغيطى صاحب المعراج والاستاذ محمد البكرى والشمس الرملى والسنوفرى واخذ عنهم » (١٩) بل ان البعض من هذا الفريق اثر الاستقرار بمصر والاشتغال ببعض الامور التى تدر عليهم بعض الرزق الذى يكفى لمعاشهم ، مثل كتابة الحجج فى المحكمة الشرعية وغير تلك حتى أن بعضهم استطاع التدرج فى السلك القضائى حتى تولوا نيابة القضاء فى مصر مثل القاضي السيد نجم الدين بن صالح بن احمد بن محمد بن صالح بن عبد الله التمرتاشى الغزى الحنفى الذى ذكر عنه الجبرتى انه تولى « نيابة ابيار بالمنوفية ، ومرسومات بنظارات اوقاف ، فاقام بابيار قاضيا نيفا وعشرين سنة ، وهو يشترى نيابتها كل دور ، وابتدع فيها الكشف على الأوقاف القديمة والمساجد الخربة التى بالولاية وحساب الواضعين ايديهم على ارزاقها ، واطيانها حتى جمع من ذلك اموالا ، ثم رجع الى مصر (القاهرة) واشترى دارا عظيمة بدرب قرمز بين القصرين ، واشترى المماليك والجوارى ، وترونق حاله ، واشتهر امره وركب الخيول المسومة وصار من عداد الوجهاء ، ثم تولى **نيابة القضاء بمصر فى سنة (١١٨٦هـ / ١٧٧٢م) ، فازدادت وجاهته وانتشر صيته وابتكر اموراً منها تحليف الشهود ، وغير ذلك ووصل به الامر إلى حد انه جعل مملوكه على افندي يتولى نيابات القضاء في المحلة ومنوف وغيرها . (٢٠) اما الفريق**

العمامة المتمرّدة: تتجه إلى الاعتدال ومهادنة الاحتلال!

بقلم: فتحي رضوان

يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه (زعماء الاصلاح) عن الشيخ محمد عبده ، ماسبق أن نقلناه فى الفصل الأول من صفحة ٣٠٩ :

« لو حكمنا منطق الواقع فيما سيحدث لقلنا إن الشيخ محمد عبده لا ينغمس فى هذه الثورة العرابية مطلقا لا فى اولها ولا في اخرها لأنه لا يؤمن بالحكم النيابي السريع ، ولأنه يشايع رياض ، ولأنه لا يرضى أن تكون الثورة بيد العسكريين ، ولأنه يكره عرابي ... » .

فالشيخ محمد عبده ، وجد موانع تحول بينه وبين الانضمام إلى الثورة ومشايعتها ، ومع ذلك فان الشيخ انضم إلى الثورة ، وتحمس لها ، وشارك في كثير من مواقفها ، بحرارة تكاد تكون حرارة الايمان بها وبمبادئها واهدافها ، بل وبوجوبها وباستحالة البعد عنها ، او التخلف عن موكبها . ثم مالبث ان عاد إلى منطق لانه ولانه ولانه ولانه ، اي منطق الموانع الأربعة ، فأصبح من خصومها ، خرج عليها ، ولعنها ، واستبرا من تحمل نتائجها .

فما هو تعليلذلك الانتقال من اليسار إلى اليمين ، او من النقيض إلى النقيض ؟ .

هل يكون الشيخ ممن تجرفهم الاحداث ، وتدفعهم فى طريقها اندفاعات الجماهير ؟ ام يكون حسب الأمر ، عندما اندلعت الثورة ، فهداه حسابه إلى انه امر حتمي ، قضت به ظروف شرف الامة والدفاع عن وجودها ، ومال إلى الامل في نجاحها ، فلما انكشف غبار الثورة ، عن زعماء ضعفاء ، لا يحسنون التدبير ، وعن عمل طائش لا يؤدي إلى الخير ، اسف على ماكان منه ، وأعلن موقفه من الثورة فى غير تحفظ او احتياط .

يعني أن الشيخ لم يكن وصوليا انتهازيا ، بدت له الثورة ناجحة فانضم إليها ، ثم فشلت ، فاعلن بكل وسيلة أنه ليس بسبيلها ، التماسا للنجاة من عقاب الفاشلين الذين كانوا جديرين بان يرفعوا إلى منصات الحكم فوق رءوس الجماهير ، لو كتب لهم النجاح . لانه بالطبيعة لا يثور، فاسلوبه يعتمد على التفكير ، وحسن التدبير والأناة وطول التامل ، وعمله هو التطور الهاديء ، وإن كان تطوراً حاسماً وحازماً ، يعرف غايته ويذهب إليها بلا تردد .

ويقول أحمد امين في تعليل هذا الانتقال من جانب الشيخ : فالشيخ محمد عبده رأى كل الامه فى ناحية الثورة ، واشترك فيها المسلمون والاقباط واليهود ، ولم يشذ عنها إلا احد رجلين .. رجل لا في العير ولا النفير ، وهو لابد ان يكون في العير والنفير ، ورجل انضم إلى الخديوي توفيق يشايعه . وتوفيق باشا فى نظر الشيخ محمد عبده لا يصح ان يكون احد بجانبه بعد أن استعان بالدول الاجنبية لاخماد الثورة ، ومالا الاجانب على قومه . اضف إلى ذلك أن الأمر اخرا لم يصبح امر حزب امام حزب ، بل امر مصر امام الانجليز ، فلابد أن يكون مع قومـه .

والراي عندي ، أن الثورة هي تيار جارف ، لايدع لأصحاب الرأي ان يترووا ، ولا للمفكرين ان يفكروا ، بل حتى ولا للجبناء ان يجبنوا ، ولا لأصحاب المصالح أن يتفقوا على ان تتعرض مصالحهم للبوار . ولبس سر شدة دفع الثورة للناس ، انها تيار عنيف ، لا يدري احد من اين يصدر ، بل لانها تيار ينبعث من نفوس الناس ، اي من اعماق لا شعورهم ، ومن باطن المضمر المكبوت من امانيهم ، ومخاوفهم ، فهم إذ تتدفق جموع الناس ، يتقدمهم ـ كما يقول جوستاف لوبون في كتابه (روح الثورات) ـ ذواتهم ، فهم يهتفون وكانهم منومون ، ويحطمون الأبواب ، ويتسلقون الاسوار ، وقد يستبيحون حرمات البيوت ، ودماء النساء وارواح الأطفال ، وهم مسيرون بقوى مجهولة ، فاذا هدات الثورة ، وتباطا دفعها عاد كل انسان إلى أصله ، وثاب كل فرد إلى طبيعته . فاذا قيل للذين شاركوا في التحطيم والاجتياح ، انهم فعلوا كذا وكيت ، انكروا

صادقين ان شيئا مما ينسب إليهم ، قد صدر عنهم .

ولو قرات قوائم زعماء ثورة ١٩١٩ ، لوجدت ضمنها عددا كبيرا جدا من باشوات مصر الخليقين بان يتجنبوا تيار الثورة ، وأن يقفوا على جانب طريقها - يشاهدون اندفاعاتها . ويرون تدفق امواجها وارتفاعها وهم هادئون ، يسخرون ممن قادوها ، ومما فعلته .

ولاشك في ان الشيخ محمد عبده ككل المصريين من العامة والخاصة كان في اطواء نفسه شيء من الميل إلى الثورة ، والفرح بمقدمها ، والسرور بالجري في مضمارها ، والهتاف بشعارها ، والمبالغة في رفع لوائها ، فهو ولا شك يكره زحف الاجانب وتدخلهم في شئون مصر ، واقامتهم صندوق الدين الدولي . وهو يكره وزارة نوبار التى ضمت اثنين من الوزراء : ريفرز ولسون الانجليزي ، والمسيو دي بلينيير الفرنسى .

وكان العنف يرضيه ويريح اعصابه ، فلما هدات حماسة الجماهير ، تحت وطاة الهزيمة ، عاد كالاف غيره من الناس ، إلى مراجعة كل ما قيل وفعل ، وانتابه من الحسرة والكابة ، ما سجله وهو فى السجن في قصيدة طويلة .

ولكن ماذا كان دور (الشيخ) فى هذه الفترة ؟

لقد كان له دور التحضير للثورة ككل المفكرين ، الذين يقيض الله لهم الوجود قبل عصور الهياج والانقلاب . يحضرون الوقود لنارها ويهيئون الثقاب لاشتعالها ، بما يكتبون ويقولون . وقد تحدث الشيخ فى الصحف ، ومع الذين يرتادون داره ، ويسمعون كلامه ، فملاهم سخطا على الحال السيىء الذي كان قائما قبل سنة ١٨٨٢ ، وزاد من إحساسهم بوجود الاصلاح الشامل ، وكان الناس يرونه في مجلس رياض باشا رئيس الوزراء ، وفى مجلس على مبارك ، ومحمد سلطان الذي اختير رئيسا لأول مجلس نيابي فى الثورة ، وفى مجلس عرابى نفسه بل وفى سراى الخديو حيث كان يتردد على هذا المجلس . وكان في كل هذه الأماكن يتظلم ، ويندد ، ويقترح ، ويجادل الذين يخالفونه ، وهو حسن الحديث ، حلو العبارة ، مؤثر جذاب وإن لم يكن خطيبا . ولاشك انه دعا إلى الثورة ، صراحة من حيث لا يدري ، ولا يحتسب ، ولعلنا لو حذفنا ما قال ، وما كتب في فترة الحمل الثوري ، لفقدت الثورة العرابية احد اكبر دوافعها .

يشبه زميله فى التحضير والاعداد ، ونعني به البطل الملهب والملهم (عبد الله النديم) .. مع فارق فى الطبيعتين ، وخلاف في المنهجين ، محمد عبده ، يتسلل إلى النفوس ، ويعرف كيف تكون مداخل القلوب ، اما عبد الله النديم ، فيهجم على ماهو مستقر ومعترف بشرعيته ، فما يزال يضرب في اسسه بالفاس والبلطة حتى يتفتت وينهار ويتهاوى .

وفشلت الثورة ، وقبض على محمد عبده وزج به إلى السجن ، ليقضي فيه ثلاثة اشهر ، وتعتبر فى حساب المجاهدين والثوار شيئا كثيرا ، وهي إذا قيست بما كابده النديم من السجن والهرب والتشرد ، والجوع والخوف ، لكانت جزاء خفيفا ، ولكن الشيخ ، اهتز كثيرا للسجن ، وشكا طويلا من محنته ، وهو موقف بلا شبهة ، يكشف عن حقيقة معدنه ، فليس بالخوار ، ولا الفرار ، ولكنه ايضا ليس بالجلد الذي يقوى للشدائد ، ويصبر عليها . وليس السجن ، واحتمال العذاب ديدنه ، مثله فى ذلك مثل تلميذه سعد زغلول الذى لم يكن له دور يذكر فى ثورة عرابي ، وحين زج به الى السجن ، كان ذلك من قبيل اختلاف الخصوم ، ودس الكائدين ، لا لنشاط مارسه ، ولا لعمل يغضب السلطات قارفه .

وحكم على (الشيخ) بالنفي ثلاث سنوات ، وكان هذا النفي خليقا بان يكون شيئا من قبيل تغيير الجو ، وانتجاع الصحة ، فقد قصد إلى بيروت واقام فيها ، لا ثلاث سنوات النفي المحكوم بها بل ست سنوات ، بدا فيها الشيخ على حقيقته - عالم يدرس - وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره . وفي سنة ١٨٨٣ ، اي وهو فى عنفوان شبابه حين تبلغ رغبة الشاب فى الحركة وميله إليها ، وحرصه على المصادمة والاثارة اقصى الحد .

ولكنه لو ترك لشانه ، لما اثار ، ولا حرض ولا كتب شيئا يغضب اصحاب النفوذ ، وقد فعل ذلك ، بعد ان عاد من باريس عقب دعوة من استاذه جمال الدين الافغاني .

الشيخ في باريس

دعاه جمال الدين الافغاني إلى باريس ، فلبى وهو يكاد يطير ، فهو فى بيروت ، مهما كانت الطمانينة والراحة ، مشوق إلى استاذه من جهة ، وبه ميل - وإن كان ضعيفا - إلى استئناف الحركة خضوعا لاحكام السن ، وإرضاء لطموح الشباب .

سافر الشيخ إلى باريس ، فوجد هناك اعز ما يحرص عليه ، واجمل ما يهواه . فهو كاتب ، وهو شديد الشغف بالصحافة ، وهو لا يمل الدعوة إلى إصلاح حال المسلمين والعرب ، وهو داعية إلى النقد . وقد وجد استاذه يحدثه عن إصدار مجلة ، اسمها (العروة الوثقى) ، وطلب منه ان يحررها . ولا باس فيما إذا كانت الجريدة ، لا تجد مقرا لها إلا حجرة فى سطح منزل .

واثرت عليه باريس تاثيرا عظيما ، بل ان تاثيرها عليه كان اشد من تاثيرها على مصطفى كامل الذي قصدها واقام فيها واتخذها مقرا لحملاته ضد الاستعمار ابتداء من سنة ١٨٩٣ حتى سنة وفاته ١٩٠٨ . وقد ظهر هذا الاثر ماديا على (الشيخ) فقد تخفف من العمامة ، ولبس الطربوش ، واطال شعره كما كان يفعل السيد جمال الدين الافغانى ، وكما راى كتاب باريس ، وفنانيها ، الامر الذى قلده

فيما بعد محمود مختار أول مثال مصري فاصبح له شعر يسدل على ظهره وزاد من سرور (الشيخ) ان (جمال الدين) كان يمده بالافكار ، ويرسم له الخطط فكان يتلقفها ، فيصوغها بقلمه ، على وجه يزيدها جمالا وبهاء وتاثيرا ، فذاعت المجلة فى العالم العربى ، والعالم الاسلامى ، ودخلت الى مصر ، متسللة بعد ان منع (نوبار) رئيس الوزراء دخولها الى البلاد ، وكان منعها واضطهادها سببا فى زيادة تاثيرها ، وشدة انجذاب الراى العام اليها ، وحرصهم على اقتنائها وتداولها سرا .

واحس محمد عبده انه يخاطب العالم الاسلامى كله . حقيقة كان اسم مصر ، وطيفها فى قلبه وخياله ، وهو يكتب ، ولكنه كان يرى العالم الاسلامى كله فى مصر هذه . ويرى ان إقالة عثرتها وتحرير تربتها وتطهير سمعتها، تحرير للهند والسند ، ولايران والافغان ، ولكن الاضطهاد الذى سلطته دوائر الاستعمار وفى مقدمتها بريطانيا ، قصف قلم الشيخ محمد وعقد لسان (السيد) جمال الدين ، وتوقفت مجلة (العروة الوثقى) بعد ثمانية اشهر ، صدر خلالها ثمانية عشر عدداً ، ولكنها بقيت الى اليوم ، رصيدا للثورة العربية الاسلامية ، وتراثا لأدب النضال والمقاومة وعلما للساخطين المتمردين .

وعاد الشيخ الى بيروت ، وبعد عن جمال الدين ، فبدا فى صورته الحقيقية اشتغل بالتاليف ، فشرح (نهج البلاغة) ، ومقامات بديع الزمان ، وراح يشرح القران ويفسره فى مسجدين من مساجد بيروت ثم درس فى المدرسة السلطانية ، فارتقت المدرسة ، وارتفع مستوى التعليم فيها ، واصبح واسطة العقد فى حركة ادبية وفكرية شملت بيروت كلها ، وتجاوزتها الى الشام ، وبلغت آثارها مصر ، ونواحى عديدة فى العالم الاسلامى ، وانتهز فرصة صدور قانون من سلطان تركيا ، قصد الى اصلاح التعليم فى المدارس الدينية ، فوضع تقريرين عن اصلاح هذا التعليم رفع احدهما الى شيخ الاسلام فى تركيا ، كما كتب تقريراً لوالى سوريا بين فيه سبيل اصلاح الامور ، وكانت قد تردت الى اسوا حال ، من جراء ضعف الحكومة ، وكثرة المدارس التبشيرية التى قسمت البلاد ، ووزعتها على الطوائف والمذاهب التى تسندها وتعززها اوروبا .

وعاد الى مصر ، بفضل وساطة الاميرة نازلى ، وكانت على صلة طيبة باللورد كرومر معتمد الاحتلال البريطانى . وقد كانت عودته الى وطنه بغير هذا السبيل ، مستحيلة ، إذ ان الخديو وصله سوء راى الشيخ فيه ، فنقم عليه واصر على استبعاده عن مصر ، ولكن كرومر ، ضغط على الخديو ، فارغمه على ان يأذن بعودة (الشيخ) الى مصر فكان ذلك عربون مودة وحسن علاقة بين الشيخ وبين اللورد كرومر ، وقد بقيت هذه العلاقة ثابتة ومستقرة حتى توفى الشيخ الى رحمة الله فى ١١ من يوليه سنة ١٩٠٥ .

ولقد افسدت هذه العلاقة ، صلة محمد عبده ، بالسيد جمال حتى ارسل اليه يعنفه فى شدة . كما افسدت علاقة محمد عبده بمصطفى كامل ، وبالوطنيين كافة ، ويروى الشيخ مصطفى عبد الرازق انه لاحظ فى احد الاجتماعات الكبيرة ، انه حينما ذكر اسمه ، امسك الحاضرون عن التصفيق وكانوا يصفقون لدى ذكر كل زعيم من زعماء الوطنية او الثقافة .

ولا شك ان من اسباب سـوء ظـن المصريين بالشيخ محمد عبده فى عهدي الخديو عباس والزعيم مصطفى كامل ، حسن صلته باللورد كرومر الذي كان رمزا للاحتلال ، والذي كان شديد الوطأة في مطاردة الحركة الوطنية ومخاصمة زعمائها وكان الخديو عباس قادرا على ان يغذي الحملة ضد محمد عبده ، ولا سيما حينما كان الخديوي خصما لكرومر ، وعدوا للاحتلال مما قربه الى قلب الشعب ، ونفره من كل من يعاديه او يخالفه ، فقد خاصم الشيخ فى ذلك الوقت شيوخ الازهر المحافظين ، لما ذاع من آرائه فى إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والدراسة الدينية فى المدارس المدنية وإدارة الأوقاف ، وقد اسرف خصوم الشيخ فى مهاجمته والحملة عليه واستغلوا بعض فتاويه منها فتوى لأحد المسلمين فى جنوب افريقيا بعث يسال ، هل يجوز للمسلمين المقيمين فى السنغال ان ياكلوا من لحم بقرة تضرب بالبلطة حتى تضعف ثم تذبح ، وقد افتى الشيخ بحل اكل هذا اللحم ، فهاج خصومه ، والبوا عليه الشعب ، واتهموه بالمروق من الدين ، ولفقوا صورا له تضم جماعة من الافرنج يلبسون القبعات ومعهم سيدات اجنبيات سافرات .

ولاشك فى ان الحملة على (محمد عبده) كانت مغرضة ، وان اكثر ما دعا اليه فى شان الدين او الازهر او اللغة العربية او العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى دنيا المسلمين ، صلاح لا فساد فيه ، ولا عيب . ولكن العيب الذى تورط فيه الشيخ ، واسرف ، والذى يؤاخذ عليه ، بلا تحامل ولا إدعاء ، هو حسن ثقته بالانجليز ، وعلى راسهم كرومر ، واحتماؤه بنفوذ هذا الاخير فى حربه مع الخديو عباس . ثم استدراجه بعد ذلك الى محاربة الحركة الوطنية ، وعلى راسها مصطفى كامل ، والسخرية من مبادىء هذه الحركة ، والهزء بها ، الامر الذى اصبح ديدن جماعة من اغنياء واعيان ووزراء المصريين الذين الفوا حزب الامة ، ومالوا ميلا واضحا لسياسة بريطانيا ، ودافعوا عن منهج عميدها فى إدارة البلاد ، واشادوا بما اشاعه من عدل ، وما حققه من خير . وقد كان كل ذلك ، خطا فى خطا ، فكرومر لم يصلح شيئا فقد حارب مجانية التعليم ، بعد ان كانت هذه المجانية فى عهد الخديو اسماعيل بفضل جهود علي مبارك ووطنيته ، شاملة لدرجات التعليم كلها ، وقد افاد منها ابناء الفلاحين وخرج من صفوفهم امثال علي مبارك وعبد الله فكرى وصالح مجدى وابراهيم اللقانى ..

اما السياسة المالية التى كانت جوهر فكر السياسة البريطانية فكانت وبالا على مصر ، افقرت الخزانة المصرية لاعتمادها على سـنـدات الخزانـة البريطانيـــة وكوبوناتها التى كانت تتعرض للهبوط ، ولا تدر دخلا كبيرا ، مع مطاردة كل مشروع مصري ولاسيما إذا كان ذا صلة بانشاء الصناعة فيها . فوقوف محمد عبده مع عميد البريطانيين ، كان يخالف كل ما دعا اليه فى مجال الدين او الوطنية ، وكان انصاره يعلنون عندما اشيع عزل الشيخ محمد عبده من منصب الافتاء ان كرومر اعلن ان الشيخ باق فى منصبه ما بقي الاحتلال البريطانى ، وكان تلاميذ الشيخ واعوانه يغيظون الوطنيين بترديد هذه المقولة المرذولة لا يدركون ما فيها من جرح للشعور الوطنى وإهانة للعاطفة القومية .

ولقد خرج الشيخ من كل محاولاته مغفر اليدين ، لم يحقق للازهر ولا للفكرة الاسلامية ، ولا للغة العربية ، شيئا مما تاق اليه ، وتمناه ، ولم تنفعه ممالاته لكرومر ، وحسب عليه طعنه فى الحركة الوطنية ، وبعده عن جمال الدين ، وكرهه لمصطفى كامل .

فتحى رضوان

> « ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطىء ، وما كلمت أحداً وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لســانه »
>
> الامان الشافعي



بقلم: حسين أحمد أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أعانني الله على شكرك إذ كتبت إلي ما كتبت ، واصلحك واصلح على يديك ، وجعلك وإيانا ممن يحتمل ثقل العلم ، وممن يقول بالحق ويعمل به وينقطع اليه ، ثم يسعى بعد ذلك الى إيصاله الى أهله دون سواهم ، مؤثراً إياه على ما عداه ، ومحتملا فى سبيله ما شاء الله ان يمتحن عبده به .

أما بعد :

فانى قد عرفتك منذ ايام الحداثة ، تصفحت اخلاقك وتاملت شيمك ، ووزنتك فعرفت مقدارك ، وقومتك فعلمت قيمتك . وقد زادتنى المؤانسة فيك رغبة ، وطول العشرة لك محبة ، وامتحانى افاعيلك تفضيلا . فلا غرو ان اجزع إذ اشتم فى رسالتك الاخيرة غضبا وموجدة اثارتهما فيك مقالاتى فى الدين ، او بالاحري منهاجى فى هذه المقالات . غير انى زعيم لك بأن هذا الغضب منك ليس فى طبقة ذنبى ، ولا هذه المطالبة من شكل الجريمة . واعلم بعد هذا كله انك امرؤ متى راى الزلل غفره وسعى الى تقويم صاحبه ، ومتى راى صوابا وعاه ، واعلنه ورعاه . وقد سمعتك مرارا تردد قول الشافعى رضى الله عنه «ما ناظرت احدا قط فاحببت ان يخطىء ، وما كلمت احداً وانا ابالى ان يبين الله الحق على لسانى او على لسانه» . فلتاذن لي إذن ان اسطر هنا ردى ودفاعى ، وان ابسط امام ناظريك حقيقة عرفتها بالتجربة والابتلاء ، لا بالدرس والنظر فى الكتب . ولتعلم يقيناً ان دفاعى ليس عن انفة من ان اقر بالخطا . فقد يعترينى فى كتاباتى من الغلط ما يعترى الأب فى ابنه . ولست كمناظرى زماننا هذا ممن تسود وجوههم إذا افحموا واتضح الحق على لسان

خصومهم . فان احسنت فى إيراد حجتى فان احسانى صغير فى جنب إحسانك ، إذ كنت المثير له من مراقبه ، والباعث له من مراقده . فلذلك صار اوفر النصيبين لك ، وامتن السببين مضافا إليك .

قماط المومياء

تقول ـ تولاك الله وحفظك وجعلك من الفائزين برحمته ـ إنك قد لمست فى مقالاتى تهيبا ووجلا من المكاشفة بالحق الصراح ، ومداراة وتحايلا إن كانا يخدمان اغراض رجال السياسة والعهادة (١) ، فهما يقينا ليسا مما يتحلى به امرؤ قد اختار الاصلاح الدينى له هدفا . ثم همست فى اذنى انك قد احطت بالكثير من مواقفى وارائى من خلال أحاديث دارت على انفراد بينك وبينى فى الدين ، فاذا هذه المواقف تبدو عند تسطيرها للنشر وقد تقنعت بالف قناع ، وإذا هذه الآراء وقد اقدمت على إيصالها الى جمهور المؤمنين تظهر مقمطة فى قماط المومياء ، تقدم رجلا وتؤخر اخرى ، وكانما هى تسعى فى ان واحد الى ان تكشف عن نفسها وتستتر ، وتسفر عن وجهها وتحتجب . وذكرت ـ ابقاك الله ـ ان عرضى لهذه الاراء وإن لم يرق الى مرتبة الكذب والخديعة ، تعوزه الاستقامة الصريحة التى يتوخاها صاحب الدعوة ، ويفتقر الى اللهب الذى يتوهج فى كتابات المصلح الثائر .

وقد اذنت لنفسى هنا أن اجعل من همستك صيحة ، وأن اعلن ما اسررت به إلىّ على رؤوس الاشهاد . فعساى الا اكون قد اخطات فى تفسيرى للهمس على انه مراعاة منك لدواعى المودة ووشائج الاخاء ، وحفاظا من جانبك على سمعتى من ان يتطرق اليها ما اكره . وهو تفسير يضع امر الاعلان او الكتمان فى يدى ، ويجعل منى صاحب الخيار . وإنى لاحمد لك إشفاقك وشدة عنايتك وفرط اكتراثك . غير انى اخترت الاعلان سبيلا ثقة منى فى طيب نواياى ، وعن اعتقاد راسخ باننى لست ممن يقولون الزور ويتقربون بالباطل . اعاذنا الله وإياك من الامرين . واسعدنا جميعا بطاعته ورضاه .

ثم إنك قلت فى كتابك : إن الهدم احيانا يفوق البناء فى القيمة ، وإن التشكك له ما للايمان من اهمية ونفع . إذ كيف يمكن للمرء ان يقبل الحق عقيدة إن كان عقله وقلبه لايزالان قانعين بالكثير من البهتان والزور ؟ وقلت إنه لا سبيل الى تطهير الانام ، إلا بتطهير دين العامة مما علق به من اوهام ، وبتنقية العقيدة مما شابها وخالطها من ادران . فالحكمة كالعروس ، تريد البيت خاليا . والقلب إذا فرغ من المذموم امتلا بالمحمود ، والارض إذا نقيت من الحشائش نبت فيها صنوف الزرع والرياحين ، وإن هى لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذاك .

وقلت إنه إن شاء امرؤ ان يضطلع بمهمة إرشاد الناس الى الحق ، كان عليه بادىء ذى بدء ان يتصدى لهذه الشوائب فى عقيدتهم بالسحق والمحق ، وإزالة ما فى الارض التى ينوى البناء عليها من قمام . فان صاح صائح بان من القسوة اجتثاث عقائد كاذبة تعلقت بها قلوب العامة واحبتها ، واراحت نفوسهم واسعدتها ، قلنا بل هى قسوة نبعها المحبة ، وشدة باطنها الرحمة ، وعسى الله أن يغفر لنا بعد هذا ما تسببنا فيه من إيلام . وتساءلت عن اى الامرين إذن اولى بان نبادره بالعناية : إثارة الشك ام غرس اليقين ، وتطهير الموقع ام إشادة الصرح ؟

أوهام العامة

ومضيت فسردت فى رسالتك حشدا من الأمثلة على أوهام العامة : كتقديس الأولياء الذى يناقض عقيدة التوحيد ، والاسترشاد باحاديث قد نسبت كذبا الى الرسول الكريم ، وتسمية كل تطوير يهدف الى مسايرة احتياجات العصر بدعة ، وخلعهم سمت الاسلام على التصوف وغير التصوف من مذاهب وفرق ، وإقدام البعض فى جراة عظيمة على تفسير القرآن تفسيرا لا نخرج منه بغير حقيقة واحدة : انهم قوم يرون ان القرآن لا يعنى ما يقول ، وإنما هو كتاب يقول ما يعنون ! وذهبت الى ان هذه الترهات وغيرها فى حاجة الى معاول لا تهدا ، وتكاتف من صفوة المفكرين المؤمنين وجهد من جانبهم لا يعرف الكلالة او الملل ، وصراحة لا يتطرق اليها الوجل ، وصرامة لا يعتورها إشفاق او مداراة .

وقد عرضت كل هذا فى بلاغة لا يانف بليغ ان يقصر دونها ، وضمنت رسالتك علما لا يخشع عالم ان ينهل منه . فان كانت الحدة هى طابع رسالتك فهى حدة لا تشين مادام الدافع إليها هو الاخلاص للدين . وهى بعد هذا حدة وراءها ما يفسرها ، الا وهو الغضب إذ كانت تلك الاوهام والخرافات التى تحدثت عنها من اضخم العراقيل التى عاقت ولاتزال تعوق امة المسلمين عن التقدم وعن فهمها لحاضرها ، وتشلها عن اللحاق بسائر الامم فى مجالات التمدين وميادين العمران . ثم اتسع نطاق هذه الحدة حتى مسنى لهيبها ومس من وصفتهم بامثالى من المفضوحين فى الدنيا والاخرة ، واسميتنا باصحاب الحلول الوسط ، والنازلين منزلة بين منزلتين ، ووصفتنا بصفات اخرى كثيرة ، اخفها المتوانين المتوقفين المترقبين المتخوفين . وقلت إننا نريد ان نجهر بما نعلم ، ثم يضطرنا الخوف الى ان نسره ، واننا فى مقالاتنا إنما نحاور الحمقى ، وان العاقل يضل عقله يقينا عند محاورة الاحمق ، وتمثلت ببيت البحترى :

عَلىّ نَحْتُ القوافى من مقاطِعِها
وَمَا علىّ إذا لَمْ تَفْهَم البَقَــــرُ

ثم ختمت رسالتك بقولك إن العلم ينهى اهله ان يمنعوه اهله . وكما انه لا ينبغى للجاهل ان يسكت على جهله ، فانه لا ينبغى للعالم ان يسكت على علمه . واستشهدت بحديث نبينا عليه الصلاة والسلام : «ما اتى الله عالما علما إلا واخذ عليه من الميثاق ما اخذ على النبيين ان يبينوه للناس ولا يكتموه» . فان كان هناك من العلماء من قنع بان يسخر سرا من اوهام العامة ، فعليه جانب من تبعة انتشارها إذا لزم إزاءها الصمت . وكيف

خصومهم . فان احسنت فى إيراد حجتى فان احسانى صغير فى جنب إحسانك ، إذ كنت المثير له من مراقبه ، والباعث له من مراقده . فلذلك صار اوفر النصيبين لك ، وامتن السببين مضافا إليك .

قماط المومياء

تقول ـ تولاك الله وحفظك وجعلك من الفائزين برحمته ـ إنك قد لمست فى مقالاتى تهيبا ووجلا من المكاشفة بالحق الصراح ، ومداراة وتحايلا إن كانا يخدمان اغراض رجال السياسة والعهادة (١) ، فهما يقينا ليسا مما يتحلى به امرؤ قد اختار الاصلاح الدينى له هدفا . ثم هسمت فى اذنى انك قد احطت بالكثير من مواقفى وارائى من خلال احاديث دارت على انفراد بينك وبينى فى الدين ، فاذا هذه المواقف تبدو عند تسطيرها للنشر وقد تقنعت بالف قناع ، واذا هذه الاراء وقد اقدمت على إيصالها الى جمهور المؤمنين تظهر مقمطة فى قماط المومياء ، تقدم رجلا وتؤخر اخرى ، وكانما هى تسعى فى ان واحد الى ان تكشف عن نفسها وتستتر ، وتسفر عن وجهها وتحتجب . وذكرت ـ ابقاك الله ـ ان عرضى لهذه الاراء وإن لم يرق الى مرتبة الكذب والخديعة ، تعوزه الاستقامة الصريحة التى يتوخاها صاحب الدعوة ، ويفتقر الى اللهب الذى يتوهج فى كتابات المصلح الثائر .

وقد اذنت لنفسى هنا أن اجعل من همستك صيحة ، وأن اعلن ما اسررت به إلىّ على رؤوس الأشهاد . فعساى ألا اكون قد اخطأت فى تفسيرى للهمس على انه مراعاة منك لدواعى المودة ووشائج الاخاء ، وحفاظا من جانبك على سمعتى من أن يتطرق اليها ما اكره . وهو تفسير يضع امر الاعلان او الكتمان فى يدى ، ويجعل منى صاحب الخيار . وإنى لاحمد لك إشفاقك وشدة عنايتك وفرط اكتراثك . غير انى اخترت الاعلان سبيلا ثقة منى فى طيب نواياى ، وعن اعتقاد راسخ باننى لست ممن يقولون الزور ويتقربون بالباطل . أعاذنا الله وإياك من الأمرين ، واسعدنا جميعاً بطاعته ورضاه .

ثم إنك قلت فى كتابك : إن الهدم احيانا يفوق البناء فى القيمة ، وإن التشكك له ما للايمان من اهمية ونفع . إذ كيف يمكن للمرء ان يقبل الحق عقيدة إن كان عقله وقلبه لايزالان قانعين بالكثير من البهتان والزور ؟ وقلت إنه لا سبيل الى تطهير الأنام ، إلا بتطهير دين العامة مما علق به من اوهام ، وبتنقية العقيدة مما شابها وخالطها من ادران . فالحكمة كالعروس ، تريد البيت خاليا . والقلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود ، والأرض إذا نقيت من الحشائش نبت فيها صنوف الزرع والرياحين ، وإن هى لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذاك .

وقلت إنه إن شاء امرؤ أن يضطلع بمهمة إرشاد الناس الى الحق ، كان عليه بادىء ذى بدء أن يتصدى لهذه الشوائب فى عقيدتهم بالسحق والمحق ، وإزالة ما فى الارض التى ينوى البناء عليها من قمام . فان صاح صائح بان من القسوة اجتثاث عقائد كاذبة تعلقت بها قلوب العامة واحبتها ، وارتاحت نفوسهم واسعدتها ، قلنا بل هى قسوة نبعها المحبة ، وشدة باطنها الرحمة ، وعسى الله أن يغفر لنا بعد هذا ما تسببنا فيه من إيلام . وتساءلت عن اى الأمرين إذن أولى بان نبادره بالعناية : إثارة الشك أم غرس اليقين ، وتطهير الموقع أم إشادة الصرح ؟

أوهام العامة

ومضيت فسردت فى رسالتك حشدا من الأمثلة على أوهام العامة : كتقديس الأولياء الذى يناقض عقيدة التوحيد ، والاسترشاد باحاديث قد نسبت كذبا الى الرسول الكريم ، وتسمية كل تطوير يهدف الى مسايرة احتياجات العصر بدعة ، وخلعهم سمت الاسلام على التصوف وغير التصوف من مذاهب وفرق ، وإقدام البعض فى جراة عظيمة على تفسير القران تفسيرا لا نخرج منه بغير حقيقة واحدة : انهم قوم يرون أن القران لا يعنى ما يقول ، وإنما هو كتاب يقول ما يعنون ؛ وذهبت الى ان هذه الترهات وغيرها فى حاجة الى معاول لا تهدأ ، وتكاتف من صفوة المفكرين المؤمنين وجهد من جانبهم لا يعرف الكلالة او الملل ، وصراحة لا يتطرق اليها الوجل ، وصرامة لا يعتورها إشفاق او مداراة .

وقد عرضت كل هذا فى بلاغة لا يانف بليغ أن يقصر دونها ، وضمنت رسالتك علما لا يخشع عالم أن ينهل منه . فان كانت الحدة هى طابع رسالتك فهى حدة لا تشين مادام الدافع إليها هو الاخلاص للدين . وهى بعد هذا حدة وراءها ما يفسرها ، الا وهو الغضب إذ كانت تلك الأوهام والخرافات التى تحدثت عنها من اضخم العراقيل التى عاقت ولاتزال تعوق أمة المسلمين عن التقدم وعن فهمها لحاضرها ، وتشلها عن اللحاق بسائر الامم فى مجالات التمدين وميادين العمران . ثم اتسع نطاق هذه الحدة حتى مسنى لهيبها ومس من وصفتهم بامثالى من المفضوحين فى الدنيا والآخرة ، واسميتنا باصحاب الحلول الوسط ، والنازلين منزلة بين منزلتين ، ووصفتنا بصفات اخرى كثيرة ، اخفها المتوانين المتوقفين المترقبين المتخوفين . وقلت إننا نريد أن نجهر بما نعلم ، ثم يضطرنا الخوف الى أن نسره ، واننا فى مقالاتنا إنما نحاور الحمقى ، وإن العاقل يضل عقله يقينا عند محاورة الأحمق . وتمثلت ببيت البحترى :

عَلَيَّ نَحْتُ القوافي من مقاطعها
وَمَا عليَّ إذا لَمْ تَفْهَم البَقَـــرُ

ثم ختمت رسالتك بقولك إن العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله . وكما انه لا ينبغى للجاهل أن يسكت على جهله ، فانه لا ينبغى للعالم أن يسكت على علمه . واستشهدت بحديث نبينا عليه الصلاة والسلام : «ما اتى الله عالما علما إلا واخذ عليه من الميثاق ما اخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه» . فان كان هناك من العلماء من قنع بان يسخر سرا من أوهام العامة ، فعليه جانب من تبعة انتشارها إذا لزم إزاءها الصمت . وكيف

يكون الصمت انفع ونفعه لا يكاد يجاوز راس صاحبه ، وبالكلام ارسل الله انبياءه لا بالصمت ؟ وتساءلت : إذا سكت العالم طلبا للسلامة والجاهل يجهل ، فمتى يتبين الحق ؟

سبيل تقويم المعوج

وقد هزتني رسالتك التي اوجزت هنا اغراضها هزا عنيفا تساقط له من قلمي هذا الرد . فان رايت في إيجازي لقوى حججك إخلالا بمعانيك فمغفرة وصفحا . وإن تبينت في ردي تقصيرا عن الغاية ، فانا المضيع دونك . وعلى اي الحالين فان فضلك اظهر ، وحظك اوفر ، لاني لم انشط لهذا الحديث إلا بك ، ولا كان اعتمادي فيه إلا عليك .

وابدا ـ جعلت فداك ـ فاقول إنني وإن لم ابلغ بعد مبلغ العلماء فلست ممن يسكت على ما يعلم ، ولا كنت يوما من طالبي السلامة . ولو كنت ممن يداهن ويطلب السلامة لما كانت حالي على ما هي عليه وعلى ما تعرف من العوز والفاقة ، ولما كنت القى في سبيل نشر مقالاتي ما القى من عنت ورهق ، مع ما اوتيت من قوة بيان . فليطمئن إذن قلبك الى ان الحقيقة لاتزال قبلة قلبي ، بيد ان التجارب التي شاء الله لي ان اخوضها قد ازالت غشاوة قاتمة كانت تجثم فوق عيني ، فاذا حيرة المراهق وعجب الابله ينقلبان الى فهم الراشد ونفاذ نظر الاريب . وإذا بي ادرك ان الحق في قلب العالم إذ هو قابع يفكر في داره ، قد يستحيل الى باطل متى راى واجبا عليه ان يخرج به إلى السوق وان ينشره بين العامة حتى يقوم المعوج من عقيدتها ، ويقوض السخيف من اوهامها .

ولاحاول الآن ان ابدد ما يعتور هذه العبارة الأخيرة من غموض ، فهو قول ليس من اليسير ان يفهم القصد منه غير من نصب نفسه لتحقيق هذه الغاية :

تقول في رسالتك إنني اشد احتفالا بالتعليم مني بالحق . غير اني زعيم لك بان الترفق والتدرج في تعليم العامة هما السبيل الاوحد الى إصلاح عقائدهم ، والاقتراب بهم من الهدف المنشود ، وان مجابهتهم دفعة واحدة بحقيقة منزهة مطهرة ، قد ازيلت منها الشوائب كافة من شانها ان تجعل الحق غير قابل لان يعلم ، وان تجعل التعليم غير صالح لان يكون طريقا الى بلوغ الحق . حينئذ يحق لنا مساءلة الداعي عن مناهجه ، وعن إغفاله ان يسال نفسه قبل ان ينبري لنشر رسالته: اكان من الاوفق ان اقبع في داري محتفظا لنفسي بما هداني إليه عقلي وحكمتي من حق مجرد ، تاركا العامة غارقة في اوهامها ام انه كان لزاما علي ان اسعى الى تقريبها منه خطوة خطوة ، اخذا سذاجتها وعمايتها في الحسبان ، مقدرا تعلقها بالمحسوسات ، ومدركا لصعوبة استيعابها لكل ما هو منزه عن الادراك .

قال الله تعالى يخاطب نبيه : «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» كما يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : «إن هذا الدين متين ، فاوغل فيه برفق ، فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى» . وقد كان الرسول نفسه اروع وارفع وانصع مثال للتاني والصبر ، واعلم الخلق بطبائع الخلق ، وارفقهم اخذا بايديهم إذ ينتقل بهم من طور الى طور ، وادراهم بمقتضيات الحكمة والسياسة ، مع التزامه دوما بالهدف الاسمى الذي يتوخاه . وقد كان يدرك على نحو لم يدركه احد قبله او بعده ، ان السياسة والكياسة لازمان لنشر الدين ، وان غرس العقيدة الجديدة لابد له من درجة فائقة من الترفق واللين . فهو لم يصدم بالحقيقة كاملة مشاعر الجاهليين ، ولا نزل الله القران عليه دفعة واحدة ليبلغه القوم المشركين ، ولا تحرج من ان يؤلف بالبذل والعطاء قلوب ضعيفي الايمان والمنافقين . وكان يعلم حق العلم انه ليس ثمة تناقض بين المعرفة الخالصة وبين مراعاة طبائع البشر حوله واحوال عيشتهم ، وان التدرج والمداراة في سبيل الهداية ليسا بالضرورة قيدين على الحق او حاجبين له ، وانه في هذا العالم المجبول على الجهل والنقص والخطيئة وسائر اوجه القصور في النفس البشرية ، لابد من وسط عدل بين نشدان الحق واحتمال النقائص ، ومن مزج المعرفة بالحكمة . كذلك فقد سمعنا المسيح عليه السلام يوصي حوارييه بان يكونوا حكماء كالحيات ، وبالا يلقوا بالدر في افواه الخنازير . ولاشك عندي في ان التاريخ لم يعرف قط نبيا واحدا كاشف العامة منذ بداية دعوته بجميع ما يعرف ، او اطلع جموع الناس على كل ما احاط به خبرا .

الخاصة والعامة

إنما كان الانبياء يعلمون قومهم ما في وسعهم تقبله واستساغته والعمل به متى بذلوا بعض الجهد ، واعملوا ما اوتوا من قدرة على التفكير ، ومارسوا قدرا من كبح جماح النفس والشهوات . أما ما عدا هذا من امور لا تدركها سوى عقول الخاصة واصفياء الله ، فقد احيطت بالرموز وغلفت بالاسرار ، واسدل بينها وبين العامة اكثف ستار . فهي امور ليس في وسع هؤلاء الانتفاع بها او الانقياد لها ، بل وقد يجرهم الخوض فيها وتناولهم إياها بغليظ اناملهم إلى ما لا يحمد عقباه او ما يعرف منتهاه . فاعلم إذن ـ هداك الله ـ ان ثمة من المعارف ما لا ينبغي لجمهور المؤمنين ان يرغبوا فيه ، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : «ولا تؤتوا السفهاء اموالكم» ، تنبيها الى ان حفظ العلم ممن قد يفسده ويضره اولى ، والى ان الظلم في إعطاء غير المستحق ليس باقل من الظلم في منع المستحق . وقال النبي عليه السلام : «نحن معاشر الانبياء امرنا ان ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم» . وقال : «ما احد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم» . وقال علي بن ابي طالب مشيرا الى صدره : «إن ههنا لعلوما

جمة لو وجدت لها حَمَلَة . فقلوب الابرار قبور الأسرار . ولا ينبغى ان يفشى العالم كل ما يعلم الى كل احد» . وروى ان الشافعى سئل مرة عن مسالة فسكت ، فقيل له : «الا تجيب رحمك الله ؟» قال : «حتى ادرى الفضل فى سكوتى او فى جوابى» .

ثم امضى فاذكرك بان من لان عوده كثفت اغصانه . وان النبات إنما يسلم من الريح العاصفة بلينه وانثنائه معها . وقد نعلم انك امرؤ تنكسر ولا تنحنى ، تابى ان ترى فى الغاية تبريرا للوسيلة ، وتحسب كل مداراة موجبة للشجب ولو ادت الى صلاح.

اما عنى فان شعارى انه متى اضرت النوافل بالفرائض لزم رفضها ، وان المرء متى اراد العدل الأكبر فلا باس ببعض الظلم ، الا ترى الى الذهب لا يصلح لان يستخدمه الناس حتى يخلط بما دونه من المعادن ؟ نعم إن الدين هو الحقيقة ذاتها ، غير ان الجموع العريضة فى زعمى ليس بمقدورها تقبله حتى يتخذ صورة مبسطة هى فى متناول اذهانها ، بل وحتى تقحم فيه بعض اوهامها وضلالاتها . وقد تقرنى على تشبيهى للحقيقة فى الدين ببعض العناصر الكيميائية التى هى فى صورة غازية متى انفردت واستقلت عما سواها .

حتى إذا رمنا الاحتفاظ بها او استخدامها فى اغراض الطب ، لزم ان نخلطها بغيرها لنحولها الى اقراص صلبة ونحول دون تشتتها فى الهواء . او قل إن هذه الحقيقة فى الدين هى كالماء ، لا يحمل إلا فى إناء ، وما انت وغيرك ممن يحرص على إهداء الحقيقة وحدها صافية لا مزاج لها إلا كمثل من يكسر الاناء ليصيب الماء وحده .

إن المرء قد يفرط فى الحكمة كما يفرط فى الحماقة . وفى الفضيلة كما فى الرذيلة، وما أكثر من رُدّ صالحُ دعوته بسبب تجاهله الواقع الحى . والواقع الحى الذي لن يكون فى وسعك انكاره هو ان الله قد خلق الناس أطوارا ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وان الشطر الأكبر من البشر هو من اولئك الذين «يكدرون الماء ويُغلون السعر ويضيقون الطريق» ، قد خبا ذكاؤهم ، وضاق افقهم ، واقتصرت اغراضهم على ما هو مادى بحت . وقديما قال الحسن البصرى : «لو كان للناس كلهم عقول هربت الدنيا» . فعملهم المضنى فى الصناعة وفى فلاحة الارض سيظل دوما لا غنى عنه من اجل إشباع حاجات الناس . وهذا العمل الجثمانى المضنى لا يحرمهم من فرص الدراسة والتامل والنظر فى الحقيقة فحسب ، وإنما هو ايضا مدعاة الى تبلد الذهن ، وسبب للانتقاص من ذكاء الروح بالنظر الى ما نعلم عن العداء الراسخ بين العقل والجسد . وسيظل مع ذلك لدى هؤلاء ـ او لدى شطرهم الأعظم ـ حاجة ملحة الى التفسير الدينى لهذه الحياة ، والى حل مقبول ميسر للغز الكون ، وقواعد مبسطة هادية للسلوك ، وعقيدة تجلب لهم الراحة فى لجة الشقاء ، والقوة فى خضم الصراع والعزاء فى مواجهة الموت .

الساق الخشبية

ولابد لهذا التفسير من ان يكون من السهولة بحيث تستوعبه الاذهان المكدودة والآفاق المحدودة . ولابد لهذه الأذهان المكدودة من ان تقحم فى هذا التفسير بعض ما توارثته وتعلقت به جيلا بعد جيل من الأوهام الكاذبة . ولابد لهذه الأوهام الكاذبة من ان تبوئها العامة فى كثير من الاحيان منزلة تعلو منزلة صالح الأعمال ونبيل المشاعر ، حتى ترى التوسل الى الاولياء ايسر عليها من مساعدة الجار ، والدعاء على الظالم اسهل من التصدى بالمقاومة الظالم جبار . ومع هذا فان الحقيقة التى لا مراء فيها ان هذا كله شر لابد منه ، وكذبة بيضاء لا غنى عنها . فمادامت حال البشر على ما هى عليه ، فان المتيقن انهم لن يقبلوا على الدين ما لم يقحموا فيه ما شاءوا إقحامه من باطل . والويل الويل للبشر إن اطرح هذا الشطر الأعظم الدين باسره وراء ظهره متى نجحت محاولتك ومحاولة نظرائك ان تبددوا اوهامه ، وتسلبوه خرافاته .

ولعل الرجل الذى لا ساق له واجد منفعة عظيمة فى ساق خشبية يدب عليها ويسعى بها الى رزقه . غير انى ابادر فانفى عن نفسي ما قد ترميني به من تهمة التشاؤم فلست باليائس من أن يصل البشر فى زمان قريب او بعيد ـ بفضل نشر التعليم والدعوة المستنيرة المتانية ، وبفضل ما قد ينجم عن التوسع من استخدام الآلة من تخفيف اعباء العمل الزراعى والصناعى ـ الى قدر من النضج يصبحون معه قادرين على تقبل الحقيقة مجردة من الخرافــــة والترهات ، بل وحتى من الرموز والاسرار . يومئذ نرى تلك الأوهام التى لا تناسب البشرية إلا فى طفولتها ، وهى تودع الخلق وداع المربية لطفل فى رعايتها متى شب عن الطوق ، ودعت الحاجة الى ان يتجه الى معاهد العلم .

• •

هذا مبلغ ما رايت من وعظك وحضرنى من نصحك ، املا ان يوافق ما توخيته لك ورجوته فيك من القبول والفهم . اعانك الله على درك الحق وشرح صدرك له ، والهمك كلمة العدل لتؤثرها فى امورك واحوالك ، وتقف عندها فى اقوالك وافعالك ، وزين فى عينك الانصاف ، وكره إليك المراء فى الباطل ، واعاذك من ان تكون كمثل ذلك الذى عناه الحكيم القديم إذ يقول : ما خاض امرؤ فى جدل دون ان تحدوه الرغبة فى إدراك الحق ، إلا خرج منه على سالف رايه !

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

صدق الله العظيم

حسين احمد امين

هامش

(١) الفهادة : الديبلوماسية

من عجائب الطب





العلاج بالموسيقى
وهم أم حقيقة؟

بقلم : الدكتور عز الدين فراج

الانسان لا يعيش بالطعام وحده ، بل لابد من غذاء روحي ينقله من ميدان الحياة العادية الى آفاق السعادة والهدوء النفسي . لاشيء يحقق ذلك غير الفنون الجميلة ، وفي طليعتها الموسيقى .

وبالموسيقى تلين الطباع الجامدة ، وتهدأ الأعصاب الثائرة ، وترق وتتآلف النفوس الشاردة ، وتعتدل الأمزجة الغاضبة ، فتطيب الحياة وتصفو .

وبالموسيقى أيضا تثور النفوس الهادئة الخاملة المتبلدة وتتحرك العقول النائمة ، وتغلي الصدور الساكنة ، فتحطم قيودها ، وتحرر نفسها ، وتخلص وطنها .

ولهذا وجدنا بعض رجال السياسة في ايطاليا في منتصف القرن التاسع عشر ، يلحون على « فردي » أحد اعلام الموسيقى بايطاليا ، ليستغل انغامه وموسيقاه في تحريك مشاعر الشعب ، لتحرير سهول لمبارديا واجلاء الجيوش النمساوية عنها .

لقد لحن لهم « فردي » أغنية وطنية حربية تنشد في الميدان ، وفي أثناء القتال ، لا بمصاحبة الأوتار والانغام ، بل بمصاحبة طلقات المدافع .

وأصبحت الموسيقى الآن ركنا أساسيا لتنظيم الجيوش ، فما من جيش إلا وله فرقة موسيقية تلازمه في الحرب والسلم ، تقف بجانبه ، تثير فيه الحمية والشجاعة ، وتعزف له نشيد الفداء والنصر .

وإذا كانت الموسيقى تحرك النفوس الثائرة ، وتشجع الجنود المقاتلة ، فانها أيضا تهديء هذه النفوس ، وتخمد شعلة الغضب الكامنة في طيات صدرها ، وفيما يلي قصة شتراوس وكيف استطاع أن يخمد ثورة بنغماته الهادئة الحلوة العذبة .

بينما كان شتراوس يسير بجوار أحد أصدقائه همس قائلا :

يخيل إلي اني ساضع نغما جديدا الليلة .

فقال له صديقه :

من دواعي الغبطة أن تكون من الفنانين في هذا الزمان ، فحياة الفن اليوم أهدأ من حياة السياسة .

ولكن « شتراوس » لم يكن ينصت إلى مايقوله صديقه إذ كان ذهنه مشغولا بنغم هبط عليه في هذه اللحظة .

وفي دقائق معدودات ترك شتراوس صديقه وعاد الى بيته ، فوجده هادئا ، وقد نام أهله ، فدخله على أطراف أصابعه ، وسار إلى غرفته في أعلى البيت ، وأشعل المصباح ، وفتح النافذة .

وأخذ «شتراوس» يروح في الغرفة ويجيء ، حتى إذا اطمأن إلى النغم الذي يخاطره ، جلس الى المعزف « البيانو » وأخذ يوقعه عليه بصوت واطيء حتى لا يزعج النائمين .

وقد مكث يوقع لحظة ، ويكتب أخرى ،



«موزارت» الموسيقي الصغير يسحر بانغامه كبار القوم في المانيا والنمسا

ويغير ما لا يعجبه حتى طلع الفجر ، وطلع معه اللحن الجديد .

وفى الصباح ذهب الى غرفة الموسيقى فى القصر الامبراطوري وراح يوقع اللحن مرة بعد مرة .

وفى نفس اليوم قامت فى فيينا ثورة كبيرة ، وذهب الثوار الى القصر الامبراطوري ، ليعلنوا مطالبهم فى قسوة وعنف . واقبل احد رجال القصر الى شتراوس ليستنجد به وهو يصيح قائلا :

النجدة !.. النجدة !!. الجماهير تحطم زجاج النوافذ ... ولم يعد الحرس قادرا على صدهم .

فما كان من شتراوس إلا ان خرج مع فرقته الموسيقية ، وبداوا يعزفون امام الثوار هذا اللحن الجديد ، فخمدت حماستهم ، ونسي بعضهم ما جاؤوا من اجله ، فتفرق شملهم ، والتفوا بشتراوس وفرقته .

ولما راى « شتراوس » هذا النصر ، سار بفرقته والجموع خلفه ، من شارع الى شارع ، بعيدا عن القصر الامبراطوري .

وهكذا اخمدت الثورة بلا سلاح ، وبلا ضحايا غير سلاح الموسيقى .

الموسيقى وتحريك النفس

ودرس الكندي الفيلسوف العربي – يعقوب بن اسحاق – الصلة بين الموسيقى وانغامها المختلفة وبين تحريك النفس وما يناسب احوالها ، فهناك موسيقى تبعث السرور وثانية تحرك المرح والطرب ، وثالثة تشعرك بالحنين والمحبة وغير ذلك .

فاذا عرفنا ذلك فى مقدورنا ان نعالج بعض الامراض النفسية بنغمات الموسيقى المناسبة ، التى تهيجه وتهدئه والتى تثيره وتسكنه .

ويبدو انّ يعقوب بن اسحاق الكندي كان من اوائل فلاسفة العرب الذين عالجوا بعض مرضاهم بالموسيقى ، ولكن العبرة بوضع طريقة يطبقها الطبيب ، لا على كل مريض ، بل العبرة بتطبيق علاج الموسيقى على المرضى الذين لا ينفعهم غير هذا العلاج ، والعبرة ايضا بتحديد النغمات الموسيقية الخاصة والمناسبة للمريض .

والقصة التى نرويها الآن تدل على براعة الكندي في الطب ، كما تدل على براعته فى اختيار العلاج بالموسيقى المناسبة لبعض الامراض ، فقد روى «القفطي» فى اخبار الحكماء :

« ومن عجيب ما يحكى عن يعقوب بن إسحق الكندى هذا ، انه كان فى جواره رجل من كبار التجار موسع عليه فى تجارته وكان له ابن قد كفاه امر بيعه وشرائه ،

العلاج بالموسيقى

وهم أم حقيقة؟

فعرض لابنه سكتة فجاة ، فورد عليه من ذلك ما اذهله ، وبقى لا يدرى ما الذى له فى ايدي الناس ، وما لهم عليه ، مع ما دخله من الجزع على ابنه ، فلم يدع بمدينة السلام طبيباً الا ركب اليه واستركبه لفحص ولده ، ويشير عليه من امره بعلاج فلم يجبه كثير من الأطباء لكبر العلة وخطرها الى الحضور معه ، ومن اجابه قال له : انت فى جوار فيلسوف زمانه واعلم الناس بعلاج هذه العلة ، فلو قصدته لوجدت عنده ما تحب ، فدعته الضرورة إلى ان يرسل الى الكندى باحد اخوانه ، فالح عليه بالحضور ، فاجاب وسار إلى منزل التاجر .

فلما رأى ابنه ، واخذ بجسه ، امر بان يحضر اليه من تلامذته فى علم الموسيقى من اتقن العزف على العود ، وعرف الطرائق المحزنة والمزعجة والمقوية للقلوب والنفوس ، فحضر اليه منهم اربعة ، فامرهم ان يضربوا بالعود عند راسه ووضع لهم موقع النغم من اصابعهم ، فراح كل منهم يضرب عوده ويعزف عليــــــه و « الكندى » اخذ مجس الغلام ، وهو فى ذلك يقوى نبضه ، ويرجع اليه نفسه شيئاً فشيئاً الى ان تحرك ، ثم جلس وتكلم ، والعازفون يعزفون بالطريقة التى اتفقــوا عليها .

عندئذ قال الكندى للاب :

سل ابنك عن علم ما تحتاج الى علمه وما لك وما عليك ، فجعل الرجل يسأله وهو يخبره .

فلما اجابه عن كل شيء غفل عن تلك الطريقة التى كانوا يضربونها ، فعاد الصبى إلى حالته الأولى وغشيه السكات ، فطلب الوالد معاودة الكرة ، فقال الكندى : كان فى العمر بقية فاستطعنا ان نقوى روحه ونحرك نفسه ، أما الآن فقد استوفى اجله .

الموسيقى تصطاد الأسماك

وحكى ابو نصر الفارابى فى كتــــــابه « السماع » ما معناه ان احد ملوك اليونان قد رأى ان ناحية من نواحى بلاده دخل نفوس أهلها الكسل والجبن فبعث إليهم بفريق من الموسيقيين ، اسمعوهم الحاناً معينة فايقظوا بها ما كان عندهم من كسل .

وقال افلاطون : من حزن فليسمع الموسيقى .

وقال صاحب العقد الفريد : النغم الحسن يسرى فى الجسم ويجرى فى العروق فيصفو له الدم ، ويرتاح له القلب ، وتهتز له الجوارح .

لقد سايرت الانغام الجميلة القران والاذان ومزامير داود ، واعترف بها للفكرون باثارها ونتائجها ، واستعملها الأطباء علاجاً للحزن والكابة والخوف ، واستخدمها الفلاسفة لتهدئة النفوس الثائرة .

والحيوانات ايضاً تطرب بنغمــــات الموسيقى ، وقد بحث بعض علماء اليابان تاثير الموسيقى والأغانى على الاسماك ، وانتهت ابحاثهم بان هناك انغاماً خاصة تجتذب الأسماك وانغاما أخرى تنفر منها وتبتعد عنها ، وانه فى الامكان استغلال هذه الانغام فى اجتذاب الاسماك وصيدها على اوسع نطاق ، وباكبر قدر مستطاع ، والامر الذى يدعو إلى العجب ان العرب عرفوا ذلك واستخدموه منذ ملتين والف سنة ، وقد ذكر الجاحظ هذه الناحية تحت موضوع « تأثير الصوت » فقال :

بالأصوات والانغام ينوّمون الأطفــال ، والدواب تصر اذانها اذا غنى المكارى ، والابل تصر اذانها إذا حدا فى اثرها الحادى وتزداد نشاطاً ، وتسرع فى مشيها ويجمع بها الصيادون السمك فى حظائرهم التى يتخذونها له ، وذلك انهم يضربون بعصى معهم ، ويطعطعون ، فتقبل اجناس السمك شاخصة الابصار مصغية الى تلك الأصوات والانغام حتى تدخل الحظيرة التى أعدت لها فيتم صيدها .

هل يمكن علاج السمنة بالموسيقى ؟

يتناقش الآن أطباء الجسم وأطباء النفس .. سبب هذه المناقشات ، نظرية حديثة لاحد العلماء النمساويين ، تعلن ان سماع الموسيقى الكلاسيك ثلاث ساعات يومياً يؤدى الى التخلص من الوزن الزائد ، وتحقيق الرشاقة المنشودة ... بلا خضوع لآلام الرجيم وذلك بعد ان اثبت العالم النمساوى البروفسور برامر : ان التجارب على مئات السيدات والرجال ، اثبتت ان الموسيقى تساعد على علاج السمنة ، وان جميع الذين اجريت عليهم التجارب استجابو للعلاج ونقص وزنهم الى الحد المطلوب .

وعلماء النفس يقدمون تفسيرا لأسباب السمنة ، ويوافقون مع نظرية علاج السمنة بالموسيقى .

والمجلة الطبية البريطانية نشرت دراسة هامة ، تؤكد العلاقة بين السمنة والقلق النفسى . وتشير التجارب لاصحاب هــذه الدراسة الى ان معظم المترهلين والمكتنزين وأصحاب الكروش البارزة ، مصابون بحالة من القلق النفسى ، وان نسبة انتشار الامراض بين السمان تفوق بكثير نســــبة انتشارها بين النحاف .

ويعتمد انصار التفسير النفسى لظاهرة السمنة الى حقائق يصعب الخلاف عليها ، وهى ان النفس والجسم وحدة لا تتجزأ يتحكم فيها المخ .

ولأن المخ يتحكم فى مختلف النشاطات العضوية والنفسية والفكرية ، فمن الطبيعى ان تنطوى اقسامه على عشرات المراكز المتخصصة .. تشرف على مختلف الظواهر والحالات ، مثل الانفصام والنوم واليقظة والجوع والشبع والحركة وغيرها من النشاطات النفسية والعضوية .



في المخ مراكز تسيطر على أنواع النشاط المختلفة

عز الدين فراج



بقلم: محمود السعدني

غراميات سيبويه



عاش الشيخ قطامش ومات ، لا يصدق شيئا ، ولا يؤمن بشيء ، فالحياة اكذوبة ، والناس مجرد اكاذيب ، والنجاح صدفة ، والفشل قدر ، والأعمار بيد الله صحيح ، ولكن فى أمر الحياة والانسان سر ما لا يفهمه قطامش .

وكان شديد الايمان بالله ، ولكنه كان مؤمناً متعاظماً فى الوقت نفسه ويعتقد انه قريب جداً من الله ، الى الحد الذى ليس محتاجاً بعده لتقديم الدليل على صدق ايمانه .

وكان احيانا ، عندما يخلو لنفسه ، أو إلى صديق حبيب .. كان يبكي بكاء شديداً وكنت اشعر فى تلك اللحظات ، بعمق جراح الشيخ عبد الحميد ، وغزارة نزفه .

وكان فى ساعات صفوه يردد حكمة اثيرة لديه : (لن يغفر الله لامثالنا) . وعندما اساله عن السبب يقول : (لاننا خالفنا ما جاء فى اللوح المحفوظ !) ، واساله : ماذا فى اللوح المحفوظ بالنسبة لنا ، فيجيب : (ناكل مرة واحدة فى اليوم ، ولكننا خالفنا الامر ، واصبحنا ناكل ثلاث مرات ، ونبقى اميين ، ولكننا تعلمنا ، ونظل فقراء ، ولكننا اصبحنا اثرياء) ! واقول له ساخرا : اثرياء !! فيجيب : نعم ، إنك تملك سيارة فولكس فاجن ، وترتدى بدلة ، وتدخن ، وتسافر للخارج فى مهمات صحفية ، وهذا بالنسبة لما هو مكتوب لك ثراء فاحش . واساله : وعلى ذلك ستخلد فى النار ؟ .. فيجيب ساخراً : لا اظن ، لان المحسنين سيدخلون الجنة ، والمخطئين سيدخلون النار ، ولكن امثالنا ـ انا وانت وزكريا الحجاوى ـ فلا مكان لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة باذن الله .

وكان يؤمن إيمانا عميقا بان ضربة حظ

غراميات سيبويه

اصابت اصدقاءه ، فاصبح زكريا الحجاوى فنانا شعبيا ، واصبح نعمان عاشور كاتبا مسرحيا ، ومحمود الشريف ملحنا مشهوراً وان هذا الذى حدث ، كان من باب سخرية الاقدار ! . ولذلك لم يقرا قطامش حرفا واحداً من انتاج اصدقائه . لم يشاهد مسرحية لنعمان ، ولم يقرا حرفا لزكريا ، وبالرغم من احترامه الشديد لانور المعداوى ، إلا انه لم يكلف نفسه عناء قراءة مقال واحد له .

ويبدو ان طريقة التعليم فى الأزهر ــ على زمانه ــ طغت على اى رغبة عنده للقراءة، فقد كان عليه ان يحفظ عن ظهر قلب كتبا تزن عدة اطنان ، وكان عبد الحميد يعلق على ما حدث قائلا : «لقد قضيت زهرة العمر فى حفظها ثم اكتشفت فى النهاية اننى لم استفد شيئا» . وساعده على عدم القراءة ، إصراره على الهروب من الوحدة وتجنبها ، وإلقاء نفسه فى بحر الناس ، فلم اشاهده وحيدا قط ، ولم يكن يلزم داره إلا إذا كان عاجزا عن الحركة ، وعندئذ كان يقوم باستدعاء الاصدقاء ، ليقضوا الليل حول فراشه .

ولكن اخطر نقطة فى حياة عبد الحميد هى علاقته بالجنس الآخر ، فقد عاش اعزب بالرغم من انه كان متزوجا ، ولكن زواجه تحطم فى اولى مراحله ، وبقيت الزوجة فى الريف على ذمته ، وعاش هو وحيداً مع اولاده فى القاهرة . وكان يكره المراة كراهية شديدة ، والاكيد أن هذا الموقف كان راجعا الى فترة شبابه ، حيث كان شيخا معمما ولم يكن طلاب الأزهر فى قائمة فتيان الاحلام لبنات ذلك العصر ، ولذلك لم يجرؤ مرة واحدة فى حياته على مغازلة امراة ، ولم يكن لديه الشجاعة للافصاح عن شعوره للطرف الاخر ، وكان يحلم دائما بامراة تغازله ، وتطارده ، وتقع فى هواه . وكان إحساسه بالحب احساسا سينمائيا ، فهو يبحث دائما عن حب من هذا النوع الذى يظهر فى افلام السينما ، وينتهى غالبا بماساة !

وكان يكتب خطابات غرامية احيانا ويرسلها لنفسه ، وكان حريصا على قراءة هذه الخطابات لي ، وعندما كان يبدو علي احيانا اننى غير مصدق ، وعندما يغلب علي الضحك ، يقوم الشيخ قطامش وينهال علي شتما . وكنت احاول تهدئته ، واقول له مداعبا ، إن الخطاب يا عبد الحميد مكتوب باسلوب لا يمكن ان يكون لامراة ، فهو مستوف لكل الشروط التى وصفها الفراهيدى وابن منظور ، وصاحبة الخطاب لابد وان تكون خريجة كلية اللغة العربية بالازهر (لم يكن فى الأزهر طالبات فى ذلك الحين) .

وكان يضحك بعمق عندما اساله : هل وقع سيبويه فى غرامك ؟ ولكنه بالرغم من هذا الموقف الحاد من الجنس الاخر ، كان يبدو سعيدا للغاية إذا ضمه مجلس به سيدات . وكان على استعداد للزحف على ركبتيه ليلمس إشارة من امراة تعامله بشيء من الحنان او تبدى نحوه شيئا من الود ! وبالرغم من حرصه الشديد ، كان على استعداد لان ينفق اخر قرش فى جيبه لتلبية اى طلب ياتى من جانب امراة .

وهذه النفس المعقدة الحساسة الى درجة شديدة ، كانت هى حجر الزاوية فى ظاهرة قطامش ، فقد كان لا يفتح فمه بكلمة إذا ضم مجلسه فرداً واحداً لا يعرفه معرفة وثيقة ، وكان لا يسب إلا من يحبهم من اصدقائه . وكان يخشى الحكومة ، ولكنه لا يستطيع الكف عن نقدها . وكان مثاليا ، ولكن تصرفاته الشخصية اكثر من واقعية ، وكان يتجنب رؤية الدماء والاشلاء ، فى الوقت الذى كان فيه شديد القسوة لا يرحم.

صندوق المتناقضات الذى فى داخله ، هو الذى انتج فى النهاية هذا الرجل الساحر الساخر ، الذى لم يكن له مثيل فى زمانه على الاطلاق .

وكان دائم المزاح مع اصدقائه ، ويلجا احيانا الى مزاح من نوع ثقيل ، يؤلم ويجرح ، إذا عاتبه صديق اجاب بانه لا يقصد شيئا إلا المزاح ، وان النكتة «حبكت» وان الفرق بين الصديق والعدو ، هو ان الصديق يبلع لصديقه اخطاءه المقصودة فما بالك بالخطا غير المقصود . ولكن الويل لمن تسول له نفسه المزاح مع عبد الحميد بنفس الطريقة ، لقد قاطع صديق عمره زكريا الحجاوى ثلاث سنوات متصلة بسبب مزاح بداه عبد الحميد فرد عليه زكريا بنفس الاسلوب ، فكانت القطيعة !

واصل الحكاية ان زكريا الحجاوى كان جالسا فى مقهى عبد الله مع مجموعة من اصدقائه وتلاميذه ، ولم يكن من بينهم احد من اصدقاء عبد الحميد . وفجاة دخل عبد الحميد المقهى ، والقى نظرة على الجالسين ، فهب زكريا فى احترام مبالغ فيه ، وهى عادته عندما يكون فى جلسة مع بعض معارفه الجدد ، ورحب زكريا بعبد الحميد بكلمات تحمل كل الاحترام والتقديس . ووقف قطامش بعيداً عن زكريا وهو فى غاية الجد وقال : (لسه قاعد بتنصب يا زكريا ، يا حقير بنى اميه ، يا ابن الـ ...) ، ثم بصق على زكريا وانصرف !

موقف لاشك عانى منه زكريا بعض الوقت ، وبالتاكيد لم يجد تبريرا لهذا الموقف ، وخصوصا وان الذين كانوا يجلسون معه كانوا يعرفون زكريا قليلا ، ولا يعرفون قطامش على الاطلاق .

ومرت شهور طويلة بعد ذلك ، ثم سنحت فرصة لزكريا الحجاوى لينتقم ، فقد صعد زكريا الى « الباص » عند محطة الباشا فى منيل الروضة ، وكان « الباص » مزدحما والجو خانقا ، وشديد الحرارة . ولمح زكريا وسط الركاب الشيخ قطامش يقف مع مجموعة من المحامين الشرعيين . واقترب زكريا من احدهم وساله « هوه الاستاذ اللى واقف هناك ده يبقى عبد الحميد قطامش المحامى الشرعى ؟ » فاجاب الشيخ بالايجاب ، وصرخ زكريا صرخة شديدة « يالص ، ياكذاب ، يامنافق يا قطامش ، تذهب اليك زوجتى بتوكيل خاص ، لترفع لها قضية طلاق منى فتغازلها غزلا معيبا يا منافق ياشيطان » . وبهت المشايخ جميعا ، فقد كانت هذه التهمة هى أم الكبائر فى مهنة تقوم اساسا على احترام اعراض واسرار الناس ولم يكن للقصة أصل من الحقيقة طبعا ولكن زكريا اندفع فى تمثيل الدور وعبثا يحاول المشايخ تهدئته دون جدوى وثار الركاب الاخرون على الشيخ قطامش وكادت تحدث كارثة ، وانتهز زكريا فرصة



عبد الحميد قطامش

الهرج الشديد الذى حدث فقفز من «الباص» واختفى .

وعبثا حاولت الصلح بينهما دون نتيجة كان قطامش شديد الغيظ مما حدث ، وكان يقسم كلما فاتحته فى الموضوع انه لن يخاطب زكريا حتى الموت ، ولكنى انتهزت فرصة مواتية ، وتعمدت استفزاز قطامش عندما قلت له : يخيل الى ان هناك سببا لا ندريه فى موقفك المتشدد والغريب من زكريا وقال قطامش عندك حق . فانا وجدتها فرصة لاقاطع زكريا الحجاوى الى الابد ولما سالته عن السبب الحقيقى ، تنهد فى لى وقال : إن زكريا يحقد على حقدا شديدا وارتسم شبح ابتسامة على شفتى ، ولكنه واصل حديثة فى جد شديد : لاتظن انى امزح او اعبث يا محمود ، الحقيقة ان زكريا يحقد على حقدا شديدا ، والسبب انه عديم الاصل وفقير ، وهو لم يتعلم شيئا ولم يستفد شيئا ، كما انه ضائع وصائع ... ثم هدا انفعاله قليلا ، وصمت لحظة ، ثم قال فى هدوء : «وانا كمان كده ياأخويا ، وهو عاوز يبقى كده لوحده ! عشان كده بيحقد على . » وضحـك قطامـش ضحكة عميقة وصافية نابعة من القلب ، ونهض معى الى بيت زكريـا الحجـاوي ، وكانـت سهـرة لا تنسى .

ولقد ظللت خلال رحلة ضياعي بعيدا عن مصر ، اشعر بحنين شديد الى اربعة من الاصدقاء ، زكريا الحجاوى ، وعبد الرحمن الخميسى ، ومحمد عودة ، وعبد الحميد قطامش . وقد رأيت « الخميسي » كثيرا فى المنفى ، وسعدت برؤية محمد عودة مرات ، وسافرت الى الدوحة خصيصا لرؤية عمنا زكريا الحجاوى ، ومن غرائب الصدف انه مات بعد زيارتى له بالدوحة باشهر قليلة ، غير ان الفرصة لم تتح لى ابدا ، لرؤية عبد الحميد قطامش ، فهو لم يخرج من مصر قط وانا لم اذهب الى مصر طوال عشرة شهور وشهر . ولذلك كنت احيانا اتذكر قطامش فى غربتى ، واشعر بخوف شديد ان يموت قطامش دون ان اراه .

ومنذ اشهر قليلة التقيت المستشار الثقافى الكويتى بالقاهرة ، واكتشفت انه كان يبحث عنى بشدة ، فقد كان يحمل خطابا من قطامش الى العبدلله ، وقرات سطوره وبكيت : « يا محمود عد بسرعة ، فانا فى حاجة اليك . لقد مات كل الاصدقاء ولم يبق إلا انا وانت . لقد رحل انور المعداوي . ورحل محمود حسن اسماعيل ، ورحل زكريا الحجاوى ورحل عبد العظيم بدوى ، وهاجر محمد على ماهر والخميسى واختفى نعمان عاشور لا ادرى اين ؟ ... عد حتى اراك ، فانا اشعر فى داخلى ان العمر قد ولى ، فاخشى ان اموت دون ان اراك ! » .

وامسكت بالقلم وكتبت كلمات قليلة لعبد الحميد : « اثبت ايها الرجل ، فسيكون فى استطاعتى ان اراك قريبا عندما يأتى الفرج من عند الله ، وانت تعرف الظروف التى تمنعنى من العودة ، ولكنى واثق انها ستزول قريبا باذن الله الواحد القهار اثبت ياعبد الحميد ولاتكن نذلا كعهدى بك فترحل قبل ان اراك !! » .

وبعد شهور قليلة من تحريرى هذا الخطاب ، عثرت على ورقة من صفحة قديمة من جريدة الجمهورية المصرية تحولت فى النهاية الى قرطاس يحوى بعض الفاكهة . ولا ادرى ما الذى جعلنى اتفحصها واقرا سطورها . وخفق قلبى بشدة على نعى الشيخ عبد الحميد قطامش منشورا على استحياء .

يالها من لحظة خاطفة تجسدت وتبلورت فيها ذكريات عشرات الاعوام والغريب اننى انفجرت باكيا بشدة عند سماعى نبا وفاة زكريا الحجاوى ، ولكن مع قطامش كان الامر يختلف ، لم ابك ، ولم تختلج عضلة واحدة فى جسمى ، كانما اصابنى شلل مفاجىء وبقيت هكذا فى حالة انعدام وزن عدة ايام

لقد انطوت بوفاة الرجل ، صفحة كاملة خطيرة ومثيرة وحافلة ، فما كان اعرض حياته واعمق صلاته ، وكم شهدت ليالى القاهرة سهراته التى كانت تجلجل فيها ضحكاته ، وتطيش خلالها تعليقاته ولذعاته ، وقفشاته ، ونكاته التى تجرح وتسيل الدم . ولا اعتقد ان ركنا فى مدينة القاهرة لم يشهد سهرة لقطامش ، ولا اعتقد ان احدا من الذين عاشوا فى القاهرة خلال هذا النصف قرن الاخير لم يتعرف على قطامش او لم يسمع به .

وبالرغم من ذلك مات فى هدوء وانسحب من الحياة فى صمت ، ونعيه نشر فى جريدة الجمهورية فى عدة سطور لا تلحظها العين .

مسكين عبد الحميد قطامش .. عاش كالمهراجا ومات كالصعلوك ، لان الزمن الذى مات فيه ، هو اردا زمن مر على مصر ، زمن لمع فيه الطين ، واختفت فيه النجوم . لم يكن هذا زمان قطامش ، ولكنه كان زمن توفيق عبد الحي ، ورشاد عثمان . ولعل الموت كان اعظم هدية لقطامش الذى لم يستطع احتمال الحياة فى مصر ، ولم يستطع ان يغادرها ، وقنع اخيرا بعدة اشبار فى تراب مصر .

محمود السعدنى

الفائز بجائزة نوبل هذا العام



بقلم : الدكتور محمد عبد الله الجعيدي

الأستاذ بكلية الآداب والفلسفة بجامعة مدريد

شاع اسم « ماركيث » بين الكتاب العـرب على أنه « جابرييل جارثيا ماركيز » . ولكن النطق الصحيح للاسم بالأسبانية هو كما ورد فى هذا المقال : « جابرييـل جرثيـه مـاركيث » .

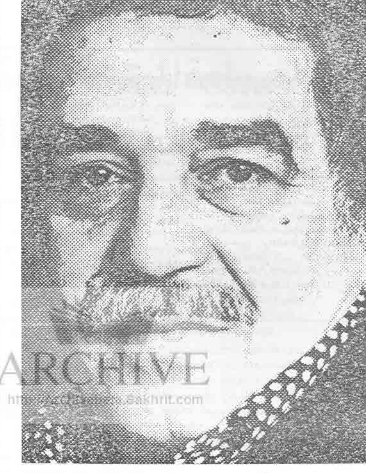
فى قرية اراكاتاكا التابعة لدائرة ماجدالينا (كولومبيا) ولد جابرييل جرثيه ماركيث سنة ١٩٢٨ ، وعاش فى مسقط رأسه حتى التاسعة من عمره فى كنف جديه لأمه ، وهناك انهى السنوات الأولى من تعليمه الابتدائي ، وبعد ذلك اخذه والداه لكي يعيش معهما فى مدينة بارانكية الواقعة على الساحل الاطلسي حيث درس سنتين من المرحلة الثانوية ، وهي مرحلة شرع خلالها فى كتابة بعض القصائد والاقاصيص ، وبحصوله على منحة دراسية خرج ليواصل تعليمه فى مدينة ثيباكيرة القريبة من بوجوتا ، فانهى تعليمه الثانوي ومنها انتقل الى بوجوتا ليواصل دراساته الجامعية فى الحقوق ، وهي دراسات راح يواصلها فى مدينة كارتاخينا الاطلسية ايضا . ولكنه لم يكمل هذه الدراسات لأن الأدب قد ملك عليه كل كيانه وعرضه إلى نقد جارح من اقرب الناس إليه .

في يوم احد من سنة ١٩٤٧ كتب الروائي إدواردو ثلاميا بوردا ، المحرر الادبي لصحيفة الاسبيكتادور « المتفرج » البوجوتية فى الزاوية الادبية التى يحررها تعليقا يصر فيه على ان الجيل الأوربي الجديد فى كولومبيا يتسم فى مجموعه بالعقم وانه لا يلوح في الافق ما يبشر بظهور نتاج ادبي كولومبي ذي بال ، بالمقارنة مع اقطار أمريكية لاتينية أخرى . قرا جابرييل هذا التعليق الرؤيوي ، وللتو استيقظ فى نفسه شعور بالتضامن مع جيله الأدبي . وفي الأحد التالي كنوع من التحدي لذلك التعليق الجارح جلس ماركيث وكتب أول اقصوصة له بعنـوان « للمرة الثالثة خضوعا للقدر » وارسلها لادواردو الذي نشرها فى عدد الأحد التالي بصورة مبرزة فى الصفحة الاولى من الملحق الأدبي الاسبوعي للاسبيكتادور مذيلا ذلك باعتذار عما قد سلف منه فى التعليق سالف الذكر ويتكهن بمستقبل وضاء لكاتب الأقصوصة .

إثر هذه اللفتة التشجيعية واصل ماركيث الكتابة حتى جمع نتاجه سنة ١٩٥٢ فى مجموعته « عيون الكلب الازرق » التى اعطته شيئا من الشهرة داخل بلاده ، الامر الذي جعل « الاسبيكتادور » تتخذه معاونا من معاونيها . وفى خضم ضجة المطابع يكتب روايته الأولى « الأوراق الذابلة » التى يظهر فيها تاثير الكاتب الامريكي وليم فوكنر ـ وبخاصة فـى « عندما الفظ انفاسي الاخيرة » ـ وتتحدد فيها معالم اسلوب ماركيث واصالته .

فى سنة ١٩٥٥ وبعد ان تمرس فى حقل الصحافة ارسلته « الاسبيكتادور » مراسلا لها فى أوربا فاتخذ من باريس مقرا لاقامته . وفى هذه الفترة يقوم الدكتاتور جوستابو روخاس بينيا باغلاق الصحيفة . فينقطع مورد ماركيث وينتقل إلى إيطاليا فيدرس فن السينما ويعود إلى باريس سنة ١٩٥٧ وحرب التحرير الجزائرية على اشدها فيتعرض ـ لشبهه بالجزائريين ـ لمضايقات الشرطة . ووسط هذه المصاعب السياسية والاقتصادية كتب روايته « ليس لدى العقيد من يكاتبه » . عمل قصير لكنه ذو قيمة فنية حقيقية .

ومن فرنسا ينتقل الى فنزويلا فيعمل مراسلا للعديد من الصحف ، وفى نفس الوقت يكتب مجموعته القصصية الثانية



جابرييل جرثيــه مــاركيث .. الروائي الذي دافع عن الانسان كقيمة اخلاقية

« ماتم الأم الكبرى » التى تتخذ من عنوان إحدى قصصها التى تعتبر من حيث الشكل والطبيعة استلهاما لروايته « مائة عام من العزلة » .

وبعد إقامة ملأها النشاط الصحفي والأدبي والاعلامي فى بلاده ينتقل ماركيث سنة ١٩٦١ الى المكسيك ليعمل بصورة رئيسية فى حقل السينما والاعلان دون أن يبتعد عن عالم الابداع الأدبي فينشر روايته الثالثة « ساعة النحس » الحاصلة على الجائزة الوطنية الكولومبية للرواية .

خدمة إنسان العالم الثالث

وبين العامين ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ مرت حياة ماركيث الأدبية بفترة جذب ، حيث خلا خلوا تاما لتقييم اعماله السابقة تقييما ظهر أثره سنة ١٩٦٥ فى قيمة اعماله وإحدى قمم الرواية العالمية المعاصرة : « مائة عام من العزلة » وهي روايـــة اراد كتابتها فى الثامنة عشرة من عمـره ، إلا أن افتقاده للنضج الادبي حينئذ حال دون ذلك ، ويبدو لي أن ماركيث قد تطرف فى الحكم على اعماله السابقة لهذه الرواية عندما اعتبرها تمرينا للوصول إلى كتابـة « مائة عام من العزلة » ولو أن تواصل أعماله وانسجامها الذي يوحي للقاريء بانه يقرأ عملا واحدا فى مجلدات متعددة يجعلنا اميل ـ فى بعض الأحيان ـ للبحث عن مبرر لذلك الحكم .

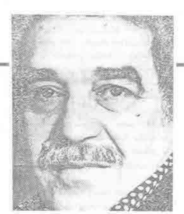
فبينما كان ماركيث متوجها من مدينة اكابولكو إلى المكسيك العاصمة اتخذ قراره بكتابة الرواية التى ظل يؤجل كتابتها طوال ثمانية عشر عاما ، فيوكل شؤون بيته إلى زوجته « مرثيدس برتشة » ويتفرغ هو نهائيا لكتابة الرواية ، ست ساعات يوميا ، من التاسعة صباحا حتى الثالثة مساء ولمدة عام ونصف العام ، خرج منها محاطا بكل أنواع العوز . ولكن الرواية ذاع صيتها عالميا واعتبرت من القمم الادبية ، فدرت على كاتبها سعة مالية مكنته من تحقيق حلم غال على نفسه هو العيش فى مدينة برشلونة الأسبانية ليكرس نفسه تماما للابداع الأدبي .

وفى ظل الشهرة وسعة العيش ، وبعد ست سنوات من الكتابة وتمزيق ما يكتب ، ينشر سنة ١٩٦٨ روايتــــه « خريــــف البطريرك » التى تحاول باسلوب الشعر الغنائي أن تقدم للقاريء صورة حية لظاهرة الدكتاتورية العسكرية فى امريكا اللاتينية ، وهي ظاهرة داب الروائي على درسها بعمق وروية .

وكانت حياة ماركيث وواقع بلاده واطلاعه الواسع على الأدب العالمي معينا لا ينضب لاعماله الادبية . فالحديث عن قريته وجديه يحدد طابع اعماله ، فجدته « ترانكيلينا جواران » قصت على مسامعه كثيرا من الأساطير والخرافات القديمة ، فاراته الحياة من وجهها الخرافي . أما جده « نيكولاس ماركيث » الكولونيل الليبرالي الذي شارك فى « حرب الألف يوم » الأهلية (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) فقد روى له كل ملابسات هذه الحرب واضرارها وهو لا يزال فى الثامنة من العمر ، فاراه الواقع الذى حدث بالفعل . فقد كان جابرييل مشدودا إلى بيت جديه وعالمه « بخيط رفيع غير مرئي » حتى تجسد جده فى صورة الكولونيل بدون اسم فى « الأوراق الذابلة » .

وقد ادى إنحدار اجداد ماركيث من أصل جاليقي وانتمائه لساحل كولومبيا الكاريبي ذي الأثر الافريقي إلى استيحاء هذا الاقليم الأسباني وتلك القارة السمراء فى اعماله .

ويمكننا القول بان تكوين ماركيث الأدبي قد قام على عنصرين : السياسي الاجتماعي الذي عاشته بلاده من اضطهاد وقهر . والعنصر الأدبي من خلال قراءاته وممارسته ميدانيا للعمل الصحفي حيث تكشف اقصوصة « الغريق » عن علاقة نظام الحكم الكولومبي بحركة التهريـــب . وقـــد ادى نشرهــــا فى « الاسبيكتادور » إلى إغلاق الصحيفة ونفي كاتبها فى اوروبا سنة ١٩٥٧ . وإن كانت القصة فنا لاستقراء الواقع ، فان ماركيث يرى أن مصير الانسانية سوف



جابرييل جرثيه ماركيث

يؤول إلى العدالة والحرية . ومن هــــذا المنطلق كتب روائع مثل « مائة عـــام مــن العزلة » و « خريف البطريرك » . وجند موهبته الصحفية لخدمة الانسان فى العالم الثالث وقضاياه التحررية .

تاثره بالأدب العربي

اما تاثير قراءات ماركيث فى أعماله الأدبية تاثيرا عميقا جعله « يعدل تصورات معينة لديه عن العالم » فيمكن استيعابه لأعمالهم مثل « كافكا » و « وليم فوكنر » و « كونراد » و سينت اكسوبيري » و « سوفوكليس » و « دانييل ديفـــوي » و « بروس » و « فرجينيا وولف » و « بابلـــو نيرودا » .

فعندما كان ماركيث فى التاسعة عشرة من عمره قرأ قصة « المسخ » لكافكا فتاثر بواقع بطلها الذي يفكر بفكر إنسان فى حين انه ممسوخ فى صورة جعران ضخم . وربط بين واقع جريجوريو سامسا بطل القصة وبين ما روته له جدته فاهتدى إلى المادة الأولية التى تستخدمها جدته خامة ويستخدمها « كافكا » فى قالب فني . وبهذا كان كافكا ملهما لماركيث فى قصته « الاقامة الثالثة » وفاتحا الطريق أمامه .

اما « وليم فوكنر » المنحدر من جنوب الولايات المتحدة الأمريكية ، منطقة تغص بالراسماليين والاقطاعيين المستغلين للفقراء والفلاحين الذين اخذ من واقعهم مادة لادبه ، فقد راى ماركيث فى واقع ادبه ما يشبه واقع قريته اراكاتاكا التى كانت

● من أقــــوال ماركيــــث ●

من كتاب عزلة جابرييل جارسيا ماركيث

ترجمة : نادية ظافر شعبان

«كل رواية جيدة ، سبر لاغوار العالم . وقد اخذ النقاد على عاتقهم مسؤولية حل رموز روايتى ، وإنى لمنتظر ان يفعلوا ! ... لا المح بالطبـــع إلى الايمــــاءات اللاشعورية الخاصة فى «مائة عام من العزلة» ، التى يستطيع اصدقائى الحميمون ان يكتشفوها فحسب : فكل تاريخ يوافق عيد ميلاد احدهم ، وإحدى الشخصيات تفكر مثل زوجتى ، ويرغب احد زملائى فى ان يسمى ابناءه باسماء ابنائى . ثمة امور اخرى كثيرة لا سبيل الى اكتشافها بمطالعة الكتاب السطحية .

«يؤلمنى ان احدا من النقاد لم يشر الى واحدة من التناقضـــات الاثنتيــــن والاربعين التى اكتشفتها شخصياً بعد ان نشرت الكتاب . لم يذكر ناقد خطا واحدا من الاخطاء الكبيرة التى ذكرها لي مترجمي الايطالى ، والتى يجب الا اصححهـــا في الطبعــــات الجديدة او الترجمات ، لان ذلك عمل غير نزيه» .

● ●

«أصر النقاد على اثر فوكنر فى كتبى ، حتى لقد اقنعونى بذلك . الواقع انى كنت نشرت قصتى الاولى «ما يتساقط من الأوراق» قبل ان اشرع فى قراءة فوكنر وبمحض الصدفة اردت ان اعرف ما يستند اليه النقاد فى نسبة تاثري بفوكنر سافرت بعد سنوات الى جنوب الولايات المتحدة . ظننتنى ساعثر على الجواب الذى لم اجده فى الكتب . تاثرت بتلك الدروب المليئة بالغبار ، والقرى المحترقة البائسة .. كان ناسها يعيشون دون امل . وكانوا يشبهون الناس الذين وصفتهم فى اقاصيصى ، واعتقد ان التشابه بين الطرفين لم يكن صدفة . لقد ساهمت شركة الموز الامريكية الشمالية فى بناء القرية التى ولدت فيها . «لا يزعجنى ان اتاثر بفوكنر . بل اعتبر ذلك مديحا لان فوكنر من اعظم روائيى كل العصور . لكنى لا افهم سبيل النقاد الى إثبات هذا التاثير . فالكاتب الذى يجيد ما يعمل ، يحاول الا يشبه احدا وان يلغى تاثره بكتابه المفضلين فلا يقلدهم» .

● ●

« ليس لدي كتاب مفضلون على ان ثمة كتبا تعجبني اكثر من غيرها . مع انهـــا لا تعجبني كل يوم . ثــــم إن اعجابى بها لا يعني انني افضلها على غيرها ، فاسباب الاعجاب مختلفة ، ويصعب على تحديدها دائما . خـــذ ، هذا المساء ، هذه اللائحـــة : او ديب الملك لسوفوكـــل . اماديس دي جاولا . البرص الصغير لتوريس . مذكرات سنة الطاعون لدانييل ديفو . رحلة اولى حول الكــــرة لبيجافيتا ، طرزان القــــرود لبوروز . وقد اتذكر كتابيـــن اخرين او اكثر . لا ادري ما تعني هذه الكتب فى نظر النقاد . لكنها قيمة هذا المساء ، وقد لا تكون كذلك مساء الغد . منذ سنوات لم

تستغلها ويستغل موزها شركة «يونايتد فروت كامبني » الامريكية ، فكانت قصص فوكنر هاديا لماركيث فى اعماله .

اما « فرجينيا وولف » فقد تعلم من روايتها « مسس دالوي » كيفية استخدام الزمن ، وصرح ذات مرة بانه لو لم يقرا هذه الرواية لما اصبح على ماهو عليه اليوم من عظم الشان فى عالم الأدب .

اما « رامون بيا » القطلوني الاسباني الجمهوري الذي كان منفيا فى الخمسينات فى كولومبيا فقد يسر للشاب ماركيث فى تلك الفترة الحصول والاطلاع على الكتب المتعلقة بالأدب اليوناني القديم والادباء اللاتين والانجلوسكسونيين مثل « جويس» و «بروس» . ولهذا نجد ماركيث فى نهاية «مائة عام من العزلة» يشير إلى « رامون » بلقب « العلامة القطلوني » اعترافا بفضله.

هذا بالاضافة الى تاثير التراث العربي متمثلا في امهات اعماله الادبية ذات الشهرة العالمية مثل الف ليلة وليلة التى اعلن الكاتب بنفسه عن اعجابه بها وتاثره بسحرها .

ومع هذا كله يكون من الصعب تحديد مؤثر بعينه فى ادب ماركيث لان هذا الاخير ياخذ من كل بستان زهرة ليشكل بـــاقة رواياته التى تقوم على صياغة الواقع فى ثوب فني .

ماركيث كاتبا ناشئا

وكان على ماركيث ككاتب ناشيء ان يشق طريقه الصعب عبر عالم النشر . فعندما ارسل مخطوط « الاوراق الذابلة » لـــدار « لوسادا » للطباعة والنشر بالارجنتين اعادوا إليه المخطوط مع ملاحظة بقلـــم « جبيرمو دي توري » الناقد الاسباني ينصحه فيها بترك الكتابة والتفرغ لاي عمل « حتى ولو كان بيع البطاطا » . اما روايته « ليس لدى العقيد من يكاتبه » فقد نشرتها مجلة ادبية دون الحصول على إذن منه او ان تبعث له بالمكافاة ظانة بانها قد قدمت له معروفا بنشرها لعمل استصغرته دور النشر ! .

وتتغير الاحوال بظهور « مائة عام من العزلة » التى نفذت طبعتها الاولى الصادرة عن دار امريكا الجنوبية للطباعة والنشر . وفي مدينة بيونس ايريس وحدها

احتمل فوكنر وتضجـــرني الروايات عموما . أُعْنَى منذ سنـــوات باخبـــار البحـّـــارة فحسب . »

● ●

« اكتب في غرفة هادئة مدفاة جيدا ، فالاصـــوات والبرد هي الامر الوحيد الذي يزعجني . ادخن اربعيـــن سيجارة سوداء خلال ساعات العمل . واقضي بقية النهار محاولا شفاء نفسي من التسمم . يعتقد الأطباء انني انتحر ، وؤمن ان كل عمل يشغفنا ، انتحار بطريقة ما .

« قلما يجهد الكاتب في عمله . فبمقدار ما يبطيء ، تاتي النتيجة افضل . لذلك كان تاليف الرواية احب من كتابة القصة . فانت تستريح منها دفعة واحدة . بينما عليك ، كلما شرعت فى كتابة قصة ، ان تبذل الجهد نفسه الذى تبذله لكتابة رواية . ثمة مناسبات استطيع فيها ان انكب على عملي فترات طويلة . مع ذلك اعرف انني اقدر على كتابة الاشياء في اليوم التالي ، بعد ان استريح وقتا كافيا ، لا افكر ، خلال الليل والنهار ، إلا بما اكتب . احدث به اصدقائي الحميمين ، من يتفهمون نفسيتي ، ولكنى لا اقرا عليهم سطرا واحدا منه ، ولا اسمح لهم بقراءة او بلمس مسوداتي ، لانني اعتقد ، تطيرا ، ان نتاجي ، عندئذ ، يضيع إلى الابد .

لا ! لا ادون الملاحظات إطلاقا ، إلا من إشارة إلى برنامج العمل اليومي . فقد علمتني التجربة اننا إن قضينا الوقت نفكـــر فى الملاحظات المدونة نسينا الكتاب ، ومسار الكتابة .

حين استفيق ، ابدا اول ما ابدا ، بتصحيح نتاج اليوم السابق ، بحبر اسود ، ثم انسخ ما كتبت ، ثم اصحح النسخة الاصلية كاملة ، واعطيها لسكرتيرتي لتطبعها على الالة الكاتبة ، لانى لا احتفظ بنسخة مما اكتب ، فاذا فقدت ورقة ، خلال تنقلاتي ، اعدت كتابتها فى يوم واحد .

« اقرا المسودات احتياطا . سمح لي الناشر ان اغير ما اشاء فى (مائة عام من العزلة) ولكنى لم ابدل إلا كلمتين . والحق ان الكتاب يفقد إلى الابد اهميته لدى منذ ان انتهى من مراجعة النسخة الأصلية التى رضيت عنها » .

« مايريده احدنا ان يكون كاتبا ، لذلك ينكد عيشه ان يقوم بعمل ثانوي . ارفض ما كان يقال عني سابقا من ان على الكاتب ان يعاني الضيق المادي والبؤس ، حتى يغدو كاتبا ناجحا . واعتقد ان الأديب اقدر على الكتابـــة والابداع إذا كانت مشاكله البيتية والاقتصادية محلولة واولاده وزوجته بصحة وعافية ، ووازت متطلبـــات العيش دخله المتواضع ! لا ليس صحيحا ان سوء وضعه الاقتصادي مساعـــد على الابداع ! لانه لا يريـــد أن يقوم بعمل غير الكتابة . وافضل ما يساعده على الكتابة ان تكون مشـــاكلـــه محلولة .

« اذكر امرا اخر . كـــان ممكنا ان احل مشاكلي لو قبلت المنح والمساعدات المادية ، او إحدى تلك الصيغ التى اخترعت لمساعدة الأديب . رفضت كـــل ذلـــك رفضا قاطعا . واعرف ان كل الكتـــاب الامريكييـــن ـ اللاتينيين يؤيدون موقفي . فنحن نؤمن ـ وخوليـــو كورتازار مثال لنا ـ إن كرامة الأديب تمنعه ان يقبـــل الاعانات ليكتب . فكل إعانة مادية ، مهما كانت وسيلتها ، تسيء إلى سمعته » .

تستغلها ويستغل موزها شركة «يونايتد فروت كامبني » الامريكية ، فكانت قصص فوكنر هاديا لماركيث فى اعماله .

اما « فرجينيا وولف » فقد تعلم من روايتها « مسس دالوي » كيفية استخدام الزمن ، وصرح ذات مرة بانه لو لم يقرا هذه الرواية لما اصبح على ماهو عليه اليوم من عظم الشان فى عالم الادب .

اما « رامون بيا » القطلوني الاسباني الجمهوري الذي كان منفيا فى الخمسينات فى كولومبيا فقد يسر للشاب ماركيث فى تلك الفترة الحصول والاطلاع على الكتب المتعلقة بالادب اليوناني القديم والادباء اللاتين والانجلوسكسونيين مثل « جويس» و «بروس» . ولهذا نجد ماركيث فى نهاية «مائة عام من العزلة» يشير إلى « رامون » بلقب « العلامة القطلوني » اعترافا بفضله.

هذا بالاضافة الى تاثير التراث العربي متمثلا فى امهات اعماله الادبية ذات الشهرة العالمية مثل الف ليلة وليلة التى اعلن الكاتب بنفسه عن اعجابه بها وتاثره بسحرها .

ومع هذا كله يكون من الصعب تحديد مؤثر بعينه فى ادب ماركيث لأن هذا الاخير ياخذ من كل بستان زهرة ليشكل بـــاقة رواياته التى تقوم على صياغة الواقع فى ثوب فني .

ماركيث كاتبا ناشئا

وكان على ماركيث ككاتب ناشيء ان يشق طريقه الصعب عبر عالم النشر . فعندما ارسل مخطوط « الاوراق الذابلة » لـــدار « لوسادا » للطباعة والنشر بالارجنتين اعادوا إليه المخطوط مع ملاحظة بقلـــم « جييرمو دي توري » الناقد الاسباني ينصحه فيها بترك الكتابة والتفرغ لأي عمل « حتى ولو كان بيع البطاطا » . اما روايته « ليس لدى العقيد من يكاتبه » فقد نشرتها مجلة ادبية دون الحصول على إذن منه او أن تبعث له بالمكافأة ظانة بأنها قد قدمت له معروفا بنشرها لعمل استصغرته دور النشر ! .

وتتغير الاحوال بظهور « مائة عام من العزلة » التى نفذت طبعتها الاولى الصادرة عن دار امريكا الجنوبية للطباعة والنشر . وفي مدينة بيونس ايريس وحدها

احتمل فوكنر وتضجـــرني الروايات عموما . أعْنَي منذ سنـوات باخبـار البحـّـارة فحسب . »

● ●

« اكتب في غرفة هادئة مدفاة جيدا . فالاصـــوات والبرد هي الأمر الوحيد الذي يزعجني . ادخن اربعيـــن سيجارة سوداء خلال ساعات العمل . واقضي بقية النهار محاولا شفاء نفسي من التسمم . يعتقد الأطباء انني انتحر ، وأؤمن ان كل عمل يشغفنا ، انتحار بطريقة ما .

« قلما يجهد الكاتب في عمله . فبمقدار ما يبطيء ، تاتي النتيجة افضل . لذلك كان تاليف الرواية احب من كتابة القصة . فانت تستريح منها دفعة واحدة . بينما عليك ، كلما شرعت فى كتابة قصة ، ان تبذل الجهد نفسه الذى تبذله لكتابة رواية . ثمة مناسبات استطيع فيها أن انكب على عملي فترات طويلة . مع ذلك اعرف اني اقدر على كتابة الاشياء فى اليوم التالي . بعد ان استريح وقتا كافيا . لا افكر ، خلال الليل والنهار ، إلا بما اكتب . احدث به اصدقائي الحميمين ، من يتفهمون نفسيتي ، ولكني لا اقرا عليهم سطرا واحدا منه ، ولا اسمح لهم بقراءة او بلمس مسوداتي ، لانني اعتقد ، تطيرا ، ان نتاجي ، عندئذ ، يضيع إلى الابد .

لا ! لا ادون الملاحظات إطلاقا ، إلا من إشارة إلى برنامج العمل اليومي . فقد علمتني التجربة اننا إن قضينا الوقت نفكـــر فى الملاحظات المدونة نسينا الكتاب ، ومسار الكتابة .

حين استفيق ، ابدا اول ما ابدا ، بتصحيح نتاج اليوم السابق ، بحبر اسود ، ثم انسخ ما كتبت ، ثم اصحح النسخة الاصلية كاملة ، واعطيها لسكرتيرتي لتطبعها على الآلة الكاتبة ، لانني لا احتفظ بنسخة مما اكتب ، فاذا فقدت ورقة ، خلال تنقلاتي ، أعدت كتابتها فى يوم واحد .

« اقرا المسودات احتياطا . سمح لي الناشر ان اغير ما اشاء فى (مائة عام من العزلة) ولكني لم ابدل إلا كلمتين . والحق ان الكتاب يفقد إلى الابد اهميته لدى منذ ان انتهى من مراجعة النسخة الأصلية التى رضيت عنها » .

« مايريده احدنا ان يكون كاتبا ، لذلك ينكد عيشه ان يقوم بعمل ثانوي . ارفض ما كان يقال عني سابقا من ان على الكاتب أن يعاني الضيق المادي والبؤس ، حتى يغدو كاتبا ناجحا . واعتقد ان الأديب اقدر على الكتابـــة والابداع إذا كانت مشاكله البيتية والاقتصادية محلولة واولاده وزوجته بصحة وعافية ، ووازت متطلبـــات العيش دخله المتواضع ! لا ليس صحيحا ان سوء وضعه الاقتصادي مساعـــد على الابداع ! لانه لا يريـــد أن يقوم بعمل غير الكتابة . وافضل ما يساعده على الكتابة ان تكون مشـــاكلـــه محلولة .

« اذكر امرا اخر . كـــان ممكنا ان احل مشاكلي لو قبلت المنح والمساعدات المادية ، او إحدى تلك الصيغ التى اخترعت لمساعدة الأديب . رفضت كـــل ذلـك رفضا قاطعا . واعرف ان كل الكتـــاب الامريكييـــن ــ اللاتينيين يؤيدون موقفي . فنحن نؤمن ــ وخوليـــو كورتازار مثل لنا ــ إن كرامة الاديب تمنعه ان يقبـــل الاعانات ليكتب . فكل إعانة مادية ، مهما كانت وسيلتها ، تسيء إلى سمعته » .

جابرييل جرثيه ماركيث



خلال خمسة عشر يوما . اما روايته الاخيرة « وقائع موت معلن عنه » فقد صدر من طبعتها الاولى فى ٢٨ ابريل ١٩٨١ مليونان ومئة وخمسون الف نسخة . وبعد اسابيع صدرت طبعتها الثانية . وما كاد عام ١٩٨١ يشرف على نهايته حتى ترجمت الى اثنين وثلاثين لغة ، من بينها العربية التى نشرتها مجلة الدستور اللندنية فى خمس حلقات خلال شهر اغسطس من نفس العام وهي ترجمة مباشرة عن الاسبانية .

العزلة .. دائما

وإن كان ماركيث قد كتب ـ كما صرح ـ كتابا واحدا مفرقا في عدة اعمال ، فان العزلة بمختلف اشكالها هي موضوع هذا الكتاب . فالعزلة فى اعمال « ماركيث » كالضياع فى اعمال « كافكا » والماساة فى اعمال « جويس » والالم فى اعمال « دستويفسكي » . إنها عزلة امريكا اللاتينية داخل اسوار سياسات القهر والاضطهاد والاستغلال والهيمنة الاجنبية وهي ليست بعزلة الانسان الشخصية وإنما هي عزلة فرضتها الظروف الحائرة على الانسان مانعة إياه من التطور ، ومن تاكيد هويته ووجوده بحرية ، وهي عزلة الشخصية المركزية فى « الاوراق الذابلة » حيث تموت فى عزلة مطبقة . وهي عزلة الحياة اليومية فى « مائة عام من العزلة » وفي « خريف البطريرك » يحاول ماركيث النفاذ الى عزلة السلطة الطاغية التى تفرط فى حقوق شعبها إنسياقا وراء النفوذ الاجنبي . وفي « ساعة النحس » تتمثل العزلة فى عزلة المحافظ الذي انصرف عنه الناس ولم تبق بجانبه إلا عرافة تكشف له المستقبل . ويبغي يتحادث معها على امل الخروج من هذه العزلة . وفي « ليس لدى العقيد من يكاتبه » نجد العقيد وزوجته وديكه ينتظرون كل يوم جمعة مكافاة تقاعد ابدا لن تصل .

وهكذا تمثل العزلة بمختلف صورها ورموزها وبطابعها السياسي الاجتماعي العمود الفقري لأعمال ماركيث . فالعزلة عند ماركيث مضادة للتضامن المفقود بين البشر ، وتكاد تشبه تلك العزلة التى اتسم بها شعر ثيسار بابيخو (١٨٩٢ ـ ١٩٣٨) ، إذ ان الانسان فى عزلة لا لانه اراد ذلك وإنما لان الظروف التاريخية قد قهرته ووضعته فى هذا المحك . فالطاغية يفقد طريقه فى غيبة التضامن البشري التى فرضتها القوى الاستعمارية الغازية المحتكرة التى عاملت الطاغية كعميل وليس كصديق .. وبهذا ارتضت له كل ما من شانه ان يفيدها حتى ولو اضر بمصالح شعبه ووطنه ، حتى إذا ما لفظه شعبه تخلت عنه هذه القوى الاستعمارية وعندها يقع فى براثن هذه العزلة المفروضة عليه من الخارج .

ومن المؤكد ان شهرة جابرييل جرثيه ماركيث قد قادته الى مواقع اكثر تقدما على خط النضال السياسي انطلاقا من إيمانه المبدئي فى الدفاع عن الانسان كقيمة اخلاقية وقد عبر عن ذلك النضال حسب قناعاته السياسية بتاسيس مجلة « التيرناتيبا » التى ظلت تصدر فى بوغوتا طوال سنوات خمس .

وحاليا بعد ان فر بنفسه واسرته من شر السلطة العسكرية فى بلاده ، ومن مقر إقامته بكيرناباكا بالمكسيك ، وبعد ان نشر روايته الاخيرة « وقائع موت معلن عنه » يكرس الروائي الكولومبي جهوده لكتابة التقارير السياسية التى تنم عن فهم عميق لظروف العالم المعاصر اساسه علاقات صداقة قوية ربطته بمشاهير الساسة مثل فيدل كاسترو، فرانسوا ميتران ، وعمر توريخوس (رئيس بنما) . وفى نفس الوقت لا يتوقف عن تطوير عمله الادبى الذى سيتبلور هذه المرة فى مجموعة قصصية تتخذ من الظروف القاهرة والمصائب التى تعيشها قارته إثر تصادم الثقافات والعقليات المختلفة فيها موضوعا لها . وسيكون عنوان المجموعة : «أيام متعاقبة هى الحياة» .

محمد عبد الله الجعيدى

ماركيز يرفض مليون دولار !

● من انباء الفائز بجائزة نوبل جابرييل جارسيا ماركيز انه رفض مليون دولار تقدم بها إليه الممثل العالمي انطونى كوين ، وذلك مقابل تحويل روايته الشهيرة «مائة عام من العزلة» الى فيلم سينمائى !!

تراثنا العربي

يفتقر إلى التفسير والفهم!

بقلم: نعمان عاشور

وانا جالس ارصد بخيالي المشهد العام لحياتنا الثقافية وامامي عشرات الكتب التى يستعصى علي قراءتها لانها لا تستحق القراءة .. ومن حولي البرامج التليفزيونية التى تحاصرني بمسلسلاتها المتشابهة المكررة وافلامها المتلاحقة المضنية المزهقة للافكار والتى اصبحت تطمس كافة القيم .. تلمع فى خاطري حيرة مباغتة حول اهمية الفكرة وقيمتها .. ما الفرق بين الفكرة الجيدة ذات القيمة والفكرة الرديئة التافهة التى لا قيمة لها .. وما الذي يميز فكرة ما عن فكرة اخرى ؟ وكيف يمكننا ان نوازن بين حقائق الافكار ونفعها امام هذا الكم المتلاحق من التوهمات التى ترجم بها عقولنا وافهامنا صباح مساء . وطال بي التامل كالمعتاد فرحت امنطق القضية بتفاصيل ارهقت عقلي المكدود إلى ان وصلت الى بديهية كان يجب ان اصل لها من البداية .. الفكرة ذات القيمة هي تلك التى تصمد على مدار اجيال واجال فلا تضعف ولا تنمحي مع تلاحق الزمن بل تثبت وترسخ حتى تتحول من مجرد كونها فكرة لها دلالتها المعنوية الى حقيقة مادية لها اثرها الملموس وبحيث لا يبلى تاثيرها اليوم عما كان عليه تاثيرها بالامس !! .

كنت اقرا من ايام طرفا من كتاب يتضمن واقعة يرويها صاحبها صاحب الكتاب .. عن مفكرنا الاسلامى الكبير وقائد نهضة الشرق فى منتصف القرن التاسع عشر .. السيد جمال الدين الافغانى .. يقول المؤلف .. « حدث أن ارتحل الأفغاني الى الاسكندرية بدعوة من تلميذه اديب اسحاق لمشاهدة مسرحية «شارلمان» التى ترجمها عن الفرنسية وكانت تقدمها فرقة سليم النقاش فى اوائل السبعينات من القرن الماضى .. وشاهد الأفغانى المسرحية وأعجب بها واهتز لهذا اللون من الوان الفن الذى كان لايزال فى باكورة وجوده عندنا .. وهو فن المسرح فلما عاد الأفغانى الى القاهرة بعدها بأيام .. بعث برسالة شكر الى أديب اسحاق وسليم النقاش جاء فيها بالحرف الواحد .. «الحذر كل الحذر من الانسياق وراء التفاهات لان من طبع الجهالة ان تدفع الناس الى التكالب على



جمال الدين الافغانى

التفاهات .. والمكسب الحقيقى فى التشخيص هو توعية الجمهور باحوال معيشته وحقيقة حياته وذلك يكون بضرب الامثال وليس بالنصيحة الفارغة والعظة الجوفاء»

هذه الفقرة كتبها الافغانى منذ مائة عام .. وفى رسالة من رسائله الخاصة .. وربما تاثر بها من كتبت لهم ..ولكن الغريب العجيب اننا لو حللنا هذه الفقرة تحليلا دقيقا .. ثم حاولنا أن نطبقها على ظروف المسرح وتطوراته خاصة مسرحنا الراهن هو وبقية الوان التعبير الدرامى السائدة مثل السينما والاذاعة والتليفزيون لوجدناها مطابقة كل الانطباق فى تشخيصها لواقع الحال وفى تبينها لما ادت إليه من نتائج وابرازها لحقيقة الحل الواجب الذى يردده الافغانى على صورة تحذير !!!!

كلمة يكتبها صاحبها منذ أكثر من مائة عام تظل حية بمضمونها ومدلولها ومغزاها لتعبر الأجيال حتى تصلنا ناضجة نقية طازجة وكانها وليدة اللحظة وبنت الساعة .. أكيد كان الافغانى يرى بثاقب نظره وبفكره الفاحص المدقق ما يجرى امام عينيه وليس له سابقة عهد ولا معرفة بالمسرح ولا بفنون الدراما وذلك منذ اكثر

من قرن كامل .. ما اصبحنا نراه اليوم ولا نستطيع ان ندرا شره وخطره ومغبته على حياتنا الثقافية وعلى فنوننا المعاصرة فكيف تاتى له ذلك ؟!!

حقيقة المسرح

ليس اجدى ان نبدا بتحليل تلك الفكرة التى جادت بها عبقرية الرجل بالقياس الى ظروفها ودواعيها حتى يمكننا ان نصل الى قيمتها وحقيقتها .. شيخ معمم يقارب الستين من العمر اخذ على عاتقه مهمة الدعوة إلى إنهاض الامم الشرقية الاسلامية ودفعها فى مسار التطور الحضارى على اساس من ماضيها الشامخ التليد .. يدعوه بعض تلاميذه من الذين تاثروا بمنطلقات الثقافة الحديثة فى فنونها الذائعة وربما يكون قد شاهد المسرح من قبل او سمع به او قرا عنه .. ولكنه اكيد لم يره ويشاهده ويلمسه على هذه الصورة المباشرة المجسدة إلا بعد زيارته للاسكندرية وحضوره لعرض مسرحية «شارلمان» .. كيف يمكنه بعد هذه المشاهدة التى لايمكن ان تكون قد زادت عن مدة العرض اى ثلاث او اربع ساعات على اكثر تقدير .. كيف امكنه ان يلم كل هذا الالمام بحقيقة المسرح لا فقط فى ايجابياته كفن مباشر لاصق التجاوب بجمهور مشاهديه .. ولكن كفن يرتبط اساسا وبخلاف كافة الفنون الاخرى ويعتمد اعتماداً كلياً وحتمياً على الجمهور المشاهد .. فالجمهور فى المسرح ليس مجرد عنصر متفرج وانما هو يدخل فى مكونات العرض المسرحى كعنصر رئيسى .. قيمته واثره من قيمة النص وقيمة الممثل وقيمة المخرج .. ناهيكم عن بقية وسائل العرض الاخرى من الموسيقى الى الاضاءة الى الديكور ..

لاعجب ان يبدا الافغانى بالتحذير من الانسياق وراء التفاهات لانها من طبع الجهالة التى تدفع الناس الى التكالب عليها .. اى ان مستوى الجمهور نفسه ومدى تذوقه للعرض واحساسه به هو الذى يحدد قيمة العرض .. وهذا صحيح .. ثم اوليس هو التبرير السائد اليوم والذى يقدمه اصحاب مسارح التسلية والاضحاك للمستويات الهابطة التى يقدمون بها عروضهم ؟؟ اليست هذه نفس المزاعم التى تدفعهم الى تكرار الجهر بان «الجمهور عاوز كده» .. إنها الدعوة المرفوعة كشعار لاكثر من عشر سنوات لتبرير كل ما يقدم على خشبات مسارحنا من إسفاف واستهتار




برناردشو — تشيكوف

بكافة القيم متخفية وراء نزوات الجمهور وهو نفس ما رصده الافغانى من اول مشاهدة «الانسياق وراء التفاهات التى تولدها الجهالة» .. هذا ما نهى عنه الافغانى فى اول عباراته وكانه كان يقرا فى كتاب مفتوح الصفحات بارز الحروف لا على المسرح السكندرى منذ اكثر من قرن .. ولكن على المسرح المصرى والمسرح العربى عامة بعد اكثر من قرن كامل من الزمان وهو يكرر نفس البديهية الاولى التى نهى عنها ...

فهم حقائق الحياة

لكن الافغانى لا يقف بفكرته الثاقبة عند هذا الحد .. بل إنه ليعودها الى ما هو اجل واقيم منها فى التعريف بحقيقة فن المسرح وقيمته ونفعه .. فنراه يتبع ما حذر منه كعامل سلبى اساسى كامن فى طبيعة المسرح كعرض جماهيرى مباشر التجاوب مع مشاهديه الى الجانب الايجابى الذى يمثل ويشكل جوهر رسالة المسرح بالنسبة لجميع المشاركين فيه وعلى راسهم الجمهور نفسه فيقول «والمكسب الحقيقى فى التشخيص هو توعية الجمهور باحوال معيشته وحقيقة حياته» .. فقرة مبهرة يركز فيها الافغانى تركيزاً نفاذاً على المفهوم الصحيح للمسرح وهو المفهوم الذى يميزه كفن تشخيص والذى اهتدت به كافة الحضارات التى عرفت المسرح عصوراً عديدة قبلنا من عصر اليونان حتى عصرنا الحاضر .. انه المفهوم الذى بنى عليه ارسطو نظريته وهو نفس المفهوم الذى قام عليه المسرح عند شكسبير الانجليزى ، وموليير الفرنسى ، وإبسن النرويجى ، وتشيكوف الروسى وبرنارد شو الايرلندى ، وبيرانديللو الايطالى ..

فماذا يقول الافغانى عن هذا المفهوم ؟!

إنه يستبق ويهضم ويحتوى التعريف الصحيح للمسرح فهو فن لابد ان يحمل رسالة قوامها تمكين الناس من فهم حقائق حياتهم والوعى باحوال معيشتهم وعلى حسب اخر وادق واشمل تعريف للمسرح «فن الفنون والمؤسسة الثقافية التى تنصب فيها الرؤية الحقيقية للكون والحياة الى جانب انه منبر توعية ومنار مشع للمثل والقيم والتطلعات الانسانية جميعا ..» وهذا ما نفذ اليه الافغانى بفكره الثاقب عن المسرح ، لكن كيف يمكن للمسرح أن يحقق رسالته ؟!

هنا ايضا تتكشف المعية مفكرنا الكبير .. فوسيلة المسرح تعتمد جوهراً واساساً على ضرب الامثال .. اى على التشخيص والتصوير الموضوعى الذى يستوفى كافة الشرائط الفنية المحكمة الاكيدة .. وليس مجرد اطلاق النصائح الفارغة او الالفاظ الجوفاء .. وهو ما يعنى اتقان الفن بحيث تتوافر من خلاله المتعة العقلية الى جانب المتعة الحسية التى تحمل للمشاهدين ما يساعدهم ويعينهم ويقنعهم على تبين الخير من الشر والحق من الضلال وتمييز الصالح من الطالح ..

وهكذا تتاكد حقيقة النظرة الثاقبة من خلال الفكرة ذات القيمة . الفكرة التى لا تقف بقائلها عند حدود الجهر بها لتضيع فى الهواء .. وإنما يمتد بها الزمن لتكون اثبت على الزمن من حياة صاحبها نفسه ولو كان ما قاله الافغانى وحاولنا تحصيله وتفسيره ومقارنته بواقعنا الراهن .. لو كان مجرد راى عابر او فكرة طارئة لما كانت حفاوتنا بها الى هذه الدرجة التى تجعلنا نقدمها لكم كدليل واضح اكيد .. على ان الفكرة .. كما اسلفنا من قبل اثبتت على الزمن من أن تظل مجرد فكرة سيما إذا كانت فكرة جيدة ناضجة ثاقبة لانها بالفعل وبهذه المواصفات تتحول الى حقيقة مادية ملموسة من الحقائق الباقية الحية التى تقاس بها قيمة الاشياء . فما بالكم إذا كانت فى مجال الفن وهو مجال نادراً ما تثبت فيه التعريفات ؟!

الافادة من التراث

وقد تسالونى عن الهدف من وراء عنايتى واهتمامى بمثل هذا التحليل الذى قد يعتبره البعض فرعيا او ثانوى الدلالة .. فاجيبكم بان هذا النهج الذى اختطه



ابن خلدون



أرسطو — شكسبير



موليير — إبسن

معكم إنما يمثل أقوم ما يجب ان نحتفى به فى الافادة من تراثنا الغامر الضخم .. لا بنشره مفصلا فى عشرات الكتب والمجلدات بل بمحاولة التنقيب عما يحويه فى تفاصيله فضلا عن مجمله من الأفكار الحية النابضة الناضجة التى سجلت ورصدت وكان يمكن أن تكون عبر الأجيال أبرز ما نهتدى به فى دعم تقدمنا لولا ما غام على حياتنا قرونا وقرونا من الجهالة والغفلة التى حجبت عنا تراثنا الحى فى غياهب الظل .. إن الدعوة للارتكان على التراث يجب أن تنبعث .. لا على أساس مجرد إعادة طبعه ونشره وإنما بهدف دراسته وتفسيره التفسير المنهجى الصحيح الذى يجلو ما علاه من صدأ فيما يحويه من أفكار وآراء هى بمثابة اللؤلؤة المخبوءة داخل الأصداف .. وليس فى مقدورى أن أضرب الأمثلة أو أستدعى الشواهد فتراثنا العربى تراث ضخم مليء بما لم يدركه التفسير أو الفهم .. لكن أى تفسير ؟!



الاحياء كيف يكون ؟

إن هذا هو السؤال الذى تتحتم الاجابة عليه بموضوعية خالصة ، لان الذى يحدث عادة .. ان يقع قارىء او باحث متحمس للتراث على فكرة او تصور حول فقرة فى كتاب او حتى عن موضوع بكامله تناوله احد الشعراء القدامى او جرى به قلم احد المفكرين فاذا به ينطلق على الملا كافة .. ان هاكم تراثنا الذى سبقنا به العالم كله .. وتكون النتيجة ان يتبلد تقييمنا للمكتشف من التراث بحيث نقف به عن حد الفخر بالسبق .. بدون ادنى محاولة لمتابعته فيما استجد فيه او تطور منه فى سجل تراثنا المتلاحق بعده .. وتكون الصدمة الكبرى حين نتبين انه تراث مبتور او بالاحرى .. سابق لم يدركه لاحق .. وبدلا من ان نتابع تحليله والتعرف على قيمته واهميته ناهيكم عن بعده وامتداد مداه .. نقفز الى مقارنته بما يشابهه فى التراث او الفكر او الابداع الحضارى القائم ..

اى نعم .. كان لنا فضل السبق .. ولكن هل نكتفى بهذا الفضل ونحيله الى تراكمات متوارثة ليتجمد فى داخل ارصدة الكتب كتراث ثابت راسخ .. واخشى ان اقول كتراث مختزن .. ام ان من واجبنا معاودة استكشافه واستلهامه ومقارنته وبحثه وتحليله على ضوء ما استجد عليه او اضيف اليه من منجزات الحضارات الأخرى التى ازدهرت بعدنا فطورته الى ما تطور اليه ليصبح لاصقا بها متلاحما معها مجاوبا لحاجاتها منه . بينما نظل نحن نردد انه من الاصل تراثنا الذى سبقناهم فيه واوجدناه قبلهم .. إنما تكون العبرة بما يمكن ان نفيده من هذا التراث .. لا بربط ماضينا بحاضرنا .. بل فى تقويم حاضرنا على ضوء ما ادخل عليه واستجد فيه من جانب الحضارات التى تلت حضارتنا المنبثق منها .. وهنا تكون الاصالة هى العنصر الفعال فى ارتباطنا بتراثنا الخابى الذى توقفت حضارتنا به ولم تتابع تطويره

إحياء التراث إذن لا يكون باعادة نشره فقط ولا باثبات احقيته فى السبق وإشهار اقدميته فى التواجد .. ولنأخذ مثلا تراث ابن خلدون وما استبق به كافة المفكرين بعده فى اكتشافه علم الاجتماع وقواعده واصوله ومعالمه وقوانينه الخ ... اكيد انه صاحب اثر نفاذ على كافة وجوه المعرفة الاجتماعية التى تلته وسواء كان هذا الأثر مباشرا او غير مباشر فان له امتداداته القيمة فى التعرف على الكثير من حقائق المعرفة الاجتماعية التى اتى بها او توصل اليها بقية المفكرين الاجتماعيين الغربيين . وقد طوروه وضاعفوه واضافوا اليه الكثير الكثير مما لم يصل اليه صاحبه .. فاذا نحن أردنا ان نعود الى هذا التراث .. وهو فى الأصل تراثنا .. فما هو السبيل لأن نرتد له ؟! بالتدليل على اننا سبقناهم فيه واوجدناه قبلهم .. ام بمعاودة استكشافه بحثا وتحليلا وتفسيرا للافادة مما حواه واوجده ولم يأخذوا هم به .. وتبين ما لايزال راسبا فيه وصالحا لنا منه .. بدون تجاهل منجزاتهم بل مع الاهتداء بها وبما طوروه منها فى الربط بيننا وبينه .. وكيف يمكن ان ندرك حقيقة تراثنا ونقنع بقيمته إلا إذا اهتدينا فى تبنينا له وتعرفنا عليه وعودتنا اليه بما لحقه ولحق حقائقه من منجزات وتطورات يستحيل إدراكها إلا على ضوء العصر الذى نعيشه ..

من أسابيع وانا غارق فى قراءة « الف ليلة وليلة » .. هذه هي المرة الرابعة التى ارتاد فيها سجلنا القصصي العامر .. واكتشف بعد ما انقضى من العمر والتجارب والمعارف شيئا لم ادركه من قبل فى هذه الملحمة الشعبية الضخمة ! انها باسلوبها وحكاياتها ومضامينها وما حوته من افانين واخيلة تسبق كافة فنوننا الابداعية المعاصرة بكل مدارسها واتجاهاتها الواقعية والرومانتيكية والانطباعية والسريالية الخ .. الخ من الوان الابداع .. لكن هل معنى هذا وفى رجوعنا إليها وارتدادنا لها .. ان نتجاهل أو ننكر أو ننحي جانبا .. الافادة مما درسناه وادركناه ومارسناه من فنون ابداعية حديثة هي نبت لاصق متطور بمنجزات الابداع الفني والفكري للحضارة المعاصرة القائمة .. وهل يعيننا ذلك في محاولة الارتباط بتراثنا بعد ان انقطعت صلتنا به ؟!!

ونرجع الى ما بدانا به وهي مقولة الافغاني عن المسرح وتعريفه له حال تعرفه عليه ونفاذه إلى حقيقته وغور أبعاده كفن .. مثل هذا هو ما يجب ان ننقب عنه فى التراث .. ان يكون هناك من بين رواسبه مايرسخ على الزمن فنفيد منه فى حاضرنا .. ربما اكثر مما كانت فائدته هو نفسه قبل ان يصبح تراثا .. واخشى الا اكون واضحا .. ولكن مجمل القول .. اننا فى حاجة واشد حاجة الى منهج واقعي صحيح لاحياء التراث .. يتجاوز بنا مراحل الاكتفاء بتصحيحه وتسجيله ويجعلنا نخطو بما فيه إلى ابعد من اننا سبقنا به غيرنا .

نعمان عاشور

بقلم: عصام شريح

أهارون أبو حصيرة والأزمة الطائفية في لبنان

اهارون ابو حصيرة

تجتاح الكيان الصهيونى منذ فترة عاصفة طائفية عاتية تهدد بانقسام بين الاسرائيليين ، قد يكون قاتلا بالنسبة لكيانهم ، وكان ابرز رموز هذه العاصفة ، وزير الاديان السابق ، ووزير الشؤون الاجتماعية الحالى ، اهارون ابو حصيرة ، الذى تحولت محاكمته بدعوى السرقة وتوزيع الرشاوى الى قضية بل الى ازمة طائفية حقيقية . والشيء الملفت للنظر ان العرب لم يفعلوا شيئا لاستثمار هذه الازمة عن طريق تعميقها بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين فى نضالهم ضد الصهيونية .. لكن لعل فى فتح ملف ابو حصيرة ، والازمة الطائفية فى اسرائيل ، ما يساعد على ان يتنبه العرب لما ينبغى عليهم ان يفعلوه فى هذا المجال .

ولد اهرون ابو حصيرة فى المغرب فى عام ١٩٣٨ ، وهاجر الى فلسطين فى عام ١٩٤٩ ، وتابع دراسته فى مدرسة دينية ثم فى دار للمعلمين ، ثم التحق بعد ذلك بجامعة «بار إيلان» الدينية .

وقد بدأ ابو حصيرة حياته السياسية بالعمل رئيسا لبلدية مدينة الرملة فى عام ١٩٧١ ، وفى عام ١٩٧٣ انتخب عضوا فى الكنيست للمرة الاولى على قائمة مرشحى حزب المفدال (الحزب الوطنى الدينى) ، الذى يرأسه الدكتور يوسف بورغ ، وقد لمع اسم اهارون ابو حصيرة كزعيم لكتلة الشباب داخل هذا الحزب فى مطلع عام ١٩٧٧ ، مما جعله يفوز بعضوية الكنيست التاسع فى نفس العام ، وقد اصبح ابو حصيرة ممثلا لليهود الشرقيين داخل حزب المفدال ، حيث تتمتع عائلته بمكانة دينية مرموقة ، مما اهله لتولى منصب وزير الاديان فى حكومة مناحيم بيغن الاولى ، لكن فى اواخر عام ١٩٨٠ ، وجهت اليه تهمة التلاعب بالاموال العامة وتلقى رشوة مما اثار عاصفة فى الكيان الصهيونى حول اختلاسات كبيرة من اموال وزارة الاديان ، إلا ان ابو حصيرة دفع هذه التهمة جانبا ، وقدم استقالته من منصب وزير الاديان ، قائلا إنه مجرد ضحية لانه يهودى شرقى ليس إلا ، واضاف ان رئيس حزب المفدال يوسف بورغ يقف وراء هذه التهمة مع انصاره ، بسبب حقده على اليهود الشرقيين .

وإزاء هذه التهمة وإحالة قضيته على المحكمة ، انشق ابو حصيرة عن الحزب الوطنى الدينى (المفدال) ، واقدم قبل شهر تقريبا من موعد انتخابات الكنيست العاشر (٣٠ - ٦ - ١٩٨١) على تأسيس حزب سياسى جديد باسم «حزب تامى» .

ويقول ابو حصيرة عن حزبه : «نحن حركة تراث ، فجميعنا رجال محافظون ، يهود متدينون ومحافظون ، نريد خلق جسر بين اليهود المتدينين واليهود المحافظين » ، وقد احتل حزب تامى ثلاثة مقاعد فى الكنيست العاشر (الاخير) ، واهرون ابو حصيرة هو احد النواب الثلاثة عن هذا الحزب .

ابو حصيرة .. سارقا

بتاريخ ١٩ - ٤ - ١٩٨٢ ادانت «المحكمة الاسرائيلية العليا» وزير العمل والشؤون الاجتماعية واستيعاب المهاجرين اهارون ابو حصيرة بتهمة الاحتيال والسرقة وإساءة استخدام منصبه ، وصدرت عن المحكمة احكام بالسجن مع وقف التنفيذ بحق ابو حصيرة ، تصل فى مدتها الى واحد وخمسين شهرا ، وقالت رئيسة المحكمة فكتوريا اوستروفسكى كوهين ، انها قررت خفض عقوبة المتهم ، لأن هذه هى المرة الاولى التى يحاكم فيها رجل سياسى فى اسرائيل بسبب مخالفات مالية ، واضافت ان «ابو حصيرة» ادين بتهمة خداع المجلس البلدى فى مدينة الرملة عن سابق تصور وتصميم ، عندما كان رئيسا لهذا المجلس ، ووصفت كوهين إدارة خزينة البلدية من قبل ابو حصيرة ، ومساعده موشى غاباى الذى اصبح فيما بعد مديرا عاما لوزارة الشؤون الدينية ، بانها كانت اشبه ما تكون بادارة عقار خاص حيث لم تحفظ اى سجلات محاسبية ، كما ان الحوالات المصرفية كانت تؤخذ من

الخزينة للاستخدام الشخصي ، وغالبا ما كانت هذه الحوالات توضع تحت تصرف أصدقاء ابو حصيرة والمقربين اليه . وكان أهرون ابو حصيرة قد قدم للمحاكمة امام القضاء للمرة الاولى في عام ١٩٨٠ ، وصدر براءته آنذاك لعدم كفاية الادلة .

ونعود الى اصل الاتهامات التي وجهت ضد ابو حصيرة عندما كان يشغل منصب وزير الاديان في الفترة ما بين ١٩٧٧ – ١٩٨١ ، فبتاريخ ٧ – ٩ – ١٩٨٠ ، نسبت صحيفتا «هارتس» و «جيروزاليم بوست» الى مصادر في الشرطة الاسرائيلية قولها إن مئات الملايين من الليرات الاسرائيلية اختلست من وزارة الاديان وأودعت في حسابات مرقمة في البنوك السويسرية ، واضافت الصحيفتان ان شخصيات دينية وسياسية كبيرة ضالعة في عملية الاختلاس هذه ، وبتاريخ ١٣ – ٧ – ١٩٨٠ اشارت صحيفة «هارتس» الى ان ازمة داخل حزب المفدال ، قد نشبت ، إثر إقدام وزير الاديان اهرون ابو حصيرة على إقصاء مدير عام الوزارة يسرائيل ليبل عن منصبه ، وقد اتهم ليبل الوزير ابو حصيرة باستخدام اقاربه في الوزارة ، واستغلال منصبه كوزير لتعزيز نفوذه داخل حزب المفدال ، وغض النظر عن فضائح واختلاسات مالية كبيرة ، وقدم مدير عام الوزارة وموظفون كبار متضامنون معه ادلة تثبت ان وزارة الاديان تدفع مخصصات مالية تقدر بمئات الآلاف من الليرات الاسرائيلية لمدارس دينية وهمية ، ولتلاميذ غير موجودين إلا في جداول مزورة .

وبتاريخ ٢٢ و ٢٨/٨/١٩٨٠ ، كشفت صحيفة «يديعوت أحرونوت» النقاب عن قيام الشرطة الاسرائيلية باقتحام مكاتب وزارة الاديان ثلاث مرات وعلى مدى ثمانية ايام ، حيث صادرت خلال ذلك العديد من الملفات والوثائق ، في محاولة للتحقق من الشبهات المتعلقة بارتكاب بعض موظفي الوزارة مخالفات وعمليات رشوة بمبالغ مالية كبيرة .

ومن خلال التحقيقات التي اجرتها الشرطة ، اخذت الشبهات تحوم حول تورط وزير الاديان نفسه ، وحصوله على مبالغ مالية كبيرة كرشوة لنفسه ، ثم حول مصادقته على رصد مخصصات ومنح مالية للمقربين منه ، لغرض دفع رشاوى في الانتخابات للمجالس المحلية .

ولخصت «يديعوت احرونوت» الاتهامات المنسوبة الى أهرون ابو حصيرة وثلاثة من كبار معاونيه بما يلي :

● وصول بعض الاموال المخصصة للمدارس الدينية الى جيوب بعض الأفراد .

● ان بعض الأموال المخصصة للمؤسسات الدينية استخدمت لشراء الأصوات في المعارك الانتخابية في بعض السلطات المحلية (مجالس محلية او ما شابهها) .

● هناك شبهات تفيد بان احد اقرباء العاملين في الوزارة قد حصل على عدد كبير من الاصوات في انتخابات احد المجالس المحلية بوسط «اسرائيل» ، وفاز بنيابة رئاسة المجلس ، بعد ان قدم تعهدات ووعود للناخبين المتدينين ، بتقديم دعم مالي من وزارة الاديان وحزب المفدال لعدد من الكنس (المعابد الدينية اليهودية) ، في تلك المدينة .

كما اشارت «يديعوت احرونوت» الى ان الشبهات على صعيد وزارة الاديان ، تحوم حول ارتكاب المخالفات التالية :

● حصول بعض المدارس الدينية وغيرها (علمية وادبية ومهنية) – والتي لا وجود لها اساساً – على مخصصات مالية من الوزارة على امتداد عدة سنوات . ثم وصول تلك الاموال الى جيوب بعض الأفراد .

● تحويل المعونات المالية المخصصة للمدارس الدينية ، والمدارس الاخرى ، الى حسابات بنكية خاصة .

● تقديم لوائح الى وزارة الاديان ، هي في الواقع من نسج الخيال وتتضمن تلك اللوائح قوائم باسماء طلاب وهميين في تلك المدارس ، بهدف زيادة مخصصات الدعم المالي لهذه المدارس .

● قبول احد موظفي الوزارة رشوة مالية .

ردود فعل

أثارت ادانة وزير الأديان السابق أهرون ابو حصيرة (حاليا وزير العمل والشؤون الاجتماعية واستيعاب المهاجرين) ، اثارت ردود فعل عنيفة بين اليهود الشرقيين ، فقد اتهم انصار الوزير المدان «العدالة» في اسرائيل ، باتخاذ موقف متحيز ضد «ابو حصيرة» الذي ينتمي الى اسرة من الحاخامات اصلها من المغرب . وقال اقاربه انه مستهدف لأنه شخصية سياسية يهودية شرقية .

واضافوا ان «العدالة» تتغاضى عن مخالفات اكثر خطورة يرتكبها يهود من أصل اوروبي غربي . وعقبت اوساط اليهود الشرقيين على محاكمة «ابو حصيرة» وادانته ، بالقول انها كانت جزءاً من محاولة للنيل من اليهود الشرقيين من قبل اليهود الاوروبيين . ونقلت صحيفة «عال همشمار» (٢٩/٨/١٩٨٠) عن بعض اعضاء الكتلة البرلمانية في حزب المفدال قولهم : ان الحملة التي تشنها وسائط الاعلام الاسرائيلية ضد «ابو حصيرة» ، هي جزء من مسلسل قديم له طابع طائفي بحت ، واعتبر هؤلاء هذه الحملة موجهة بقصد الاساءة الى زعماء الطوائف الشرقية بغض النظر عن انتماءاتهم الحزبية ، واستشهدوا على ذلك بمحاولات التشهير التي شنت في السابق ضد بعض هؤلاء ، من امثال رئيس بلدية ديمونا جاك عيد ، ورئيس العمال في ميناء اشدود يهوشع بيرتس وغيرهما .

أزمة طائفية

في الواقع بدات ازمة طائفية تبرز في الكيان الصهيوني منذ السنوات الاولى لاقامة هذا الكيان على ارض فلسطين المغتصبة ، وكانت هذه الازمة تكبر وتتضخم سنة بعد اخرى ، وقد عبرت عن نفسها بظواهر مختلفة ، كظاهرة التذمر الواسعة التي اجتاحت صفوف اليهود المغاربة (١٩٥٩) ثم ظاهرة الفهود السود في اسرائيل (١٩٧١) ، لكن ظاهرة الوزير اهرون ابو حصيرة ، كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ، وكشفت عن عمق الهوة الطائفية في الكيان الصهيوني ، وصعوبة – إن لم يكن استحالة – ردم هذه الهوة . وقد جاءت الانتخابات العامة الاسرائيلية للكنيست العاشر (الكنيست «البرلمان» الحالي) لتفضح – اكثر من اي انتخابات سابقة – عملية الاستقطاب الطائفي بين الاحزاب الاسرائيلية المتنافسة في هذه الانتخابات ، حيث اثبتت عملية الانتخاب ان الناخبين اليهود من أصل اوروبي واميركي ، اندفعوا في غالبيتهم للتصويت للمعراخ (التجمع) – اي حزب العمل وحلفائه ، فيما اندفع الناخبون من اصل اسيوي وافريقي في

أهارون أبو حصيرة والأزمة الطائفية في لبنان

غالبيتهم للتصويت لليكود (التكتل) ــ اي حزب حيروت وحلفائه .

وقد كتب إيلي تابور في «يديعوت احرونوت» ١٧ ــ ٧ ــ ١٩٨١ ، كتب معلقاً على نتائج الانتخابات العامة التي جرت في الثلاثين من حزيران (يونيو) ١٩٨١ ، فقال : «.. ففي هذه الانتخابات وصل الى اوجه ، مسار بدأ في معارك انتخابية سابقة وبرز بوضوح لأول مرة في ايار (مايو) ١٩٧٧ ، في انتخابات الكنيست التاسع ، فالاكثرية الساحقة من ناخبي الليكود في هذه الانتخابات ، كانت من ابناء الطوائف الشرقية ، فيما كان معظم ناخبي المعراخ من ابناء الطائفة الاشكنازية (اليهود البيض من اصل اوروبي وامريكي) » .

واضاف تابور قائلا : «ان توزع الناخبين وفقا لاصولهم الطائفية ، كان بمثابة صفعة لجميع اولئك الذين حاولوا في الماضي الادعاء ، ان التصويت الطائفي ــ السياسي هو امر عرضي وعابر ، ففي هذه المرة ، اتضح بما لا يدع مجالا للشك ، ان العكس هو الصحيح ، فالتصويت الطائفي هو ظاهرة اخذة بالتفاقم ، بل إن هذه الظاهرة قد تحولت الى تيار جارف ، مما يستدعي إشعال اضواء التحذير الحمراء ، وقرع اجراس الانذار ، لان ما ظهر في المواجهة السياسية ، هو شاهد على ان مرضا مزمنا وقديما في المجتمع الاسرائيلي قد اخذ يتطور بوتيرة متسارعة» .

مظاهر من الازمة

إن الهوة الطائفية التي عبرت عنها انتخابات الكنيست العاشر ، وقضية الوزير ابو حصيرة ، ولو بشكل جزئي ومحدود ، تتجلى في الكيان الصهيوني منذ مدة في عدة مظاهر اهمها :

الوضع الثقافي : ويعبر عن هذا المظهر بصورة رئيسية ما يسمى بثقافة «المعبروت» بالنسبة لليهود الشرقيين ، وفي الواقع فان عملية الاستقطاب الطائفي بدأت مع ظهور « المعبروت » هذا في عام ١٩٥٠ ، اي بعد قيام اسرائيل بسنتين فقط ، والمعبروت هو في العربية « المعبر » او مكان الاقامة المؤقت ، وقد اقيم لمواجهة تيار المهاجرين اليهود الوافدين على فلسطين المحتلة ، ووصل عدد « المعبروتات » في اوجه الى ١٤٠ ، وكان في البداية مخصصاً للمهاجرين البيض القادمين من اوروبا وامريكا وللسمر والسود القادمين من اسيا وافريقيا على حد سواء ، لكن سرعان ماأخذ تواجد البيض في المعبروت يتقلص رويداً رويداً ، لكي يقتصر في اواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات على اليهود الشرقيين فقط ، الذين اخذت اقامتهم فيه تمتد إلى سنوات طويلة ، لعدم توفر المساكن او المستوطنات الجديدة ، او العمل ، وهكذا ولد جيل كامل وترعرع في المعبروت الذي لم يكن في الواقع اكثر من معسكر من الخيام والمساكن المصنوعة من التنك ... وعندما كانت تتوفر الظروف لمغادرة المعبروت الى المستوطنات او المساكن فيما اطلق عليه اسم « مدن الأعمار » ، كانت جميع التشويهات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، او ما يمكن تسميته « بثقافة المعبروت » ، تنتقل مع المهاجرين الجدد إلى اماكن سكنهم الجديدة ، وكان من الملفت للنظر في عملية الانتقال هذه ، ان غالبية المهاجرين من اليهود الشرقيين قد تم اسكانهم في « مدن الأعمار » وفي الموشافيم (المزارع التعاونية) في حين تدفق اليهود الغربيون على مراكز السكان القديمة في المدن الرئيسية (تل ابيب ــ حيفا ــ القدس ــ يافا ــ ... الخ) ، اي ان عملية تمييز عنصري قد بدأت تأخذ مجراها في اسرائيل من المعبروت الى المدن والمستوطنات ، فقد كان هناك فرز حقيقي بين الشرقيين والغربيين في المعبروت ، وقد انتقل هذا الفرز إلى اماكن السكنى الجديدة ، وكانت هذه العملية الخطيرة تنفذ احيانا كثيرة بصورة منهجية ورسمية . يقول « اشر عيدان » ــ محاضر في الفلسفة بجامعة تل ابيب ــ « ... عندما اخرج والداي من « المعبراه » قالوا لهما إنهما سيأخذونهما إلى مدينة « بئر السبع » ، لكنهم اخذوهما الى الصحراء ، وعندما رفضا النزول من الشاحنة ، ارغموهما على النزول في الموشاف بعد جولة قصيرة حيث كانا يتعيشان من ثلاث بقرات ... وفي الموشاف المحاذية ، هناك اشخاص مازالوا حتى اليوم يروون كيف جلبوهم الى اماكن سكناهم الحالية ، وعندما رفضوا النزول ، رفعوا رافعة السيارة ورموهم على الأرض » .

ويقول « اشر عيدان » : « إن هذا جزءاً من الاحباط النفسي الذي يعاني منه اليهود الشرقيون » .

ولم يتوقف التمييز العنصري عند هذا الحد ، بل ان اليهود الشرقيين اخذوا يتحدثون صراحة عن وجود حضارتين وثقافتين في اسرائيل ، وبتعبير اخر اصبح الحديث عاليا في الكيان الصهيوني عن « هم ــ ونحن » .

ومن مظاهر صيغة « هم ــ ونحن » ما يقوله حاييم ، وهو اديب وكاتب مسرحي من مواليد المغرب : « انت تشعر (كيهودي شرقي) بانك تافه وعاقر ويتيم ومعزول وذليل ومضطهد ، انت انسان غير مرغوب فيه ، ولا احد يهتم بثقافتك ، فموسيقاك ليست موسيقاهم ، وقصائدك ليست قصائدهم ، وبالطبع فقيمك ليست قيمهم ... فكل ابطال التليفزيون هم اشكناز ، اصحاب الافكار والمنتجين كلهم اشكناز ، وانا كلي اصغاء ، وابحث لأرى متى يبداون ببلورة بطل مغربي على سبيل المثال ، او تونسي او جزائري ... واحيانا تكون مصغيا ويبدو لك ان كل ما هنالك ، هو انهم يبثون إليك عبر هوائيات موجودة في بلاد اخرى ، وانت تستقبل بجهاز لدولة اخرى .. الاتصال مفقود .. » .

ويقول دافيد حمو : « عندما ارى على شاشة التلفزيون برنامجا لنعومي شيمر ، انادي على زوجتي الاشكنازية : هناك برنامج للاشكناز . إن اي قصيدة لنعومي شيمر لا اجد فيها نفسي ، وبالنسبة إلى ، فعشية كل عيد وفي مساء كل يوم جمعة اجلس امام تليفزيون الاشكناز ، فاشكنازي هو الذي يتحدث عن مشاكلي ، وبمضمون اشكنازي وليس اسرائيليا .. » .

ويقول « يوحنان بيرس » ــ عالم اجتماع ــ إنه لا توجد في اسرائيل حضارتان متساويتان في القيمة ، وتثري كل منهما الأخرى ، بل ان هناك حضارة سائدة ، وإلى جانبها حضارة مسودة » .

ويضيف إنه « بينما اقتربت الطوائف الاشكنازية من بعضها البعض الى حد ذوبان الحواجز في الجيلين الثاني والثالث ، فان الطوائف الشرقية بقيت في الأساس في إحساسها بالغبن ، فالتشابه في انماط حياة هذه الطوائف يلاحظ عندما تقارن ببعضها ، ولكنه لا يشكل اساساً للمشاركة في مضامين الحضارة » .

اما عالمة الاجتماع « دفورا بيرنشتاين »

فتقول: «..إن الزعماء وعلماء الاجتماع والمفكرون والموظفون ، قد نظروا الى ابناء الطوائف الشرقية كاشخاص بحاجة الى عملية تحويل حضاري حاسمة ، وكمتخلفين تعوزهم القدرة على التحكم بالذات ، ويفتقرون الى النضج » ، وتضيف « إن الاحصائيات الرسمية فى اسرائيل تؤكد ظاهريا الزعم بان ابناء الطوائف الشرقية ليسوا من مستهلكي الثقافة ، ومن هنا يستدل على تدنيهم الحضاري » .

سيطرة اقتصادية

وإلى جانب التمييز الثقافي والحضاري ضد اليهود الشرقيين ، هناك ايضا تمييز اقتصادي ، ولكن على اساس طائفي ، حيث يوجد فى اسرائيل توزيع طائفي للموارد الى جانب التوزيع الطائفي للعمل ، على حد تعبير عالم الاجتماع الدكتور شلومو سبيرسكي فى كتابه « ليسوا ضعفاء بل مستضعفين » .

وقد توصل الدكتور سبيرسكي الى استنتاج مؤداه ، انه من الواضح انه تكون فى اسرائيل توزيع عمل طائفي ، يحتل فيه الشرقيون قوة العمل ، بينما يحتل الاشكناز مواقع السيطرة والادارة فى كافة المرافق ، ويشير هذا التوزيع الى ان توزيع العمل الطائفي اخذ فى التازم ، فكلما مرت السنوات يتضح ان نسبة التقدم والترقية فى أوساط الاشكناز (البيض) من المراتب الدنيا في سلم العمالة الى المراتب العليا منه ، اكبر بكثير من نسبة التقدم والترقية فى اوساط الشرقيين ، ويشير « سبيرسكي» إلى أن توزيع العمل بين الغربيين والشرقيين بهذا الشكل غير المتكافىء « قد يتجذر مع مرور الوقـــت » .

« فالشرقيون فى غالبيتهم ، يفتقرون الى راس المال ، ويقدمون العمل فى المراتب الدنيا لسلم العمالة ، وهم ممثلون بصورة ضئيلة نسبيا فى اروقة القوة السياسية ، ويمكن القول ان جوانب اساسية في تطورهم مرتبطة بالقرارات التى تتخذ فى منظمات ومؤسسات ، يمثل الاشكناز فيها المواقع العالية والمناصب الرفيعة ، فتطورهم تبعي ، وهو مرتبط بمشاريع الانماء للمجتمع باسره ـ مجتمع تتجسد فيه قيم وطموحات وانماط عمل اشكنازية فى اساسها » .

سيطرة الاشكناز

إن الانقسام الطائفي فى اسرائيل ، يلقي بالاضافة الى اصوله الضاربة فى عمق تاريخ اليهود ، يلقى تشجيعا ومتابعة دؤوبة ومنهجية لتكريس سيطرة اليهود الغربيين على اليهود الشرقيين . ويستشهد الدكتور « سبيرسكي » على هذه السيطرة المنهجية بفقرة من اقوال يهودي شرقي من اصل عراقي اسمه « عزرا » ، وهو عضو فى لجنة العمال باحد المشاريع الحكومية ، وفيها يقول : « هناك طائفة فى البلاد مسيطرة تماما على كافة نواحي الحياة فى هذه الدولة ، وانا لا اخجل من قول ذلك ، وهذه الطائفة هي الطائفـــة البولندية ـ رجال الهجرة الاولى او الهجرة الثانية ، فلو تمعنت فى مكاتب الحكومة ، فستجد انهم جميعا من اصل بولندي ، وكل واحد منهم ياتي بالآخر الى هذه المناصب البارزة ، اما الطوائف الشرقية التى انتمي إليها ، فلا ترى وجودا لها هناك ، انهم رجال العمل الاسود » .

ويضيف عزرا : إن الهستدروت (اتحاد نقابات العمال) هي للبولنديين ، وان الجامعات للاشكناز ، وان البيض يسدون جميع الطرق والمنافذ امام اليهود الشرقيين

هل تقوم حرب طائفية ؟

وإزاء تفاقم المشكلة الطائفية فى اسرائيل ، فان البعض بدا يطرح اسئلة محرجة حول امكانية قيام حرب طائفية بين الشرقيين والغربيين ، خاصة وان عملية الدمج او الاندماج التى سعت إليها حكومات اسرائيل المتعاقبة ، قد فشلت خلال اكثر من ثلاثين سنة . وهاهي ذي انتخابات الكنيست العاشر ، وقضية الوزير ابو حصيرة ، تكشف عن التهاب المشكلة الطائفية وليس ضمورها .

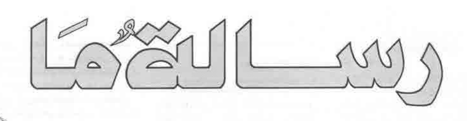
ويقول « حنـــان انـــوش » في مجلـــة « عراخيم » ـ كانون الاول (يناير) ١٩٨٠ ـ العدد السادس ـ إن ابناء « اسرائيـــل الثانية » يقصد اليهود الشرقيين ـ قد نقلوا دعمهم السياسي من المعراخ (التجمع) إلى الليكود (التكتل) ، حيث تجمع الاحزاب المندمجة فى الليكود التطرف القومي بالديماغوجية الاجتماعية الواسعة .

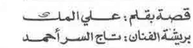
ويقول إيلي تابور (يديعوت احرونوت ـ ٣ ـ ٧ ـ ١٩٨١) : إن حزب الليكود الذي يقوده مناحم بيغن حاليا ، بقي فى نظر المنحدرين من اصل افريقي واسيوي ، وفى نظر الاجيال الطالعة بالذات ، حزبا معارضا يستطيعون بواسطته التعبير عن احتجاجهم ضد الحزب الذي كان في نظرهم الحزب الحاكم الذي اساء إليهم وإلى ابائهم ...

وبالفعل ، فان اليهود الشرقيين قاموا بعمل قاطع هو التصويت فى انتخابات الكنيست التاسع (١٩٧٦) ثم الكنيست العاشر (١٩٨١) ، الى جانب حزب الليكود ، لا حبا في الليكود وإنما انتقاما من المعراخ الذى حكم اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٧٦ ، وقد ادى الاستقطاب الشرقي حول الليكود الى استقطاب غربي مضاد حول المعراخ فى هذه الانتخابات ، مما جعل البعض في اسرائيل (الدكتور سبيرسكي مثلا) يحذر من مواجهة طائفية مكشوفة عن طريق الاطر السياسية الكبرى فى اسرائيل ، ومما دفع عالم الاجتماع حنان بيرس إلى القول « .. فاذا لم نقلص الهوة الطائفية ، فان الاحساس المتعاظم بالغبن قد يقود إلى انفجار مدمر .. » ، خاصة ، وان البعض من الاشكناز يحذر من خطر تحول اسرائيل الى دولة شرقية ، ويستشهد هؤلاء على ذلك بتنامي التوجه الطائفي ، لدى اليهود الشرقيين ، وانصرافهم بشكل مكثف الى السلفية الدينية ، حيث يشكلون اكثر من ٧٥ بالمائة فى المدارس الابتدائية الدينية الرسمية ، و ٨٢ بالمائة فى المراحل الاعدادية الخاضعة للاشراف الرسمي الديني ، و٩٧ بالمائة فى المدارس الاعدادية التابعة لنظام « التعليم المستقل » التابع بدوره للحزب الديني المتطرف والمعروف باسم « اغودات اسرائيل » .

واخيرا .. وليس اخرا .. هل يعي العرب حقيقة الهوة الطائفية والنزاع الطائفي المغلف حاليا فى اسرائيل ، والمرشح لان يتحول الى صراع قاتل ومدمر للكيان الصهيوني ، وان يعملوا على تغذيته واستثماره من اجل وضع حد للمهزلة الصهيونية على ارضهم ؟!! .

عصام شريـح







عزيزى .....
تحياتى ... وبعد ..

يا معشر الرجال . سلمنا من قبل ، ذاك الذى سلم واستسلم من النساء جيل ، ونحن جيل . هن قد صدقن ان هذه البلاد الفسيحة لكم وحدكم . تسيحون فيها ما شئتم . تجتمعون تسمرون ، تتفرقون . شانكم المرح الفياض . ثم قنعن مرغمات بالحجرات : مضيئات ، مظلمات ، لاشىء يهم .

والدنيا كلها انباء رجال . فان رفعت امراة راسها قالوا وقالوا وقالوا . وإن اتت امرا يستحق الاحتفاء ، او ربما الانتباه ، تحرك فيهم ذلك التسلط الذي يعربد داخل ذواتهم ، عللهم كله ، وانه لا له ذكر .

ليلى خالد : اتذكر خبرها ؟ اختطفت طائرة لاجل فلسطين . ونبحت كل وكالات الانباء : هَوْ .. هَوْ .. هَوْ .. وتنبغ امراة اخرى . وتنبح وكالات الانباء : هَوْ .. هَوْ .. هَوْ .

ومنكم قد جاء علماء . وطفقوا يتحدثون عن الفرق بين الرجل والمراة .. يندر ان تصاب امراة بقرحة المعدة ، قالوا . الا ترى انهم يحسدونها ؟ جاء العلماء كلهم : علماء التشريح وعلماء وظائف الاعضاء ، واطباء الباطن والظاهر ، واهلات علم النفس والطب الوقائى ، والحشرات ، واهل المسالك البولية اجتمعوا فى مكان ما بكندا واعلنوا ان تجاربهم على نبات (اليوهمبين) الافريقى اثمرت ، وبفضله ـ ذاك النبات ـ سيزداد الرجال قوة فوق قوة، وبعد هذا الاكتشاف المذهل قال المعلقون انه لن تخون امراة خلها لضعف ما ! وناس التوليد والعقم ، وعلماء الغابات والحيوان والعلوم السياسية ، والكيمياء ، والنحو والعروض ، والاحصاء ، وتعليم الكبار ! وسائر الجراحين من غير اهل المسالك .

وقالوا إن انثى الجراد تقتل الذكر بعد قضاء الوطر ، وانثى البعوض تقتل الملاريا وانثى البشر تنقل الكلام من بيت لبيت ! وزعموا ان الحصان اجمل من الفرسة . وان المراة تبكى لضعفها . اما اهل الوقار فقد لاذوا بمعامل الوقار ، وخرجوا بكلمات ثلاث : (إن كيدكن عظيم) ! الا ترى ان هذا زمان الانباء ؟

إذن فكيف تمضى امراة مثلى ـ هذا ما علمت ـ الوقت حين تحاول ان تقطع صلة متينة مع من كانت تود اشد ود ؟ احدثك عن تجربة يوم واحد ، شهدت فيه طرفا من الشروق . ما ادركت غرته ، بصرت بالشمس من خلف المداخن والسقوف الزنك المائلة آن تنهار بفعل المطر ، والعمال ان يثورون . ثم رقبت الغروب جله ، والشمس تسقط فى مستقر لها ، ربما هو امدرمان ، كرة ابدية النار الى موطنها ، تظن هادئة وشبه خامدة تؤوب . انجزت عمل يومها . يا شعراء المدينة انكم تنفقون بمثل هذا التامل زمان الوجود . مضت ايام لا اراك فيها ، اأقول يا لحسرة الفؤاد ؟ ام ماذا اقول ؟ كل مدمن يعيش اوان شدة وباساء .. يرجو بعدها ان يصفو دمه ، ان كان هو ذا عزيمة . ومن يدرى ؟ لعل .. عسى .. ربما ..

● ● ●

هل اشكر لك ، ام هل اشكر لنفسى ؟ ساوفيك من الثناء حقك كاملا . لا تخف ، اقل شىء : ما هو من ذلك قريب . كانى اشهد عينيك تتسعان . مزيدا من الضوء يا رب ! فيهن شبكة من عروق الدم لا تخفى : عارية. مثلما انت تتوقع ان يتفجر الكلام من فمى فيهد حصونك هدا . انت دائما كذلك .. اليس كذلك ؟

انت لاريب تستغرب الآن انى صرت اكتب . اليك الفضل يعود ، كلتا القراءة والكتابة من صنع نصحك الدعوب ، الم اقل إنى اشكر لك ؟

إنى اشكر لك ؟ ام هل اشكر لنفسى كونى مادة تتشكل ، تصير ، تتنفس تحيا بك ، قالوا ، ثم قالوا وقالوا . هذه المرونة في ومنى ، وما علم القائلون ذلك . إذن فانى اشكر لنفسى ايضا .

وابصر بانفاسك المبهورة ، صدرك



الرحيب بهن يرتفع ويهبط .. حين اضع وجهي عليه : ذلك الصدر ، احس انى بقلعة حصينة الشان الوذ . هذا حق لا مراء فيه .

اردت ان اقول هذا ، فمازلت احس اننى لا احسن الكلام المنمق ، وهذا الكلام صناعتك وبضاعتك ، تقول انك صرت تفقد منابر عزتك واحدا إثر واحد ، إلا هذا الواحد الباقى : الكلام ، تركته لك . حين تقرا هذه القطعة من حديثى ابتسم او فلتضحك .. قصدت الى ملحة طريفة ، لماذا استرضيك ؟ اقول لك : او فاعبس .

استطردت : معذرة ، صدرك قلعة حصينة الشان لهذا الحديث اعود من جديد . اتضحك من نسيب امراة عاشقة ؟ يشفع له ـ هذا الكلام ـ انى قائلته ، ليس كالشعر الذى كنت تنشده لي : بعضه لعشاق شعراء الصحراء ، وبعضه من انشاء شعراء الحضر ، وبعضه لعشاق ماتوا وما تركوا ولا يعرف التاريخ لمحبوباتهم اسماء .. غرام شعرائك الاثيرين مثل الطعام المعلب لا يرام إلا حذلقة مدنية ، وحديثى طعام طازج .. احر وانقى ، فيه خشونة ملمس الدمور ، والحيطان حين يكون طلاؤها الرمل ، وعبيرها عبير الارض ان تستقبل العهدة . هذا كلامى .. هل تطاولت يا امير الفنون ؟ معذرة !

حقا انى احس مخاطبتك حين اكون بعيدة عنك ، طفل وشب عن الطوق . اعرف انك حين تبلغ هذا الموضع من خطابى ستغضب . ولن تستطيع الاتصال بى ـ التليفون فى بيتنا لا يعمل ، اصم ، ابكم ، (بلا حرارة) يقول الناس . اه يا لجلال التعبير .. ولذلك ولامحو عن روحك الغضب ساحكى لك نكتة :

جاء خادم ليعمل فى بيت ساله صاحب البيت :

ـ هل تعرف الغسيل والمكوة ؟

ـ ايوه .

ـ تنظف البيت ، وتحضر الرغيف ، الصف طويل طبعا !

ـ جدا .

ـ عارف البيت كبير جدا ومواجه غبار العالم كله ، ياتى به من قرونه .. ولازم تنظف كل يوم ؟ .

ـ حاضر ..

ـ كان لازم اكلمك لانه الصراحة راحة .. فعلا بيت كبير .. حدادى مدادى ..

ـ طيب مفهوم ..

ـ بالمناسبة عندك دفتر ؟

ـ نعم يا سيد فى بطاقة شخصية ، الدفاتر انتهى زمانها .

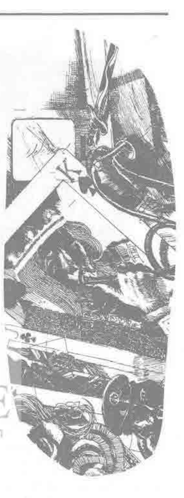
ـ عال . طيب تعرف تشفط بنزين ؟!

ـ لا يا افندى إلا دى ..

ـ طيب ما فى فايدة مع السلامة !

هل ضحكت ؟ كل صديقاتى اهتززن ضحكا حين سمعنها .. هذه واحدة لتريح اعصابك من بعد ان كنت ـ لاريب ـ غضبان ، ولكنى اعرف فيك طمعا انت فلان (البريد روحه) ، لو ان الناس تضحكها نكتة واحدة ، انت تريد نكتتين .. انت كبار كبار .. كتار كتار .. ، حتى الادوية تتضاعف عندك ، قال لك الطبيب تناول قرص (فنرقان) يوميا اتذكر ؟ انت تريد قرصين ، حبوب وجع الراس عندك مثل التسالى ، تلتهمها التهاما . طماع يا محمد الطماع صاحب الجيب . فى كتاب المطالعة القديم ، كان من اساتذتنا من يحكى قصة محمد الطماع هذه ، وحكاية فرعون وقلة عقله .

على كل فانى صرت عاشقة للراديو ، هل اسرد عليك اخر الانباء ؟ الدنيا كلها مهمومة ببولندا . ستقول لي وما الغريب فى هذا ؟ افغانستان كانت اغنية العام الماضى سازحم اذنيك وعينيك بالاخبار ايها الطماع كان الدنيا كلها زعيم تضامن ، امس قالوا رزق زعيم التضامن طفلا ، يا عينى وابوه فى الحبس ، كم امراة ولدت فى العالم الثالث وزوجها يرى الضوء متصلا بالقضبان ، وبعض الازواج فى التراب .. قبل هذا سمعت ان التضامن انشات مكتبا فى نيويورك ، يا سلام ، قلب العالم



السامق ، موضع القلب هناك معلق على قمة ناطحة سحاب ، لأن نيويورك هى قلب العالم السامق ، لا النابض . فهمت ؟ هذه نكتة ثانية . لا تعبس .

هل مازلت تروم النوم والراديو عند اذنيك ؟ سميع درجة اولى ، كما يقولون ، هل مازال الأرق يفضى بك الى القاهرة : الاذاعة تنتقل الى مسجد الحسين ان صلاة الفجر ؟ وتسمع القران والتواشيح ؟ وهل ترضى بصوت لا يعدل صوت الشيخ مصطفى اسماعيل ؟

نيويورك ؟ قال الخواجات الكبار فى الأخبار انهم يهددون ، وانهم فاعلون كذا وكذا ، بعض خواجات اوروبا ذهبوا لأمريكا مما تسميه انت النزهة السياسية ، الا ترى انى احفظ جل ما تقول عن ظهر قلب ؟ .. وحين حلوا امريكا قالوا نقاطع ونحارب ، لابد لوكالات الانباء من عمل ، فان لم تكن هناك انباء ، صارت الوكالات الى بوار ، اغرس الصواريخ بعيدة المدى ، قصيرة المدى ، مدى المدى ، ليس عندكم قمح ها ها ولا تكنولوجيا متقدمة ، ليس مهما ، عندنا غاز طبيعى ، وكافيار ، التضامن اتركوها لتفجر بولندا ، رحمة الله على فريدريك شوبان ، انه الحرية ، والله لو عاش فى هذا العصر لصار زعيم (التضامن) وربما هرب الى باريس على كل حال . والله لو انه ادرك هذا الزمان لما كان فريدريك شوبان ، ما هى الحرية يا اولاد ؟ وربما مات على ثلاث سنين وليس على تسع وثلاثين . لانهم يعالجون السل اليوم ! هذا زعيم غضبان ، وذلك زعيم أسوان ، ليس عندكم قمح ، امنعوا عنهم العقول الالكترونية ، ليس مهما عندنا عقول ومواهب ، (لازاربيرمان) (اميل قيللز) .. وكان عندنا (اويستراخ) .. اصنعوا كل ما استطعتم من موهبة ونحن نسرق منكم ، سرقنا (اشكنازى) و (روستروبوفتش) .. البيانو اهم من اشكنازى فلاديمير ، والشيللو اهم من روستروبوفتش .. هربا سرقناهما وما الشيللو وما البيانو ! مصانع ، مصانع ، مصانع بشر ، ومصانع الات .. مصانع ..

هل تستمع للراديو فى الليل ، موجته المتوسطة والأخريات القصار ، لتزعج روحك ام لتريحها ؟ أم لاحساسك ان العالم كله يغنى ويعزف ، ويتكلم . ليهدهدك فتنام ؟

• • •

اضبط ! اجزخانة فى امبدة ام هى امدرمان الجديدة ؟ وجدوا عندها كل دواء يبعث على النوم ، اه يا لبهاء النوم اللذيذ .. كل المدينة سهرانة .. اه يا لبهاء النوم اللذيذ ، كل المدينة سهرانة ، واللصوص ناموا حين غنموا ، والذين يغشاهم الأرق ، ارقوا لانهم لم يغنموا .

استيقظ هذه الايام مبكرة . من يستيقظ لابد أن يكون قد نام ، حكمة بالغة ! ثم قلت اتسلى بالاذاعة ايضا .. امى تجعل المؤشر دائما على امدرمان ، ولسبب وجيه . فهى تقول ان بعدها عن اهلها فى الشمال يجعلها تستمع لنشرات الاخبار لتعلم امر من عاش ، وامر من مات ، هذا هو مغزى الأخبار فيما تظن . كانت اليوم الى جوارى حين بدأ المذيع باعلان الموتى . حصيلة اليوم سبع نساء متن ، اربع منهن زوجات وامهات لزيد وعمرو ، وثلاث عرفن بانهن شقيقات فلان وعلان ، وسلم الرجال هذا الصباح . اذكر انك تقول ان النساء يعمرن ويدرك الموت الرجال لانهم يعملون ، وينصبون ، ويتعاركون ويعشقون بلا امل ، ويتعرضون بسبب هذا للأذى والمرض . تذكرنى بهذا حين يحتدم بنا صراع ما ، فابكى واقول (دعنى .. اعصابى تلفت واحس بهبوط عام .. وانى اشرف على الهلاك) . ثم يهجم عليك غيظ اراه ، وتكبح جماحه . ثم تهتف بى (وكيف عرفت ما بك من علة ؟) . واتاوه اهمس بدمعى اقول (لان راسى فيه فوران وان قدمي لاتستطيعان الوقـــوف ، فـــذاك ما اعـــنى) لا تصدقنى . ثم تصمت ، تنظر إلي ، لا اعرف ما يقول القوم اهل الفن عن صفة النظرات ، كان يقال نظر اليها مليا ، تعجب منها ، إيه وإيه وإيه ، ولكنك تنظر إلي على كل حال ، متبعا نظراتك بالقول :

ـ بل سياتى يوم تعلمين فيه انى لست كاذبا وانى احبك حقا .. هذا يكون يوم اموت ، ويذاع خبر موتى فى الناس نشرة الصباح ، إذ احدس انى اموت فى الليل ..

واقول لك دائما (سلامتك) وتكون هذه نهاية الشجار . لهذا ـ تصور ـ استمعت الى نشرة الصباح ، وقلبى يجرى خافقا دق .. دق .. دق .. دا .. دق .. دا . وفى سرى اخشى ان يتحقق كلامك ، ويصدق كلا الحب والنبوءة ! لحظات ضعف وقصار .

• • •

وما انا ؟ ان لك وطنا ودارا تلجىء نفسك اليها .. لديك ما تقطع به الليل فى مركبة اصدقاء فماذا لدى كلما لقيتك زادت حاجتى اليك .. حين نفترق امامى وحشة ، والليل العتمور .. لهذا قر عزمى ان ابتعد عنك .. ساحترق نهائيا : حسنا ، هذا خير من ان يتبدل جلدى مرات ..

رســالة مـا

إن في الحياة بعيداً عنك تتجسد معاني الوحدة ، لقد صرت اعرف الآن مثلا ان فى جدار حجرتى شرخا دفينا .. وان سقفها قد عبد لبعض عنيف المطر سبيلا فسال على الجدران دموع طين . ما كنت لأراها لولا هذه الوحشة المطلقة . اه كيف لا يعرف السجين سجنه ؟ ولاريب انهم نقلوا اليك امر حسان .. وخبر حسان ، كما ترويه مدينة الأذان والعيون ..

حسنا حتى حسان المتفائل الذي لايسكن قلبه خوف لم يكن بقادر ان ينزع عن نفسى هذا الاحساس بالسجن . لعلها لعنة زواجى الاول قصير العمر ، طويل المآسى . اخذنى حسان مرات الى حفلات ، ورقصنا ، وجففت الأضواء الباهرة عرق الخوف الذى غرسته انت بجوفى .. خوفك انت لا خوفى. وبقى فى وجدانى هذا السجن . هل انا مشروع ثائرة تدافع عن حقوق النساء كلهن ؟ ربما ..

ومم اخاف ؟ وما الذى تخشاه امراة تريد ان تستقر وتحيا ؟ تظن اننى استعجل .. نعم لدرجة اننى ذهبت لرجل صالح ومبروك ليفتح لي الكتاب . كانى بهذا اريد ان اطوى صفحات الايام طيا لاصل الى ما هو من الغيب مجهول . سرى فى المدينة ان بركة ذلك الرجل تجعل الماء لبنا ، هكذا بالحرف .. وقد تقول لي بسخريتك اللاذعة .. ان الماء نفسه غير موجود فى اكثر انحاء المدينة ! لن اهتم بهذا الكلام .. قلت رجل ومبروك وصالح ، يحدس بما يشبه اليقين . يتقاطر عليه طلاب الحاجة من كل مكان .. موظفون قالوا ببركته اصبحوا وكلاء وزارات . ورؤساء مؤسسات ، وتفجرت لديهم عيون الرزق ينابيع وشيدوا البيوت . ونساء عقر انجبن ، بما زاد اهل المدينة عدداً . وطالبات زواج ادركن المنى . وإن كانت نسبة هؤلاء اقل !

جعلت اقتراح خالتى نفيسة موضع تنفيذ ، وافقت ان تاخذنى للشيخ الصالح دون تردد . اولا لاننى بحاجة للاستقرار وثانى الامور اننى احبها حقا : خالتى نفيسة ، الا ترانى بعد التضامن البولندية والصواريخ . وصلت الى الانباء المحلية !

كانت خالتى نفيسة تقول لي دائما (هناك شيء ما يجعل من سهلك امراً عسيراً .. لانك سمحة ، هناك لابد عمل دفن لك فى مكان ما ، انت اجمل البنات . وتستاهلين السعد والخير والبركات والاحواش الفسيحة والفلوس والانجاب ..) .

تحسست صدرى هذا الذى كنت ابذله لك ، لانى اكتشفت ان خالتى كانت تطيل اليه النظر .. امراة غريبة الشان .. ذهبت معها طائعة الى الشيخ ذى البركات . كان امام داره سيارات ، وداخل الدار قوم ينتظرون . جلهم من النساء . تذكرت حديثك عن مستشفى الخرطوم . حين ذهبت لاخذ صورة للمرارة ، وسقوك اللبن الساخن والبيض النيء .. حتى إذا اشرفت على الموقع لقيت بضعا وعشرين امرأة . ورجلا واحداً هو انت .. تحكى هذه القصة كثيراً وتنسى انها دليل على نقيض ما تذكر عن مرض النساء !

فى فناء دار الشيخ طلاب الحاجات والبركات ينتظرون ، نساء كثيرات ورجال اقل عدداً . بصر القوم بجمالى .. حاولت اخفاء وجهى بالثوب ، افلحت إلا قليلا .. ليس مهما ، سينشغلون وانا معهم بالقادم الجديد ، يطلب البركة : سنة الحياة .

صبرت . جاء دورى .. كان وجه الشيخ الصالح ريان ، مثلما ينطق بجودة الغذاء .. خالتى معى ، وجهها كله يذكر بكلماتها : تستاهلين السعد ، والخير ، والاحواش الفسيحة والانجاب ... تستاهلين ..السعد .. الاحواش .. الانجاب .. وحجرته .. اه فجاة غشيتنى حمى الجدران ، جدار الشيخ ، الذى يتجه إلي ببصره ، به شرخ .. لست وحدى إذن . والى السقف ارتفعت عيناى ، صمد للمطر والشمس . الحمد لله. اننا نبحث عن من يعين فان لم يكن ذا صمود ، ضاعت الامال . اغفر لهذا الشرخ تطاوله على الجدار . كان الشرخ فى جدار حجرة الشيخ إلي ينظر . شرخ ظاهر ينظر الى شرخ باطن . احس ان شرخ جدار الشيخ هو مجموع شروخ ارواح من يختلفون اليه . مد الجدار لسانه ـ اراه ـ لاريب إلي يقصد ، وربما الى الشيخ الذى اولاه ظهره . واليه بوجهى اتجهت ، اما روحى فقد كانت تتلمس الحجرة والمكان . ايبقى الشرخ بعد ان ينفض الناس يحدق ؟ فيم يحدق افى الشيخ ، ام فى الفراغ ؟ ام فى الرمل الندى على ارض الحجرة ؟ بسطت خالتى للشيخ قضيتى ، كتابه بين يديه ، غمغم ، همهم ، بسمل ، حوقل .. اختصر الزمان المقبل .. قال (ستزوجين من هو خير منه) . انتهت المقابلة ، عدت بالبصر الى الشرخ على الجدار ، خيل إلي انه لم يعد مكانه ، ذاب ، انمحى ، لعله كان مشكلتى مس عليها الشيخ ببركته فزالت . مكانه قام وجهك كبيرا ، اسمر .. وغير بعيد منه وجه حسان يزاحم ، يدفع ، يصر ، صباح ، صباح ، صباح .. عيناك شبه حمراوين ، عيناه عسل ، روحى سباحة بين العسل والدم . (ستزوجين خيراً منه .. ستزوجين خيراً منه) قال الصالح الرجل صاحب البركات . خرجنا الى فناء الدار ، فالشارع ، ماذا يريد اصحاب هذه السيارات المترفة ؟ فى عيون خالتى اقرأ : يريدون مزيداً من السيارات المترفة ! (ستزوجين من هو خير منه) ، قال الرجل الصالح ، ما الذى يريده اصحاب هذه السيارات المترفة ؟ امزيداً من السيارات المترفة ؟ من هم الذين اقطعوا الأرض ؟ هل اعود للنكات ؟ هل حان وقت الحديث عن العسكر والحرامية .. يحكى ان صرافا ، عصرته الحياة عصراً ، امتدت يده واختلس ، اسموا الدريهمات مالا عاماً ، ولم يكن عصرئذ يسمى ما يماثلها المال العام ، الصراف ومعه حق .. هل سمعت فى القانون الجنائى بقضية (ابو علي) الذى اقتبس المعزة ولم يسرقها ؟ اسال فقهاء القانون ! على كل فان الذي اخذه الصراف لم يكن اسمه المال العام . كانت تفاصيله كما يلى : مرتب ثلاثة مراسلات وايرادات متنوعة ، وامانات ، وهو بند للنهب مشاع ، ولهذه الصفة فانه لا يكون إلا مالا خاصا ، لانه مخصص لفلان وفلان وعلان ، ولكن المحكمة لم تاخذ بهذا الدفاع المقنع ، فانزل الرجل السجن . واحزنه ذلك حقا ، ومرة لقيه من يعرفه ، ولم يكن عالما بامر سجنه كبير شيء ، وكان السجين ساعتها فى فرقة مساجين يحفرون جداول المطر : طورية ، ازمة ، عتلة ، ويونيفورم ابيض صاح صاحبنا وقد افزعه المشهد :

ـ المسالة شنو يا فلان لا حول ولا قوة إلا بالله مالك ؟

ـ والله السياسة ما خلت زول !!

هذه نكتة اضحكت صديقاتي ، واضحكتهن ايضا قصة خالتي نفيسة .. زمانها ـ خالتى قالت ـ كان زمان عرافين وعرافات وستات ودع . كان وقتا تنظر فيه الى نفيسة الانوثة من قريب وتنظر هي إليها من قريب ، وتميز رائحة الرجال ، قريبين ، بعيدين .. وتحلم بل تنام لتحلم .

قالت لها ست الودع (يانفيسة سيتعلق بك رجل طويل وليس عريضا ، اخضر اللون وله انف هو اخص معالم وجهه ، ليس لانفه صفة ، لا افطس هو ولا طويل ، ولكنه انف متفرد بشكل لا يوصف ، كفاه عريضتان ، لكان الواحدة منهما تحمل هينا من التمر .. ارى رزقه سيكون قدر كفيه) .

زمان يطل تميز نفيسة فيه رائحة الرجال قريبين ، بعيدين ، وتحلم وقت تنام بايد تعبث بشعرها ولا ترى وجه احد ، ولكنها ترى الكفين دائما دائما ..

(هذا حامد ابن عمتك ..) تقول فى نفسها (حامد ، حامد ، هو حامد . الحلم



الحقيقة ، البعيد واضحى قريبا ، وا حلالي وا حلالي .. الرزق ان كان قدر كفيه او لم يكن فهو ليس مهماً .. ليس مهماً .. ما لهذا خلقت كفاه !) . يسرح بها الخيال ، اقالت اخضر ؟ نعم اخضر . اقالت طويل وليس عريضا ؟ وا حلالي ، وا حلالي . هو نفسه ، هو نفسه ، هو نفسه !

الكفان والفتهما زائرين في المنام ، وخشونة الملمس فيها تعرفها ، تنظر الى قطع الودع على الرمل امام المراة ، حين وصفت رجل الاحلام ، كانت هناك قطعة ودع وقد وثبت على الاخرى واستقرت عليها ، واستحقت ست الودع (البياض) ، وكان عصرئذ ملاليم ..

• • •

ومن عجـــب ان المدينة ههنا حين نشات لم تكن كسائر المدن ، كان يقال هذه قامت على تلال سبعة ، او شيدها الخليفة العباسي على ضفاف دجلة ، او ان تحت ارضها كنوز معادن لا تنضب ، او ان هواءها منعش .. لا لا .. مدينتنا نشات على شائعة هنا ، وشائعة هناك . مثلما ان تلالها وسهولها والنهر الذى تشرب منه ، اذان ، وانها لعيون .. ولا ريب انهم نقلوا اليك خبر حسان ، كان ذاك خبر الموسم تفتقت به المدينة .. احدثك عن حسان ، حسان وانا : ركبنا سيارته ، وقفنا فى صف البنزين ، مد الشارع لسانه لنا ، تلفتت الاشجار مكتئبة الارواح ، عطشى ، ترقب تنتظر ، لم اعرف وسامة حسان إلا حين وقفنا للبنزين ، اخبرني انه سيجازف ، ليس عنده بطاقة ، وعمال محطات التموين اصبحوا سلطة ، وهناك شرطي ، جاء دورنا ولم اكن اعلم انه على هذا القدر العظيم من وسامة مقنعة ، توان وتخال دهوراً .. جعلت انظر لشعر حسان حين كان عامل الطلمبة يدس راسه ينظر لشعر حسان ، خرطوم فى يده ، يمنع الحركة عن السيارات ويهبها .

« ليس عندي بطاقة » ، قال حسان فيما يقارب همسا . جعل العامل يعاين وجه حسان ، قسما قسما .. اتبع بنظري عيون العامل تعاين وجه حسان .. سياحة متاملة اعجاب وفريد . كنت ولاشك انظر الى اصرار حسان : عنيدا كان اصرار حسان ، ولربما كان اصراره يبدو للعامل ، مثلما اراه انا مقيما ، ماثلا ، وربما ذا لجاجة . صرفت هذه الفكرة من عيني وذهني لحين .

انسكب بصري على قميصه . لقيت بصر العامل سبقني الى هناك ، اقام . (بالجراة على باطل صراح) . اقول لنفسى ، والعامل حائر ، وقت لزج ، لا يمر ، احس به الشرطي ، جاء ، قميص كاكي متعب ، حزام غليظ ، نظر الى ، ما استوقف عيناه تسعيان لحسان ، شيء ، بصره وصل لحسان والمشكلة والجدال ، كرة روليت واستقرت على رقم بعينه ، عرفت طريقه لا تخطيء ، اعجاب وفريد ، قلت فى نفسي (لقد صرت على هامش الامور ، انظري ما اهتم بجمال ثوبك احد ، ولا شعرك الذى اكلت جل ساعات اليوم تسويه عند الكوافير .. لا فائدة فترجى) .

عيون ست واتحدت ، واحاسيس لا تقاس بالارقام ، هي الان تسبح ، كلها تطوف حول حسان ، وجه حسان ، بعض حسان ، جل حسان ، اي جانب منه تراه ، لا يهم .

قميص كاكي طفقت اتاملـه ويتاملني ، بث لي عذابه : القميص ، وكل عين انصرفت عني ، رايت القميص الكاكي يريد يتنازل عن صفته رمزاً للعمل ، وان ينهي نوبة العمل ، ليكون قميصا كاكيا حرا ، كانه رصيفه النبيذ ، حر ، لاعرق ، عليه ولا ملح ، لكانه يريد يطير لقميص حسان ، تبدا نزهتهما اي يقعه ، اي مكان . والحزام العريض يبغى الحرية لنفسه ، يبدا اولى خطواتها فينفي عن نفسه صفة الغلظة ، او انه رمز لعمل ما ، ونوبة عمل ما .. يريد يصير حراً . كل شيء بدا لي انه يعشق نظيره ويشتهيه .. بالجمال الجمال .. اصرار مذهل . ذاك حسان :

ـ ممكن ؟

اخرجها الكلمة ، وقد تبين لي تماما انها لن ترد ، وانه عرف تماما طريقه لينال ما يروم ، عرفت لحظتها اصراره العنيد كل امر من اموره ..

ولكن اهل المحطة ارادوا للمشهد ان يطول رغم ان عيونهم كانت قد اذنت لصديقي بما اراد . كان الصف طويلا ، وامضينا فيه ساعة وتزيد ، والصف يطوق عدداً من البيوت ، وكانه فى بصر الشارع ثابت ولا حراك ، وانه لهذا ثقيل وطاة على الشارع وبه ينوء . ولعل الشارع قد بثني لوعة عذابه المقيم سنين ، ولعل الشقوق التى عليه والحفر البثور على وجهه بعض اثار الزمان . وانه ايضا مغلوب .. يصيح ولا صوت (اني مغلوب مغلوب .. اني مغلوب .. اني مغلوب) .. فرج مدرار قادم ؟ لا لا ! فما هو كمثل نوح : الشارع اثم .

حين احس الرجال فى السيارات طول وقوفنا انطلقت اشارات التنبيه واحدة بعد واحدة ، يطول صوتهن ، يقصر ، هي ، صاحبها مطلقها ، (اني مغلوب) كلهن يصحن .. غليظات صوت ، ورخيمات وبعضهن صوت مخنوق ، ابواب تخرج السائقين ، اصوات : (اتحرك .. إيه المسالة ؟ خيار وفقوس ؟ هالله ،

رسالة ما

هالله ، لينا الله وعيشــة السوق !) واصرار حسان العنيد يكون ، ينال ما يريد .

• • •

وتعلم ، ياهول ما علمت ان فى البيوت نساء ينتظرن بقايا الرجال يعودون من البنزين والرغيف والكونكان ، معهن ينتظر البخور العبق والدخان ، الصندل والطلح والشاف .. اجساد تكتسب النداوة والبريق المتئد .. والجمال . ينتظرن أوبة الرجال من الكونكان او البنزين او المخابز الآلية ، والأخرى التى تفتذي بالحطب ريان وعطشان ، اكلت كل غابة حتى الأبنوس .

وهل اتاك حديث (ابو ماهر الكونكاني) ؟ ليلة بعد ليلة يعود الى داره واهلها نيام ، بالمناسبة : يقال إنه كان جعليا ، ثم راى انها نسبة لا تقوى على مصارعة الزمان ، فارتاح لقولهم (أبو ماهر الكونكاني) ، وهي كما ترى قد صارت الى اكبر قبائل السودان .. قبيلة الكونكان .. واهلها ينتشرون القطر كله ، المهم اب ابو ماهر ليلة ، نصال من اوراق اللعب استقرت بروحه ، وتعب مهلك .. ورائحة الحياة افسدت حاسة شمه ، فرغب عن الصندل لا يميزه . تلك ليلة امسى فيها راسه وسادة من الكرى . فاعجب لوسادة فوق اخرى اه يريد ان ينام . لقيته (الحاجة) ام الاولاد فى البيت يقظى ، نظر اليها بعض نظر ، وفهم ، قالت نفسه (تلقيها عند الغافل) . عياله السبعة ناموا ، قالت نفسه (تلقيها عند الغافل) ، هناك ما يشبه الحصار . كان ابو ماهر ليلتها مثخنا بجراح هزيمته بأسياف حظه العاثر : وبانتظار بصفوف تاكل ملح الاجساد . الماكينة تصلبت ما بها من زيت ، والاجساد تصلبت ، جفتها الأملاح . ياأولاد !

ابو ماهر يا ابو ماهر ، العشاء يا ابو ماهر قالت . (يالبهاء النوم اللذيذ ، من بعد العناء) تقول وسادة الكرى فى راسه . (تتعشى) ؟ الحت ، ردت عيونه .. (عارف ، عارف ، يطلع الرغيف اول خبزة مع صلاة الصبح .. ان شاء الله نصلى الصبح حاضر ، ونحضر الرغيف) !! يالبهاء النوم اللذيذ .

• • •

عجيب امر هذه الدنيا ، بل عجيب امر التاريخ ينسى ويتذكر . لم اكن أتصور ان يوما يجيء اصدق فيه ما كنت تقص على بصراحتك المعهودة ، اذ ان فى الأرض رجالا كمثل الفقيه الاصفهانى ، وصاحبه جميل بغداد ، محمد ابن جامع الصيدلانى . ذلك الذى كان يبيع العطر ، وكان من اجمل اهل زمانه ، تقول قال الشيخ داؤد الأنطاكى !

وكم من مرة حدثت عن اشواق بيتر ايلتش تشايكوفسكى ، اشواق هى وفى باب المحرم دخل . وما ذكر ذلك عنه شقيقه (موديست) حين ترجم له فصوره ملاكا نبوى الخلق ، وما حدثت عن (تنسى ويليامز) الذى سجل في ذكرياته يقول : يا دنيا انا كذلك فاعلمى ! وما ترك لكتاب السير والاخبار شيئا يحدسون يعلقون ، ينالون به الدرجات العلمية .

وجاء (كين رسل) فى روايته السينمائية وجعل بيتر ايلتش شاذا .. بيتر ايلتش شاذ .. شاذ .. لا ليس شاذا .. هو ليس كما ذكرتم .. اتنسون له الست السيمفونيات ؟ وكونشيرتو الكمان ؟ وروميو وجولييت ؟ لا .. لا .. لقد اسرفتم أهل الغرب .. لا يااهل الشرق بل نحن منصفون .. اسالوا قلندا جاكسون . يقول اهلات الغرب .. اتدري ماذا فعل (فيسكونتي) برواية (الموت فى فينيسيا) ؟ لتوماس مان ؟ جعل بطلها فون اشنباخ الأديب الكاتب الى ما يشبه الموسيقى (قوستاف مالر) .. الفن واحد .. الفن واحد موسيقى ، اديب ، لايهم .. وكان فون اشنباخ علق فتى بولنديا لقيه فى فينيسيا واسمه (تادزيو) . بولندا ايضا .. الا ترى ؟ حسنا للعدالة صورنا مالر شاذا .. يعنى واحدا بواحد .. مفهوم مالر وبيتر ايلتش ، هذه هى الديمقراطية .. عاشت .. تعيش . عاشت ! حسان ، الفقيه البغدادى ، تادزيو ، بيتر ايلتش ، مالر . رجال منتصرون وضحيتان : امراة مالر ، وامراة بيتر ايلتش .

على ذكر تادزيو توماس مان ، قالوا رزق زعيم التضامن فى بولندا طفلا وابوه فى الحبس ، إني شديدة ولع بالاطفال . (حذار!) ستقول انت . فانت تراه داب كثير من ساسة العالم ، يحبون ان تلتقط لهم الصور يحيط بهم الاطفال كل جانب ، ليقوى فى بصر الدنيا انهم اهل عطف وعدل . وانهم وانهم .. الا ترى انى اعرف ما تنوى أن تقول قبل ان تقول ؟

لفترة ما ، رايت اطفالى حلما فى عينى حسان ، وكنت اظن اصراره العنيد سينبسط على سعادة واستقرار روح ، وأطفالا لهم عيونه .. وماذا قلت عن شعر الغناء زمان الثلاثين والاربعين والخمسين ، وكم من الشعر ونظم فى صفة العيون ؟ خبر حسان كان مما لاتبث الموجة المتوسطة ، ولا الموجات القصار ..

اليك اخر الامر : النشرة الجوية ..

اذاعوا فى الناس ان دنقلا نالت درجات عشر . برد وزمهرير ، ويزحف الشتاء كما احسه الى حجرتى فتزيد ضيقا ، وما كانت بذات سعة اصلا ، حجرتى ذات الشرخ ، جاء الشتاء الينا ههنا . هذا أوان يرتدى المثقفون ، الذين نعموا بعهد من بعثات الدراسة السترات الصوف ، وربطات العنق عليها رنوك جامعات بيرمنجهام ؟ شارلس ؟ ستاتفورد ؟ ويجتمعون يتحدثون عن زمان الصديقات والبيرة ، صنوفها والوانها اليس التشيك ابرع اهل الارض ، وانهم أسرار صناعتها .. والروس ملوك الفودكا والآيس كريم ؟ بل أهل الغرب أبرع : الطليان فى الآيس كريم ، والالمان سادة البيرة . بالمناسبة اين موقع أولاد جون من المجد ، لماذا تحب الروس كل هذا الحب ؟ التشيك لا لا الألمان ، اي شق من المانيا ! هناك المانيا واحدة بالطبع لايمكن .. لايمكن .. : الطليان .. كذاب . بل الاغريق .. لا لا .. الله الله . وهل شهدت باريس فى الليل ؟ سلام ياسلام .. ياسلام .. زمان والله يازمان . ما الذى ارجعنا الى هذه (الحفرة) ؟ ضحكوا كبير ضحك ، وشربوا كثير شراب .. الحفرة .. الحفرة .. ما اجبركم على العودة ؟ اذهبوا الى العمرة .. فى واقع الأمر كان الاجدر بكم أن تبرموا العقود وانتم فى البعثات تمتص دماء دافع الضرائب !! تصور فصلت من الخدمة فى الوزارة وأعلنوا اسمى بالجريدة فى قائمة فيها سائق جرار وأربعة مراسلات !! يالمهانة العلم ! الم يبرع التشيك فى صنع البيرة ؟ هل هاجر صناعها الى المانيا ؟ لماذا تحب الروس كل هذا الحب ! حليل زمن الصديقات والبيرة ..

• • •

انى ارقب الشروق بعضه ، والغروب جله . لكان الطبيعة ذات الجلال تحابيكم بما تهب من ذاك الأملال السرمدى ، وقد يفضي هذا التامل ، ان هو قد طال ، الى ما هو قريب من امر اهل الفن الرجال : ينفقون فى هذا كل زمان الوجود .

وقد اكتب من يدرى ؟ وقد انتظر اوبة بقايا رجل فى الذهن ، ليس كمن رات خالتى نفيسة فى الأحلام يزور ، ولا هو ابو ماهر الكونكانى وهو ليس عبدا للظروف مثلك . وما عدت ارى «حسان » . وما ينبغى لى . أن عالمه باهر فى غرته ولكن .. هناك شيء ما يحدث فى نفسى ، مثلما الشرخ في جدار حجرتى دليل بليغ على ما يمكن لها أن تحتمل دون رياء ، وهل تعيب الشروخ النفوس دائما ؟

ثم هاك موجز النشرة : التضامن البولندية وضعت طفلا ، ابوه فى الحبس ، الصيدلانى والفقيه ظهرا فى بغداد ، بيتر ايلتش : جلسة مطمئنة أمام الكونسيرفاتوار ، توماس مان مات ، يستحق أن يترجم له فى (وفيات الاعيان) . شرطى يؤدى نوبة عمل في موقع لاينبغى أن تحرسه بندقية ، قميصه الكاكى من سيمفونية مالر الالفية . عامل الطلمبة فون اشنباخ .

علي المــــك



بقلم : يوسف الخطيب
إعداد الفنان : عزيز إسماعيل

تعتبر مدينة عكا من اقدم الموانىء العربية الكنعانية التي انشاها اسلافنا القدامى على ساحل « ارض كنعان » ، اي فلسطين ، فهي تستمد اسمها الحالي من اصله الكنعاني السحيق « عكو » بمعنى الارض الرملية الحارة ، الرمضاء ، ولعل اول ما يطالعنا اسم عكا ، في نصوص التاريخ المدون ، في اواسط القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وذلك في عداد المدن الفلسطينية التي افتتحها تحتمس الثالث ، اثر انتصاره في معركة « مجدو » الشهيرة في الشمال الغربي من مرج بن عامر . ولربما كانت مدينة عكا ـ جنبا الى جنب مع القدس نفسها ـ من احفل المدن الفلسطينية اطلاقا باحداث التاريخ ، وامجاده ، واهواله ، على حد سواء ، وفي الحديث النبوي الشريف : « طوبى لمن رأى عكا » .

في هذه اللقطة الجزئية للمدينة ، وهي ماخوذة من الشمال الغربي باتجاه الجنوب الشرقي ، يبدو لنا بصفة اساسية جامع الجزار الذي يعتبر بحق ثاني ابرز معالم المدينة بعد سورها التاريخي العملاق . ثم اننا نشاهد خلف الجامع جانبا من الخليج متصلا بذلك الشريط الساحلي الضيق الذي يفضي الى مدينة حيفا جنوبا ، على بعد ٢٤ كيلومترا بواسطة السكة الحديدية او على مبعدة ٢١ كيلومترا عن طريق الاسفلت . وفيما وراء هذا الشريط الساحلي نشاهد اخيرا (باللون الازرق الفاتح على خط الافق) العتبات القريبة الواطئة لجبال الجليل ، وهي التي تتذارى صعدا باتجاه الشرق ، فيما وراء المنظور ، حتى تبلغ اعلى قمة لها في جبل الجرمق الذي يرتفع ١٢٠٨ امتار الى الشمال الغربي من صفد ، وهو في الوقت نفسه اعلى جبال فلسطين .

كان الثائر الفلسطيني الكبير الشيخ ظاهر العمر (وهو من سلالة زيد بن الحسن ابن علي بن ابي طالب) قد افلح في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في ان يحقق بعضا من احلامه القومية العريضة ، بالاستقلال ببلاد الشام عن حكم العثمانيين . فلقد خاض سلسلة من المعارك الظافرة ، وبسط نفوذه بعض الوقت على رقعة مابين طبرية ، ونابلس ، وحيفا ، وبيروت ، ودمشق ، متخذا من مدينة عكا عاصمة له ، مما دفع بهذه المدينة المتواضعة فجأة إلى مقدمة المدن الشامية في ذلك الحين . ذلك إلى ان اغتيل الشيخ العمر بيد الغدر في سنة ١٧٩٥ ، وعين السلطان واليا جديدا مكانه على عكا هو احمد باشا الجزار .

اكتسب احمد الجزار لقبه هذا عن استحقاق ، من شدة جبروته وبطشه بالناس ، ولكن ، كما هو حال معظم الطغاة ، فلقد كان يتقمص في داخله روح مهندس معماري دؤوب ، حيث بني في مدينة عكا وحدها ـ اضافة الى هذا الجامع الذي يحمل اسمه ـ العديد من الابنية والحدائق العامة ، وسورا هائلا من ناحيتيها الشمالية والشرقية ، وهو السور الذي ارتد عنه نابليون خائبا ، من بعد ان حاصر الجزار في داخله سنة كاملة ، من ١٩ ايار ١٧٩٨ حتى ٢٠ ايار ١٧٩٩ .

واخيرا ، إذا ما استمتعنا يوما بقراءة قصة للاديبة الراحلة سميرة عزام ، او للروائي الشهيد غسان كنفاني ، فلنتذكر ان مسقط راسيهما هنا في عكا ، على هذا الخليج الفلسطيني الرائق كصفحة زرقاء ، الجياش في اعماقه باعنف ذكريات التاريخ .

يوسف الخطيب

جامع الجزار الذي يعتبر ثاني ابرز معالم مدينة عكا ...

كتاب الشهر



ترجمة وإعداد: كروان السكري

مسلمة أمريكية تتحدث عن الإسلام

WHAT EVERYONE SHOULD KNOW ABOUT ISLAM AND MUSLIMS

BY

SUZANNE HANEEF



عائلة امريكية مسلمة ضمن العائلات العديدة التى اعتنقت الاسلام .

لقطة من داخل مسجد السلطان سليم فى تركيا حيث نرى روعة المعمار الاسلامي .



مجموعة من الفتيات الصغار يتدربن داخل فصول المدارس العربية على الاداب الاسلامية .

اسمها الحالي « سوزان حنيف » ، وقد كانت حائرة مترددة فى صباها ، قبل ان تكتشف الاسلام عن طريق الاحتكاك بالمسلمين ، والقراءة المستمرة .

تجولت كثيرا فى العالم الاسلامي ، فكانت حصيلة تجاربها وسنوات دراستها ومعايشتها للدين الاسلامي الحنيف .. تاليف كتاب وضعت عنوانا له : « ماذا يجب ان تعرف عن الاسلام والمسلمين »



منظر عام تضمنه كتاب المسلمة الامريكية للخيام المنصوبة في « منى » اثناء الحج .

وبعد قراءتي لهذا الكتاب القيم .. والاطلاع على شدة التعلق الفكري والروحي الذى اظهرته المؤلفة الامريكية « سوزان حنيف » بتعاليم ديننا .. وجدت ضرورة نقل مقاطع منه ، ارى انها تكفي لتلقى الضوء على حقيقة ان هذا الدين الاسلامي العظيم إنما جاء ليكون نبراسا للانسان اينما كان ، وفي كل زمان .

الاسلام والعالم الاسلامي : لابد أن نطلع على ما يجري فى العالم الاسلامي اليوم ، إذا أردنا أن ندرك ما يحدث للمسلمين ، فمنذ بداية القرن التاسع عشر اصبح العالم باسره يشهد اضطرابات ضخمة وخاصة فى ميادين الدين والقيم . وقد عانت اوربا ، كما عانت امريكا ، ضياعا عميقاً مس إيمان الانسان بدينه . وكان ذلك عائدا الى الصراع القاسي مابين العلم ، والكلمة التى انزلها الله .

ومن جهة اخرى ، طرات تحولات جذرية على القيم السائدة وفى اساليب التفكير عند الناس ، نتيجة للتغيرات الضخمة التى احدثتها الثورة التكنولوجية ، واثر ذلك على نماذج المعيشة . في ذلك الوقت ايضا ، كان العالم الاسلامي يعاني من أزمات حرجة فى عالم الدين والقيم .

خلال تلك الفترة ، وبسبب التفاعل المعقد للقوى ، في الوقت الذي كان التمسك بالمسيحية يضعف الغرب ، والاسلام فى الشرق كذلك ، فقد حرم بعض المسلمين من الرؤية الحقيقية الصادقة لايمانهم .. حتى ان بعضاً منهم راح يفكر بالتقاليد السائدة فى المجتمع آنذاك ، على انها الاسلام نفسه وكان بعض تلك التقاليد مستقى من الاسلام ، والبعض الأخر من مصادر اخرى .. اما استيعابهم للاسلام كنظام حي شامل للحياة ، فقد تقلص حتى بقي منه مجموعة من الأعراف الشبه إسلامية الملتبسة .. وبقايا اخرى من الاخلاق والقيم الاسلامية الذابلة .. بحيث لم يتجاوز ذلك في احسن الأحوال : الصلاة والصيام ، وقراءة القرآن الكريم على شخص ميت ، والاحتفالات فى الأعياد . كما ذهب البعض الآخر في الاتجاه المعاكس تماما .. مشددا على مظاهر العبادة فى الاسلام ، متجاهلا كل ماعداها من تعاليمه ، وخاصة تلك المتعلقة بالجهاد ، وطلب المعرفة وتطوير الثروات ، والمسؤوليات السياسية ، والنظافة .. الى ماهنالك .

اما الاطفال المسلمون الذين يعيشون خارج العالم العربي ، فقد تلقوا العلم على يد ثقاة ـ ولكنهم جهلة ـ ، فتدربوا على لفظ كلمات قرآنية دون ان يفهموا معانيها التى هم بعيدون عنها . وفى اماكن اخرى ، شب الصغار اكثر جهلا بالاسلام ، ظنا منهم ان هذا الدين يخص الجيل الأكبر ... دين على الصغار ان يحترموه ، ليس إلا ! إذ ليس له صلة او مكان فى الحياة المعاصرة .

الحضارة الأصيلة

وفى الوقت ذاته ، اخذت رياح الغرب ومؤثراته تبرز في العالم الاسلامي شيئاً فشيئاً ، ثم تنمو بقوة متزايدة . في الماضي ، كان هذا المد يغذيه الاستعمار الغربي وانتشار المسئولين الاجانب والمبشرين المسيحيين الذين كانت غالبيتهم من السكان أنفسهم ممن تشبعوا بالثقافة الغربية بعد ان مكثوا فى اوربا وامريكا ردحاً من الزمن . حينذاك ، وجدت المصالح الصناعية والتجارية سوقا جاهزة . وعجل خبراء العالم الاسلامي المتحمسون فى تقدم تلك العملية . وأصبح المسلمون إذ ذاك يساورهم إدراك مشوب بالقلق وهم يلحظون تاخرهم المادي وغياب العصرية فى مجتمعاتهم عند مقارنتها بالتقدم الملموس فى الغرب . ومما ساعد وهيا لذلك الادراك ، احتكاكهم وتعاملهم مع البضائع الغربية واسلوب الحياة هناك مع كل ما يكتنفه من إغراء تنقله وتبثه وسائل الاعلام والدعاية والافلام الغربية فى جميع انحاء المعمورة . ولهذا بات الغرب فى نظر تلك المجتمعات صورة ساحرة وتجسيداً للمدينة الفاضلة ، فدرجت على تقليده وشاع تبني بعض من زخارف ثقافته والظهور بها على انها احدث ما توصل إليه التقدم وادوات العصر . وإذ بالعديد من المسلمين



جانب من مدينة استنبول التي تحتفظ بعدد ضخم من المساجد الاسلامية العريقة .

يتقبلون ، بفعل ذلك التاثير الغربي ، راي ذلك المجتمع فى ان الدين والقيم الاخلاقية والسعي وراء المعاني ليست بالاهمية التى تستاهل إصرار الناس ، واصبح ميزان الغرب يتجلى في أن الحضارة هي تقدم مادي واهمال للقيم التقليدية ، قبلوا بها كمقياس حقيقي لعظمة المجتمع دون ان يمسكوا بالحقيقة الجوهرية القائلة بان الحضارة الاصيلة يجب ان تقوم على أساس متين من المبادىء الروحية والاخلاقية السليمة .. وبدونها يصبح التقدم المادي ، ببساطة ، شيئا من اللاحضارة واللاإنسانية بل والدمار .

ثلاثة نماذج للمسلم

وهكذا شهدت الحقبة الحالية ظهور ثلاثة نماذج للمسلم ، لهم مايشابههم فى المعتقدات الأخرى . اما الأول ، فهو ذلك الفرد الذي يرى فى الاسلام مجرد تقليد غامض ، يفضل التنصل منه فى اغلب الأحيان . وهو الذي يسمى مسلماً على جواز سفره فقط ، لانه ببساطة ليس مسيحياً ولا بوذياً ولا اي شيء اخر . فربما يوحي علناً باحترامه للاسلام ، وربما يرفضه نهائيا . وفي جميع الاحوال ، فانه لا يحاول ان يجعل الاسلام سبيلا ومنهجا لحياته فيمارسه باخلاص .. إنه ينظر إلى من يفعلون ذلك على انهم حمقى متخلفون !

فى ضوء هذه الحقيقة ، ينكشف بشكل ثابت ان افرادا كهؤلاء تنقصهم معرفة الاسلام وفهمه كرؤية عالمية شاملة ونظام متكامل للحياة .. واكثر من ذلك ، ربما لم يتسن لهم احتكاك او معرفة باي شخص مسلم يضرب لهم المثل على الفهم والالتزام الحقيقيين للاسلام . فهذا المسلم ربما لم يُصلِّ مرة واحدة فى حياته كلها ، او حتى يجهل شعائر الصلاة لانه لم يتعلمها . فالاسلام بالنسبة له اثر قدسي من التاريخ الغابر ، وربما خالجه شعور بالفخار بتراثه الاسلامي إذا ذكر احيانا او دافع عنه إذا هوجم . وقد يفكر مرة بالدين وهو امام حادث وفاة ، فيقول لنفسه : « إلى اين ساذهب إذا حدث لي هذا ؟ لا باس ، إن الله غفور رحيم » . وقد اخذته مشاغل الحياة اليومية : عائلته ، ممتلكاته ، مسراته إلى درجة لم يعد يستطيع الاستمرار فى التفكير بهذه الطريقة . كما أصبح العديد من المشاكل اليومية سمة لحياة العديد من هؤلاء المسلمين ، منها ارتفاع فى نسبة حوادث الطلاق ، والحرية الجنسية ، وتناول المشروبات الروحية ، وضياع كامل للقيم والاتجاهات .

هؤلاء هم مسلمون بالاسم وليس بالجوهر ، لانهم لا يختلفون بمبادئهم وتصرفاتهم عن الناس الذين ليس لهم دين او قيم ، لانهم فى الحقيقة ، لا يملكون ايا منها . واكثر من ذلك ، هم معادون للاسلام وللمسلمين الذين يخلصون لدينهم حق الاخلاص .

والنموذج الثاني للمسلم ، هو الذي ينتمي لجماعة المسلمين التقليديين ، الذين ربما تفهموا المبادىء الاساسية للاسلام ، وربما حصلوا ايضا على درجة من المعرفة الاسلامية تمكنهم من اتباع تعاليم الاسلام الى حد ما ، ومع ذلك كله ، لا يفهمونه كنظام حي كامل متكامل لجميع مظاهر حياة الانسان . وهم فى الوقت نفسه لا يخلصون للتعاليم الاسلامية باستمرار ، وفي جميع نواحي حياتهم باعتبار ذلك مسالة مبدأ والتزام . الاسلام فى عقول هؤلاء هو على الاغلب مختلط بالعديد من الممارسات الاسلامية الزائفة التى اعتادها مجتمعهم ، والتى هي معاكسة تماماً للتعاليم الاسلامية الصرفة ، وذلك بالرغم من حصولهم على نوع من التطبع الاسلامي المشوب بالكثير من الطرق الغربية فى التفكير والحياة ايضا . إنهم ، لاشك ، يؤمنون بالله والاسلام ، ولكن بطريقة نظرية تخلو من القناعة الكافية .. تلك القناعة التى تحركهم بثبات واستمرارية نحو تاهيل إسلامي واسلوب معيشة متكاملين ، فهم لا يتصورون الاسلام كنظام كامل لجميع اتجاهات الحياة .. انهم فى الغالب ناقدون او مقللون من قيمة اولئك الذين ذهبوا بعيداً فى قضية الدين .

أما النموذج الثالث ، فهم الفئة التى



مجموعة من المسلمات في امريكا يؤدين الصلاة داخل المسجد »

تتالف من اولئك المسلمين الذين يفهمون الدين الذى يؤمنون به كنظام كامل ، وقد صمموا بوعي أن يسيروا حياتهم وفقا له .. فالاسلام مرجعهم ورؤيتهم العالمية .. طاعتهم وولاؤهم وتقواهم هي لله وحده .. هدفهم هو الآخرة .. وجماعتهم هي جماعة المؤمنين . من بين هذه الفئة ، كثيرون يتمتعون بثقافة عالية ، حصلوا عليها نتيجة تامل عميق فيما يجري حولهم فى هذا العالم . انهم صحبة فريدة وجزء من جماعة صغيرة ولكن قوية تؤمن بالله وتعيش فى طاعته منذ ان سار ادم نبياً على هذه الارض .. مطيعاً لارشاده عز وجل .

ومع ذلك ، فالنزوع نحو الغربية والعصرية قوي جداً . لدرجة ان قليلا من الناس فى العالم الاسلامي ادركوا الحقيقة الجوهرية وهي ان التقدم المادي لا يؤدي بالضرورة إلى احترام الذات والقناعة الحقيقيتين ، وانه لم يجلب السعادة الحقة ولا الصبغة الانسانية الى عالم الغرب ، بل ، على العكس من ذلك ، دل التقدم المادي على انه نظام مربك وغير محكم يسبب مشاكل اجتماعية وبيئية واضحة ، كونه بعيداً عن الآفاق الروحية والخلقية التى هي ، كالناحية المادية تماماً ، جزء مكمل لطبيعة الانسان .

وبينما المسلمون من النموذج الأول يعيشون حياتهم اليومية منشغلين بما يملكون ، وبمسراتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وتضخيم رؤوس اموالهم ، نجد المسلمين من الطراز الثاني فى منتصف الطريق مابين الضياع التام للقيم الإسلامية ومابين التقيد بها ، مبررين ومدافعين عن تقصيرهم في الالتزام بها بمختلف الطرق . اما المسلمون من الفئة الثالثة فهم متمسكون بثبات بالمبادىء والقيم الاسلامية مساعدين في ذلك على إيجاد قوة متوازنة ضد التقدم العشوائي والتبني غير المتجانس للاخلاق والممارسات التي لا تناسب المسلمين والتي تصيب مجتمعاتهم باضرار بالغة . وبسبب قناعتهم الاكيدة بحقيقة الاسلام ، نرى ان هؤلاء الأفراد لا يمكن ان يتارجحوا فى اتجاه نظام مثل الشيوعية كما يفعل غيرهم من المسلمين الذين فقدوا القناعة الاساسية واصبحوا غير قادرين على مواجهة المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى بلدانهم فى الوقت الحاضر .

الاسلام هـو الحـل

واليوم ، وعلى الرغم من تلك الظروف الصعبة ، بدانا نشعر بموجة من الوعي والاعتزاز الاسلاميين ضمن العالم الاسلامي . فلعديد من السنوات ، كان يوحي لشعوب هذه المنطقة ، بطريقة صريحة او بتحفظ ، بانها متخلفة ومتدنية ، وبان الطريق الوحيد للنهوض بها من هذا الوضع هو بترك الدين والتقاليد وتبني الاسلوب الغربي . ولقد صدق هذا كثير من الناس .. وهاهم يسيرون الآن باتجاه المادية .

اما الاخرون ، فقد القوا على المجتمع الغربي نظرة جيدة فاحصة ، وادركـــوا شركه ، ومن ثم ادركوا الحقيقة الاساسية وهي ان التقدم المادي والرفاهية لا يحققان كامل طبيعة الانسان ، ولا يعدانه بالجنة الموعودة على الارض . وبعد ان يحصل الانسان على كل هذا ، هاهـــو يســـال : « وماذا بعد ؟ » إن الرفاهية ـ مثل الفقر تماماً ـ يمكن أن تترك الفرد فارغاً من الداخل . ولقد ايقن هؤلاء ان بني الانسان ـ بحكم طبيعتهم الانسانية ـ يجب ان يهتموا بما هو اكثر عمقاً واكبر مغزى من المحسوسات .. بالمعاني وليس بمجرد الماديات . وبسبب كل هذا ، توصلوا إلى قناعة عميقة وثابتة ، وهي ان فى التراث الاسلامي ما هو اكثر قيمة بالنسبة لوجود الانسان ، وان دينهم يتفوق بثرائه واسلوبه على اي نظام او معتقد اخر . وقد برز ذلك مرافقا لليقين الواضح بان المشاكل التى يواجهها العالم الاسلامي اليوم ، هي النتيجة المنطقية والمباشرة لسقوط المسلمين بعد ان ابتعدوا عن دينهم . ولا يمكن لهذه المشاكل ان تحل إلا بالرجوع المخلص إلى الاسلام والمباديء الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى يقوم عليها ، والتى لا تنسجم مطلقا مع الاخلاق الهمجية الانتهازية السائدة ، القائمة على استغلال الانسان لاخيه من اجل غايات انانية صرفة .





الكعبة المكرمة .. يطوف حولهـــا الحجـــاج من كل جنـــس ولـــون .. ولقطـة اخرى داخـل مسجـد الرسـول الكريم فى المدينـــة المنــــــورة .

لكن مباديء هذا الدين العظيم تنسجم مع اعظم وانبل مباديء الحضارة الانسانية ، تلك الحضارة التى مافتئت تسعى لايجاد حلول لامراضها المعقدة .

وبين جميع الاتجاهات الواضحة فى العالم الإسلامي اليوم ، الراسمالية منها او الوطنية ، الاشتراكية او الشيوعية ، يقف الاسلام ممسكا بالوعد الاكيد ، لان يحمل لشعوب هذه المنطقة ـ فيما لو طبق باخلاص وتعقل ـ حالة الاستقرار والسلام التى تنشدها تلك الشعوب بعد ان عاشت السنوات الاخيرة فى خضم اضطرابات ضخمة .. داخلية وخارجية . وبدون ادنى شك ، فالاسلام وحده هو الذي يستطيع ان يكبح تهديد الشيوعية الزاحف ، والمتمثل بمحاولاتها الخطرة والمتزايدة لاقتطاع اجزاء من العالم الاسلامي لحسابها .

فالالتزام غير الجدلي بالمعتقدات والقيم الإسلامية يشكل الدفاع الوحيد والاكيد ضد الأطماع المختلفة فى البلدان المسلمة ، وخاصة فى اوضاعها الراهنة غير المستقرة وعلى نحو أوسع ، ربما نلاحظ ان الشيوعية والامبريالية ، وكل النظم الاخرى التى تنكر او تقلل من قيمة طبيعة الانسان الروحية او تركز على احد الجوانب فى طبيعة الانسان على حساب الجوانب الاخرى ، يجب ان ينظر لها اخيراً على انها محاولة يائسة قام بها الانسان بغية ان يفهم ذاته ويجد الاتجاه الصحيح معتمداً على قدراته المنظورة والمحدودة .

ومنذ مسيرة الانسان المبكرة على هذا الكوكب ، صعدت اديان وفلسفات ونظم وأفكار عديدة ـ بما فيها تلك التى تسيطر علينا اليوم ـ صعدت مسرح التاريخ ولعبت دورها . وعندما نمعن النظر فى هذا التاريخ والتراث والاتجاهات السائدة فى العالم اليوم ، يبدو واضحا ان ايا منها لم يفلح في حل الصراعات والمعضلات الجوهرية التى تنخر فى الشخصية البشرية ، لانها إجمالا ، بشكل او باخر ، غفلت النواحي الأساسية فى علاقة الانسان مع الحقيقة الالهية ، او انها اعطت اولوية لواحد من مظاهر الحياة الانسانية على حساب المظاهر الاخرى . وبذلك عملت على خلق اختلاف مخيف وغير متجانس داخل الافراد والمجتمعات التى يعيشون فيها ، مما جعلها قاب قوسين او ادنى من تدمير المجتمع الانساني برمته.

وفى كل ذلك الخضم ، برز الاسلام نظاما وحيدا فى العالم ، ينظر إلى الانسان من الزاوية الاشمل ، ضمن إحاطة كاملة بالحقيقة الالهية ، وفهم صادق لطبيعة الانسان الخالصة ، مزوداً إياه بتوازن تام مابين جانبيه المادي والروحي على حد سواء .. وما بين امال وحاجات الانسان الدنيوية وهدفه الأبدي فى الآخرة ... إنه النظام الوحيد الذى يخضع الانسان وحياته كلية إلى الله ... الله الذى منحه هذه الحياة ، والذي لا يستحق خضوعه إلاه . إنه النظام الذي حرر هذا الانسان من ظلمات عبوديته .. ومن قيم ونظم ورغبات من صنع البشر .. ليكتشف ان الله وحده هو مولاه الحقيقي ولا احد سواه ..

لم تعد عظمة الاسلام خافية ، ولم يعد نيل هذا الدين من الاشياء التى يجهلها البشر .. إلا ان قلة الاحتكاك ، والتحامل ، والاختلافات الثقافية كلها اوجدت صعوبات اعترضت إلمام الغرب به وبمعرفته عن كثب .

كثيرون ، وكثيرون جدا ، ينضمون إلى جماعة المسلمين اليوم .. مؤمنين بان هذا الدين يكشف لهم عن الحقيقة ويدلهم على طريق الحياة المثلى التى دابوا يبحثون عنها ـ ربما لسنوات ـ دون جدوى ، لأن بحثهم كان ، على الأغلب ، فى الاتجاه المعاكس تماما .

ويعتقد كثيرون بان الاسلام سيكون موجة المستقبل . إنه تراث الانسانية جمعاء وإن لم يوضع فى مكانه الصحيح منذ امد بعيد . ارسله الله للبشر جميعا وليس لمجموعة واحدة على الأرض التى نزل فيها . إن الهنا ، إله السموات والارض ، يعد البشرية ـ فيما لو اتجهت إليه باخلاص ووفاء ـ ان يدلها ويثبت اقدامها عـــلى الطريـــق الصحيحـــة التى توصلهم الى الاستقرار والتوازن ، ويعدها بان يمنحها ـ افراداً وجماعات ـ التحول نحو الافضل ، فالنظم التى اوجدها الانسان بعيداً عن طاعة الله ، لن تنجح ابداً .

كروان محمد السكري



الحصان..

عندما يتحرر من قيود الإنسان!

بقلم: حسام جميل مدانات

رذاذ الماء يتطاير خلف حوافر «فحل الخيل» الذى نفر مبتعداً ، جاذباً خلفه قطيعه من إناث ومهور ، وفى مكان اخر يشب حصانان صغيران فى صراع لا يخلو من عنف ، وحوافرهما الامامية تعلو وتهبط بسرعة ...

إنها لوحة رائعة للخيول البرية فى ضباب الصباح الذى يعلو المستنقعات .

يتكرر هذا المنظر فى عدة مناطق معزولة تتوزع فى عدة اماكن من العالم : فى بعض الجزر المجاورة للشاطىء الشرقى للولايات المتحدة ، وفى هضاب واودية الغرب الامريكى ، وفى سهوب منغوليا ، فى الأراضى البعيدة القاحلة فى أستراليا وفى المكسيك ، وحتى فى أوروبا .

خلال العقود الماضية ، قام العديد من العلماء بالذهاب الى هذه الأماكن ، التى لا يسكنها بشر . وقاموا بمراقبة الخيول ، فى محاولة لفهم بيولوجية وسلوك الحصان ، هذا الحيوان الذى ساهم بشكل كبير فى تطور الحضارة الانسانية خلال خمسة الاف عام من تهجين الانسان له . وخاصة دوره فى المعارك التى كانت تجرى بين الشعوب والقبائل منذ القدم ، ومن ذلك دوره فى الفتوحات العربية الاسلامية على إمتداد مناطق واسعة .

لقد اكتشف علماء الحياة ، أن سلوك الحصان يتغير سريعاً ليناسب الظروف الجديدة . ويبدو أن الأجيال الطويلة المروضة سيختفى تاثيرها وبسرعة ، عندما يطلق العنان لحصان ، ليعيش حراً فى البرية . إنه يظهر تكيفاً سريعاً وبشكل مذهل لظروف حياته الجديدة المتحررة من

ومعظم ، إن لم يكن كل الخيول البرية المتواجدة فى العالم اليوم ، ذات أصل مدجن اليف ، حيث كانت اجدادها مروضة وعاشت مع الانسان لقرون طويلة . والصنف الوحيد الذى لم يروض ابداً هو الحصان المنغولى . ونجده اليوم ، فى حدائق الحيوان فقط ، حيث يعتقد انه ابيد تماماً فى موطنه الأصلى فى سهوب آسيا .

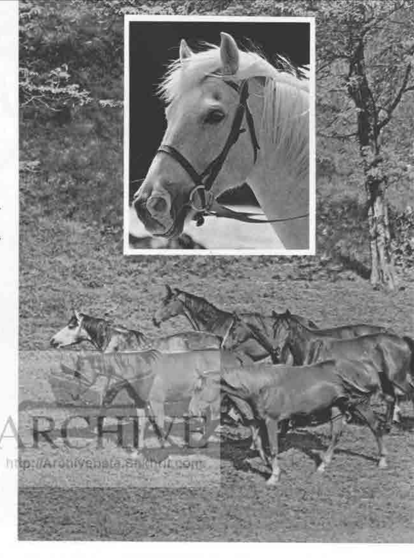
الدراسات الحديثة

«رولف هوفمان» ، عالم حيوان من جامعة ديوك الأمريكية ، وهو يدرس الآن الخيول البرية فى جزر «بيردشول» ، و «شاكل فورد» ، بالقرب من سواحل كارولينا الشمالية . وتثير دراسته الاهتمام ، من حيث أن الخيول فى هاتين الجزيرتين ، تختلف عن بعضها فى الوقت الحاضر ، رغم انها تنتمى لنفس الأصول التى وضعت هناك عام ١٩٤٠ م .

لقد تكيفت هذه الحيوانات فى الجزيرتين مع ظروف البيئة الجافة ، وتعلمت حفر الارض بحوافرها للحصول على الماء الموحل الغائض فى الرمال من بقايا المستنقعات الجافة . إنها تكتفى بكمية من الماء اقل بكثير مما تحتاجه الخيول المستانسة . وحتى انها حققت تكيفاً مذهلا لا تقدر عليه الثدييات عادة ، الا وهو انها تشرب احياناً الماء المالح إذا لم تجد غيره .

ويقوم «هوفمان» ، بدراسة التغيرات الفسيولوجية التى يتطلبها مثل هذا التكيف . ويظهر تنوع التكيف المتحقق لملائمة البيئة الجديدة فى جزيرة «بيردشول» ، حيث يظهر نظام الحريم كنظام وحيد تقريباً . فهذه الخيول البرية تعيش فى قطعان تحوى إناثاً يتراوح عددها بين إثنين وثمان ، ولكن العدد قد يصل الى الخمسين . ويسيطر عليها كلها فحل خيل واحد . وتتمتع فحول الخيل الاكثر عدوانية بالعدد الأكبر من الاناث ، وتسيطر على مساحة اكبر من ارض الرعى لحريمها وصغارها .

ورغم سيطرة حصان ذكر واحد على القطيع ، فان نظام معيشة القطيع لا يتصف باستبداد هذا الذكر ، بل توجد علاقات اجتماعية معقدة تلتزم بها الاناث . فمثلا إذا تفرق قطيع لسبب ما ، أو إذا مات الفحل القائد ، فان الاناث تعمل على المحافظة على ترابط القطيع وبقائه . وإذا



على هذه الصفحة والصفحة المقابلة اربع لقطات للخيول المنتشرة فى مناطق عديدة فى العالم .. والتى سعى إليها خلال العقود الماضية مجموعة من العلماء فى محاولة لفهم سلوكها خارج حضارة الانسان .. اي قبل ان تستأنس !

وقد كان تكيف الخيول سريعاً لظروف صعبة جديدة ، مثل : ندرة مفاجئة للطعام بالمقارنة مع الظروف الغذائية السابقة والسهلة تماماً ، حيث لم يكن على الحصان ان يشغل نفسه مطلقاً بأمر البحث عن الطعام . وهذا التكيف يجعل العلماء يميلون الى وضع الحدود واضحة بين الغريزة والقدرة على التكيف . إن الخيل تبدى مرونة عالية فى مواجهة الظروف المتغيرة ، وهذا ما يجعلها ذات ميزات هامة كحيوانات مدجنة .

قيود الانسان .

وتظهر فى جميع قطعان الخيول البرية ، علاقات ذات طبيعة معقدة ، سواء العلاقات بين الذكور فى نفس القطيع ، او طرق تودد الذكور للاناث ، او وسائل واشكال القتال بين الذكور .. إنها تظهر جميعاً متشابهة فى جميع مناطق المعيشة الحرة للخيول . وقد دفع هذا الأمر علماء الحياة للاعتقاد بأن هذه التصرفات تحكمها غرائز كامنة ، تتغطى ظاهرياً فى الخيول المروضة فى عالم الانسان .



هـــذا « المهـــر » إذا فصلتـــا بينـــه وبيـن امـــــه فـــان النتيجـــــة التى ستواجهتـــا هـــى عديـــد مـــن المشـــاكل عندمـــا يكبـــر !

بعـــض ســـلالات الخيـــول القديمـــة المستانســـة وهـــي موجـــودة اليـــوم فـــي المانيـــا

خطفت فرس من قبل احد الفحول المنافسة ، فانها عادة ما تعود الى قطيعها فيما بعد . ولكن الاناث لا تعارض إذا تركت صغارها الاناث ، عند بلوغها القطيع لتنضم الى قطعان اخرى . ولهذا ميزة تحقيق التهجين بين القطعان المختلفة .

ولكن يمكن القول ان القوة المحركة لقطعان الخيل هى صراع جنسى عنيف . ففى جزيرة «بيردشول» ، نجد ستة مجموعات من الحريم التى يتبع كل منها فحلا . وتعيش هذه القطعان فى اماكن متجاورة ، ولا مفر من إحتكاكها ببعضها اثناء بحثها عن الطعام او الماء . ويحصل بين الوقت والآخر ، صراع بين فحل وحصان صغير بالغ غريب ، يحاول الحصول على انثى من القطيع .

محاربة الخيول

إن هذا النظام الاجتماعى يتميز بالمرونة وهو ليس بقاعدة ثابتة رغم الظروف . ففى جبل «مكدونلد» فى استراليا ، نجد الخيل تتجول منفردة او فى ازواج . والسر فى هذا النظام الاجتماعى الذى انعدمت فيه حياة الحريم والقطعان الكبيرة ، ان المزارعين هناك ينظرون للخيول باعتبارها آفات زراعية تهاجم حقولهم وتاكل محاصيلهم . ولهذا فانهم يطلقون عليها النار اينما وجدوها . وهكذا كان الأسلم للخيول ان تتخلى عن حياة القطعان والعيش مفردة او ازواجا ، حيث تصبح اهدافا اصعب للمزارعين . وتشبه الخيول فى معيشتها غير الاجتماعية هذه ، اقارب لها اخرين ، مثل : حمار الوحش جريفى فى كينيا والحمير البرية .

ونتيجة لارتفاع نسبة المواليد الذكور فى «بيردشول» ، نجد حصول تعديل فى طبيعة تكوين وتنظيم القطعان ، تعديل يدل على مرونة النظام الاجتماعى . إذ نجد فحولا اخرى تابعة فى القطيع ، غير الفحل المسيطر . ويحصل احيانا ان يقوم الصراع بين الفحل المسيطر وفحل اخر تابع ، تكون نتيجته احيانا ، تخلى الزعيم عن مكانه للفحل المتحدى . ولكن الذكور عند بلوغها تترك قطيعها وتتجول فى مجموعات . وتبلغ الذكور جنسيا فى سن الثالثة . وقد تضطر ان تمضى فترة تطول الى خمس سنوات فى



في هاتين اللقطتين تعبير صادق عن اسمى لحظات الامومة عند الخيول

«المنفى» في اطراف الجزيرة ، حيث يقل الظل والماء الصالح للشرب ، قبل ان تتمكن من الحصول على إناث خاصة بها وتاسيس قطعان جديدة .

ملاحظة علمية

وقد لاحظ «هوفمان» يوما رد فعل زعيم القطيع على تسلل حصانين مغتربين لقطيعه في محاولة منهما للحصول على إناث .. كانا يقتربان بحذر ، وكان رد الفعل عند الفحل فوريا ، فقد إتخذ وضعا مهددا ، إذ اخفض رأسه قليلا ، ووجه اذنيه للخلف وفي تلك اللحظة قامت إحدى الاناث بالتبرز فاخذ الفحل يشم مخلفاتها على الارض ، ثم رفع رأسه عاليا ، وثنى شفته العليا للخلف محركا خياشيمه تمددا وتقلصا . ويبدو ان هذه العملية تمكن الحصان من استنشاق الرائحة بقوة لتصل الى مركز شم ثان حساس في نهاية مجرى الانف . والهدف من هذه العملية ان يتمكن الحصان من تمييز روائح معينة . ثم يبول الحصان على مخلفات الانثى فيما يبدو انه تأكيد لحقه في إمتلاك هذه الانثى ضمن حريمه . ثم قام الفحل بقيادة حريمه بعيدا ، بينما الحصانان المتطفلان يراقبان المنظر بهدوء ، ثم اخذا يشمان مخلفات الانثى ، ولكنهما لم يقوما بوضع مخلفاتهما عليها .. إنها لا تتبع لاى منهما . وعندما اخذا يتبعان القطيع وصل الصبر حده بالفحل الذي هاجمهما فجاة ، ودفعهما باتجاه البحر .

في هذه المرة انسحب المتطفل ، ولكن في مرات اخرى يحصل قتال قد يكون عنيفا .

الصراع بين الخيول

وتقوم فحول الخيل المتصارعة بالتحديق في بعضها ، وتضرب الأرض باحد حوافرها ثم تشب للامام فجاة وقدميها ترفس مهددة . وعندما تصبح وجها لوجه ، تاخذ بشم بعضها ، ثم تحمحم وتاخذ بالعض والرفس باقدامها الأمامية . وتتجنب ان تتعرض لرفسة من الحافر الخلفي القوى . وبعد صراع لا يستمر طويلا ، ينفصل الخصمان ، ويتبرز كل منهما فيما يمكن ان يدل على محاولة لتحديد ملكيته في الارض وعادة يعودان بعد ذلك ليتابعا القتال .

ولكن يبدو ان الخيول تمضى وقتا اطول في انشاء علاقات الصداقة اكثر مما تمضى في إنشاء علاقات العداوة . فداخل القطيع نجد روابط الاناث مع بعضها قوية وحميمة وقد يكون السر في هذه العلاقات ، حفلات الغزل والتزاوج الجماعي التي يقوم بها الفحل المسيطر في القطيع . وتمضى الفرس وقتا طويلا في لعق مهرها حديث الولادة ، مما يقوى علاقة بينهما تقوم اساسا على حاسة الشم . ونجد نفس الظاهرة في الخيول المستانسة . ويبدو ان الفصل بين الفرس ووليدها ، او منعها من لعقه ، يؤدى الى مشاكل في سلوك المهر المروض عندما يكبر .

وفي الغرب الامريكي ، يعتبر الحصان البرى رمزا للحرية ، حتى انه اصبح رمزا وطنيا لها في امريكا كلها . ويبلغ عدد الخيول البرية الآن بين خمسين الفا وستين الفا في ولايتي «ويومنغ ، ونيفادا» ، حيث الصحراء التي تشبه لحد ما صحارينا العربية .

وهنا ، قد يثير الاهتمام ، ان نطرح تساؤلا حول تاريخ الحصان في وطننا العربي ، وفي الجزيرة العربية بالذات .. هل كان هناك في اى وقت من التاريخ خيول برية في صحارينا ؟ وهل من الممكن تخصيص اماكن محمية للخيول البرية في بلادنا ؟

حسام الدين مدانات

لوحة للفنان الكويتي عنوانها : « حياء بنت ١٦ »

اهلا وسهلا

عبدالرسول سلمان
فنان كويتي يلفت أنظار نيويورك وباريس

بقلم : حسن الملا

الفنان الكويتي : عبد الرسول سلمان



هو من ابرز الفنانين التشكيليين فى الكويت .. عرفناه من خلال لوحاته الفنية التى اثارت الانتباه على المستوى العربي ، واشترك بها فى عدة معارض دولية فى الهند وباريس ونيويورك ، كما انه استطاع ان يثبت جدارته فى مجال النحت منذ

طرحت جمعية المعلمين الكويتية فى عام ١٩٧٥ مسابقة للفنانين الكويتيين لعمل نصب تذكاري للمعلم ، فما كان من الفنان عبد الرسول سلمان إلا ان تقدم مع عدد من الفنانين المحترفين لهذه المسابقة ، وكانت المفاجأة عندما فاز على الفنانين المحترفين

ليصبح اسمه مرتبطا بالنصب التذكاري الموجود الآن فى ساحة المقر الرسمي لجمعية المعلمين الكويتية !

وإضافة الى الرسم والنحت ، فان الفنان الكويتي عبد الرسول سلمان ، برع فى تصميم الكثير من الشعارات والأوسمة



تحدى

والميداليات ، كما قام بتاليف كتابين : احدهمـا عن الفنان محمد الدمخي وهو احد رواد الفن التشكيلي فى الكويت ، والكتاب الثاني عن الفنون التشكيلية فى الكويت ، وهو يستعد حاليا لاصدار كتاب عن الحركة التشكيلية فى دول الخليج ، خاصة وانه احد اعضاء اسرة تحرير مجلة عالم الفن الكويتية وامين سر جمعية الفنون التشكيلية الكويتية .. !

وعندما ننظر الى اعمال الفنان عبد الرسول سلمان ، سيتضح لنا ان التراث والاصالة هما النهر الذي يرتوي منه الفنان، فاعماله تجمع بين التراث القديم وروحانية الاسلام وتقنية العصر الحديث .. فلوحاته تتميز بالالوان الهادئة التى تتخللها خطوط منحنية تشكل حروفا وكلمات مقروءة فيها ترتيل لآيات من الذكر الحكيم مضيئة بنورانية كنور الفجر المتدفق الذي يكتسح فى طريقه اي ظلام ..

إنك لو تمعنت في تلك اللوحات لوجدت عبارة « بسم الله » و « سبحان الله » وغيرها تعطيك انطباعا داخل العمل الفني بعظمة الخلق فيما خلق ، وتجعلك تدنو من الأرض الواسعة والسماء الصافية التى تتخللها بعض الخيوط الشريطية التى استطاع بها الفنان ان يربط اعماله بعضها ببعض متموجة كامواج الخليج العربي !

ولان فناننا هذا قد ربط نفسه بالبيئة وتاثيراتها ، فان اعماله فى مجموعها تنهل من الاسلوب الواقعي الذي يستخدم الرؤيا المعاصرة التى يستوحيها مما يدور حوله من اساليب متنوعة وعديدة .. فمثلا في لوحته « انشودة من الماضي » نرى واقعية تميل إلى السريالية ، وإن كان التعبير الدقيق لها فى نظري ، واقعية خارجة عن المالوف ، فاللوحة تمثل بخنق « اي غطاء » ترتديه الفتاة فى الخليج العربي فوق الراس والجسم وهو موشى بالطرز والزخارف الذهبية ، إلا انه غير مستخدم فـــوق راس الفتـــاة ، لانـــه مدلي مـــن سفينة وكانه الماء المسكوب الذي يمنح الجدول ماء لا ينضب ويظل متدفقا فى كل ايام المستقبل .. إنه في هذه اللوحة لا يقدم تسجيلا تراثيا ، ولكنه يعطينا دفعة نحو التفكير والتامل فيما تعرضه اللوحة من افكار تخاطب الحاضر والمستقبل !

إن الفنان الكويتي عبد الرسول سلمان الذي ولد فى الكويت عام ١٩٤٦ ، حاز على جوائز وميداليات ذهبية فى المعارض المحلية ومعرض الكويت للفنانين العرب .. كما انه شارك فى عدة معارض فى بغداد والقاهرة وليبيا وتونس والجزائر والمغرب .. وهذا بخلاف المعارض الدولية . إنه بكل ما قدم من اعمال فنية يستحق ما اطلقه عليه النقاد الكويتيين .. فهم يسمونه الفنان الرسام واحد عمالقة الفن التشكيلي في الكويت ..

حسن الملا



جمال قطب



ليوناردو دافنشي

الابتسامة الغامضة وخلود العبقرية

في عام ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية فى ايدي الأتراك وانهارت الدولة البيزنطية .. وكان هذا الحدث الهام رمزا لنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث . وقبل ذلك بعام واحد ، اي سنة ١٤٥٢ ولـد « ليوناردو دافنشي » وقد وصفه المؤرخون بانه رائد الأسلوب الجديد في فن التصوير فى أواخر القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر .

وفي الحقيقة ان ما نعرفه عن حياة الفنان الأسطورة .. يعتبر قليلا جدا بالنسبة إلى ما خفي من سيرته الغامضه . وقد اعتاد ان يدون مذكراته وخواطره وآراءه وبحوثه المختلفة فى كراسات ووريقات مبعثرة ، على امـل جمعهـا وتصنيفهـا بعد ذلك .. ولكنها تشتت اثر وفاته فى عام ١٥١٩ ، وضاع معظمها ، وما تبقى منها موزع الآن بين مكتبات ميلانو وباريس ولندن ووندسور .. وغيرها من المتاحف ودور الوثائق . وإننا لنعجب ونتعجب من هذه العبقرية الفذة عندما نتدارس مذكراته تلك ، فنراه قد لمح بفكره الثاقب كثيراً من النظريات التى اثبتها العلماء بعد ذلك ، مثل نظرية دوران الارض حول الشمس ، ونظرية (نيوتن) فى الجاذبية ، ونظرية (وليم هارفي) فى الدورة الدموية .. كما انه سما بخياله وثاقب فكره فصمم بعض المخترعات التى تحققت بعد ذلك بمئات السنين مثل الطيارة والغواصة والدبابة والقنابل المشحونة بالغازات السامة !

وكان منهج ليوناردو فى البحث يختلف كل الاختلاف عن المثقفين فى عصره .. فهو لم يأخذ بالنزعة الميثولوجية ، ولم يحاول قط الرجوع إلى فلاسفة الاغريق او الرومان .. وإنما اعتمد على التجربة الحسية المباشرة بعيدا عن كل نظرة ميتافيزيقية ! فنراه يقوم بنفسه بتشريح جسم الانسان ، ويراقب حركات الطيور فى طيرانها ، ويدرس هبوب العواصف وتلاطم الأمواج وتجمع السحب ، كما ينكب على علوم الهندسة والمنظور والميكانيكا ... وغير ذلك في دأب وتفهم ، ويسجلها فى رسوم دقيقة تدل على قوة الملاحظة والصبر الطويل .

اما فنه ، فقد اعتمد على تجربته الباطنة الخاصة ، وبصيرته ذات الرؤى العجيبة ، وهي التى اضفت على لوحاته غلالة من السحر والاثارة المبهمة ، فبدت مجسماته فى بروز لطيف رقيق ، وكانها خارجة من عالم غامض مجهول ! .

اما لوحته التى يراها القاريء على الصفحة المقابلة فهي اشهر لوحاته ـ إن لم تكن اكثر اللوحات العالمية شهرة على الاطلاق ـ الجيوكوندا او الموناليزا (اي السيدة ليزا) وهي صاحبة التحفة الخالدة رسمها ليوناردو دافنشي فى نحو اربع سنوات بداها فى عام ١٥٠٣ .. وخرجت معجزة فنية بكل المقاييس ، ولا شك ان صلة وثيقة كانت تربط الفنان بهذه الفاتنة وبزوجها التاجر الفلورنسي (فرانسسكو دي بارتولوميو دل جيوكوندو) .. مما جعل ليوناردو يعكف على هذه اللوحة سنوات اربع ، ويعتز بها كل هذا الاعتزار !

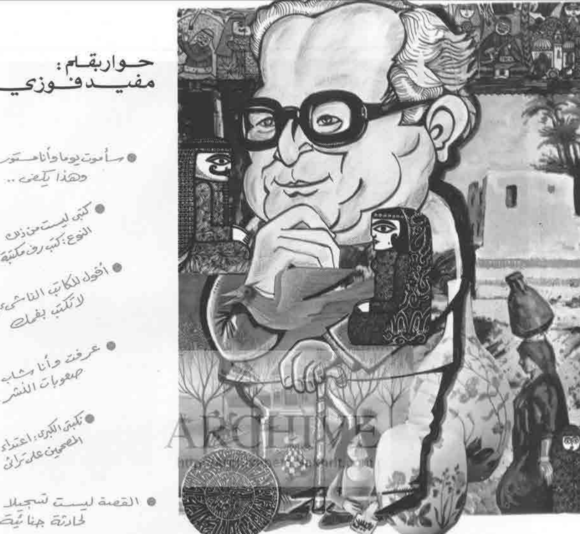
وقد كتب عن الجيوكوندا ما لا يمكـن حصره من التحليلات والآراء والتقييم الفني ، واعتبرها الفنان نفسه اروع ماأبدع فى حياته ، حتى انه كان يحملها فى اسفاره دون غيرها من اللوحات ، خوفا عليها من تركها فى مرسمه فى فلورنسا مع باقي لوحاته الاخرى .

والحق انها اية فريدة فى نوعها من ايات الفن الرفيع .. وهي ليست مجرد صورة شخصية لأمراة معينة ، ففيها التقت الرؤية بالرؤيا ، والخيال بالخيال ، كما التقت اغوار النفس باسرار الطبيعة .. نقف مبهورين امامها .. فنحتار فى وصف الابتسامة الملائكية او الشيطانية ، وهاتين العينين الساحرتين ذات النظرات الهائمة الوادعة الحالمة .. لم نستطع ان نحدد عمر ليزا وقت ان ابدع لها الفنان صورتها .. رسمها فى اربع سنوات .. فاسقط عن ملامحها معالم الزمن وبصمات السنين .. إنها ترتسم فى مخيلتنا كاسطورة رائعة ، تتراقص كاطياف سحرية تسري في وجداننا بانغام من الهمس الشاعري ، يخرج من بين شفتيها المطبقتين على اسرار الفتنة الغامضة .

جمال قطب



أشهر لوحة فى العالم ، رسمها « دافنشي » للسيدة مونا ليزا زوجة التاجر « جيوكوندو » .. ومن هنا عرفت اللوحة بالاسمين معا : « موناليزا » او « جيوكوندا »



حوار بقلم: مفيد فوزي

- سأموت يوماً وأنا مستور وهذا يكفي..
- كتبي ليست من ذلك النوع: كتب رف مكتبة
- أقول للكاتب الناشيء: لا تكتب بفمك
- عرفت وأنا شاب صعوبات النشر
- نكبتي الكبرى: اعتداء المصححين على تراثي
- القصة ليست تسجيلاً لحادثة جنائية

كاتب "خليها على الله"

يحيى حقي

الإرادة أفضل الفضائل...

من الآخرين ، عرفت «الاصغاء الجاف» ، ومنه .. عرفت بل عشقت «الاصغاء الحنون» ! وفى ذهنى مثل صينى يقول الاصغاء الجيد ، حديث جيد !

●

له فى نفسى مكانة خاصة ، ربما لسبب شخصي بحت ، فضلا عن مكانته المرموقة فى شارع الأدب ، وتميزه الخاص جداً فى «عطفة» القصة . اما ذلك السبب الشخصى فهو اننى اذكر جيداً عندما قابلته فى فجر حياتى العملية ، محاورا . ايامها لم اكن احمل شيئا سوى قلم حبر . وكان يجيب على اسئلتى وهو يذكر اسمى «المتواضع» . فكان رنين اسمى على اذنى يمس شغاف نفسى ويداعب اوتار غرورى المبكر !

●

الكاتب الفنان : يحيى حقى ، ومن سواه ؟!

●

حين جلست اليه منذ ايام احاوره . صمت وقال : انت تطلب منى ان اتحدث عن نفسى . يا لها من لذة ساحرة تواضعها زائف ! على اى حال ، صورتى .. هى جلسة أمام فوتوغرافى محترف .. يسلط على اضواء أعشي لها ، وقد اعوج رقبتى لكى تعتدل فى نظره وربما ابتسم بلا سبب . اما صورتى فى هذه الأحاديث فهى ماخوذة كما ترى خطفا ، احيانا وانا فى مباذلى ، فهى أصدق !

وقلت ليحيى حقى ، ربما لاغرائه اكثر على الحديث «تبدو سعيدا» .

قال «لا ولوج الى ساحة السعادة ـ فى اعتقادى ـ إلا من احد ابواب ثلاثة : الايمان ، والفن .. والحب . لا شيء يشع بها مثل الخشوع الذى اراه فى المعابد . وإذا كان الحب هو اكثرها التصاقا بالصلصال وبالزمان والمكان والصدف ، فانه شرط ارتفاع الانسان عن مرتبة الحيوان ، وكان الايمان أكثرها طموحا لأنه يطلب الله لا الناس . الخلود فى الأخرة لا العبور فى الدنيا . وسيبقى بعد هذا ، الفن وسطا جامعا للطرفين ويا لها من منزله.!.»

وقلت ليحيى حقى وهو يعطينى إصغاء حنونا ويضع يده على اذنه ليلتقط كل ما اقوله وكانى انطق الدرر ..

«لست ادري لماذا أشعر انك اب للقصة ، فانت تحنو عليها وترعاها ونحس جميعا بابوتك لها وأنت رجل عزوف لانك فنان حقيقى . ولهب الفن لا يغيب عن محرابك ويعجبنى قولك : اننى ممن يدخلون معبد الفن من اشد أبوابه ضيقا ، ولهذا كنت من المقلين ، اسمعهم احيانا يعيبون هذا علي كانهم يطلبون منى ان اكون من المدلسين وانا يكفينى الصدق . واحس ـ إذا اذنت لي ـ ان القصة عندك ليست ترفا شعوريا ، إنما غاية . والغاية هى الاعلاء من شان الارادة وجعلها اساسا . فانت ترى ان الارادة اساس لكل الفضائل . يستوقفنى هذا المعنى كثيرا .

ويتسلل صوت يحيى حقى بنعومة وبأبوة ليقول «صدقنى يا مفيد إن العالم عندى معركة ولابد لنا من خوض هذه المعركة بسلاح الارادة.!.»

وحين قلت : كيف كنت دبلوماسيا ، يوما ما ، ولم تستخدم سلاح الدبلوماسية فى معركة الحياة ؟

ضحك وقال : ما كنت دبلوماسيا فى نقدى ، او عرضي للتجارب الفنية . أطلق ما شئت عليها من اوصاف . قل أمانة ، قل ما شئت لكنى اقول ما احس وما ارى ، واجرى على الله !

● اقول ليحيى حقى : تبدو كالنهر العظيم عند المصب . ورؤيتك لاعمالك عبر التدفق .. تثير فيك الشجن . اليس كذلك ؟

يقول يحيى حقى بصوت فيه ارتعاشة التواضع الجم «قولك كالنهر لحظة المصب تزيد إعجابي لا جدال . ولكن هل يليق لكاتب ان يتحدث عن اعماله ، انا لا اريد ان استعمل الكلمات الطنانة واقول ان مبادئي ترفض ذلك . إنما اقول ان حساسيتي تنزعج وتضج من ذلك . ومع ذلك استجيب ـ رغما عنى ـ لطلبك ومن يدرى ، ربما صار ما اقوله الان مرجعا .. حين اسكن التاريخ . نحن مهتمون فيما اتصور بتاريخ ادبنا الحديث ، ويجب فى نظرى أن يستمر البحث ولا يكف . ولكن مما يحزننى اننا ننشغل بانفسنا حتى يسقط منا سهوا ما هول غال ! هل تسمع عن اسماعيل مظهر ؟ اسماعيل مظهر الذى كان رئيسا لمجلة العصور . الذى كتب القاموس الانجليزى العربى . الذى كان من اوائل المنادين باتخاذ النظرة العقلانية فى أمور حياتنا . هل يتذكر احد اسماعيل مظهر ؟ هل يعرفه الشباب ؟ هذه سيرة تعتبر من القمم الادبية الكبيرة ولا احد يدرى حتى .. انت ! هل سمعت عن «حسن محمود» الذى كان لصيقا بطه حسين . وكان مديرا لمكتبة الجامعة ورئيسا لتحرير مجلة الكاتب المصرى . لقد أشدت مرارا وتكرارا بقصة له اسمها «الجدة الصغيرة» تعتبر فى نظرى من روائع الادب الحديث . هل سمعت عن «وسيم خالد» الذى كتب عن تجاربه فى الجهاد ، ووصف لنا ، كيف امسك بالمسدس لاول مرة . ومعنى الحوار بالكلمات ، ومعنى الحوار .. بالرصاص ! على اى حال عزائى اننى ذكرت اسماء هؤلاء فى كتابى «فجر القصة المصرية» فصارت اسماؤهم تتداول فى كتب النقد . تكلمت عن مصطفى عبد الرازق فى عطر الاحباب . ومازلت اراه قيمة ادبية ومازلت اناشد النقاد الجادين : هذا اول الخيط ، خذوه واتبعوه وادرسوا مصطفى عبد الرازق لأن لا احد يعرفه من بين كتاب القصة . لقد سئمت الكلاشيهات ليس من المعقول ان يقول انسان بشكل تقليدى كانه كلاشيه محفوظ (اقرا لطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ) . نحن محتاجون لهذه «الحفريات الادبية» وحديثى هذا ، بمثابة شهادة .

● تعب يحيى حقى من الاستطراد المشحون بالحماس . ولم اشا ان اقاطعه . بيد انه عاد يقاطعنى ، وكانه امسك بخيط ، مازال يشده من ذهنه المتوقد ، رغم العمر ، ورغم الراس البيضاء ورغم شكوى الجسد وإن لم يفصح عن الشكوى !

قال يحيى حقى «فى اوربا ـ يا مفيد ـ هذه الشهادات كثيرة جدا . اما عن طريق الكتاب . المؤلف يكتب كتابا او يدلى بحديث طويل للصحفى ، يستجوبه . خذ مثلا : الموت فى فينسيا لتوماس مان . ليس العبرة فى هذه القصة انه راح لفينسيا والطاعون ومات الولد . لا ، هذا الكتاب يعبر عن كاتب احس فى يوم من الأيام ، انه يكتب كلاما مرصوصا لا يعبر عن اعماقه وشعر انه هبط الى مستوى نفاق القراء . وقرر فى لحظة الا يخدعهم . فكيف يواجه هذا المازق . ذهب الى فينسيا وواجه الطاعون . انتحر ! وخذ مثلا آخر ، القصته «تونيو تروجر» . لقد اعجبتني فترجمتها . انها صورة لمعاناة الفنان فى الحياة الاجتماعية . الشاعر ، كيف يعامل الناس ، وكيف يعاملونه . ليس فى الكتاب حدوتة ، ولكن هناك وصف رائع لمعاناة انسان وصدماته !

قلت ليحيى حقي : جئت اسال النهر عن (اعماله الأدبية) فراح يعدد لي اعمال الآخرين ! .

قال وهو يبتسم : حديثي عن الاخرين ، بمثابة الشهادة . ومن يدري ، ربما كنت اقاوم الحديث عن نفسي . ومع ذلك انا ياسيدي ـ فى لحظة المصب كما قلت ـ اعترف ان لي ١٦ كتابا لو جمعتهم معا لما زاد حجمهم عن حجم جزء واحد من الثلاثية . ولقد ظهرت هذه الكتب فى طبعات رخيصة .. وتلقى بعد القراءة على



كاتب "خليها على الله"

يحيى حقي

الإرادة أفضل الفضائل...

الارصفة وعزائي انها قرئت ، ثم تجمع ، فكان من النادر ان تدخل مكتبة ، نعم اعترف لك انك لا تجد لي كتابا فى مكتبة ، ليس مثل هذه الكتب ما يمكن ان يسمى كتاب رف لمكتبة !
هل تتصور اننى عانيت فى النشر كثيرا ؟ !

●

القى لي يحيى حقى باعتراف ، فما كان منى إلا ان قلت « عد الى الوراء بذاكرتك » فقال : كنت اراسل الصحف بالبريد . وكنت بعيداً عن العاصمة . نشروا اغلب قصصي قبل ان يروني . كنت اضع فيها عصارة قلبي ، وادفعها فى صندوق بريد كالح ، لكني كنت اقرؤها بمتعة . وحين جئت اطبع اول كتاب « قنديل ام هاشم » وجدت صعوبة كبيرة . وظللت احمله واطوف به .. حتى شعرت ان الكتاب قد تعذب ، وبدأ يشكو كثرة الطواف به .. وعذاب المرور على الناشرين . وكاد يتركني ، اذهب وحدي دونه !! لولا ان الدكتور طه حسين كان يعرفني وكان يشرف على دار المعارف وصديقي محمود شاكر ، تضامن مع طه حسين ، وقلما يتضامن .. واوصى بي خيرا واخيرا قبلوا طبع الكتاب . وربما شعرت ان الصفحات كانت « تزغرد » وهي فى طريقها الى المطبعة ! :

اعترف لك ولشبان الجيل الذى لم يعرفني بعد . انني كنت ارسل للناشر ، مسودات قصصي ، وكنت اكتشف انه يختصرها للنصف ! ومازال عندي مادة للكتابة . فهل يمهلني العمر . لا ادري ! لكن الواقع – وانا اعترف لك ولشبان الجيل الذى لم يعرفني بعد – اجد نفسي اعبر عن حزني الشديد لما تعرضت له كتبي من اعتداء !

قلت همسا : اعتداء ؟! تقصد سرقة . اعادة نشر دون علمك ؟ قال باسى : ليت الاعتداء كان كذلك ! لكنه اعتداء من المصححين . خرج معظم ما كتبت مشوها . وهذه نكبة لتراثى الأدبي الذى لم يسلم منه إلا جــزء يسير جداً .

●

قلت ليحيى حقي : كتبت مرة تقول إنك تضيق بشدة عندما يقول احد إن القصة مجرد حادثة جنائية . والحقيقة انه لا علاقة بين القصة والحادثة الجنائية .

قال النهر : القصة عندي ، موقف . لحظة . تامل . شعور .

قلت : والقصة عندك « وعاء فكري » .

قال بسرعة : ارجوك احمني من الكلمات الطنانة . فانا انسان وبي ضعف ؟ ربمـــا قصدت اهتمامي باللغة . وانا اعترف لك فى لحظة لا يستحب معها إلا الاعتراف بمثابة الشهادة إنني في قصصي – يامفيد – اردت ان احول الأسلوب العربي من الزخارف والزيادات والرنين واشياء اخرى من هـــذا القبيل الى التزام الدقة المتناهية بحيث لا تستطيع أن تستبدل كلمة باخرى ابداً لانك انت ككاتب بالمعنى لا بالكلام . انتهز فرصة حواري معك لاقول للكتاب الناشئين : راعوا المعنى لا الكلام . لاي كاتب يحاول السباحة فى بحر الكتابة انصحه « ما تكتبش ببقك » !! أريد ان اقول ان الرنين والبلاغة اللغوية خطر ، مطلوب ان يجدوا المعنى ، فيجب الا يكونوا خاضعين لسيطرة الرنين والجرس . إننى احيانا أسرح واتامل . وافكر ! لقد ثبت علميا كما تعرف ان اوتار الحنجرة لا تكف عن العمل حتى ونحن صامتون نفكر . ومن المؤلم فى تاريخ الانسان على الارض انه لا يستطيع ان يفكر إلا من خلال لغة ، كان الامل ان يتجاوز الفكر .. اللغة ! إن اللغة قيود . هي التى حبستنا فى قفصها ! هل يحبس الفكر داخل القاموس ؟ اننا نفصل بين الاوتار والاذن . انا اقول لالم الموضوع ، فلنلتزم بالمعنى ، وبعد ذلك سياتي الجرس الموسيقى على مهل !

●

قلت ليحيى حقي .. كيف احاورك وانسى ترجماتك ؟! لقد سبحت فى بحار الترجمة كثيراً .. ووصلت الى شواطئها !

قال : بالقطع ، لن تنسى . وربما يسقط منك ذلك سهواً . وإذا نسيت سوف اغضب لماذا ؟ لان الترجمة فى رايي ، خدمة للغة العربية . الترجمة نافذة . رؤية ، وممارسة للغة . احيانا وانا ابحث عن المعنى الذي يطابق الكلمة الانجليزية ، اخبط راسي فى الحيط . إنه الالتزام .. لا التدليس على القاريء . ولعل اسوا ما نعانيه الآن ، هو هذه المترجمات الركيكة ! واعترف لك ان ترجماتي ايضا ، فتافيت . ماذا افعل ؟ الدنيا ظروف !

قلت ليحيى حقي وانا اركب موجة اعترافاته إن صح التعبير ! :

– لماذا لم يكتب يحيى حقي روايـــة طويلة . هل نفسك فى القصة قصير ؟

ضحك يحيى حقى ، واسند راسه ، وقال :

– لم يحدث لي ان كتبت شعراً – يامفيد

– ولم يحدث ان كتبت رواية طويلة ! حتى « صح النوم » مجموعة لوحات .. لان الانسان يجب أن يلتزم الصدق . يخيل إلي وانا افكر معك بصوت عال ، ان ميلي بالغريزة ليس إلا قص حكاية ربما اجد في هذا عملا غير مرن . قد اضيق بالتفاصيل . من يقول لي إنه نزل من المحطة وشال الشنطة وخرج من المحطة ونـــادى سواق تاكسي و .. و .. هذه اشياء اضيق بها للغاية . انا احب وصف الشخص ووصف المكان . انا تحولت من القصة القصيرة لكتابة ما اسميه باللوحات لكي تكون عندي حرية التعبير دون ان اكون مقيداً بحكاية وتفاصيلها ! انقد نفسي بنفسي . بيدي لا بيد عمرو !

●

– يحيى حقي ، يتهمونك فى الوسط الادبي انك ناقد تاثري !

رد بسرعة : لامانع ، دعهم يتهمونني . انا لا استطيع ان افصل فى هذا الموضوع لانى لم ادرس النقد فى الجامعة ، ولا تحتوي مقالاتي النقدية على مصطلحات علمية من تلك التى اصطلح عليها النقاد . اناأعتبر النقد عملا ادبيا . النقد عمل ادبي ينبغي ان يقرأ بلذة . النقد ليس صنعة وليس محاضرة . الذي يريد ان يتصفح يقرأ « خطوات فى النقد » يجدني أقول : لا لزوم لان اتقيد بمذهب واحد فى النقد . البعض يقولك : لا .. لازم ! انا ازعم ان الكاتب هو الذى يقود الناقد إلى المدخل الذي ينقد به .

قلت : الدارس لادبك .. سيقول إنك « تمجد » قيمة الارادة . وان من يتعرض لقصصك بتجسيدها للسينما او التليفزيون لابد وان « يسيد » هذه القيمة .

قال يحيى حقي .. حرصت أن احذر من فضيلة سلبية . عندما يقولون فلان هذا رجل طيب . ماذا يقصدون بالطيبة ؟ هل هي الضعف ؟ هلي هي الغفلة ؟ هذه ليست فضيلة ! ربما كانت الطيبة نتيجة انك رجل لا ارادة لك . ومن هنا ، أرى ان الارادة ام الفضائل وافضلها . وتتبع هذا في قصصي « نهاية الشيخ مصطفى » و « ام العواجز » و « السلحفاة » ! إنني ارى الارادة تتبلور فى القدرة على الجذب . فكل منا خزانة مغلقة لا يعرفها احد . وسر الحياة فى الجذب . قلت مرة فى إحدى قصصي « لم يكن له إرادة ولم يكن له قدرة على شيء . كان عاجزاً . عجزت يده عن الامتلاك » .

إنني هنا ، اصف اشخاصا تضيع منهم محافظهم واموالهم وزوجاتهم لافتقارهم للقدرة الايجابية على الجذب .

قلت ليحيى حقي .. لكنك تعزف ، وفى العزف .. نغمة ساخرة !

قال وهو يهز راسه : ربما لان من صفاتي الشخصية التنبه الدائم لمفارقات الحياة ، واول هذه المفارقات جبروت الانسان وضعفه فى ان واحد . وكان رد فعل فى نفسي ، نغمة السخرية الواضحة فى كتاباتي !

قلت : اكاد احس ان رواية « صح النوم » هي احب اعمالك إلى نفسك ؟ .

قال يحيى حقي : « إذا اردت شهادتي قلت لك نعم . لأنها باختصار تطبيق صارم لمبدأ التزمت به وهو الدقة والعمق فى اسلوب الكتابة» .

●

قلت ليحيى حقي : لماذا تكتب ؟ ماغايتك من الكتابة ؟

قال وهو يتنهد : ارفض اللت والعجن فى الكتابة . وإذا حدثتني عن الكم والكيف فى الكتابة ، قلت لك هذا يتوقف على ثراء الكاتب فى اطلاعه على اللغة . فاذا كان لدى هذا الكاتب « منجم » لغوي سار الكيف والكم معاً ! لكن غايتي الحقيقية من الكتابة ان اضع القاريء امام احســـاس بالفن . فاذا تملكه الفن ، استطعت أن ادعوه ليغير حياته ! الفن ياسيدي يلعب دورا فى حياة الانسان ليس ببسيط . الفن اقرب الطرق الى الدين . صدقني . الفنان أقرب الى الله . صدقني . الفنان حتى وهو يكتب عن اشياء كونية . يقربك من الله . ويبصرك بالجمال . وعندما اتكلم عن غايتي من الكتابة ، لابد لتكتمل شهادتي أن اقول لك عن ينابيعي ! من احد ينابيعي ، صعيد مصر الذى جعلني اتعاطف مع الحيوان واذكره بالخير فى قصصي . ومن هذه الينابيع ، الاضرحة والأحياء الشعبية التى عبرت عنها فى قنديل ام هاشم . واكتشفت ان نداءات الباعة ودقات اطباق بائع العرقسوس تستحث القدر على الرزق !! .

●

تتوارى اسئلتي ، ولا اسمع سوى صوت يحيى حقي ..

● ....

– يسعدني كانسان أن يمسني سلك كهربائي مكشوف اسمه ، الفن .

● ....

– للاسف ، المدرسة « اماتت » يدي . هذه شهادتي عن التعليم فى زماني ، حيث كان الضرب على اليدين والقدمين بحد المسطرة .. مع ان اليد جزء من ذكاء الانسان .

● ....

– تبكيني العواطف الجميلة المهدرة .. حتى بدون ذنب من اصحابها !

● ....

– تزوجت مرتين ، ماتت الأولى ، والثانية زوجة فرنسية ، اعيش معها . وليس فى حياتي نتوءات او مطبات ، واعتبر المراة رمز الحنان .

● ....

– فاتني الكثير في مشواري الفني ، اتمنى ان اعيش لأحققها ، إنها احلام الكاتب !

● ....

– تربوياً ، النظرة عندي اكثر تاثيراً من الكلمات !

● ....

– إذا كانت الالوان مادة الرسام ، فالكلمات واللغة مادة الكاتب وربما كان هذا سر اهتمامى بالقواميس على وجه التحديد وليس هناك لغة خدمت مثل اللغة العربية .

● ..

– نعم ، إن الجوار من الأشياء يقتل اللهفة اليها ، وربما هذا الذى فطنت اليه من خلال ترجمة كتاب عن النيل . نراه كل يوم وقد لا نحس به ، فاذا ابتعدنا عنه قليلا ، اشتقنا اليه . إنها المسافة بينك وبين الشيء !

● ....

– تسالنى عن الموت ، اقول لك ، إنه شيء لابد ان نؤمن به وإنه ات ! ولحسن الحظ ، يستطيع الانسان قبل ان يموت ان يتهيا الى هذا بان يتخلص من كل الغرائز والشهوات والتكالب ، ويشعر الانسان انه قادم على لقاء مع حبيب فيستعد للقاء ، وهو انقى جسداً ! وساموت يوما وانا مستور . ألا يكفيني هذا ؟!

قلت للاستاذ يحيى حقي ابن محمد حقي ابن ابراهيم حقي :

– تعال نختم حوارنا ! لقد شعرت انى ارهقتك !

قال وهو يسند يديه على عصا افريقية :

– انا رجل أرجو رحمة الله ، وان يغفر لي حين ادخل بيته !

مفيد فوزى



فصول أبي البهاء :
حلاقة أرتين

بقلم
الدكتور عبد السلام العجيلي

مررت مؤخراً على الأستاذ سهيل فى مقر وظيفته فذكر لي انه قرا ما كتبته عن فصول ابي البهاء ، وكنت اعرف انه صديق قديم له ، وقال :

– فاتك ان تذكر الدافع الخيري لبعض فعلاته . دافع الاحسان والتطوع لمساعدة من هو بحاجة الى مساعدة .

قلت : كل تصرفاته إنما اتاها بدافع خدمة الآخرين . هذا ما يردده دوماً علينا . إذا لم ينقذ اصدقاءه من مازقهم فهو على الأقل يسوق البسمة الى شفاههم والمرح إلى نفوسهم .

قال : ما اقصده شيء آخر . اعرف له فصولا خدم بها اناساً لا صلة له بهم ... قام بها حسبة لله ، ولكن بطريقته الخاصة .

قلت : مثـــــلا ؟

قال: مثل قصته مع ارتين ، الخادم الأرضي فى فندق قصر الحمراء .. أظنك تعرف قصر الحمراء . وكنت اذكر ذلك الفندق الذى كان ملكاً لوالد سهيل ، والذى تولى فيه سهيل العمل الكتابي فى مطلع صباه . لقد هدم منذ زمن وقام مكانه مقهى ووراءه مطعم .

قلت : – اعرف الفندق ، إذ طالما ترددت عليه لزيارة نزلائه من ابناء بلدي ، واظنني اذكر ارتين ايضاً . ولكني لا اعرف القصة. تكرم واروها لي .

فمضى يقص علي هذه الحكاية التى ماكنت سمعت بها من حكايات صاحبنا .

● ●

قال الأستاذ سهيل :

– كان ارتين ، كما تذكر ، واحداً من خدم فندقنا ذاك ، كهلا ضاوي الجسد شاحب البشرة ، تملأ وجهه التجاعيد ولحية مهملة ما كنا تقنعه بحلاقتها بين الأسبوع والآخر إلا بجهد .

كان منظر وجهه النحيل المصفر أشبه بوجه ميت ، وهذا ماساق ابا البهاء الى ان يجعله طرفا فى الفصل الذى اخبرك به .

ففي ظهيرة احد تلك الأيام البعيدة تطلعت من نافذة مكتبي فى مدخل الفندق ، تلك الغرفة الصغيرة التى تقع فى نهاية سلم المدخل مباشرة ، فرأيت ابا البهاء يصعد الدرج وهو يدفع امامه شخصاً غريبا ، لم تقع عيني عليه من قبل ، تبينت فى الرجل واحداً من الحلاقين الشعبيين ، اولئك المزينين الجوالين الذين يحملون عدتهم فى حقائبهم المهترئة ، متنقلين فى الأسواق ، حتى إذا ظفروا بزبون اجلسوه حيث التقوا به ، فى زاوية مقهى أو على رصيف شارع ، وتولوا منه قص الشعر او حلاقة الذقن . اتجه ابو البهاء بمرافقه نحو الصالة الكبيرة فاجلسه على احد مقاعدها ثم عاد إلي . وقبل ان اتوجه إليه بالاستفهام بادرني بقوله :

– ارتين ... اين ارتين ؟ .

اجبته : إنه فى الطابق الثاني ... يجول كعادته بين فنانات ملهى بالاس اللواتي ينزلن فى تلك الغرف . مالذي تريده منه ؟

قال : تعال معي إليه . اريده ان يموت .

لو ان غير ابي البهاء قال هذه الكلمات ، وبلهجة الجد التى تعرفها له ، لتوجست شراً ولخفت منه على ارتين . ولكني كنت اعلم الناس بصاحبنا . لحقت به دون تردد إلى الطابق الثاني فوجدنا ارتين فى غرفة المطبخ منهمكاً فى إعداد القهوة لنزيلات ذلك الطابق من فنانات الملهى القريب ، وناداه ابو البهاء ، وراح يخاطبه عاتباً عليه لحيته الشائكة التى جعلت وجهه اشبه مايكون بظهر قنفذ ، ثم قال له إنه مستعد ان يخلصه من تلك اللحية مجاناً ، على يد حلاق ماهر ، لقاء امــــر بسيـــط . فساله ارتين ، قائلا بلكنته الأرمنية : وماهو الأمر البسيط يامعلمي ؟ قال : أن تطاوعني، انا ومعلمك سهيل ، وتموت لنا قليلا ...

وبدا أن هذا الكلام لم يعجب الخادم الكهل فهز كتفيه باستهانة وادار لنا ظهره عائداً الى مطبخه ، بينما التفت انا الى ابي البهاء وقلت له :

– كانك تضحك علي انا ايضاً . قل لي ماهي لعبتك اليوم ؟

فهز صاحبي راسه كالمتذمر وقال : صدقني ، ليست هي لعبة بل عمل خيري اردت أن اصيد بها عصفورين بحجر ... اخلصك من لحية ارتين البغيضة ، وانفع هذا الحلاق البائس ، عليك أن تقنع خادمك بان يموت ... ساعدني فى هذا .

ضحكت وقلت : ليس قبل ان تكشف لي عن قصدك الغامض .

قال : لك ماتريد . الأمر وما فيه اني قادم لتوي من عملي فى مديرية الصحة . عندما وصلت الى مكتبي فى الصباح تطلعت من النافذة فرأيت الرجل الذى تركناه فى

الطابق تحتنا ، ذلك المزين ، يحمل حقيبته في يده ويضع منشفته على كتفه ، وهو يجول على رصيف دائرتنا عارضاً خدماته على المراجعين من فقراء المرضى وعلى المارة في الطريق . لم يفتح الله عليه كل ساعات قبل الظهر بزبون واحد . وظلت هذه حاله حتى اوان انصراف الموظفين من عملهم . وعندما خرجت من الدائرة مررت بالقرب منه فادركتني عليه الشفقة ، وتلمست جيبي فوجدت فيه خمساً وعشرين ليرة قطعة واحدة ، وخطر لي ان القيها في الصحن المقور الحافة ، صحن الحلاقة النحاسي الذى يضعه تحت ذقون زبائنه ، ولكني ترددت . خفت ان اجرح شعوره ، انه رجـل اختار ان يكسب عيشه بجهد يده في هذه الصناعة العقيمة ، وليس شحاذاً . عند ذاك جاءتني فكرة ان اعطيه هذه الليرات العشرين والخمس لقاء عمل يقوم به من صميم مهنته ... لقاء حلاقة ذقن ارتين .

ضحكت انا مرة ثانية وقلت : خمس وعشرون ليرة دفعة واحدة ؟! صحيح إنها لحية تزعجنا ، ولكن ليس إلى هذه الدرجة.

قال : لم اردها حلاقة عادية ، بل في شروط خاصة بينتها للرجل . وقفت على راسه وهو مقرفص على رصيف الدائرة ، وقلت له إني ابحث عن حلاق شجاع لا ترتجف يده في الموقف الحرج ، اعطيه خمساً وعشرين ليرة لقاء حلاقة ذقن انسان معين . ظن المسكين اني اسخر به ، فلما تيقن من اني اعني ما اقول ابدى استعداده لحلاقة تلك الذقن ولو كانت في وجه عفريت من عفاريت سيدنا سليمان . افهمته عند ذاك ان قريباً لي ، يقيم في احد الفنادق ، ادركته المنية في هذا الصباح بعد مرض طويل ، وإني لا أريد ان اضعه في تابوته قبل ان ياخذ كامل زينته ، واول هذه الزينة حلاقة لحيته التي طالت بطول امد المرض .

قلت لصاحبي : ولهذا تريد من ارتين ان يموت ، وان يموت قليلا ...

قال : تماماً . واين اجد وجهاً اصلح لتمثيل الموت من وجه ارتين وهو على قيد الحياة ؟ ناده الآن لنبين له ماذا عليه ان يفعل وكيف يتقن دور الجثة الهامدة .

وارتين ، على سوء منظره ، لم يكن خلوا من حس الدعابة ، فسهل ذلك قبوله بالمشاركة في اللعبة بعد أن بينا له الغاية منها . وانضم إلينا في التمثيل بعض الفتيات من نزيلات الطابق ، فاخذن دور القريبات الحزينات المجتمعات عند باب غرفة اسدلنا ستائرها على الخادم المتماوت ، بينما اضجع هذا في سريره نصف عار تحت ملاءة بيضاء من ملاءات الفندق . وجرت التمثيلية في مجراها المرسوم كما خطط لها ابو البهاء .

● ●

قلت لسهيل عندما بلغ من قصته هذا المبلغ : :

- وحلقتم لحية ارتين الشائكة ! اما قدر ابو البهاء ان يجد طريقة اخرى ، اقل تعقيداً من هذه ، لأداء صنيعه الخيري ؟ .

قال : ليس هذا كل شيء . اسمع التتمة . رايت ابا البهاء ، قبل ان ينزل لياتي بالحلاق ، يسر للخادم ببعض الكلام فيهز هذا راسه موافقا . وتلقت نزيلاتنا الفنانات الحلاق بولاويل حزينة واصوات نحيب تقطع القلب . كان هذا وحده كافيا ليقبض صدر المسكين ويجعله يقبل على عمله في تخوف ، فكيف إذا انضاف إليه جو الغرفة الجنائزي وجثة الميت المزعوم مسجاة في وسطها ؟! وبدا لي ان قدميه لم تكونا تطاوعانه في الدخول ، إلا ان ابا البهاء لم يمكنه من التراجع ، فقد دفعه الى الغرفة واغلق عليه الباب ، ثم عاد إلينا ليتطلع معنا من خلال فروج الستائر على ما يجري في الداخل .

كنا نكتم ضحكاتنا لئلا تبلغ سمع الحلاق ونحن نراه يخرج ادواته من حقيبته بيدين ترتجفان ، ويرغي الصابون على وجه ارتين بحركات سريعة ومضطربة . وبتلك الحركات نفسها راح يجري موساه على ذقن الجثة المزعومة . بدا لنا وجه ارتين في تلك الاثناء شمعيا في ضوء الغرفة الشحيح ، وبدا لنا احتماله عجيباً حين كان يكتم نفسه في صدره لفترة طويلة إمعانا منه في تمثيل دور المفارق للحياة . أو لعله فزع الحلاق الذى ماكان يترك له مجالا ليدرك أن الراس الملقى على الوسادة امامه هو راس انسان حي .

مفارقة حادة كانت بين جو الرهبة في داخل الغرفة وجو المهزلة في خارجها . وبلغت المفارقات ذروتها حين قارب المزين البائس إتمام مهمته على ذقن الجسد المطروح أمامه . إذ بينما كان يجمع ادواته ليدسها في حقيبته حانت منه التفاتة الى السرير ففوجئ بما لم يكن يتوقع او يتصور لقد فوجىء برؤية ما رايناه نحن معه ... فوجىء برؤية عيني زبونه الميت تنفتحان في وجهه واسعتين ، وبراسه يستقيم على عنقه ، وبجذعه يرتفع ببطء بنصفه العلوي فوق السرير ... عينان في راس على جذع تتحرك كلها في هدوء وثقة ، وهي التي كانت قبل لحظات لجثة لا حياة فيها ولا روح !

لك ان تتصور بعد هذا ما حدث . انطلقت من حنجرة الحلاق المروع صرخة ثاقبة ، وسقطت حقيبته من يده فتبعثرت ادواتها في جوانب الغرفة ، وقفز هو منفلتا من الباب ، لا يوقفه شيء ، ينهب الادراج منحدراً في تعثر . وتحولنا نحن ، سهيل وانا ونزيلات الطابق الثاني ومن انضم إلينا من الخدم ، الى جوقة ضاحكة تكاد تتفجر حناجرها قهقهة . حتى ارتين ، الذى ماكان مرحه يتجاوز تكشيرة ينقبض لها وجهه ويسميها هو ابتسامة ، تعالت ضحكته وهو يرفع عنه الملاءة التي كانت تكفن جسده النحيل العاري .

الوحيد الذي لم يستخفه المرح فراح يتطلع إلينا في رزانة ووقار كانه يستخف بعقولنا ويستسخف تصرفاتنا ، كان صاحبك أبو البهاء ...

● ●

وانهى سهيل بهذا حكايته فقلت له :

- ربما كان لكم الحق في ان تضحكوا من هذا الفصل ، اما ابو البهاء فاني اراه زادها قليلا . فحقيبة المزين كانت تحوي بلاشك مايزيد ثمنه عن خمس وعشرين ليرة تصدق بها عليه .

قال : رجع الرجل إلينا في اليوم التالي فاعطيناه حقيبته بما فيها . من ناحيتي لمت انا ابا البهاء ، كما تلومه انت الآن على فعله به ، فقال : الحلاق هو الذى جلب الشر على نفسه ... فعندما كنت افاوضه في امر لحية ارتين واحس بحاجتي إليه اخذ يساومني في تشدد طالبا الزيادة عما قبل به في الاول . حدثتني نفسي حينذاك بأن انغص عليه فرحته بما اعطيه ، فكان مارايتم ...

واضاف سهيل قائلا : وقنعت بما قاله ، كما وجدت عبثا ان اخطئه في امر اتاه . فانت تعرف ابا البهاء . لكل فعلة عنده تبرير أو تفسير او فلسفة .

د. عبد السلام العجيلي

أضـــواء جديـــدة على حقيـــقة المـستشـــرق اليهـــودي
الذي انتحـــر في القـاهـــرة سـنة ١٩٤٤م

باول كراوس

صـــورة عـــلمـيـــة مشـــرقـــة
حاربتـــها الصهـيونيـة بعنف وقســـوة

بقلم : الدكتور محمد طه الحاجري

قرأت الفصل القيم الذي كتبه الأستاذ رجاء النقاش ، وتناول فيه بالحديث والتحليل المستقصي ذلك الحدث البارز من أحداث ما ظلت تعانيه بيروت فى هذه الأيام من غزو غادر فاجر ، وما لا يزال يمثل فى تاريخ العروبة أخطر ما تعرضت له ومنيت به من محن . ذلك هو انتحار خليل حاوي ، أحد أساتذة الجامعة الأمريكية . وإذا كان الجزء المباشر من قصة هذا الحدث مايزال مطويا ، فان ما تنم عنه الآثار الشعرية التى خلفها وراءه ، والتي حاول الأستاذ رجاء ان يتغلغل فيها ، ليقرأ ما عسى ان تتضمنه من خوالج ، تعني ان وراء هذا الذي تريد السياسة ان تستغله روحاً عربية أصيلة هي هذه التى تململت ، ثم دفعت به الى ما أقدم عليه فى العشرين من شهر يونيه .

وليس لي فى هذا الفصل ان آخذ في شيء من الحديث عن هذه المأساة ودلالاتها، وإنما الذي يدعوني إلى كتابته هو مأساة أخرى غير منقطعة الصلة بها ، وإن كانت قد وقعت في حي الزمالك بالقاهرة منذ ثمان وثلاثين سنة . والذي أثارني إليه هو ما عرض به لهذه المأساة الاستاذ رجاء وهو يبدأ حديثه عن مأساة هذه الأيام ، لما يعتبره بين الاثنين من صلة ، وإنها لكذلك عندنا ، مما يحفزنا الى التوقف عندها ، وتأمل الملابسات التى كانت تلابسها وتدفع إليها ، إذ هي تمثل ـ فى حقيقة الأمر ـ حلقة من حلقات ما كانت الصهيونية تتمثله فيها وتختطه لها ، وتعبر به عما كانت منطوية عليه ، متجهة إليه ، عاملة له ، مقتحمة كل شيء فى سبيله .

وما كان للاستاذ رجاء ، وهو بصدد فيما ذكر عن مأساة الزمالك عما كان بقي عالقا بذاكرته مما كان قد سمعه من الدكتور عبد العزيز الاهواني ، رحمة الله عليه ورضوانه ، إلا أن يتعرض لما قد يصيب الذاكرة من وهن ، وما يعرض لها من اختلاط ، وإن بقيت شخصية من يحكى عنه في مكانها من نفسه ، من وثاقة الخلق وسعة المعرفة ورهافة الحس العربي ، وبقي كذلك ما يعرفه من انه كان من أقرب تلاميذ كروس إليه وأحبهم لديه وأشدهم صلة به ، ومن ذلك كان هذا الذي حكاه عنه من « أن السبب الرئيسي فى انتحار بول كروس هو قيام اسرائيل ، وحرب سنة ١٩٤٨ بين اليهود والعرب . وكان بول كروس يعارض قيام اسرائيل ، ويرى فى ظهور هذه الدولة خطرا كبيرا على العرب واليهود معا . وقد توقع بعد حرب ١٩٤٨ ان يصبح بقاؤه في مصر صعبا .وكان قد أحب مصر ، وأحب تلاميذه وكتبه فيها . فاعتبر ان حياته فقدت معناها ، وانتحر محتجا متألما » .

فأما ان كروس كان يرى فى قيام دولة بني اسرائيل ، متحدية مشاعر العرب مناهضة لهم ، خطراً داهما على هؤلاء وأولئك ، فمما لم يكن احد من أصحابه وتلاميذه يشك فيه . ولا ريب انه كان يعلم من أمر ما تسعى جماعات الصهاينة إليه ما لعله لم يكن عندنا غير أوهام تمر بخواطرنا ثم لا تلبث ان تنحسر عنها ، وانه كان دائم التوجس من ان يتحقق لها ذلك ، مقدراً ما لا بد أن يترتب عليه من محذورات ومخاوف ، فكان ذلك دائم التأريق له وإثارة قلقه . ولعله ، فى بعض فترات مقامه فى مصر ، جعل يدرك انه قد تورط فى بعض ما كان ينبغي ان يكون حذر القادة ، مقدراً

ما كان للصهيونية من تدبير فى توريطه فيه ليكون صنيعة من صنائعهم واداة من ادواتهم ، مما نرجو ان نعرض بعد له ، فكان فى ذلك ما ضاعف قلقه ، ورأى فيه الريقـــة التى عقدت له جعلت تضيق حوله ليكون طوع ايديهم ، لا يملك ان يستعصى عليهم . مهما حاول ان يعتصم من ذلك باستغراقه فى الدرس وإمعانه فى مسائل العلم ، وانصرافه انصرافا تاما يملك عليه وقته وجهده إلى معالجة بعض ما يثيره من مشاكل يبدو أنها شديدة الاستعصاء . فكان من عاقبة هذا المازق الذي جعل يضطرب فيه ، ان عرضت على حين غفلة منه لحظة ضعف انقاد لها واستسلم إليها إذ سولت له ان يزهق روحه بيده ، ويخلص من هذا الذي تدبره الصهيونية له .

مثلت فى خاطري، هذه الصورة وتدافعت الي جزئياتها وتفصيلاتها ، وانا اقرا ذلك الفصل الذي كتبه الأستاذ رجاء النقاش ، ثم مالبثت ان تداعت من ورائها طائفة اخرى من الصور . فاذا انا منها إزاء عالم زاخر بين الذكريات ، يتالق بمشاهد من الحياة العلمية والفكرية التى كنا ننعم بها فى تلك الأيام ، وقل ان نظفر اليوم بما يمثلها لنا إلا فى عالم الأحلام .

وإذا كانت هذه الذكريات ، بما تمثله من ذلك العهد المنصرم ، تهيج فى قلوبنا المغالاة به والانجذاب إليه ، وذلك بما تعرض منه من مثل الخلق العلمى الوثيق ، يرسم لنا المنهج الذي ينبغي ان نتبعه ولا ننحرف عنه فيما نحن بسبيله ، ويصنع لنا المبادىء التى ينبغي ان نقف عندها ولا نخرج عليها ، فانها ، فى مثل ما نحن فيه من هذه الدراسة ، تعرض علينا صورة متكاملة ، يتفاعل بعض عناصرها مع بعض ، من النفس الانسانيـــة بجميع قواهـــا ، بين ما ينبعث منها وما يعترض سبيلها ، منذ اقبل كروس على مصر فى خريف سنة ١٩٣٦ ، إلى ان غادر الحياة كلها فى اواخر صيف سنة ١٩٤٤ ، صراع دائم خفي وظاهر ، لا يكاد الدارس يرسل وراءه خياله حتى يرى ما يتمثل فيه من اساليب الكـر والفر ، والهجوم والدفاع ، والاكتنان والمجاهرة ، تمثيلا ما كان له ان ينتهى إلا باحدى نهايتين : ان يستسلم كروس لمـا يراد منه ، مضحيا فى ذلك بمثله ، او ان يغادر



طـــه حسين
ساعد المستشرق اليهودي الذي قتلته الحركة الصهيونية

الحياة ، مضحيا بنفسه ، فاثر الثانية على الاولى .

وهكذا انتهت هذه الحياة ، وانتهت بانتهائها هذه الصورة الرائعة من صـــور النشاط الاستشراقي .

ومنذ مثل لي ذلك ، وقد تجمعت مع الزمن اجزاؤه ، والتقت اطرافه ، واتضحت مع الأحداث دلالاته ، وجعل يتقلب امامي فى وجوهه المختلفة ، مثل معه ما احس أنه من واجبي إزاءه . واجبي باعتباري ، رجلا من رجال التاريخ الادبي ، اتيح له ، على وجه ما ، ان يعاصر هذه الصورة من صور النشاط العلمي ، وان يتعرف بذلك بعض دخائلها ، ثم هو يخشى ، فى الوقت نفسه ، ما يبدو انها متعرضة له من دثور معالمهـا وإمحاء ملامحها ، وواجبي باعتباري مـن ابناء هذه المرحلة العصيبة التى تمـــر العروبة بها وتعانى ويلاتها ، وان عليه ان يشارك ، بقدر ما يملك من جهد ، فى كشف ما دأبت الصهيونية عليه من كيد ، منذ نجحت فى ان تجد لنفسها فى فلسطين موطىء قدم ، وما كان لها فى ذلك من سوابق بذلت فيها كل ما تستطيع . ومن ذلك هذا الذي تصدت به لكروس ، وارادت به ان تستهويه وتجتذبه ليكون من عملائها .

(كراوس .. في مازق)

لقد كان كروس رجل علم ، تلك كانت صفته الاولى التى اتجه إليها من كانت نشاته الاولى فى براغ ، ثم تاكدت بعد ان تحول إلى برلين ، ثم اخذت تتفتح وتزدهر حين ذهب إلى باريس وحاضر فى السوربون ، واتصل ببعض المستشرقين يشـــاركهم نشاطهم ، كما كان شانه مع ماسينيون . فاذا جاء إلى مصر ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، فقد تدفق نشاطه ، وبدت هذه الصفة من صفاته فى غاية بهائها وتالقها . ولم يكن مثل ذلك لتغفل عنه عيون هؤلاء الذين ما يزالون ينتقلون بين فلسطين ومصر ، او بين تل ابيب والقاهرة ، فكانوا مايزالون يزورونه فى بيته ويجلسون إليه . متذرعين اول الامر بما كان لهم من صفة تعليمية . يدبـــون إليه مضمرين فى انفسهم ما يخالجهم نحوه . وطبيعي ، حين يتكرر مثل ذلك ويتواتر ، وحين يجد مجالا له فى نبض النفوس الحاقدة ، ان يثير حوله بعض الريب ، فى بعض الأوساط المصرية . فاذا قضى نحبه ، وفرغ أصحابه من الحزن له والحديث عنه، لم يعد هنالك من يذكره ، لا ممن كانوا ينكرون عليه ، ولا ممن لم يكونوا يرون فيه غير البراءة ، على الرغم من هذه السنوات الثمانية التى امضاها بينهم ، لم يدع فيها اداة من ادوات الاتصال الفكري إلا اصطنعها، ولا طبقة من طبقات المثقفين إلا واتجه إليها ووصل اسبابه بسبب منها ، لقد كانت تيارات الخصومة بين مصر والصهيونية قد عمرت كل شيء . وكانت هذه التيارات قد بلغت غايتها فى هذه الفترة . فاحترفت كل شيء ، وسيطرت على كل فكر ، نكرت كل ما يمكن ان يكون طيبا ، وطمرت كل حسنة يمكن ان تقال ، واحاطت بالريبة كل كلمة يمكن ان يراد بها وجه الحق .

ومثل ذلك او قريب منه كان شان ذكراه عند ابناء ملته ، وخاصة هؤلاء الصهاينة الذين كانوا يرجونه ليكـــون اداة من ادواتهم وصنيعة من صنائعهم ، فخيب بانتحاره رجاءهم . فلم يكن الا ان يعرضوا

عنه ، حتى لم يعد له مكان بينهم ، وكان لم يبق له موضع فى ذاكرتهم .

وهكذا كان امر كروس بعد وفاته . فكان ذلك مما اوجب علينا أن نحاول الانتصاف له . والوفاء بحقه وحق الحياة العلمية فى مصر عامة ، بأن تبوئه مكانه الجدير به بقدر ما يمكن لرجل مثلى لا يستطيع أن يدعى انه كان منه بحيث يستطيع أن يؤدى صورة وافية دقيقة له . فما يشك فى أن هنالك من كانوا اقوى صلة به ، واكثر مداخلة له ، وهم بذلك اقدر على الوفاء بحقه . ولكن ذلك لا يجعلنى أعفى نفسى من اداء ما استطيعه فى انتظار أن يتقدم غيرى ممن هم اجدر منى . والله تعالى هو وحده المسؤول أن يسدد خطانا ، ويمهد لنا سبيلنا ، ويهدينا الى سواء السبيل .

طه حسين يبشر بمقدمه

ولست اذكر أن اسم (باول كروس PAUL KRAUS) كان من اسماء المستشرقين التى كانت تتردد فى بعض ماكنا نتلقى من محاضرات فى مرحلة الليسانس ، كاسماء ماسبنيون دمرسيه ، وبلا شير ، أو الذين كنا نجلس اليهم ونتعلم منهم كيوسف شاخت ، أو الذين كنا نسعى للاتصال ببعض اثارهم كدوزى ، انما كان اول ما عرفنا عنه وسمعنا باسمه بعد التخرج فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، والتطلع الى ما ينبغى أن نسلك فى الحياة من سبل ، كل بحسب ميوله العقلية وظروفه المعيشية . وكان ذلك فى مجلس لنا مع طه حسين ، وقد ذهبنا إليه نزوره ، عقب عودته من رحلة الصيف فى اوربا .

وفى هذا المجلس اخذ يحدثنا عن بعض ما اتيح له فى هذه الرحلة ، وعن بعض ما اتفق له فيها مما يرجو أن يتهيا منه لكلية الآداب نصيب موفور . وهو يعنى بذلك هذا الشاب الذى عرفه هنالك . انه شاب تشيكى اتخذ الاستشراق منهجا له ، لم يكد يتحدث اليه حتى أعجب بسعة افاقه ومرونة تفكيره ، وما يملك من أدوات علمية لابد منها لمن اتخذ ذلك المنهج ، تتمثل ـ إلى جانب ما يعرفه من اللغة العربية ـ فيما يحيط به إحاطة جيدة من اللغات الادبية القديمة ، واخصها اللغة اليونانية . واللغات السامية القديمة كالعبرية والسريانية والارامية . وقد اعانته هذه الآلات على ان يمضي فى الموضوع الذى استهواه وشغل به فكره وهو التاريخ للفكر العلمى عن العرب ، يتحرى شواهده وينقب عن نصوصه .

وخرجنا من لدن استاذنا الكبير ، ولايكاد حديثنا عن مجلسه يتجاوز ما جعلنا نعلق به على ما بشرنا به من قدوم هذا المستشرق ووشك بلوغه مصر ، ومشاركته فى وجوه النشاط العلمى المختلفة بالكلية ، وقسم اللغة العربية . وما هو مرجو ان يكون مصدر ثراء له . وربما كان من جملة ما جعل حديثنا يتطرق اليه ونخوض فيه هو ترديد بعض الاصداء التى كانت ما تزال تثير انتباهنا عن الحياة السياسية فى اوربا ، وخاصة ما كان منها متصلا بالروح النازية فى المانيا ، وما يصطنعه هتلر من بعث الروح الجرمانية ، لتسترد سلطانها وتفرض سيادتها ، وتسيطر بها على كل ما يمت إليها ، مما كانت الصحف والمجلات دائمة الحديث عنه والتنويه به .

ولم تكن الجامعة فى معزل عن الاحساس بما كان هتلر يتخذه من إجراءات ويفرضه من نظم ، كذلك الذي جعل يتردد فى اوساط الطلاب عندما تاخر الدكتور شخت عن موعد بدء العام الجامعي ، واضطرار الكلية إلى ان تلتجىء إلى مستشرق اخر يدعى فنكلر ، كان يعمل فى بعض قرى الصعيد ، يسجل لهجاتها ، ويجمع ما يتاح له من تراثها ، ان ذلك إنما كان خضوعاً من شخت لما كان هتلر يفرضه على الجامعات الالمانية من نظم . فقد كان من الطبيعي ان ينحو الطلاب فى تعليقاتهم الى مثل هذا المنحى وان يفسروا استجابة كروس لما عرضه طه حسين عليه بانه كان يستشعر انه واجد فى مثل هذه النقلة نوعا خاصا من الخلاص مما كانت التوجسات تحوم حوله ، وانها جديرة ان تظفره بما يتطلع إليه مما يعينه على تحقيق ما هو بسبيله من تاريخ بعض وجوه النشاط العلمي عند العرب . وذلك بما هو واجد فى مثل دار الكتب المصرية فى القاهرة من ذخائر المخطوطات .

ولم يمض غير قليل حتى راينا هذا الذي بشر طه حسين به فى طرقات الكلية وساحاتها ، وفي بعض ماكان يتاح لنا ان نغشاه من مجالسها . وعرفناه بما كنا نتوسمه فيه من سمات : انه شاب يفيض نشاطا وحيوية وتوثبا وتالقا ، يبدو ذلك منه فى حركاته وإشاراته وفى خطواته ، وفيما يتدفق به فى حديثه ، ولم يكد هذا الحديث يتجاوز فى اول امره الفرنسية ، غير ما كان يشوبها فى بعض الاحيان من كلمات يحاول ان يؤديها بالعربية . وعلى ما كان يبدو عليه من اعتداد بالنفس فقد جعلنا نحس انه يريد ان يعقد صلاته بنا ، منذ عرف اننا تجاوزنا مرحلة الليسانس ، وقد فسرنا ذلك برغبته فى ان يتيح لنفسه ما يتمكن به من ممارسة العربية حتى يمرن عليها لسانه .

لم نلبث بعد ذلك حتى رايناه يريد لهذه الصلات ان تتخذ وجها اخر لم يكن لنا عهد به من قبل . وقد اتفق مع الكلية ان ترتب لنا لقاء معه فى بعض قاعات الدرس ، فارتقينا فيها ، فاذا به يقدم علينا ومعه نسخ أعدها لنصوص من التراث العلمى العربى ، جعل يوزعها علينا ويطلب منا ان ننظر فيها ، وما كدنا نتبين غرضه من ذلك ، وانه إنما يريد ان يقارن هذه النصوص بعضها ببعض ، وان نجد فى ذلك بعض المرانة على قراءة الخطوط المختلفة ، حتى اقبلنا على ذلك ، وجعلنا نتبادل الحوار والمناقشة ، حتى يتاح لنا ان نطمئن الى اولى القراءات التى بين ايدينا بالقبول . وكان ذلك اول نوع من هذا النمط من الدرس نعالجه ، واول تعريف لنا بما يجب ان يكون عليه نقد النصوص على الاسلوب الأمثل ، الى جانب ما فيه من عقد نوع من الصلة بيننا وبين هذا اللون من تراثنا ، وهو التراث الذي كان هو نفسه معنياً به فيما يعالج من درس .

ولعل مثل هذا اللقاء كان من اول ما اتيح لنا معه ، وما انفتح به ما بيننا وبينه . ولعله يدل على انه كان لايزال متاثراً بما كان يعالجه فى باريس قبل ان يقدم الى القاهرة ، وانه كان يتطلع الى ان يجد فى مثل هذه العقول الجديدة ما يسدده فى سبيله . وإن من الخير ـ الى جانب ذلك ـ أن يثير فى نفوس طلابه النزوع الى ذلك التراث ، والتطلع الى اثار هذا الفكر ، وان ياخذهم بما ينبغى ان يكون عليه شانهم منها ، تحقيقا لها ، ووقوفا عندها . ولا اذكر الآن كيف مضت هذه المحاولة ، والى اى مدى استمرت . ولكن الامر الذى لا اكاد اشك فيه انها فتحت لبعضنا بابا الى ذلك المنهج فى تحقيق النصوص لا يحسن اغفاله . وإنها ـ من ناحية اخرى ـ اباحت

له ان يزيل ما بينه وبين اصطناع العربية فى الحديث من جفوة ، وانها مكنت له ـ الى حد غير قليل ـ من ان يملك زمام التعبير بها ، وأن يتغلب على عقباتها وصعوباتها .

اهتمامه بالحياة العلمية الاسلامية

وشىء آخر اتيح له فى هذه الفترة ، ذلك هو ما استحدثه طه حسين ، وقد صار عميدا لكلية الآداب ، من إسباغ بعض المظاهر الجديدة على مجالس الدراسات العليا ، مما يجعلها اكثر ملاءمة ، وابعد من الشكليات ، فكان يعقد هذه المجالس فى مكتبه بالكلية ، فى اصائل بعض ايام الأسبوع ، متحررة مما جرى العرف به من قيود . ترفرف عليها روح المودة وتسودها الالفة . وكان يشهد هذه المجالس ، الى جانب الطلاب ، من يعنيهم حضورها والمشاركة فيها وادارة الحوار حول ما يلقى بها . فكانت هذه الحلقة تثير فى انفسنا ما كنا نتمثله فى مجالس البصرة . وكان كروس من اول الذين كانوا يحرصون على شهودها ، وعلى ان يتيح لنفسه فيها فرصة المشاركة الجادة .

وكان هذه المجالس قد اتاحت له ان يمضى فيما كان يشغله ويسيطر على تفكيره من امر الفكر العربى الاسلامى ، وما كان يصدر عنه من ينابيع وما كان يرفده من روافد تمده ، وما كان يتعرض له من ملابسات مختلفة تترك طابعها عليه ، فيتناوله من بعض جهاته ، فكانت الجهة التى اختارها ليجعلها موضوع حديثه فى هذه المجالس هى رسائل إخوان الصفا .

ولا ندرى أكان من قبيل الصدفة المحضة ان يكون اختيار كروس لهذا الموضوع ما يلتقى به مع طه حسين فى المقدمة التى كان كتبها لهذه الرسائل ، فكان فيما اراد ان يعالجه من مسائله ما يمكن ان يكون تحريرا لبعض ما ذكره طه حسين أو تفسيرا له .

إن رسائل إخوان الصفاء هى خير ما يعبر عن الحياة العلمية الاسلامية فى القرن الرابع للهجرة . ويمثل الامدادات المختلفة التى امدت بها . وقد كان طبيعيا ان يبدا كروس حديثه عنها بما ابتدات هى به من الكلام عن الرياضيات ومكان رجل مثل فيثاغورس منها . فذلك متصل اوثق اتصال بما يجبده من الثقافة اليونانية ، وجدير به ان يقيم بمثل هذا الحديث ما ينبغى ان يكون من صلة بين العلم العربى فى القرن الرابع الهجرى ، والعلم اليونانى فى القرن السادس قبل الميلاد . وان يستند فى إقامة هذه الصلة على ما تحقق له من معرفة وثيقة مفصلة ، وان يتطرق فى حديثه الى غير فيثاغورس من اساطين العلم اليونانى . وكان مثل هذا الحديث يحفزنا الى متابعته ، بقدر ما كان يثير فى انفسنا من نزوع قوى الى التغلغل وراء ما نراه مبثوثا فى كتبنا ، ومن تقدير ما تمكن منه معرفة اللغات القديمة من متابعة التطور العلمى ، فى شتى صوره ، الى ان بلغنا اخيرا فى مثل هذه الصورة التى نراها فى رسائل اخوان الصفا .

ولم يكن كروس فى مثل هذه الندوات وما يشارك به فيها إلا منطلقا مع ما كانت تفيض به نفسه من معرفة رفيعة دقيقة كانت هى الغالبة عليه ، الى جانب ما كان موكولا اليه من دروس نظامية ما كان له ان يتخلى عنها او يفرط فيها .

فما كانت تبدو له فرصة عمل علمى يمكن ان يشارك بنفسه فيه إلا بادر اليها ، وإلا بذل ما يمكن له ان يبذله لها ، كما حدث عندما اتجهت كلية الآداب الى ان تقوم بواجبها نحو بعض نواحى النشاط الأدبى الذى لم تكن اتيح لها ان تدرسه ، كالادب الأندلسى ، وما كان لها أن تسلك فيه مسلك العرض السريع العابر حتى إذا اتيح لها ان تظفر ببعض اصوله المعتبرة ، فى مثل كتاب الذخيرة لابن بسام حتى بادرت اليه ، واتخذت من الاجراءات ما هو فى حاجة اليه لتحقيق نصه ، والاعداد لنشره ، حتى يكون فى ايدى الدارسين مادة يقيمون عليها دراساتهم . وكان من ذلك ان الفت لذلك لجان علمية .

وعلى الرغم من ان كروس كان بطبيعة ما هو مختص به فى منأى عن مثل هذا العمل ، إلا ان جده كان يغريه بان يقاربه ويكون على صلة ما به ، فاذا بعض هذه اللجان تتوقف عند كلمات فى النص لا تهتدى الى الوجه فيها ، ويبدو له ان هذه الكلمات ينبغى ان تكون مما يستعمله الأطباء والمتطببون . فلا يتردد فى ان يمضى بها الى مستشرق المانى مقيم فى القاهرة ، متمرس بقراءة المخطوطات ، معنى بدرس الطب العربى فى نصوصه الأولى ، ذلك هو الأستاذ الدكتور ماكس ماير هوف ، لينظر فيها . ويتبين منه ما ينبغى ان تكون . فاذا اتضح له أمرها عاد الى اللجنة بها . وكانما كان بما صنع من ذلك شارك فى عمل اللجنة نوعا من المشاركة ، إذ اتخذ من صلته بماير هوف ، ومن تخصص هذا المستشرق فى طب العيون خاصة ، ما مكن له من ان يجلو ما كان يحيط به ببعض المفردات من غموض او اضطراب .

ومهما انسى فلن انسى ان كروس كان صاحب الفضل الاول فى تعريفى بهذا العالم الجليل . إذ استصحبنى اليه ذات مرة فى داره التى كان يقيم بها فى القاهرة ، والتى كانت تقع على ناصية شارع فؤاد الاول وشارع عماد الدين . وقد اتاحت لي هذه الزيارة ان ارى فيه صورة رجل من جلة رجال العلم : تواضعا وسماحة ، وبساطة مسلك ورقة جانب ، ومعرفة مبسوطة تبدو فى حديثه . وكان إذ ذاك شيخا قد جاوز الستين من عمره . كما اتاحت لي هذه الزيارة ان ارى من ملامح هذه الدار ما يعبر اقوى تعبير عن الروح العلمية التى تجللها فى مثل ما كانت جدرانها تزدان به من مكتبة ضخمة ، وما كانت هذه المكتبة تتيه به من أمهات المراجع بشتى اللغات ، وفى مكان ظاهر منها مجلة ايزيس . وقد خرجت من لدنه وانا مبهور بشخصه وبعلمه وبخلقه . إنه عالم من ذلك الطراز الذى لا غرابة فى ان نجد رجلا مثل كروس شديد التعلق به . وإذا كان كروس قد استهواه تاريخ العلم عند العرب والمسلمين فاستغرق فيه ، فان ماير هوف لم يصرفه ما كان يصطنعه من طب العيون عن متابعته فى تاريخه ، وعن البحث فى مصادره ، كما نرى صورة من ذلك فيما صنعه فى كتاب العشر مقالات فى العين ، المنسوب الى اسحاق بن حنين ، وما كتبه عن اسحاق هذا . مما يجلو صفحة مجيدة من صفحات حياته ، ويضعه فى مكانه الجدير به بين العلماء الذين كانوا يرباون بانفسهم عن الارتطام فى موبقات السياسة الصهيونية . كما نعتقد ان ذلك كان شان كروس .

من على منبر الشرق

لقد كان كروس رجلا شديد المغالاة بمكانته العلمية ، شديد الطموح الى كل ما

يتصل بها ، ويحقق له خير اداء لها . وما كان ليكتفى من اللغة العربية ان تطوع له ويمرن عليها لسانه ، وإنما كان حريصا على أن تكون له لغة كتابة كما هى لغة حديث ، وكما يؤدى بها ما يوكل اليه من محاضرات عامة يلقيها على جمهور عربى ، كذلك ينبغى ان يكون فى مستطاعه ان يؤدى بها من الفصول ما يحقق اتصاله بطوائف القراء . وكذلك اتجه الى ان يتخذ من مجلة الثقافة التى كان يراس تحريرها الأستاذ احمد أمين مجالا يجول فيه بسلسلة من الاحاديث ، اتخذ لها كلمة : (من على منبر الشرق) عنوانا يظهر به ، حريصا على أن يكون لها طابعها العلمى .

وهذا الذى استطاع كروس ان يحققه لنفسه ويؤكد به كلا من مكانته العلمية ومقدرته التعبيرية كان مما لفت انظار تلاميذه اليه ، إذ كان مما ميزه عندهم عن غيره من المستشرقين الذين عهدوهم ، كما كان ـ فيما يبدو ـ مما رشحه لدى الكلية ليشارك فى فحص الرسائل التى جعلت تقدم إليها ومناقشتها . وكان من ذلك رسالتى التى تقدمت بها لنيل درجة الماجستير ، سنة ثمان وثلاثين ، عن كتاب البخلاء للجاحظ ، دراسة له ، وتحقيقا لنصه : وقد كان من المالوف المتعارف عليه ان يتحفظ اعضاء لجنة المناقشة فى لقائهم للطالب ، إذا اتيح لهم ان يلقوه قبل المناقشة . اما كروس فقد كان مما اثار دهشتى انه لم يكد يلقانى حتى شد على يدى ، معبرا عن تهنئتى بما وفقت اليه فى الرسالة . لقد دل بذلك على بعض سمات شخصيته الصريحة ، كما كان من دلائل ذلك اكتفاؤه فى بعض المواطن التى تحتاج الى المناقشة بالايماء اليها ، والاشارة الى أن من الأفضل لها أن تكون مناقشتها فى مجالس خاصة بها .

ولم يكن كروس حتى ذلك الوقت إلا صورة رائعة من الاقبال على العلم والاخلاص للفكر ، وقدوة صالحة تدعو الى الاقتداء بها والسير فى سنتها . وكان ما ذكره فى جلسة المناقشة عن المواطن التى تحتاج الى مجالس خاصة لمناقشتها لم يكن فى حقيقته إلا دعوة لي لاصل حبله بحبلى والف معه شملى . وكذلك صار أمرى منذ ذلك الوقت معه . فقد توثقت صلتى به ، وكثرت المواعيد التى نتفق عليها لالقاه فى داره ، واجالسه فى بيت كتبه ، وهو قاعة واسعة ، يتوسطها مكتب كبير يواجهه أرفف بطول الحائط وارتفاعه ، رصت عليها طائفة كبيرة من الكتب ، عربية وفرنسية والمانية ، ومجموعات غير قليلة من كتب النصوص القديمة . وكثير من هذه الكتب كانت هوامشه مليئة بتعليقاته وملاحظاته.

بل إن كتابا من هذه الكتب هو النسخة الالمانية من كتاب تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، اثر أن يغير وضعه ، بان اقحم بين كل صفحتين من صفحاته ورقة بيضاء يدون فيها كل ما يتفق له فى قراءاته ومراجعاته ، مما فات بروكلمان ان يقف عليه ويدونه ، فيستدركه عليه ، وقد بلغ من حرصه على اثبات كل ما يمكن ان يقع له ان كان جيبه مزودا دائما بمجموعة من القصاصات البيضاء ، بحيث تكون تحت يده يدون بها ما يعرض له ، فى اى مكان يكون فيه ، حتى إذا عاد الى مكتبه وضع كلا منها فى المكان الخاص به ، او نقله الى ما ينبغى أن يكون موضعه اللائق به .

وكل ذلك كان من فرط حرصه على تحقيق الصفة الاولى التى اتجه اليها منذ بدء حياته ، والتى كانت تؤهله لها مواهبه وملكاته ، والتى كانت ماتزال مستغرقة فى ذلك الموضوع الذى استبد به ، وكان مايزال يجمع مادته ويوفر اسبابه . وربما كان فيما عرض له من امر الجاحظ ما نبهه الى ما ينبغى ان يكون له فى ذلك الموضوع من شان ، وخاصة ما جاء فى كتاب الحيوان من نصوص منقولة عن ارسطو صاحب المنطق لابد أنها تدخل فى صميم ما يعالجه ، ولابد له ، تبعا لذلك ، أن يجعلها بين ما يعنى به.

رسائل الجاحظ

ولكنه ما يكاد يبلغ القاهرة ويمضى بها نحوا من عامين ويستثار امر الجاحظ من مكمنه ، ويتبين له أن الظروف مواتية ليشرع فيه بمشاركة الطالب الذى كان يناقشه ، حتى يعلم ان استاذا اخر قد سبقه ، هو الأستاذ عبد السلام هارون ، وقد جعل من مكتبة الجاحظ مشروعا متكاملا ، ظهر طليعته ، وهو الجزء الأول من كتاب الحيوان ، فما بُدٌّ من أن يراجع نفسه . ولكن هذه المراجعة اتخذت صورة علمية تعتمد على النظر فى هذه النشرة على ضوء ما اجتمع لدينا من مادتها ، وما استقر عليه الراى فى تحقيقها ، وبرزت هذه المراجعة فى مقال يحمل توقيعينا ، نشر فى مجلة «الثقافة» . وربما كان هذا اول عمل علمي التقيت عليه معه . كما كان هذا هو كل ما اتيح لنا أن نؤديه لكتاب الحيوان الذى مضى الأستاذ هارون فى اخراجه فى عزيمة صادقة واسلوب علمى قويم .

ولم تكن هذه اللفتة لتذهب عبثا ، فاذا لم يقدر لنا أن نمضى فيما كنا نخطط له اولا ، فان للجاحظ جوانب اخرى تقتضينا ان نجلوها ، وان نوليها عنايتنا . فلناخذ فى تحقيق بعض اثاره التى لم تنشر بعد ، فنكشف بها من جوانب الحياة العلمية والادبية ما ظل مستورا ، ونقرر بمثل هذا العمل من مبادىء التحقيق العلمى ما هو جدير ان يتقرر . وعلى هذا قر راينا وبدانا طريقنا .

وفى خلال هذه الفترة التى كنا منكبين فيها على ما يقتضيه هذا العمل من جمع المادة ، ومقابلة النصوص ، والمقارنة بين القراءات المختلفة ، فى اناة ودقة ، والأمل يغمرنا ان يكون فيما نؤديه من ذلك ، ونصب اعيننا ما استخلصناه من صنيع اسلافنا ، ما يمكن ان تتحقق به الصورة المثلى التى تسيطر على خيالنا العلمى من صور تحقيق النصوص ، إذا بى افاجا ، وانا اقضى بعض ايام اجازتى ، بانى من الذين اختارهم القائمون على انشاء جامعة الاسكندرية لتكوين هيئة التدريس فيها ، وان علي أن اتخذ ما ينبغى لمثل هذا التحول الذى يتناول كثيرا من صور حياتى المادية والعلمية ، بما يتضمنه من تبعات جديدة ، وما يقتضيه من واجبات مختلفة عديدة . وما لبثت أن رايت نفسي فى هذه المدينة اواجه من شؤون الحياة فيها ، ومن تبعات العمل الجامعي الجديد ، ما يكاد يستغرق كل وقتي وجهدي .

وكان طبيعيا أن يتاثر هذا العمل العلمى بمثل هذا التحول ويتحمل بعض جرائره ، ولكنه مضى على كل حال الى بعض غايته . وقد قام البريد فى صلة ما بين كروس وبينى مقام اللقاء ، وكروس مشغول بطبيعة الحال بشواغل اخرى ، الى أن اتيح له ان يظهر اخيرا ، فى سنة ثلاث واربعين ، باسم (مجموع رسائل الجاحظ) ، عن لجنة التاليف والترجمة والنشر ، صورة من صور التحقيق الذى رجونا ان يكون دقيقا ، مصطنعا ما يقود المحققون الأوربيون اصطناعه من رموز ، فى نشر الآثار اليونانية ، مراعيا فى

التنسيق والترقيم ما يشير الى اسلوب الجاحظ الموسيقى فى تاليف الجمل ، وان فاته ما كان مقدرا ان يصحبه من درس وتحليل يؤدى بهما بعض الغايات المرجوة من إيضاح بعض جوانب الحياة التى صدر عنها ، فى انتظار ان يتاح لنا بعد اداء ذلك.

ولم تدع لي هموم حياتى الجديدة فى الجامعة وفى هذه المدينة من فراغ الوقت وهدوء البال ما يمكن لي من مواترة لقاء كروس ومجالسته ، ورسم الخطة التى ينبغى ان نختطها ونمضى عليها ، إنما هى لقاءات عابرة قليلة تتاح لنا فى خلال مجيئه الى الاسكندرية مجيئا خاطفا . وقد كان ابى ما عرض عليه ان يكون فى جامعة الاسكندرية عمله ، لأن اعماله العلمية تربطه بالقاهرة وما فيها من دار الكتب التى لا يستغنى عنها ، ومن الهيئات العلمية التى هو وثيق الصلة بها .

و .. جابر بن حيان

والحق ان حياة كروس كانت فى هذه الفترة خاصة مشحونة بالعمل الدائب والجهد المتصل يحمل به على نفسه اشد الحمل . انه لم يغفل قط عما كان اخذ به نفسه وانطلق فيه ، وهو فى باريس ، من درس تاريخ العرب العلمى ، وما اتيح له هنالك ، فى سبيل ذلك ، من اخراج تلك المجموعة المختارة من رسائل جابر بن حيان ليبنى عليها عمله . حتى إذا جاء الى مصر كان من اكبر ما يدعوه اليها ان يتاح له فيها من المادة العلمية ، ومن هدوء البال فى حياته المعيشية ، ما يمكن له من المضى فى هذه السبيل التى انتهجها ، ولابد ان يبلغ غايتها . وما كانت احاديثه عن رسائل إخوان الصفا فى الندوات التى كان طه حسين ينظمها فى الكلية إلا من اجل ذلك . وما كان اتجاهه الى الجاحظ وما صدر به عن أرسطو وما مثل به بعض صور الثقافة السائدة فى ايامه إلا من هذا القبيل ، وما كانت صلاته بالمجمع العلمى الفرنسى يجالس رجاله ويتحدث اليهم ، ويعد بعض المحاضرات يلقيها عليهم ، ويتلقى فيها آراءهم ، إلا من اجل هذه الغاية الكبرى التى تشغله وتستبد به .

وها قد ان له ان يفرغ من بعض شانه فى هذا الميدان ، وكانما كان يمس فى اعماقه بما كان كثير الترديد له فى غير مناسبة من ان العمر قصير والعمل كثير . فلم لا يتقدم بما تم له درسه عن جابر بن حيان الى هذا المجمع الذى توثقت به صلاته ، واطردت باعضائه ورجاله علاقاته حتى لم يعد يشك فى مبلغ تقديرهم له وإعجابهم به ، وما يشك فى انهم سيتقبلون هذا الذى يعرضه عليها فى غير قليل من الترحيب به ؟

وهكذا تم له ما اراد من ان تكون دراساته العلمية المستقصية عن جابر بن حيان كتابا مستقلا من الكتب التى تصدر عن هذا المجمع متوجة باسمه . وما من شك فى ان اعداد هذه الدراسات وتقديمها للطبع ، واضحة المنهج مطردة الفكر مضمونة بمراجعها ومصادرها حسبما يقتضيه الأسلوب العلمى الدقيق لم يكن من الامور الهينة ، فاذا اضيف الى هذا ما كان يصدر اليه من اعماقه من وجوب ان يتم هذا العمل بقدر ما يمكن من السرعة والدقة معا استطعنا ان نتمثل على وجه ما مبلغ ما كان يسيطر عليه ويستبد به من مشغلة وقلق .

ولعله كان من ذلك إرجاء طبع الجزء الاول من هذا الكتاب الى ما بعد طبع الجزء الثانى وظهوره ، حتى يتاح له ان يستكمل ما لابد من استكماله من شرائط الاسلوب العلمى . فكان من ذلك أن ظهر الجزء الثانى فى سنة اثنتين واربعين ، فى حين ظهر الجزء الأول سنة ثلاث واربعين .

وبتمام ظهور هذا الكتاب البارع فى موضوعه ، بجزايه الكبيرين ، يمكن ان يقال ان كروس وجد فى نفسه ما يمكن ان يسمى بالروح .

ولكنه مع ذلك لم يخلص من هموم التفكير العلمى الذى كان مايزال يتجاذبه من جانب الى اخر ، متدسسا الى أعماق نشاته العلمية ، وعناصر حياته الفكرية ، منذ كان عليه ان يدرس اللغات السامية الشرقية الى جانب اللغـــات القديمـــة الاوربية .

وانا ما ازال اذكر كيف كان مما لفت نظره فى اسلوب الجاحظ ، ونحن نقرؤه معا ، هذه المزاوجة التى تكاد تكون من لوازمه ، والتى تجعل الجملة فى لفقين (١) متناظرين ، مما كان يراه اثرا من اثار الأسلوب الشعرى ظهر فى الكلام النثرى ، فكان مما اقترحه ان يكون لهذه الظاهرة الفنية من الطبع ما يبرزها لانها جديرة بذلك . فكان من هذا ما اتفقنا عليه ووجهنا المطبعة اليه ، من أن يكون بين كل لفق من هذين اللفقين بياض .

اذكر هذا الآن وانا اصل الى المرحلة الاخيرة فى حياته ، وقد سيطرت عليه ، فيما يبدو هذه الفكرة . وقد اعتبر هذه الظاهرة التى استوقفته فى اسلوب الجاحظ سمة من سمات اللغات السامية ، وينبغى أن تكون كذلك فى الكتاب المقدس . فلم يلبث أن قر فى ذهنه انه فى صميمه مطبوع بمثل هذا الطابع الشعرى ، وان له موسيقاه التى طمرها ما اعتبرناه فيه . وإذ كان الأمر كذلك فان عليه ان يكتشف حدود هذه الموسيقى ويبين معالمها ويبرز خصائصها فاذا كاشف اعضاء المجمع العلمى وجمهوره بهذا الذى يفترضه وجد من الاعتراض عليه والانكار له ما زاده اصراره عليه ، ومحاولة اثباته وتاكيده .

ومنذ ذلك الوقت ، اقبل ـ كما حكى لي عنه من اصدقائه وثيقى الاتصال به ـ على الكتاب المقدس يعيد قراءته ، وياخذ فى كتابة نصوصه كتابة جديدة ، يتاح للاوزان الشعرية ، كما كان يتمثلها ان تكون السائدة فى تلك العصور الأولى ، أن تظهر فيها . وطبيعى ان يكلفه مثل هذا العمل ان يسخر له قواه العقلية واللغوية والذوقية والعصبية تسخيراً لابد ان يكون له اثره فى حياته كلها ، حتى لقد قيل انها اصبحت وقفا على ذلك فى يقظته ومنامه .

وما كان ذلك لينتاتى لولا روح الاصرار التى كانت غالبة عليه ، وطبيعة العناء التى كانت جزءاً من كيانه . وما ندرى لعله إنما كان يتجه بمثل ذلك الى نوع من الهروب مما كان يؤرقه فى اعماق نفسه ، ومحاولة الخلاص من هذا الذى كان مايزال يلوح له من قبل الصهيونية ، وما كان يخيل اليه انها تدبره ، بعد ذلك الذى ورطته فيه.

ومن بين هذا وذاك كان لابد ان تعرض له لحظة ضعف ، تتهافت فيها قواه ، ويغلب عليه الياس من هذه الحياة ، فاذا هو مندفع الى ان يخلص نفسه بنفسه ، لينجو من هذا الذى يحاصره . فكانت فى ذلك نهايته فى اليوم الثانى عشر من شهر سبتمبر ، سنة اربع واربعين وتسعمائة والف .

ولعلنا نستطيع ان نعود الى هذا الحديث مرة اخرى ، عسانا نتبين بعض العوامل التى كانت تعمل فى حياته ، حتى ادت به الى هذه الغاية ، وهو بعد فى الاربعين من عمره .

د. محمد طه الحاجرى

هـامش

(١) لفقان متناظران : مقطعان متساويان مما يشبه الشطرين فى ابيات الشعر العربى العمودى .

هل يمكن إلغاء الموسيقى العربيّة ؟!

بقلم : كمال النجمي

قديماً تقطعت السبل بالثقافة العربية ، عندما اقتحم هولاكو بغداد **فى منتصف القرن السابع الهجرى** «منتصف القرن **الثالث** عشر الميلادى» .. وقتل سكانها ، **واحرق مدارسها وبيوتها ، وذبح الأدباء** والعلماء **والفنانين** ، وأباد ذخائر المكتبات العظيمة **التى تراكمت كالجبال خلال القرون** الطوال ..

ولكن الثقافة العربية ، وإن تقطعت بها السبل يومئذ ، لم تندثر .. **ونهض الفكر العربى من تحت الأنقاض** فى الموسوعات والمؤلفات الكبرى التى تكاثرت فى **المشرق العربى ، ولبثت تتكاثر فيه حتى إن** كتباً ضخمة تعتبر من امهات الكتب مثل «نفح الطيب» **للمقري .. و «تاج العروس» للزبيدى** ، ظهرت فى مصر بعد سقوطها فى أيدى العثمانيين **بزمن طويل ، والثقافة العربية حينذاك فى ذل شديد تحت سنابك خيل المماليك الجهلاء الذين جعل السلطان العثمانى مصر طعمة لهم ! ..**

كذلك لم تنقطع المؤلفات فى الأندلس ـ أقصى المغرب العربى ـ حتى سقطت غرناطة ، وضاع آخر موضع قدم للعرب فى الأندلس سنة ١٤٩٢ .. وصارت الكتب العربية رماداً فى محارق القشتاليين ، إلا بقايا مخطوطات بائسة تقتلها الغربة الآن فى مكتبة الاسكوريال الشهيرة فى أسبانيا ! ..

والغناء العربى المتقن الذى عاش منذ انبعاثه فى القرن الأول الهجرى بمكة والمدينة ، والى اخر ايامه فى بغداد تحت حكم هولاكو ، كان اكثر فروع الثقافة العربية والتراث العربى كله ، تاثرا بنكبة المشرق واندثار المغرب الاندلسى ! ..

فان علماء الدين والادب واللغة والتاريخ سارعوا الى جمع شتات كتبها ، كواجب ديني فى اكثر الاحيان .. أما الغناء فانه سقط ولم يجد سنداً إلا من جهود فرديةمحدودة ، لان فن الغناء ـ على راى ابن خلدون ـ هو اول شيء يحل به الخراب والسقوط ، عند سقوط الامم وخرابها ! ..

ولكن الغناء العربى ينتمى الى أمة تضرب بجذورها فى اعماق هذا الكوكب الارضي ، ولهذا نهض رجل واحد هو الموسيقى صفي الدين عبد المؤمن الأرموى ، بما تنهض به العصبة من الرجال ، فذاد الرجل التشويه والتبديل حين اوشكا ان يمسا الملامح الاساسية للغناء العربى ، ثم ترك اثار جهده فى مؤلفاته الرائعة التى بقي بعضها حتى الآن ، وفيه الدليل على هذا الجهد الفردي الفائق ! ..

كان صفى الدين مغنيا للمستعصم اخر خلفاء بغداد ، واميناً لمكتبته الحافلة ، وكاتبا مشهورا بجودة الخط والكتابة .. واليه انتهت علوم الاولين فى الغناء والموسيقى ، وصار فيها حجة بمؤلفاته وأعماله ، واشتهر اسمه حتى بلغ مسامع الطاغية هولاكو وهو على حصار بغداد قبل سقوطها ، فامر بامساكه حيا عند فتح المدينة ، وحمايته من القتل ، وإعفاء داره من النهب والتخريب والفتك والهتك ، وكان

العربى الى الحضيض ، إلا انه لبث يقبض بيديه على الجمرة التى تنم عن اصله ، وتهدى اليه كبصيص النور الذابل ، حتى شاءت المقادير له أن ينهض من جديد منذ اكثر من مائة عام نافضا عن نفسه غبار السنين ، ونهضت معه الأرض العربية بتراثها من الفكر والعلم واللغة والفنون .. وارتفع فى وقت واحد صوت المغنى العربى وصوت الشاعر العربى الذى صعد بادائه فوق ركاكة العهد العثمانى ! ..

ولكن ماذا حدث فى غنائنا وموسيقانا بعد مائة سنة من العمل على تخليصها من شوائب العجمة ؟!

تطورت الموسيقى العربية ، ونطقت المقامات فى غنائنا نطقا جديداً لم تكن تعرفه .. ولكن قومنا فى نهضتهم الآن لا يغضون الطرف عن أن الأصل عندنا فى السماع هو «الغناء» لا العزف بالآلات .

وهذا ما لا يجهله أحد من قديم ، ولا عيب فيه علينا ، فلكل أمة طبيعتها ووجدانها ، وليس لأحد من خارجها أن يفرض عليها طبيعة ووجدانا من خارج ذاتها التى صنعها التاريخ العميق ! .. ولا يمكن إلغاؤها بمرسوم ولا بحيلة من الحيل ، ولا بالقوة القاهرة ! ..

إلا اننا نعرف الآفاق الرحبة للموسيقى الخالصة ، كما نراها فى الموسيقى الأوربية من السيمفونيات مثلا .. ولكن ما صنعه مؤلفونا الموسيقيون فى هذا المضمار حتى الآن ، لا يخرج عن حدود التقليد الحرفى الذى يصادر أذواقنا ، ولا يلقى إعجاباً من الأوربيين انفسهم ، لانهم أصحاب «الأصل» الذى يقلده المقلدون ! ..

إن الموسيقى العربية كيان قائم بذاته ، لا هى «شرقية» كموسيقى الصين والهند .. ولا هى «غربية» كموسيقى أوربا وأمريكا ..

وليس هذا موقفا عاطفيا لموسيقانا ، وإنما هو موقف فنى محض ، أساسه اختلاف عدد درجات السلم الموسيقى وتركيب المقامات وخصائصها ، وكسور الأصوات والتعامل معها ، والايقاعات وعلاقتها بالأنغام .. وما لا يحصى من القضايا الاخرى الأساسية ! ..

الموسيقى الصينية ــ مثلا ــ ليست متطورة إذا نظرنا الى الموسيقى الشعبية هناك لا الى ما صنعوه تقليداً لموسيقى الباليه والاوبرا وما الى ذلك .. مع أن الموسيقى الصينية كان لها السبق على العالم كله ، وكان سلمها يتألف من خمس درجات هى : «دو .. رى .. مى .. صول .. لا» .. وهى الدرجات المشهورة الآن فى الموسيقى الأوربية .. وهى المفاتيح الخمسة السوداء فى البيانو الأوربى الذى ظل



واجهة مبنى معهد الموسيقى العربية



فرقة السماح للموسيقى العربية

هذا عجيبا من هولاكو السفاك الذى قتل فى هذه المدينة مليونا ونصف مليون من البشر وأباح لجنوده كل شىء فيها ! ..

التحق صفى الدين بحاشية هولاكو ، وأسمعه الغناء العربى فادخل عليه السرور وإن كان هذا الغازى المجنون لا يتكلم ولا يفهم إلا الرطانة التترية ! .

ثم تعلم على يد صفى الدين مطربون من التتر والفرس والديلم والترك والأجناس الأخرى فى دولة هولاكو وامرائه ، فتغيرت أسماء آلات العزف ، كما تغيرت أسماء الانغام العربية وأجناسها وأصولها ، وتحورت فى حلوق هؤلاء الأعاجم ملامح غنائنا ، ولكن بقي جوهره العربى يبرق فى صدحاتهم الاعجمية ، شاهداً بأصله العربى ! ..

لا شرقية ولا غربية

وبعد عهد التركمان والجركس فى مصر والشام ، جاء العثمانيون فانحدر الغناء

الاوربيون يطورونه مئات السنين ! ..

والموسيقى الهندية ، لها الآن سلم يتالف من اثنين وعشرين جزءا ، فهى اقرب الينا ، لأن موسيقانا استقر سلمها على اربعة وعشرين جزءا .. ومع ذلك فالفرق كبير بين موسيقانا وموسيقاهم .. ولا يمكن للحنجرة الهندية ان تؤدى الغناء العربى ..

أما الموسيقى الاوربية ذات المقامين الكبير والصغير ، فنحن نعرفها جميعا ، ونعرف انها برغم فقرها المدقع في النغمات ، شديدة الثراء فى تنوع التركيب الذى نراه فى الهارمونى والكونتروبوينت والانواع المختلفة لتعدد الاصوات ، والقوالب الكثيرة للغناء والموسيقى كالسوناتا ، والكنتاتا ، وموسيقى الصالون ، والكونشرتو ، والقصيد السيمفونى ، والمتتابعات الموسيقية ، والاوبرا بالوانها ، والاوبريت ، والموسيقى الخفيفة .. وما لا يمكن إحصاؤه فى هذا المجال ..

لهذا نحن نختلف «فنيا» عن موسيقى الشرق الآسيوى والغرب الاوربى .. والاختلاف هنا سببه تعدد اذواق الشعوب منذ القدم ، كتعدد اللغات ، وتعدد طرائق الحياة ، ولا يمكن إجلاس الناس فى صفوف متراصة وإسماعهم لونا واحدا من الموسيقى والغناء .. وقديما قيل إن لكل شعب لغة يحبها ونغمة يلتذها وطعاما يشتهيه .. فلا ضرر هنا من الاختلاف ، بل الضرر فى محاولة إفراغ جميع شعوب الارض فى قالب موسيقى غنائى واحد ! ..

ومن الجهل ان يؤمر قومنا بسماع داليدا بدلا من ام كلثوم ، أو الاعجاب بسيناترا بدلا من عبد الوهاب ، او إنكار جهود الشيخ ابى العلا محمد وزكريا احمد ، اكتفاء بالانحناء لعبقرية بيتهوفن وموزار !.

ولكنا وقد نجحنا فى إحياء غنائنا القومى وموسيقانا القومية وإنقاذهما من براثن العجمة ، ينبغى الا نغفل عما تطرحه علينا ضرورات التطور الدائم من مسائل هامة تفتقر حتى الآن الى من يجد لها حلا فى غنائناوموسيقانا ، مستعينين بتجارب غيرنا فى موسيقاهم ، سواء كانوا اوربيين او غير اوربيين .. مادمنا حريصين على بقاء موسيقانا حية ، بعيدة عن متاحف التاريخ ! ..

إن الموسيقيين ذوى الجنسيات العربية المتفرنجين او «المستخوجين» يتحمسون للموسيقى الاوربية اكثر مما يتحمس لها «خواجات» اوربا وامريكا انفسهم ! .. هؤلاء يرون ان نضع الموسيقى العربية فى القمامة ، وتاخذ الموسيقى الاوربية بقضها وقضيضها .

هذا هو الحل الامثل لديهم لما يسمونه «أزمة الموسيقى العربية» ولكنه حل مبتذل يقدر على الاخذ به كل من يستحل ان يغترف من «نوتة» الموسيقى الاوربية بلا رقيب ولا حسيب مدعيا أن هذا الذى يغترفه هو من بنات افكاره ! ..

وحسبك هذا ابتذالا للفن ، بل لتاريخ الفنون والآداب والعلوم كلها قديما وحديثا ! .. فما من امة فى التاريخ كله نزعت عن جسدها كل ثيابها ، وارتدت ثيابا مستعارة ، لا تملكها ، ولا تعلم من اى قماش نسجت ، فلابد لها فى كل وقت من ان تمد يدها وتقول للناس : «أعيرونى ثيابا» !، او تعيش عارية ! ..

لماذا التجرد من الطابع القومي ؟

الحل العلمي هو تطوير الموسيقى العربية ـ ونعني بهذه الكلمة ضمنا الغناء العربي ـ بطريقة تناسب تكوينها المستقل ، وتزيده ثراء وجمالا ، فتصبح موسيقانا علمية وعربية فى وقت معا . !! وتتحطم اللافتات التى يرفعها بعضهم فوق رءوسهم مطالبين باعتقال الذوق العربي ، ووضع الوجدان العربي في قمقم ! .. وتدمير الموسيقى العربية جملة وتفصيلا .. من مقام الراست ،، الى مقام راحة الأرواح ! .

ويقولون : ماذا نصنع فى مشكلة ربع الصوت أو ثلاثة ارباع الصوت ؟! ..

ايها السادة .. لقد رايتم ورأينا زملاء لكم لم تستعص عليهم ارباع الصوت ، لانهم جمعوا بين العلم « التام » بالموسيقى العربية ، والعلم الصحيح الواعي بالموسيقى الأوربية .. اما انتم فقد درستم الموسيقى الاوربية ، وتجهلون غيرها من الوان الموسيقى ، وبخاصة الموسيقى العربية ، فالشان فيها إذن لغيركم لا لكم ! .. فدعوهم فى عملهم الطيب المثمر الذي سوف يعود عليها بما يصلحها ولا يفسدها، وبما يبقيها لا بما يلغيها ! ..

الموسيقى العربية تريد تطوير وضبط آلاتها الخاصة كالقانون والناي والبزق والدف ، وتحسين البيانو العربي ليحل مكان البيانو الاوربي ويتمكن من عزف ثلاثة ارباع الصوت التى يقف امامها البيانو الاوربي عاجزا ..

والموسيقيون العرب يحاولون ان يقدموا على خشبة المسرح اشكال الغناء المصري والعربي كالموشح والموال والطقطوقة والدور ، فليس المسرح ـ اعني المسرح الغنائي ـ وقفا على الصراخ الاوبرالي ..

ولا باس باستخدام النافع المفيد من اساليب التعدد الصوتي ، لا تقليدا ، بل استجابة لبواعث التجديد فى موسيقانا ذاتها ، وباساليبها .. وبدون الخروج عن كيانها .. فليس حتما ان ننقل اساليب الكونتر بوينت والهارموني نقلا حرفيا من اوربا .. بل الحتم الا نفعل هذا ، لان الموسيقى لغة ثانية يتكلمها الشعب مع لغة الكلام التى يتمثل فيها تاريخه الطويل ويكمن وجدانه واشواقه واشياؤه الصغيرة الدقيقة التى يحسها وحده وقد لا يابه لها الآخرون ..

وإذا كان الهدف هو صناعة موسيقى اوربية فى مصانع مصرية او عربية .. فما اهون الهدف ! .. وما ابهظ الثمن ، لان الثمن هنا هو التجرد من الطابع القومي فى اخص خصائصه بعد اللغة ! .. ومن الذي يضمن لنا الا يقول لنا هؤلاء الذين جردونا من موسيقانا : تجردوا من لغتكم ايضا

المدهش ان بعض الدول التى لفقتها الظروف تلفيقا تكافح لتخلق لنفسها غناء وموسيقى .. بينما بعض الناس منا يحاولون إلغاء الموسيقى العربية والغناء العربي ، وهما نهر الالحان الفياض الذي سوف يقصده العالم كله يوما ليغترف منه او يتذوقه ، أو يقف على شاطئه متنسما طيب هوائه ! ..

إن الموسيقى العربية ستتطور دائما ، وتبقى الى الأبد ، وتقهر اعداءها جميعا ، من اجانب متربصين تملأ قلوبهم البغضاء ومن ابناء عاقين ينظرون اليها حاقدين كانهم عصبة من المبشرين الاجانب ! ..

ولكن هؤلاء واولئك لن يستطيعوا إلغاء الموسيقى العربية . اما هى .. فتستطيع إلغاءهم ! ..

وليقراوا جميعا هذا المقال من اول كلامنا عن هولاكو المجنون ! ..

كمال النجمى

أخــــلاقيّـــات الطــــب

بقلم : الدكتور خليــل قطاطو

الاخلاق وعاء حضاري وانساني . وهي موجـه للسلوك . والاخلاق نبع داخلي وضمير قبل ان تكون عرفا او قانونا . والحياة بدون اخلاق ليست مستحيلة ، ولكنها بائسة وكئيبة ، إذا فالاخلاق تكسب الحياة طابعا روحانيا شفافا بعيدا عن الطابع المادي الجاف ، وتكسب النفس الانسانية سموا .

كثيرا ما يتردد على السنة العامة ان الطب مهنة انسانية ، وان على الطبيب ان يتحلى باخلاق تتناسب والمهنة التى يمارسها ، ولكن هؤلاء بقولهم هذا نسوا الجانب الأكبر من الحقيقة . نسوا أن كل المهن انسانية مادامت تؤدي خدمات للناس وللمجتمع ، ولهذا فالاخلاق مطلوبة من كل فرد في المجتمع مهما كان موقعه .

القانون والمحاماه مهنة إنسانية ، بمعنى انها إذا فقدت الاخلاق اصبحت المحكمة غابة «البقاء فيها للاقوى او بحرا ياكل السمك الكبير فيه الصغير ، فاين العدالة ؟

التعليم ايضا مهنة إنسانية ، والمعلم الذي يرمي بالاخلاق جانبا ويعتقد ان العلم نظريات وحقائق ومعلومات فقط ، يخرج للمجتمع « كمبيوتر » بـــــدلا مـــن الانسان ، وقد يخرج ايضا مجرمين ، فالتعليم إن لم تصاحبه التربية سقط فى الحضيض .

لا اريد ان استعرض المهن واحدة تلو الأخرى ، للتدليل على اهمية الاخلاق ، ولكن دعونا نستعرض مثالين اخرين فقط قبل ان نتكلم عن الطب واخلاقياته ، المثال الأول هو التجارة . قد يبدو للبعض ان مفهوم التجارة وما تقوم عليه من مبدا الربح والخسارة تتناقض مع مفهوم الاخلاق ، وفي هذا قصر نظر . فالربح المشروع غاية كل انسان ، ولكن هذا الامر نسبي بمعنى ان الربح الفاحش الناتج عن الاستغلال والاحتكار اصبح بمفهوم الأخلاق امرا غير مشروع ، لذلك كانت الاخلاق ضرورية لممارسة العمل التجاري ، حتى تتحقق غايات الناس ، وحتى ينمو المجتمع ويتقدم على اسس راسخة ومتينة .

اما المثال الثاني ، فهو السياسة ، وإني اتخيل الآن علامات الدهشة والاستغراب ترتسم على وجوهكم « غير معقول السياسة واخلاق يجتمعان ! نعم ايها السادة يجب ان يجتمعا إذا كان هدف السياسي هو خدمة وطنه وامته ، وإلا فالسياسي بلا اخلاق ، تستطيع ان تسميه "منافق" او "مخادع" او ... ولكنه ليس سياسيا بالمعنى الانساني للكلمة .

بعد كل هذه الاطالة ، نعود إلى موضوعنا الاصلي ، اخلاقيات الطب ..

الطب يتعامل مع الانسان فى حالات خاصة ، اي عندما يكون الانسان في وضع معاناة ، سواء هذه المعاناه ناتجة عن الم ، او عن اضطرابات جسدية مختلفة ، او اضطرابات نفسية ، وواجب الطبيب ان يخفف من هذه المعاناة بقدر استطاعته ، بما أوتي من علم وخبرة ، وهذه اخلاقية أولى .

الجانب الأكبر الذي يدفع الناس للحديث عن الطب والاخلاق هو المادة ، إنه لمن السذاجة القول بان الاطباء يتمنون ان يمرض الناس حتى يرتزقوا ، إن ابسط بديهات الحياة تقول إن المرض موجود ابينا ام رضينا ، في مجتمع متخلف او فى مجتمع متحضر . وصحيح ايضا ان الطبيب يرتزق من المرضى ، فتلك مهنته ، وهذه سنة الحياة . ولكن النقطة الجديرة بالتوضيح هي ان المريض الذي لا يجد ثمن الدواء ليخفف معاناتـــه او حـــتى لينقـذ حياته ، نقطة سوداء كبيرة فى ضمير الاطباء وفى ضمير المجتمع . وتبرز الاخلاق هنا لتحل المشكلة ، فاذا ضاعت الاخلاق ، ضاع المريض ، وضاع المجتمع ايضا ، وانهارت اركانه ، وإن كان هذا لا يحدث فى يوم او سنة ، ولكن الخراب إذا دب في الاساس ، تقوضت اركان البناء مالم نسارع الى تدعيمه وتثبيته .

الطبيب الذي يصحو من نومه ، ويفقد لذة متابعة احلامه ، ويغادر فراشه الدافىء من اجل انقاذ حياة مريض ، لاتعوضه الاموال فقدان لحظة راحته ، ولكنه يفعل ذلك بوازع من ضمير ، وباخلاقيات المهنة التى اختارها ، واختار معها عذابه !!

اخلاقيات الطبيب تصنع منه انسانا يؤتمن على اسرار مرضـــــاه ، النفـــس الانسانية ضعيفة ، ومن منا لم يبح باسرار استودعها إياه الناس لاناس اخرين ثم ندم واعتذر ؟ ولكن اسرار المرضى هي من نوع خاص ، والطبيب الذي يتسع صدره لها ، إنسان يقوى باخلاقه ان يبوح بها لاحد .

الطب واخلاقياته موضوع طويل وشائك وليس ببساطة ان الطبيب اقسم يوم تخرجه ان يلبي نداء الواجب ، وان تقوم علاقاته مع مرضاه على اسس الطهر والعفة ، وان يحفظ اسرارهم ، وان ، وان ، ولكنه النبع الداخلي المتدفق ، والضمير الحي .

الدكتور خليل قطاطو
عمان ـ الاردن

رسالة لندن من:
مجدي نصيف

العالم العربي في متحف لندن

لوحات رائعة من وحي البيئة للفنانين الأوروبيين في القرن الماضي



علي بن نصر منصور .. ابن احد شيوخ قبائل صحراء سيناء (يناير ١٨٥٨) .. واللوحة من اعمال الفنان كارل هاج .

هذا المعرض هو بالفعل معرض الفنان العظيم «كارل هاج» رغم ان هناك اعمال عدة فنانين اخرين ، لأن هاج اعظم اساتذة فن الرسم بالالوان المائية من جهة ، واحد اوائل رواد هذا الفن الذين رسموا العالم العربى بصدق فى القرن التاسع عشر . صحيح أن المعرض لم يكن للوحات كارل هاج بمفرده ، لكن رسوماته كانت الغالبة والسائدة ، لذلك اطلق على المعرض اسم «معرض كارل هاج ومعاصروه» .

ومن رأى برايان ملكدرمون رئيس المتحف «أن العالم العربى يعتقد اليوم ان الكثيرين من فنانى القرن التاسع عشر الأوربيين كانوا ميالين الى التخيل والرومنتيكية عند رسمهم للشرق الاوسط ، فى حين كان «الطوبوغرافيون» الاوائل امثال «لير» و «روبرتس» أقرب الى الصدق والحقيقة . غير انه مع مرور الزمن ، كتبت الغلبة للشعراء والرومنتيكيين ، مما الهم الرسامين رسم مشاهد لم يكن باستطاعتهم مشاهدتها عن كثب» .

لذا يقول السيد ماكدرموت ان «اللوحات المعروضة فى هذا المعرض بمتحف جاليرى قد اختيرت نظراً لدقتها واتقانها ، فضلا عن جدارتها الفنية» .

إن الالوان المائية هى وسيلة هامة ، تمكن الفنان من تحقيق نتائج فريدة بالالوان الزاهية . وقد بلغ هذا الفن فى انجلترا بالذات فى القرن التاسع عشر ، درجة الكمال من ناحية استخدام المواد الثابتة من ناحية ، والمهارة الفنية من جهة ثانية . هناك مثلا لوحة «تشارلز روبرتسون» التى اطلق عليها اسم «بيع السجاد فى القاهرة» ، والتى تنم عن قدر بالغ من دقة التعبير وقوة الألوان ، بحيث توحى انها تكاد تكون لوحة زيتية . كما ان لوحة الفنان أوريللى المسماة «مشهد للحريم» ، بالوانها المثيرة وتوليفتها الرائعة ، يمكن ان تقارن بلوحات «دويتش» و «جيروم» الزيتية .

ولقد عرف القرن التاسع عشر ، عدداً كبيراً من فنانى الرسم بالالوان المائية من الايطاليين ، مثل «جوليو روزاتى» و «فريد ريكو بارتولينى» و «انريكو تارينجى» . وهؤلاء بالذات اشتهروا باعمالهم المميزة الفريدة من نوعها .

كذلك كان لفرنسا نشاط ملحوظ فى هذا المجال ، إذ قامت فيها «جمعية فنانى الرسوم المائية» . لكن الملفت للنظر ان كارل هاج ـ الالمانى الأصل ـ فضل المجىء الى لندن بدلا من باريس عاصمة الفن كما كان يطلق عليها . لكن هذا ليس غريباً ، فانجلترا هى التى ترعرع فيها وازدهر العرف التقليدى العظيم للاشتغال بالرسوم



منظر في الدوار .. لوحة للفنان فريد ريكو بارتوليني الذي اشتهر في اواخر القرن التاسع عشر .



بيع السجاد فى أسواق القاهرة .. إحدى روائع الفنان تشارلز روبرتسون (١٨٤٤ - ١٨٩١)

المائية ، وقام فيها فنانون أمثال «فريدريك لويس» و «تشارلز روبرتسون» و «ديفيد روبرتس» وكثيرون غيرهم ، قاموا بتمهيد الطريق لفنانى الرسم بالألوان المائية اللاحقين من أمثال «فارلى» و «تولبوت كيللى» و «لامبلاد» .

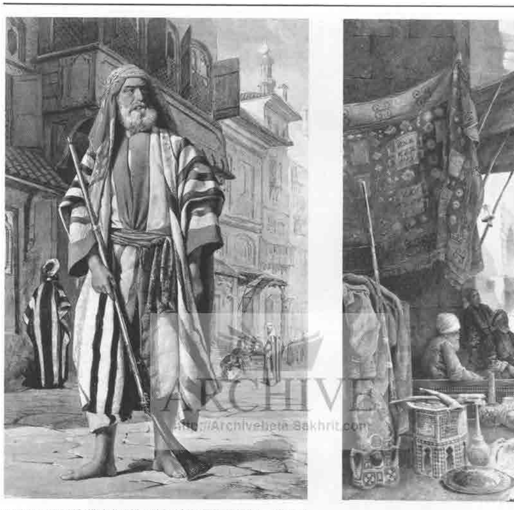
وقد أقيمت فى انجلترا «جمعية فنانى المائيات القديمة» ، وأصبحت تعرف فيما بعد باسم «جمعية فنانى المائيات الملكية» ، ونظمت هذه الجمعية معارض عديدة اجتذبت جامعى اللوحات ورعاة الفن وهواة الشراء من سائر أنحاء العالم . لكن اللوحات التى رسمت بالألوان المائية عن بلدان الشرق الأوسط لها جاذبية خاصة ، من هنا أيضا جاذبية هذا المعرض فى لندن والذى استمر لشهر كامل بين منتصف أغسطس وحتى منتصف سبتمبر . أو كما يقول برايان ماكدرموت «لقد خلق سحر الشرق ، ممزوجا بفن الرسم بالألوان المائية القاعدة لانتاج فنى بالغ الأهمية والقيمة» .

هذا الفنان

ولد الفنان هاج فى ايرلانجين ببفاريا فى ٢٠ ابريل عام ١٨٢٠ . ورفض أبوه طلبه بأن يعطيه أحد المدرسين دروسا فى الرسم رغم أنه كان يرسم على كل ما يمكن الرسم عليه فى المنزل ، من حيطان الى أثاث .

وكان من رأى الأب أن من الأفضل أن ينتظر ما يفعل بنفسه قبل أن يلقنه أحد أفكارا جاهزة مسبقا . وقد انغرست هذه المبادىء فى وعى الشاب ، واستمرت معه ، فادخل سمات جديدة مذهلة وملفتة للنظر فى تطور الفن الانجليزى للرسم بالألوان المائية ، هذا رغم أنه تلقى دراساته فى سنه المبكرة بأكاديمية نورمبرج وأكاديمية ميونيخ .

وفى عام ١٨٤٦ ، عندما كان فى السادسة



محارب عربي .. إحدى لوحات الفنان جون فريدريك لويس الذي عاش في الفترة مابين (١٨٠٥ ـ ١٨٧٦)

والعشرين من عمره ، قرر أن يرى العالم . فترك ميونيخ على اساس ان يذهب الى باريس ، لكنه بدلا من ذلك ذهب الى أنتيرب وبروكسيل ، وطلب منه البعض رسم صورهم فاستجاب لهم ، وبذلك ظل فى بروكسيل خمسة أشهر . لكنه بدلا من ان يتجه الى باريس كما كان قد قرر ، اتخذ خطوة اثرت فى كل حياته فيما بعد ، لقد قرر فى ابريل عام ١٨٤٧ الذهاب الى انجلترا .

كان الهدف الاساسى من زيارته لانجلترا أن يشاهد عن قرب التكنيك البريطانى لفن الرسم بالالوان المائية ، وهو تكنيك كان قد اكتسب شهرة واسعة فى الخارج ، وإن لم «يصدر» الى خارج انجلترا بعد ، حتى يتاثر به عدد من الفنانين فى أوربا . وبعد أن زار «هاج» جميع معارض فن الرسم بالالوان المائية التى كانت موجودة انذاك ، خرج بنتيجة ان فن الرسم بالالوان المائية بانجلترا ، هو فن اصيل فى مفهومه وأنه ليس استمرارا لـ «الأصل القديم» . وقرر أن يستمر فى انجلترا لكشف أسرار هذا التكنيك الفنى الأصيل . فبدأ يدرس على طريقته . وبمساعدة صديقه الحميم السير فريدريك ابيل ، قام بتحليل الألوان التى يستخدمها الفنانون الانجليز ، وتوصل الى أسرارها واصولها ، ثم قام بتحليلها . والنتيجة : انه اختار مجموعة من الألوان المعدنية ظل يستخدمها طوال حياته .

لم يكتف بهذا ، بل اخذ يراقب نفسه لتطوير تكنيكه الخاص . كان الرسم بالالوان المائية الخالصة وبطبيعتها الخاصة ، يختلف تماما عن الرسم بالجواش الذى كان معروفا انذاك فى اوربا. وكانت افكار «هاج» نفسه ، تقع فى مكان ما بين الاثنين . فلم يكن يخلط الالوان على الاطلاق ، كان يحتفظ بها فى حالة نقية .

وفى ديسمبر عام ١٨٤٨ قابل «هاج» حادثة كادت تنهى عمله ، وتضع حداً لمواهبه الفنية ، وإن اصبحت بعد ذلك ذات فائدة له . كان يسهر مع احد اصدقائه فاخذا يلهوان بمسدس ، باطلاقه على ضوء

راعي الجمال .. لوحة بالالوان المائية رسمها الفنان كارل هاج عام ١٨٥٩



عودة الحجاج من مكة إلى القاهرة فى عام ١٨٩٤ ..
وهي لوحة واقعية سجلها الفنان « كارل هـــاج »

مقهى فى القدس .. لوحة عمرها اكثر من مائة سنة للفنان « جوزيف اوستين » الذي عرضت اعماله في (١٨٦٥ ــ ١٨٨٦)

شمعة . لم يستخدما طلقات رصاص وإنما استخدما خراطيش ، لكن بعد ان تركه صديقه انفجرت قنينة البارود ــ بطريقة غامضة ــ فى يده اليمنى . ووجد السير بريسكوت هيويت الجراح بمستشفى سانت جورج ــ وهو رسام هاو بالالوان المائية ايضاً ــ وجد أن «يد الفنان قد تمزقت فيما بين اصبع السبابة والأوسط وحتى الرسغ اما الابهام فقد انخلع ولم يعد يربطه بالمفصل غير الأعصاب وحدها» ، وقدمه السير بريسكوت بعدها الى الكولونيل بيرنانت الذى اصبح اللورد بينرين فيما بعد ، الذى كان أول من رعى فنه .

وقرر عام ١٨٥٨ بعد أن عاد الى انجلترا من رحلة شتوية قضاها فى ميونيخ ، أن يبدأ رحلة أعظم : فيبدأ فى شهر يناير بالقاهرة ، ثم يزور فى شهر أكتوبر اليونان فتركيا ، ثم يعود مرة اخرى الى القاهرة فى شهر نوفمبر ، فارسل خطابا الى جينكينز سكرتير «جمعية الرسوم المائية القديمة» يوضح له انه لم يرسل شيئا الى الجمعية لتعرضه ، لانه يقضى كل وقته يجمع المادة فى شكل « اسكتشات». وكتب الى جينكينز يقول :

ــ «قل لهؤلاء الذين يبحثون عن مادة جديدة لموضوعاتهم يرسمونها بريشتهم ، إن هناك «قاهرة» واحدة ليس غير ، وان على الفنانين أن يروها» .

كان يعيش فى القاهرة مع صديق اخر فنان هو فريدريك جودول (١٨٢٢ ــ ١٩٠٤) ، وكانا يقومان برحلات الى الصحراء على ظهر الجياد .

وفى ابريل ١٨٥٩ ، قرر «هاج» أن يسافر الى القدس ، فوصل اليها فى أعياد القيامة. واخذ يرسم الاماكن البارزة : «البوابة المقدسة» و «جامع سيدنا عمر» و «الكهف تحت الصخرة المقدسة» . وظل فى القدس حتى شهر يونية ، ثم سافر من هناك للجليل ثم الى دمشق ، ثم عاد الى القاهرة ليبدأ شتاءه الثانى فى مصر .

خلال هذه الرحلات الطويلة ، درس ملامح وسمات القبائل التى عاشت فى



وقت الراحة ... لوحة بديعة رسمها الفنان ، جوسيبي أورسيللي ، بالألوان المائية

الصحارى ، وتعلم أخلاقهم ودرس عاداتهم وتقاليدهم ، وانعكس كل ذلك على لوحاته التى رسمها بدقة تفوق الوصف ، والتى ظهرت فيها القبائل المختلفة .

العودة الى لندن

وعندما عاد الى لندن عام ١٨٦٠ ، كان يمتلك ثروة عظيمة ، مادة هائلة للوحاته ، وقد أضاف الى كل هذا بطبيعة الحال مخالطته للناس والحياة فى البلاد التى زارها ، وعلى الأخص مصر ، ثم مهارته كفنان ، مما جعله أحد الفنانين الرواد الذين رسموا الحياة فى دول الشرق الأوسط ، فى وقت كانت فيه صور الفنانين عن الشرق ، تلقى رواجا كبيرا . وقد قام بإقامة أربعة معارض لرسومه بالجمعية ، فى عام ١٨٦٠ .

وفى عام ١٨٦٦ ، تزوج ابنة الجنرال بوتنر الوحيدة ، وبعد زواجه بقليل اشترى منزلا بحى هامستيد وأطلق عليه اسم «فيلا ايدا» ، وهو اسم زوجته ، وأقام «ستوديو» بمنزله ليعمل به ، وكانت ديكوراته كلها مصرية ، استخدم فيها المشربيات والسجاجيد الشرقية الخ .

وعاد الى القاهرة عام ١٨٧٣ ليجمع مادة جديدة للوحاته ، وقابل خديوى مصر بتقديم أمير ويلز . وظل مقيما بالقاهرة حتى أوائل عام ١٨٧٤ ، وظل يرسم ويعمل دون كلل ، حتى قرر أن يعتزل عام ١٩٠٣ ، وتوفى بعدها باثنى عشر عاما ، عام ١٩١٥ .

لقد عرض «هاج» أعماله خلال حياته فى معارض ومتاحف عديدة ، ضمت أكثر من أربعمائة من رسومه . وحصل على كثير من الميداليات والجوائز فى لندن وباريس وبرلين وفيينا ، وتتناثر أعماله فى العديد من المتاحف . فى بريطانيا وحدها توجد فى متحف بلاكبيرن ، ومتحف بريستول ، ومتحف مانشستر ، ومتحف فكتوريا ومتحف البرت بلندن ، وهناك مجموعة بقلعة وندسور .



صور نادرة من الفضاء

المرّيخ

هو الكوكب الوحيد الذي يمكن أن يستقرّ عليه الإنسان

فى الدوران الأبدى لكوكبى الأرض والمريخ حول الشمس ، تسنح الفرصة مرة كل ٧٨٠ يوماً ، لاطلاق سفن الفضاء من الأرض نحو كوكب المريخ . ويطلق الفلكيون على هذه الفترة اسم «النافذة المطلة على المريخ» ، وهى الفترة التى يستفيد فيها العلماء من وجود المريخ فى اقرب نقطة من مداره الى الأرض . وتدوم هذه الفترة ثلاثة اشهر .

بدا العالم يستفيد من هذه النافذة لاول مرة فى اول نوفمبر ١٩٦٢ ، حين اطلق الاتحاد السوفيتى صاروخا ضخما فى مدار حول الارض ، ارسلت بعدها إشارة لاسلكية من إحدى المراكز الأرضية ، فاندفعت سفينة الفضاء «المريخ ـ ١» (وزنها ٨٩٣,٥ كيلو جراما) من هذا الصاروخ نحو الكوكب الاحمر . لكن هذه المحاولة الأولى باءت بالفشل ، بعد قليل ، إذ فقد العلماء



لقطة مثيرة للمريخ على بعد ٥٦٠ الف كيلومتر ، ويظهر بركان « الاوليمب » فى قمة الصورة .. وتظهر كذلك جبال « تارسيس » وهى سلسلة من ثلاثة براكين اخرى ! .

السوفيت اتصالهم بالسفينة ، لاسلكيا بعد ان كانت قد وصلت الى مسافة ١٠٦ كيلو مترا من الارض ، وبعد ان اتصلوا بها ٦١ مرة ، نقلت خلالها معلومات ثمينة عن الفضاء البينكوكبى حولها .

وتوالت المحاولات بعد ذلك .

أطلق العلماء الامريكيون سفينة الفضاء «مارينر ٣» فى نوفمبر ١٩٦٤ ، وكان برنامجها طموحا . كانت ستمر بالقرب من المريخ وتسجل الاشعاعات والمجالات المغناطيسية والشهب الدقيقة التى تسبح فى الفضاء البينكوكبى حول المريخ ، وتلتقط صورا للكوكب ، وتقيس الضغط الجوى . لكن العلماء فقدوا الاتصال بالسفينة بعد إطلاقها بتسع ساعات فقط ، وبدا أن المشروع الطموح قد أصابه الفشل .

وبدا سباق رهيب للانطلاق نحو المريخ .

اطلق العلماء الامريكيون سفينة الفضاء «مارينر ٤» فى ٢٨ نوفمبر ١٩٦٤ من قاعدة كيب كيندى ، ثم فقدوا الاتصال بها هى أيضا . عندئذ أطلق العلماء السوفييت سفينة الفضاء «زوند ٢» فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٤ نحو المريخ . واصبح من المؤكد انها ستكون أول سفينة من صنع بنى البشر تصل الى المريخ . لكن حدث أمر غريب .. فقد العلماء السوفييت اتصالهم بالسفينة «زوند ٢» بعد عدة أشهر من اطلاقها ، وكان



من المفروض أن تصل الى المريخ فى يوليه ١٩٦٥ . وصحح الامريكيون مسار «مارينر ٤» بعد ان استعادوا اتصالهم بها ، فكانت اول سفينة فضاء «ارضية» ، تصل الى المريخ .

وقد اطلقت كل سفن الفضاء التى ذهبت لغزو المريخ من الارض ، من اقمار صناعية انطلقت الى مدارات حول الارض ، بعد ان ثبت ان هذه هى الطريقة المثلى – علميا واقتصاديا – ذلك انه لو انطلقت السفينة من الارض مباشرة لاحتاج الامر ان تكون سرعتها ١١,٢ كيلومترا فى الثانية . اما لو اطلقت من قمر صناعى يدور فى مدار حول الارض ، فلن تزيد سرعة إطلاقها من هناك عن اربعة كيلومترات فى الثانية ، لانه عند هذه المسافة تتضاءل قوة جاذبية الارض الى حد كبير .

الكوكب الغامض

هكذا كان المريخ اول كوكب من كواكب المجموعة الشمسية تنطلق اليه سفن الفضاء الاوتوماتيكية من الارض ، وبذلك سيكون اول كوكب يغزوه رواد الفضاء ليضعوا اقدامهم على تربته بعد ان يتم غزو القمر تابع الأرض .

فما الذى يحمله هذا الكوكب بين اضلعه من اسرار ؟

اطلق القدماء اسم «مارس» على هذا الكوكب . ومارس هو سيد الحرب عند الرومان . واول مرة ارتبط اسم الكوكب بالدمار كان عند البابليين منذ ثلاثة الاف عام مضت ، حيث اطلق عليه الفلكيون اسم «نيرجال» سيد الموت والطاعون عندهم . اما قدماء اليونانيين فقد اطلقوا عليه اسم « أريس » وهو سيد المعارك عندهم . كل هذا بسبب لونه الاحمر فى السماء . وفى القرن العشرين زود كوكب المريخ ، كتاب القصص الخيالى العلمى بمادة غزيرة عن غزو الكواكب وسكان الكواكب الاخرى ، فانتجت عشرات الافلام فى السينما والتليفزيون فى الاربعينات وما بعد ذلك .

ويبلغ قطر المريخ حوالى نصف قطر الارض ، وكتلته $\frac{1}{10}$ كتلتها . وبهذا لا تزيد جاذبيته عن ٣٨٪ من جاذبية الكرة الارضية . وكل هذه الظروف الطبيعية تجعل من الصعوبة بمكان ان يوجد حول المريخ غلاف جوى كبير ، كما هو حال «الغلاف الجوى» حول الارض . ويتكون غلافه الجوى اساسا من غاز ثانى اكسيد الكربون الذى تسرب ببطء من قشرة الكوكب وباطنه خلال فترة وجوده منذ ميلاده . واكدت الوسائل السبكروسكوبية وجود بخار الماء وغاز اول اكسيد الكربون ولكن بكميات ضئيلة للغاية . ورغم ان الغلاف الجوى «رقيق» بالمقاييس الارضية إلا ان هناك سحبا تتغير خلال فصول السنة ، وتتحرك بسرعات كبيرة بالنسبة لسحب الغلاف الجوى الارضى .



كان كوكب المريخ لغزا بالنسبة للفلكيين القدامى ، الذين حيرتهم حركته المربكة فى السماء ، الى ان حل جوهان كيلر هذه المسالة عام ١٦٠٩ الذى وضع قوانين حركته ، وبهذا شق الطريق امام نظرية الجاذبية الحديثة للمجموعة الشمسية . وقال كيلر : «... إن كوكب المريخ وحده يمكننا من اختراق اسرار الفلك ، وبدون هذا كان سيظل مغلقا علينا» .

لقد لعب كوكب المريخ دورا رئيسيا فى تطور «علم الفلك الكوكبى» اى الخاص بالكواكب ... لقد ظل فى دائرة الجدل بخصوص وجود حياة على سطحه . وانطلقت اليه العديد من سفن الفضاء الاوتوماتيكية . ومنذ إطلاق السفن الاولى – التى تحدثنا عنها فى بداية هذا المقال – والمعلومات تتجمع . ويقول العلماء ان المعلومات التى تجمعت منذ الستينات تفوق كل المعلومات التى تجمعت حوله منذ وجه الفلكيون ارصادهم نحوه .

هناك الكثير من المسائل التى حسمتها المعلومات والصور التى ارسلتها سفن مارينر ٤ و ٦ و ٧ ، ثم الفايكنج التى حطت بهدوء على سطح الكوكب : فايكنج الاولى ثم الثانية . وقد تكلف مشروع فايكنج الامريكى وحده الف مليون دولار .

رحلة «مارينر ٤» على سبيل المثال انتهت بنجاح فى ١٤ يوليه ١٩٦٥ ، وكانت قد بدات فى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٦٤ ، اى انها استغرقت ٢٢٨ يوما قطعت فيها ٥٢٦ الف كيلومترا ، بخطأ لم يزد عن ٠,٠٠٣٪ ، وكان مسارها يصحح باستمرار من المحطات الارضية لتصل الى هدفها المرسوم . وعندما اصبحت السفينة على بعد ١٦ الف كيلومتر من الكوكب انطلقت الاوامر من الارض ، تامرها بالتقاط الصور . سافر الامر عبر الفضاء بسرعة الضوء ليصل الى السفينة بعد ١٢ دقيقة ، فالتقطت الات التصوير المثبتة بها ٢١ صورة نقلتها كلها إلى الارض بنجاح ، هذا بالاضافة إلى المعلومات التى ترسلها باستمرار ، وعندما عبرت السفينة الكوكب ، اخترقت اشاراتها الغلاف الجوى للمريخ لتصل الى الارض ، ودلت قياساتها على ان جو المريخ اخف – على الاغلب – من جو الارض ٥٠ مرة ، اى مثل جو الارض على ارتفاع ٣٠ كيلومترا من سطحها . وكبرت كل الصور التى التقطتها ليدرس العلماء فى كل منها ٤٠ الف نقطة ! ومنذ اكثر من ثلاثة قرون شاهد جاليليو القمر اكبر ٣٠ مرة مما تراه العين البشرية ، عندما وجه اول منظار الى سطحه . كانت هذه بداية ثورة فى علم الفلك . اما صور مارينر فقد كبرت سطح المريخ ٣٠ مرة من اكبر مناظير القرن العشرين على سطح الارض ، وكانت هذه هى الثورة الثانية فى علم الفلك .

اما الفايكنج فكانت اعظم انجاز فى



هذه الصورة التقطتها سفينة الفضاء الامريكية « فايكنج الاولى » لكوكب المريخ ، وهى تبين الفجر فوق سطح المريخ ! .

تاريخ الفلك قاطبة . ذلك ان كل سفينة دارت حول المريخ واخذت ترسل الصور والمعلومات من على بعد ١٥٠٠ كيلومترا فقط . ثم ارسلت من كل منها سفينة صغيرة لتحط على سطحه بهدوء ولتستمر فى الارسال الى الأرض .

هل هناك حياة ؟

ظلت مسالة الحياة على المريخ تشغل بال العلماء . اعتقد بعضهم ان الكوكب الوحيد فى المجموعة الشمسية ـ غير الأرض ـ الذى قد نجد به شكلا من اشكال الحياة .

بدأ الجدل والمناقشات حول هذا الموضوع منذ اكثر من قرنين ونصف قرن ، فبعد ان وجه جاليليو منظاره الى السماء بعدة سنوات ، اعلن جيوفانى شياباريللى ، الذى كان يعمل بمرصد ميلانو ، عن رؤيته لقنوات على سطح المريخ ، وقال انها قنوات صناعية شقتها كائنات حية عاقلة . لقد شق الفلاح المصرى قناة السويس ، وطولها ١٦٠ كيلومترا فى عشر سنوات . اما طول هذه القنوات المريخية فيصل الى ١٦٠٠ كيلومترا . كان معنى هذا ان هناك جنسا راقيا ـ ربما اكثر رقيا من الجنس البشرى ـ يعيش فى المريخ ، شق مهندسوه تلك القنوات .

كان هناك علماء مشهورون يؤمنون بوجود كائنات حية وعاقلة تعيش على المريخ . بعضهم وضع مشروعات للاتصال بهم « لويل » على سبيل المثال شيد عام ١٨٩٤ مرصدا ضخما واعلن : « ان أهل المريخ يستحقون هذه التكاليف» وحاول تشارلس كروسن ان يقنع الحكومة الفرنسية بان تسمح له بتشييد مراة مقعرة ضخمة ليستخدمها فى إرسال إشارات الى اهل المريخ . وافترض العالم الرياضى الشهير كارل جاوس ان الخطوط المتقاطعة التى تشكلها الغابات وحقول القمح الشاسعة فى سيبيريا تاخذ اشكالا هندسية ، تماما كما تشكل قنوات المريخ اشكالا هندسية « صفراء اللون على أرضية سوداء .

وكان الفلكى الفرنسى انتونيادى اول من هاجم نظرية القنوات الصناعية ، واثبت انها ليست خطوطا ، وإنما نقطا صغيرة ، وإن كان الناظر اليها يراها خطوطا كاملة . وهاجم علماء آخرون فرض شياباريللى ، ودعموا قولهم بان الغلاف الجوى للمريخ يتكون اساسا من غاز ثانى أكسيد الكربون وليس به الاوكسجين عصب الحياة العاقلة ـ التى نعرفها على الاقل ـ وبهذا فان جو المريخ طبقا لمفاهيمنا «البشرية» غير مناسب على الاطلاق لتطور حياة عاقلة على سطحه .

ورغم ذلك فان العلماء الذين يختلفون حول وجود «حياة عاقلة» على المريخ ، يقولون بامكانية وجود شكل من اشكال الحياة الأدنى . وقام العالم الامريكى سينتون بابحاث هامة ودراسات طيفية ، قال بعدها بامكانية وجود مركبات ايدروكربونية ، وقد يعنى هذا امكانية وجود بعض الكائنات الحية الدقيقة .

صور نادرة من الفضاء



المريخ..

هو الكوكب الوحيد الذي يمكن أن يستقر عليه الإنسان

هل حلت الالغاز

وقد حسمت الكثير من القضايا والفروض التى اثارت جدلا مازال قائما حول الغاز المريخ ، وخاصة بعد رحلتى الفايكنج الأولى والثانية ، وستظل المعلومات عن المريخ وغيره من الكواكب تتدفق الى ما لا نهاية ، لانه لا نهاية للمعرفة ، وهو ما عبر عنه العالم الامريكى جيرالد صوفين ، احد المسئولين عن مشروع فايكنج عندما قال :

ـ «كم مرة وصل كولمبوس الى هدفه ؟ مرة واحدة فحسب ! اما نحن فسنتصل عدة مرات ، وهذه هى «مرتنا» الأولى» .

لقد اختلفت صورة المريخ الحقيقية عن الصورة التى رسمها كتاب القصص الخيالى العلمى ، هـ ج . ويلز ، وادجار رايس بوروز ، وراى برادبورى وغيرهم . غير ان بقايا من هذه الصورة مازالت موجودة فى اذهان الناس حتى الآن ، تلهب خيالهم : صورة سكان المريخ ذوى البشرة الحمراء والعيون الذهبية . ومازال هناك من «يؤمن» بوجود «حياة عاقلة» على سطح الكوكب ، وان البشرية ستتصل بها ... يوما مـا . لقد تحولت هذه التصورات الى حقيقة عند بعض الأمريكيين ، ما لبثت أن ادت الى يقين ، ثم الى ظهور بعض «المذاهب» و «الشيع» المؤمنة بهذا ، وبشكل جزءا من طقوسها .

اعتقد العلماء إذن ، انهم على وشك الوصول الى حل الغاز الكوكب بمشروع «الفايكنج» . فموضوع الحياة وشكلها على المريخ ، لم يكن هو «لغز» الكوكب الوحيد . فالمعلومات والارصاد التى جمعها العلماء على مدى عشرات العقود عن هذا الكوكب ، كانت محيرة للغاية ، بل ومتناقضة ، اثارت كل منها الجدل والخلافات . وكان من المنتظر ان تحل الفايكنج العديد من المشاكل ، وتحسم الكثير من الجدل الدائر . لكن «فايكنج الأولى» ، زادتهم حيرة وتناقضا ، وبالذات حول القضية الأساسية الا وهى مسالة الحياة على المريخ ، حتى لقد قال العلماء الامريكيون ، «إن المريخ يمارس معنا لعبة الاستغماية» . ذلك ان احتمالات الحياة عليه ظلت تتارجح ، دون ان يتاكد وجودها بشكل حاسم .

وذكر الدكتور هارولد كلاين رئيس فريق علماء البيولوجيا تعقيبا على نتائج التحليلات التى ارسلتها «فايكنج الأولى» :

ـ «إننى مندهش . انها نتائج رائعة لاشك فى ذلك ، لكن حتى يمكننا ان نقطع برأى حول احتمالات وجود حياة على سطح الكوكب ، لا نملك سوى نصف المعلومات التى نريدها . إن ما اود ان اؤكده ، هو اننا لم نكتشف بعد وجود حياة على المريخ ، ولكن ما ينبغى ان نضعه فى الاعتبار ، هو ان المعلومات التى لدينا ، حافلة باحتمالات ذات اصل بيولوجى» .

ما هى الحقائق الجديدة التى جمعتها «الفايكنج» ؟

● يحتوى الجو المحيط بالكوكب على كمية من بخار الماء ، تكفى لتكوين طبقات رقيقة من الثلج على سطح سفينة الفضاء .

● اعلن متحدث باسم معمل الفضاء الأمريكى ان القراءات الماخوذة من اجهزة التحليل الطيفى (داخل السفينة) عن درجات الحرارة وكمية بخار الماء على الكوكب ، لا تتطابق مع النظريات السابقة المعروفة لدى العلماء .

● اعلن فريق العلماء المشرف على الرحلة ان جو المريخ يحتوى على ٣٪ من النيتروجين ، وهو احد الغازات المكونة للحياة . وقال الدكتور مايكل ماكلورى استاذ الفضاء بجامعة هارفارد ، ان المعلومات تشير الى ان المريخ كان يتمتع بجو مشبع بالنيتروجين منذ مليارات السنين ، وان النسبة الموجودة به حاليا ـ وإن كانت تبدو ضئيلة مقارنة بجو الأرض (٧٨ ٪) ، إلا ان جو المريخ قادر على تفتيت هذه النسبة الى ذرات نيتروجين ، وهو الشكل الذى تحتاج اليه الكائنات الحية . ذلك ان نسبة ٣٪ من ذلك الغاز ، كافية لوجود الحياة ، إذا ما كانت بقية الظروف مواتية .

● يشير وجود غاز الارجون فى جو المريخ بنسبة ١,٥ ٪ ، الى ان الكوكب كان يتخلص من الغازات الموجودة فى باطنه الساخن ، بمعدل اقل ٢٥ مرة من الارض . كما يشير الى ان المريخ فقد كمية من الماء ٢٥ مرة عما فقدته الأرض منها .

● إذا كان المريخ يحتوى على كل هذه الكمية من الماء ، فان معنى هذا انه يختزن كميات هائلة منها تحت سطحه .

ما راى العلماء فى هذه الحقائق الجديدة ؟ وما معناها ؟

قال الدكتور هارولد كلاين :

ـ «إننى لا أرى سببا لاستبعاد وجود حياة فوق المريخ . ليس بالضرورة ان تكون نوعا من النباتات أو الأشجار او الحيوانات وإنما قد تكون نوعا من الميكروبات فى التربة ، أو حتى كانت اكثر تطورا من الميكروبات !» .

وقال الدكتور فـــاروق البـــاز العـــالم الجيولوجى :

ـ «إذا وجدت الحياة على المريخ ، فستكون غريبة علينا ، إذ اتوقع ان نشاهد انواعا من الحياة لكائنات دقيقة ، كالميكروبات . ان المعدات والاجهزة فى «الفايكنج» ، تشير الى ان هناك ماء على سطح المريخ ، كذلك الى وجود انهار ومجارى ماء . وإذا وجد الماء ... وجدت الحياة» .

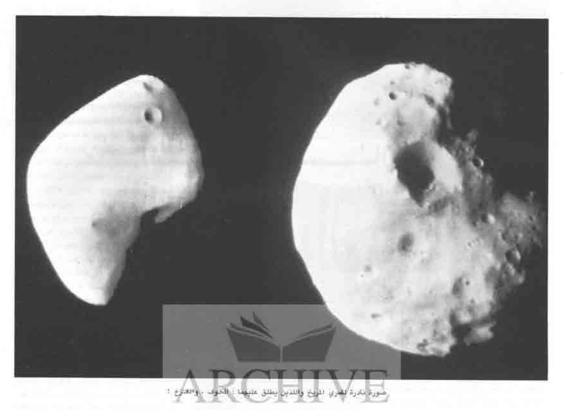
وقال الدكتور جيلبيرت بيفين عضو فريق البحوث البيولوجية فى باسادينا :

ـ «اثبتت تجارب الغازات ، انه مع تسخين تربة المريخ ، خرج غاز الاوكسجين بنسبة تزيد عما توقعناه ١٥ مرة . وربما كان هذا بسبب صدمة السائل على تربة المريخ اثناء اجراء التجربة . وقد يكون إشارة هامة لوجود الحياة على سطح الكوكب . وإذا ما تحقق هذا ، فهو ثورة علمية» .

«الخوف» و «الفزع»

لكن مازال هناك الكثير الذى يجب أن تكشف عنه من اسرار ذلك الكوكب الغامض وضمن هذه الالغاز ، قمرا المريخ . فاذا كان لارضنا قمر واحد هو «القمر» ، الذى يبعد عنها ٣٨٤ الف كيلو متر ويبلغ طول قطره ٣٤٥٣ كيلو مترا ، فهو تابع كبير الحجم بالنسبة لقمرى المريخ .

وقد اطلق على هذين القمرين اللذين اكتشفا عام ١٨٧٧ م اسم «فوبوس» (التى تعنى «الفزع») و «ديموس» (التى تعنى «الخوف») . وفوبوس هو الأقرب الى المريخ والاكبر فى نفس الوقت ، ومع ذلك فقطره لا يزيد عن خمسين كيلومترا ، ولا يبعد عن كوكبه المريخ باكثر من تسعة الاف كيلومتر ، وهو يدور حوله مرة كل ٧ ساعات و ٣٩



صورة نادرة لقمري المريخ واللذين يطلق عليهما : الخوف ، والفزع !

دقيقة . وهذه فترة قصيرة ، وهى تعنى ان «فوبوس» يدور حول المريخ مرتين كل يوم «مريخى» . وهكذا ، فانه إذا قدر لرائد فضاء ان «يعسكر» على سطح المريخ ، فانه سيشاهد «شروق» فوبوس ، مرتين كل يوم «مريخى» وسيشاهد غروبه مرتين ايضا بطبيعة الحال .

اما «ديموس» الاخ الاصغر «لفوبوس» ، فلا يزيد قطره عن ١٦ كيلومترا ، ويبعد عن المريخ ٢٣,٢٠٠ كيلومترا .

ولم يكن العلماء ، يعرفون الكثير عن القمرين حتى رحلات «مارينر» و «فايكنج» ، وقد عرفوا ان شكلها غير منتظم ، ويملا سطحهما حفر وشقوق وفوهات ، وادى صغرهما وقربهما من المريخ وعدم انتظام دورانهما مع دوران بقية افراد المجموعة الشمسية ، ادى ببعض العلماء الى القول بانهما قمران صناعيان ، وقد ثبت ان هذا غير صحيح بطبيعة الحال ، إذ معنى هذا ان هناك كائنات حية عاقلة متقدمة تكنولوجيا عن الجنس البشرى ، قد اطلقتهما ، كما اطلق علماء الارض اقمارا صناعية حول الأرض ، ابتداء من اكتوبر عام ١٩٥٧ .

لكن هناك بعض العلماء من يعتقد بانهما من النجيمات التى تدور فى حزام حول المريخ ، ذلك الحزام الذى تدور فيه وتتحرك آلاف الجسيمات الصغيرة ، وخلال حياة المريخ منذ ولادته ، استطاع فى فترة ما ان يجذبهما اليه .

وعلى اى الاحوال ، فالذى لاشك فيه ، ان البشرية ستستخدم هذين القمرين كمحطتى فضاء لرواد الارض عندما يقومون بغزو المريخ ، إذ يسهل هذا كثيرا مشكلة الهبوط على سطح المريخ . ولايشك العلماء ومنهم باتريك مور ، فى انه فيما لو استقرت البشرية على كوكب اخر ، وانشات حضارتها التى ستتطور على سطحه ، فالذى لاشك فيه ان هذا الكوكب لن يكون غير المريخ .

لندن ــ مجدى نصيف

المراجـــــــــــــع

1. Encyclopaedia Britanica. جزء ١١

2. Samuel Glasstone: The Book of Mars. NASA SP-179, 1969.

3. N. W. Cunrinlham & H. M. Schurmeier: Mariner - Mars 1969. Preliminary Report. NASA SP-225.

4. R. B. Leighton: The Surface of Mars - Scientific American 222: 10, 26-41, 1970.

5. Arthur Koestler: The Sleepwalkers. A History of Mars Changing Vision of the Universe. 1959.

٦ ــ اصل الارض والكواكب ــ تاليف ب . ليفين ــ ترجمة مجدي نصيف ــ دار الكاتب العربى ــ القاهرة ــ ١٩٦٦ .

مات رجل وعاشت نظرية

د. عبدالمحسن صالح

أشباه الإنسان :
لوسي والولد الغالي

بينما كان دكتور لويس ليكى يعانى من حمى الزمته سريره فى خيمة منصوبة بالعراء ، سمع صوت عربة «جيب» اتيا من بعيد على غير المتوقع ، فتوجس خيفة ، إذ خرجت زوجته مارى منذ ساعتين الى منطقة معزولة لتنبش الجبال علها تبوح بما يتوقان اليه من اسرار ، وعودتها غير المتوقعة قد يكون من ورائها مصيبة او لدغة حية ، وعندما توقفت العربة قرب الخيمة ، سمع زوجته تصرخ باعلى صوتها «لقد حصلت عليه .. لقد وجدته» !

وقبل ان تلج مارى الى الخيمة ، قفز هو من سريره من هول الفرحة ، فالذى «حصلت عليه» زوجته لابد وان يكون الانسان البدائى ، او الحلقة المفقودة بين الانسان والقردة العليا .. وصح ما توقعه .

المكان .. اخدود ضيق يعرف باسم اخدود «أولدوفى» فى تانزانيا ، والزمان احد ايام يوليو عام ١٩٥٩ ، و «الكنز» الذى وقع عليه الزوجان هو «الولد الغالى» ، او هكذا وصفاه ، لانهما كانا يترددان على هذه المنطقة منذ الثلاثينات من هذا القرن ، وظلا ينبشان فى طبقات الجبال ، طيلة ربع قرن من الزمان ، ولقد عثرا على حفريات كثيرة من حيوانات منقرضة ، لكنهما لم يجدا اى اثر لاشباه الانسان ، ومع ذلك تحليا بالصبر ، ولم يفقدا الامل ، واخيرا تحقق الأمل الغالى فى الولد الغالى .

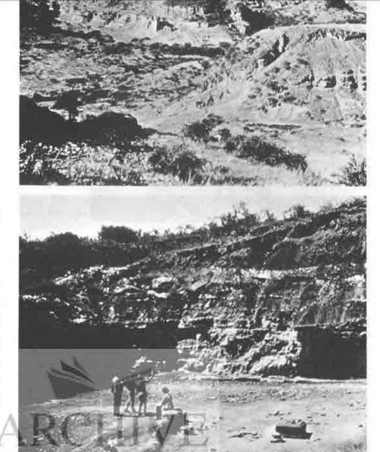
المهد الأول للأسلاف

واحيانا ما تلعب الصدفة دورا هاما فى الكشوفات العلمية ، خاصة اذا كان ذلك يستلزم البحث عن اثر فى أخاديد وجبال وتلال وما شابه ذلك ، فكانما الانسان هنا يبحث عن ابرة فى كومة كبيرة من القش ، وقد يجدها ـ لحسن حظه ـ بعد وقت قصير ، او قد يجدها بعد عناء شديد ، او ربما لا يجدها على الاطلاق .

بعثة التنقيب عن اسلاف الانسان ، وترى دكتور ليكي وقد استلقى ارضا لينبش فى الارض بعد ان وجد بقايا عظام متحجرة ، علـــه يحصل عليها بحالة جيدة فيعيدها الى اصولها .

لقد ظل الزوجان يبحثان سنين طويلة دون جدوى ، لكن «الولد الغالى» هو الذى أعلن عن وجوده ، إذ برز منه جزء صغير لفت نظر مارى بينما كانت تتسلق منحدراً ، لكن الصدفة قد تمر دون ان يتحقق الغرض ما لم يصاحبها شيء من قوة الملاحظة ، وتقدمت مارى وركعت على ركبتيها ، وبدأت فى النبش حول الجزء الذى ظل مدفونا حقبا طويلة ، لكنه برز بفعل عوامل التعرية الى ان يعلن عن نفسه لمن يستحقه .. ولقد عرفت مارى انها تتطلع الآن الى جزء من جمجمة متحجرة ، لكن لمن تكون ؟ .. وما عمرها ؟ .. انها لا تعرف ، إذ لابد من «تحريات» علمية هادفة ، قبل أن يستنتج الانسان شيئا .

ولقد هدتها بصيرتها أن تنبش قليلا حول الجمجمة ، علها تكشف جديدا ، وبالفعل وجدت ضرسين شبه ادميين ، ولم تستطع صبراً ، فانطلقت الى زوجها لتزف البشرى ، ونسي الرجل مرضه ، وانطلق عائداً مع الزوجة الى حيث تكمن الجمجمة وجلسا امامها وأمام الضرسين ، وبحرص شديد التقط هو ضرسا ، وهى الضرس الآخر ، ونظرا .. ثم نظرا ، وبعدها تلاقت عيناهما ، ولندع لويس ليكى يعبر بنفسه عن هذه اللحظة فيذكر «ونظرت الى مارى ، ونظرت إلي ، وعندئذ انطلقت صيحاتنا وصراخنا المصحوبين بالفرحة الكبرى ، وكانما قد اجتاحت نفسينا عواطف جامحة لا تتاتى إلا نادرا فى الحياة ، فاخيرا حققنا هدفنا بعد طول رجاء وتضحية وعناء ، لقد توصلنا الى الكشف عن اقدم انسان معروف للعلم» !



الصورة العليا جزء من اخدود اولدوفي بتنزانيا حيث عاش نوع من اسلاف الانسان . والصورة السفلى توضح الموقع الذي اكتشف فيه كل من دكتور لويس ليكي وزوجته العظام المتحجرة «للولد الغالي» او الكائن القرد الذي عاش هناك منذ حوالي مليوني عام .

وطبيعى انهما لم يحملا الضرسين وقطعة الجمجمة البارزة ، ويتركا المكان ، بل ظلا فى الموقع ١٩ يوما ، وبمساعدة من رجال المنطقة غربلا اطنانا من فوق اطنان من الحصى والرمال التى كانت تكمن عند قاع التل ، فلعلها تحوى بقايا من عظام هذا «الغالى» ، إذ ربما تكون قد انفصلت وتدحرجت واختفت .. المهم انهما حصلا على أكثر من ٤٠٠ قطعة ، وهنا يبدا العمل الحقيقى ، والصبر الجميل ، والمعرفة بكل التفاصيل ، حتى يمكن أن يتحول هذا الشتات المتناثر الى شىء متكامل ، يمكن تصنيفه ووضعه فى مكانه الصحيح بين الكائنات .

ولقد تمخض كل هذا ـ باختصار شديد ـ عن وجود كائن يمشي على قدمين .. مخلوق لا هو قرد ولا هو انسان ، وإن كان اقرب الى الانسان منه الى القرود ، ولقد تبين بعد ذلك من فحص الأسنان ، ان «الولد العزيز» كان يبلغ من العمر حوالى ١٨ عاما ، وانه قد جاب هذه المناطق من شرق افريقيا مع قومه اشباه الانسان منذ حوالى مليون ونصف مليون عام ، ويبدو ـ من دراسة هذه المنطقة ـ ان هذه المخلوقات كانت تعيش حول بحيرة قديمة ، ثم غاض ماؤها وجفت ، ولقد تركت آثارا تنم عن جانب متواضع من الحياة التى عاشوها فى الازمنة الغابرة ، ثم دفنت وحفظت ، وبعدها برزت بعوامل التعرية ، او بالتنقيب الذى يقوم به الانسان بحثا عن أصله ونسبه ، ويبدو انها كانت انسابا غير مشرفة ، لان الخلف يستنكف ما عاش عليه السلف ، فهذه الكائنات قد أكلت السحالى والضفادع والفئران والجرذان والحيات والطيور والخنازير .. الخ .

لكن .. كيف عرفنا انهم اكلوا ما اكلوا ، رغم اننا لم نشهد حياتهم ولا طعامهم ؟

وهذا سؤال وجيه ، فنحن حقيقة لم نشهد ، لكن الآثار تشهد ، إذ كانت بعض عظام الهوام والحيوانات التى اكلوها موجودة فى مناطق محددة ، لكنها متفرقة ، واقرب تصور لذلك هو ما قد نراه نحن الآن فى الأماكن الخلوية المعزولة من بقايا زجاجات ومعلبات وطعام تركته مجموعة من الناس حول المعسكر الذى كانت تقيم فيه .. صحيح انهم هجروا المكان ، لكن الآثار التى تركوها تنم عن وجودهم ، وتفصح عما أكلوه وشربوه ، ثم لو تهيات الظروف ودفنت هذه الاشياء فى طبقات الارض وحفظت كما هو الحال مع الحفريات القديمة لعشرات الآلاف من السنين ، ثم جاء الخلف لينقبوا عما تركه السلف ، لقالوا ان أسلافنا مثلا قد عرفوا المعلبات والمشروبات الغازية والروحية .. الخ منذ ثلاثين الف عام ، هذا لو حدث التنقيب بعد ثلاثين الف عام من الآن !

ويذهب العلماء الى استقراءات اخرى ابعد من ذلك ، فيذكرون ضمن ما يذكرون أن هذه المخلوقات البدائية شبه البشرية كانت متواضعة الادراك ، ويرجع ذلك الى عدة اسباب ، منها مثلا انها استخدمت ادوات صخرية بدائية (وجدت ايضا مع بقايا العظام التى تركتها بعد أن نهشت لحم الصيد) لتعالج بها صيدها ، اى لابد ان تكون قد استخدمت ايديها اكثر من عقولها ، ولو حدث العكس ، لاستطاعت أن توقع الحيوانات الاكبر حجما ، والاغنى لحما فى حبائلها ، ودليل ذلك ان العظام الموجودة ، كانت جميعا لصغار الحيوانات وليست لكبارها ، عدا عظام نعامة صغيرة ، كما أن اشباه البشر هؤلاء كانوا ياكلون اللحم نيئا بدليل انه لم توجد اى آثار لرماد إذ لم يكونوا يعرفون كيفية استخدام النار.

ولابد من وضع اسم لهذه المخلوقات .. اى تحديد جنسها ونوعها ، وكان أن اختار ليكى وزوجته اسم «زنجانثروباس بواساى» وزنج كلمة عربية اطلقها العرب قديما على السكان الحاليين لهذه المنطقة ، وهى التى ننطقها «زنجى» وانثروباس تعنى فى اللاتينية اشباه الانسان (واحيانا الانسان) وبواساى ترجع الى رجل اعمال انجليزى اسمه «تشارلز بواس» ، اعترافا بفضله فى التمويل المالى لاجراء هذه البحوث .

ولنترك هذا الكشف الى حين ، لنتعرض الى كشف آخر جديد ، كان له صدى واسع

أشباه الإنسان: لوسي والولد الغالي

بين العلماء خاصة، والمهتمين بهذه الكشوفات عامة.

قصة فتاة اسمها لوسي

لقد كان اول لقاء لكاتب هذه الدراسة مع «لوسي» بمنزل طبيب مصرى استضافه فى بيته الواقع بناحية بوسطن الأمريكية، وكانت لوسي هناك، واخذتها بين يدى لاتصفحها .. إذ لم تكن لوسي ــ فى الواقع ــ من لحم ودم، بل كانت كتاباً مكتوباً، لأن لوسي ذاتها كانت فى يوم من الأيام تخطو وتنطلق على شاطىء نهر «عواش» بالحبشة، وبالتحديد فى منطقة «حضر» .. ثم ماتت فى عز شبابها بعد ان عاشت هناك منذ حوالى ثلاثة ملايين عام، واكتشفها كل من دونالد جوهانسون وموريس طيب على هيئة عظام، ورغم ان ما اكتشف من هيكلها العظمى المتحجر لم يكن ليتعدى ٤٠٪ فقط من الهيكل كله، رغم ذلك، فان هذا الكشف المثير قد اعطانا صورة شبه متكاملة عن قوم لوسى، أشباه الانسان (انظر الشكل الدال على ذلك).

ولقد سميت الفتاة بهذا الاسم تيمنا باغنية كانت تنطلق من جهاز تسجيل حملته بعثة التنقيب معها فى هذه المناطق القاسية الوعرة، ففى الوقت الذى ظهرت فيه بشائر المخلوقة القردة، تردد ايضا مطلع اغنية «لفرقة الخنافس» .. «لوسى مع اللآلىء فى السماء» .. فسميت الفتاة الحفرية بهذا الاسم، وفى الوقت ذاته رقص كل من جوهانسون وطيب حول الهيكل المكتشف رقصة الفرح والبشرى بامجاد علمية سوف تنتظرهما عند الاعلان عن كشفهما (الواقع ان مكتشفى الحفريات النباتية والحيوانية لم يكتسبوا شهرة وامجادا مثل زملائهم الذين يحققون الكثير من المكاسب العلمية والمادية لاكتشافهم الحفريات التى توضح اصل الانسان واشباه الانسان، فكتاب لوسي الذي وقع بين يدى ثمنه عشرون دولاراً، ووزع منه مئات الآلاف من النسخ، وكتبه كل من جوهانسون، م. ا. ايدى، ويقع فى ٤١٠ صفحة، وهو يتناول أصل الانسان عامة، وقصة الكشف عن لوسى خاصة).

دكتور لويس ليكي وزوجته ماري، وقد امسك كل منهما بجمجمة لمخلوقين منقرضين من أسلاف الانسان، وهما من جنس واحد، ولكنهما لنوعين مختلفين فاحدهما نوع نحيف والآخر نوع اضخم ويتميز بهيكل عظمي اشد واقوى

وطبيعى ان لوسى لم تكن كفتيات اليوم ولا حتى كفتيات القبائل البدائية، أو الفتيات اللاتى خطون على هذا الكوكب منذ آلاف السنين. فهى لم تكن تعرف معنى الانوثة ولا الدلال، ولا التغزل فى فتى الاحلام، ولا كذلك ملبساً وزينة ومخدعا، لانها ببساطة لم تكن تدرك من هذا شيئا مذكورا .. فمخها صغير، ووجهها اقرب الى وجه الشمبانزي، وابعد عن وجه الانسان الحالى، ومع ذلك فقد كانت تمشى منتصبة على ساقين، وتستخدم يديها وذراعيها بشكل اكثر كفاءة من القردة العليا، واقل من الانسان بطبيعة الحال، وكان طولها ــ رغم انها مكتملة النمو والانوثة ــ ما بين ١١٠ ــ ١٢٠ سنتيمتراً، ووزنها ما بين ٣٥ ــ ٤٥ كيلو جراما (الوزن متروك لتقديرك فى كونها بدينة او نحيفة) .. لكن الاهم من ذلك هو تقاطيع الوجه .. صحيح أن اللحم قد تحلل وراح، لكن العظام تنبىء عن العضلات، والعضلات تنبىء عن الملامح، ولقد كانت ذات قد غير مليح، لأن عظام الفك وسقف الحلق أقرب الى الشمبانزى منه الى الانسان، كما ان فحص الاسنان قد حدد عمرها بعشرين ربيعاً، وغير ذلك من الصفات التى حملتها بنت «هدر»، فهى التى قادت من اكتشفها الى تحديد اى الانواع من الكائنات تنتمى ولقد اطلقوا عليها اسما علمياً ثقيلا .. والاسم: «أوسترالوبيثيكاس افارنسيس» .. والترجمة الحرفية له هو القرد الجنوبى العفارى ــ نسبة الى عفار بالحبشة، والجنوبى هنا تشير الى افريقيا الجنوبية، هذا رغم ان تلك المخلوقات قد اكتشفت فى شرق افريقيا، ومع ذلك فالأسماء العلمية



من شكل الجمجمتين فى الصورة السابقة، امكن استنباط الملامح الرئيسية التى جاء بهما النوعان إلى الحياة ... فالصورة العليا للنوع النحيف والسفلى للنوع الضخم أو الغليظ

فى التقسيم لا تهتم بالمناطق الجغرافية قدر اهتمامها بالصفات المشتركة بين اشباه الانسان فهذه المخلوقات الحبشية تشبه مخلوقات اخرى قد اكتشفت قبل ذلك فى بداية الربع الثانى من القرن العشرين بجنوب افريقيا على يدى عالم للتشريح المقارن اسمه رايموند دارت، وطبيب مهتم بالحفريات يدعى روبرت بروم (انظر

دراستنا السابقة على صفحات هذه المجلة)

إن أشباه الانسان فى شرق القارة وجنوبها تنقسم الى نوعين ، لاختلافهما فى بعض الصفات ، لكنهما يشتركان فى صفات اخرى بحيث وضعهما العلماء فى جنس واحد ، ومثال عابر يوضح لنا ذلك تماما ، فالكلب والذئب وابن اوى يجمعها جنس واحد ، فبينها صفات مشتركة لتكون جنسا واخرى مختلفة ، لتعطى انواعا ، والانواع قد تتمخض عن سلالات واصناف ، وهو ما نراه واضحا فى مئات السلالات من الكلاب .. والنمر والاسد وبعض انواع القطط المتوحشة يجمعها جنس واحد .. فالنمر اسمه العلمى «بانثيرا تيجريس» ، والأسد «بانثيرا ليو» ، والبوما (نمر الجبال) «بانثيرا اونكا» .. والامثلة بعد ذلك كثيرة ، ولاشك ان الذى يلاحظ طوفان الكائنات ، يستطيع ان يرى تشابها بين انواع ، واختلافا كبيرا بين انواع اخرى ، لكن مهمة العلماء ان يرتبوها ويقسموها الى انواع واجناس وتحت عائلات وعائلات ، وتحت رتب ، ورتب .. الخ ، ويستوى فى ذلك الحى والمنقرض ، وما اكثر ما انقرض .

حصيلة لاباس بها

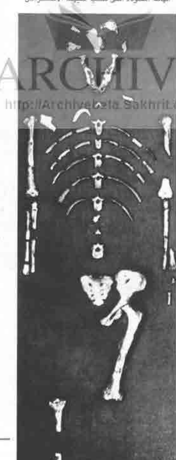
ولقد تمخض النبش والبحث عن اشباه الانسان عن حصيلة كبيرة وصلت الى اكثر من الف عينة حفرية ، وشهدت السنوات العشر الاخيرة فقط ، اكتشاف حوالى ٦٠٠ عينة ، ويامل الباحثون فى الكشف عن الاف اخرى فى السنوات القادمة ، إذ كلما كانت الحصيلة اوفر ، كانت الصورة أوضح والاستنتاجات اقوم ، والتعرف على اسلافنا اصح !

وتعتبر منطقة شرق القارة الافريقية من اغنى المناطق الحفرية فى القارة خاصة ، والعالم عامة ، إذ تتركز الانواع شبه البشرية المنقرضة حول نهر اومو بالحبشة وفى منطقة حضر بنفس الدولة ، كذلك اكتشفت حفريات اخرى فى كينيا ، وبالتحديد فى منطقة كوبى فورا الواقعة شرق شاطىء بحيرة رودلف ، وهناك موقعان فى تانزانيا ، ولا يفصلهما سوى مسافة تقدر بحوالى ٥٠٠ ميل ، ولقد عاش فيهما نوعان شبه بشريان ، احدهما شمال بحيرة صغيرة تعرف باسم «اياسى» ، ووجدت فيها حفريات يرجع تاريخها ما بين ثلاثة ملايين ومائة الف عام ، وثلاثة ملايين و ٧٥٠ الف عام ، والموقع الثاني فى إخدود كبير كان بحيرة ثم جفت (اخدود أولدوفى) وعمر الحفريات هناك حوالي مليون و ٧٥٠ الف عام ، وترجع اهمية هذا الموقع الى اكتشاف اول مخلوق من هذه المخلوقات ، جاء على هيئة تختلف عنا ، إذ انه اقل منا شانا ، ولهذا وضعوه فى نوع مستقل (انسان هابيل Homo Habilis ونحن الانسان الحكيم Homo Sapiens .. وهذا يعني ان لنا عائلة مستقلة تفصلنا عن العائلات شبه البشرية التى سبقتنا ، وللعائلة البشرية عدة انواع ، وسوف نعود لتوضيح ذلك بشيء من التفصيل .

والغريب ان مخلوقين مختلفين قد عاشا فى نفس الحقبة حول البحيرة (التى اصبحت الآن اخدودا) .. احدهما انسان هابيل والآخر المخلوق القرد (او القرد الجنوبي الافريقي) ، ولهذا ايضا عائلة تضم عدة انواع اكتشف منها حتى الآن ثلاثة ، بالاضافة الى مخلوقات وسط بين هذه الانواع ، ولا يزال عليها جدال ، لوضعها فى الوضع الصحيح من التقسيم .. فهناك المخلوق القرد الذي اكتشف في عفار بالحبشة (وهو نوع سبق الاشارة إليه) ، ويعتبر من اقدم المخلوقات التى ظهرت على الأرض منذ حوالي ٣،٨ ـ ٤ مليون علم ، ويعتقد بعض العلماء ان هذا النوع القديم قد انشق الى نوعين احدث وارقى ، احدهما ظهر بعده بحوالي مليون عام (اي منذ ٢،٨ مليون عام) وهو القرد الجنوبي الافريقي واكتشف في مناطق افريقية كثيرة ، بداية من الحبشة شمالا الى جنوب افريقيا ، كما ان الحصاد الحفري فيه كان وفيرا ، وتتميز مخلوقات هذا النوع باجسام اصغر وارق (النوع النحيل Gracile) ، واكتشفه دكتور ليكي وزوجته ، وهو يختلف عن نوع اخر اكبر واغلظ واقوى (يسمى روبستاس Robustus اي النوع الشديد) ، ويثور الجدل الآن حول هذين النوعين ، ففريق من العلماء يعتقد ان نسبنا يمتد الى النوع النحيل ، فى حين يرى فريق اخر ان الجذور ترجع الى النوع الغليظ ، ثم يذهب فريق ثالث الى ابعد من ذلك ، ويقول : إن كلا النوعين قد وصلا الى طريق مسدود ، فلا نحن من سلالة هذا او ذاك ، بل يبدو ان التطور قد سار فى طريق آخر انشق وحاد عن الأصول ، وتمخض عن مخلوق أرقى من هذه القرود البشرية ، ادى الى ظهور انسان هابيل .

والواقع ان انسان هابيل الذى ظهر منذ حوالي مليوني عام هو اول من استخدم الأدوات ، ويقال إنه ربما صنع ادوات بدائية من الحجارة والصخور ، ولقد اكتشفت هذه الأدوات فى المناطق التى كان يزاول فيها نشاطه ، ولهذا سمي بالانسان الصانع .

ورغم ان انسان هابيل يشترك شكلا مع شبيه الانسان النحيل او الثقيل ، إلا انه يختلف عنه فى الطول وحجم المخ ، إذ وصل طوله الى حوالي ١٥٠ سنتيمترا ، وحجم مخه ما بين ٥٥٠ ـ ٧٥٠ سنتيمترا مكعبا ، وهذا ما اعطاه بعض الادراك ليتجمع على هيئة جماعات ، والخروج لصيد الحيوانات الصغيرة والكبيرة ، مستخدما فى ذلك العصى والاحجار . ومع ذلك فلم يستخدم النار ، وطبيعي أن مثل هذه الاستقراءات نابعة من التنقيب فى المواقع التى عاشت فيها تلك المخلوقات .



« لوسي » او بالتحديد ٤٠٪ من عظام هذه الشابة التى اعطتنا صورة شبه متكاملة عن نوع منقرض من اسلاف البشر كان يعيش متجولا على شواطىء نهر عواش بالحبشة منذ حوالي ثلاثة ملايين عام ... القامة قامة بشر ، لكن المخ صغير ، والوجه مستطيل .. وتعتبر من الحلقات الهامة المفقودة التى كتب عليها الانقراض

أشـــباه الانســـان :
لوسي والولد الغالي

أقرب الانواع

وبعد انسان هابيل ظهر نوع اخر اقرب الينا من سابقه ، ولقد سمى النوع الجديد ـ الذى بدأ ظهوره منذ حوالي مليون ونصف مليون عام ـ الانسان المعتدل او المنتصب او الواقف (Homo Erectus)

ولقد جاءت هذه التسمية فى غير محلها لأن الانواع السابقة عليه كانت ايضا منتصبة القامة ، ولكن التسمية سبقت ، لأن الكشف لهذا النوع قد سبق غيره ، ومن ثم كانت التسمية المبكرة ، ولكن ذلك ليس مهماً بقدر ما يهمنا صفات النوع ذاته، إذ جاء فراغ الجمجمة اكبر ، وهذا يعني ان مخه اكبر ، إذ وصل حجمه الى حوالي ٨٠٠ سنتيمتر مكعب ، ولقد ادى تطور حجم المخ الى تطور فى عظام الراس ذاتها، مما انعكس على عظام الوجه كذلك ، وبحيث ظهر ذلك على تقهقر او نقص فى استطالة الفكين ، وبروز فى عظام الوجنتين ، فكان الوجه أكثر استدارة .

ثم اننا لو سرنا مع الزمن عبر مليون عام او يزيد ، لوجدنا ان جماجم هذا النوع قد اكتسبت تطورا أو تغيرا تدريجيا بطيئا ، وبحيث بدا حجم المخ يكبر تبعا لذلك ، فهناك جماجم للانسان الواقف يدل تقدير اعمارها ان اصحابها قد عاشوا منذ حوالي ٤٠٠ الف عام ، ووصل حجم المخ فيها الى حوالي ١٣٠٠ سنتيمتر مكعب ، وهي قريبة من حدود امخاخنا الحالية ، وهذا ينبئك ان الحلقات التطورية كانت تسير هينة لينة .

ومن القياسات التى اجريت على عظام الجماجم المتحجرة ، اتضح ان المخ فى تطوره لم يكن يزيد فى الحجم فقط ، بل ان التطور قد انصب على اجزاء خاصة ، فارتفاع جباه هذه المخلوقات الحديثة نسبياً ، دليل على افساح فراغات مناسبة لنمو الفصوص الأمامية والصدغيـــة (او الجانبية) .. والمعروف أن نمو هذه الفصوص بدرجات أكبر فى امخاخنا قد أعطانا القدرة على التحكم فى كثير مـــن





جمجمة انسان هابيل ، وهي اقرب جماجم الحلقات التطورية المفقودة في نسب الانسان ... ولقد جاء بمخ اكبر ، ووجه اكثر استدارة ، ولهذا تعتبر نوعا من انواع الجنس البشري التى انقرضت منذ حوالي مليون ونصف مليون عام ، وانشق منها نوع اكثر تطورا ورقيا ... وفى الصورة التالية ترى جمجمة الانسان المعتدل او المنتصب ، وهي اكثر تطورا من جمجمة انسان هابيل ، وتستطيع ان تلاحظ ارتفاع الجبهة ، مما يدل على كبر حجم المخ ، كما ان الوجـــه اكثر استدارة من وجه انســـان هـــابيل .

حركاتنا ، والتركيز على الاهداف ، وحل المشاكل اليومية التى تحتاج ـ بلا شـك ـ الى ذكاء وحسن تصرف .

ولقد حاز الانسان الواقف بعض هذه الملكات العقلية ، ولهذا استطاع ان يستخدم النار ، ويهاجر من مكان الى مكان ، وينتقل من بيئة صعبة الى اخرى ميسرة ، ومن اجل هذا بدأ هذا المخلوق فى هجرات جماعية ، فتركت بعض جماعاته القارة الأفريقية ، وهاجرت الى اسيا واوربا ، كما تدل الاكتشافات الحفرية على ذلك .

ولقد دلت الدراسات التى اجريت فيما تركه الانسان الواقف من ادوات بدائية ، انه قد بدأ يدرك معنى التناسق ، خاصة فى مراحله المتأخرة التى انتهت بانقراضه منذ حوالي ٤٠٠ الف عام .. من ذلك مثلا انه استطاع أن يصنع اشياء من الصخور تشبه الحراب المدببة او القواطع ذات الحواف الحادة ، وهو ما لم يسبقه إليه أي نوع اخر ظهر قبله ، وطبيعي انه كان يستخدم ذلك فى القنص والصيد وتقطيع ما اصطاد ، وربما صاحب هذا الادراك فى تناسق الأدوات ، تناسق فى أصوات بدائية قد تكون بداية لظهور اللغة التى تطورت فيما بعد فى الأنواع التالية الأكثر رقيا وتطورا ، ويعتقد بعض العلماء ان انتشار الانسان القائم فى انحاء متفرقة من العالم، قد ادى الى تكيفه بالبيئات الجديدة التى حل بها ، وربما ادى ذلك الى انبثاق سلالات من نوعه لتتأقلم مع المناخ السائد .. وهي ـ بطبيعة الحال ـ تختلف عن السلالات البشرية المميزة التى نشهدها الآن فى النوع البشري المعروف باسم الانسان المدرك أو الحكيم .

من نكون ؟

ومن خلال هذه الرحلة الزمنية الطويلة التى استمرت ما بين ثلاثة واربعة ملايين عام ، وانتهت بظهور اقرب المخلوقات شبهاً بالانسان منذ حوالي ٤٠٠ الف عام ، بدأ العلماء يتساءلون : متى ظهر الجنس البشري الحالي ؟ .. ومن اي نوع انبثق ؟ .. وكيف تطور ؟ .. الخ .

الواقع ان هناك فترة طويلة نسبياً تقدر بحوالي ٣٠٠ الف عام ، وهي التى تفصل بين نهاية الانسان القائم وبين ظهور الانسان الحالي (لقد ظهر نوعنا منذ حوالي مائة الف عام فقط) وفى هذه الفترة (اي الثلث مليون عام الأخيرة) حدثت أمور كثيرة ، وبدأت اصناف اخرى من الانسان تظهر تباعا على هذا الكوكب ، ورغم انها من جنس الانسان ، إلا انها مع ذلك تختلف عنا فى بعض الصفات ، من ذلك مثلا أن عظمتي الحاجب كانت اكثر بروزاً من عظمتي الانسان الحالي ، كما ان ملامح الوجه كانت الى حد ما مختلفة ، وكذلك درجة الذكاء ، ولقد اكتشف العلماء حفريات كثيرة لهذا الانسان المبكر ، ولم يكن موطنها افريقيا فحسب ، بل اكتشفت فى الشرق الأوسط ، والشرق الأقصى واوربا ويعتقد العلماء ان الانسان الذى ظهر منذ ٣٠٠ ـ ٤٠٠ الف عام هو من سلالة الانسان القائم الذى ظهر قبله بحوالي مليون عام ، وعندما هاجر الانسان القائم من افريقيا وانتشر شرقا وغربا ، ثم مات ، ودفن وتحلل ، بقيت بعض هياكله المتحجرة لتكون دليلنا على نوعه ، ولقد اطلق المكتشفون على هذا الانسان المبكر اسماء بحسب موقع الاكتشافات ، فهناك مثلا انسان نيندرثال ، وانسان بكين ، وانسان جاوه ، وانسان كرومانون .. الخ .

وما صلتنا نحن بكل هذا ؟ .. ولمـــن ننتمي ؟ .. وماذا حدث فى الأربعمائة الف عام الأخيرة ؟ .. الى اخر هذه الأسئلـــة التى سنفرد لها دراسة قادمـــة .

والله ولي التوفيق ،،،

د. عبد المحسن صالح

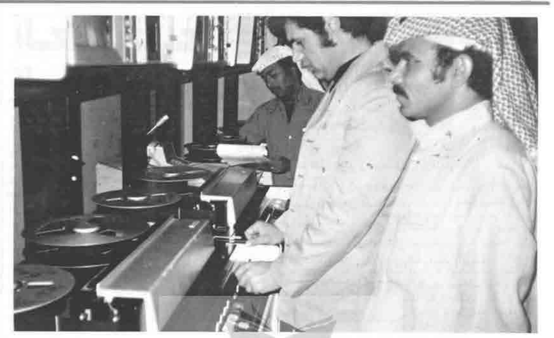
العذراء العانس

شعر: محيي الدين فارس

(الخرطوم)

باعَتْ قِلادَتَهـا . وقُرْطَ المـاسِ ماتركت .. سوى قممٍ هَزيله
باعت انوثَتَها .. وكلَّ جمـاجِمِ الموْتى
وصنْـدوقَ العشيرةِ .. وانتماءَاتِ القبيلـه
ونخيلَهـا العِمْـلاقَ .. والجُزُرَ العشيقـةَ
.. والبحيراتِ الجميلَـةْ
حتّىَّ سُيوفَ النصرِ .. والدَّرقَـاتِ .. والقِيمَ النبيلةْ
ورمـت خِمَـارَ العزَّةِ الشَّمَّـاءِ ..
وارْتَـدَتِ المُلاءَاتِ النَّسِيلَةْ
فَبَدَتْ مفَاتِنُهَـا لثوْرِ الليلِ والجامُـوسِ .. فاعْتَرَكَا
وكلُّ ظَامِيءُ الشَّهَوَاتِ .. كي يروِيَ غليله
ناديْتُهـا والليـلُ يحفِرُ فى اَضَالِعِهَـا
ويُنْشِـبُ فى مجَاسِـدِهَا .. اظافِرَه الطَّويلةْ
كيف احتَمَلْـتِ غُـروبَ تاريـخٍ .. ؟
وكيف رضِيتِ بالطّرقَـاتِ مـأْوًى .. والجِرَاياتِ الهزِيلةْ
عينـاك ما طَـرَفَتْ لضـوءِ الشمْـسِ ..
ما انْسَـدَلَتْ اَمامَ المـوْتِ
ما انكَفَـأتْ على ارضٍ .. ذليلـه
انا لا اصدِّقُ ان وجْهَكِ لم تَعُدْ فيهِ بَرَاءَاتُ الطّفولةْ
كم خَمّشَتْهُ الريـحُ .. ما احتجَّـتْ ملامحُـه النّبيلـه
كانت بلا حُـزْنٍ .. تحـدِّقُ في الفَرَاغَاتِ المهُولةْ
وتهدَّلَ الشَّعْـرُ الجميلُ ..
جديلَـةً .. تبكي جَديلَـةْ
... ولمسْتُهَا .. كانت ثُلُوجُ المـوْتِ
تمشي .. في مفاصِلِهَـا النحيلَـةْ ..
اَوَ انْتِ هازمة المغـولِ الفاتحين ؟
فاين تَـاجُ الشّـمْس .. والحرَسُ المدجَّـجُ ..
بالنّيـازكِ .. والنياشيـنِ الصّقيلةْ
كانـوا إذا ما النّهْـرُ دَقّ طبُولَـه
يحْمـون فى فَـرَحٍ طبُولَـهْ
وإذا تدافَعَـتِ الخيـولُ مُغِيرةً
والليـلُ قد اَرْخى سُـدُولَه
يتسلّقُـون جِبَالَـهُ الشّمّـاءَ ..
يلتهِمُـونَ .. فى غضَـبٍ .. خيُولَـه
ويرابطـون امـامَ بابِ الشـرقِ
يغتَسِلُون بالنيرانِ .. إن طرقَـتْ نوافِـذَك .. الاعاصيرُ الوبيلـةْ
كانَ النخيلُ مسـافرا فى الأُفْقِ
يرصدُ ماوراء الافْقِ .... ينتظـرُ السّحَابَـاتِ الثقيلـةْ
والآن اطْـرَقَ ذاهِـلاً
نَسِىَ البطـولاتِ القديمـةَ .. واحتفـالاتِ القَبيلَـةْ





تدريبات على البرامج التسجيلية والوثائقية أثناء الدورة التي انعقدت عام ١٩٨٢ في مدينة الدوحة



حدث في هذا العام

من هنا تبدأ السينما القطرية

تحقيق : مريم آل سعد

- أول فيلم روائي قطري يبحث عن فكرة جيدة .
- تدريب المذيعين والمذيعات قبل تعيينهم سوف يمنع تأثرهم بنمط خاطيء يصعب تغييره .
- « التعليم » و « مياه الشرب » و « الازياء في قطر » افلام تسجيلية في طريقها الى المشاهد .

ملفات المركز الخليجي لتنسيق التدريب الاذاعي والتليفزيوني تقول : إن هذا المركز انشيء عام ١٩٧٦ ، ويبلغ مجموع الدورات التدريبية الاقليمية التي نسقها سواء في دولة المقر أو الدول الخليجية الشقيقة ٢٣ دورة، استفاد منها اكثر من (٦٠٠) شاب ، ممن يعملون في جهازي الاذاعة والتليفزيون من دول الخليج العربية .

ومنذ بداية عام ١٩٨٠ اصبح شهرا يونيو وديسمبر من كل عام ، موعدا لاجتماع مسئولي التدريب الاذاعي والتليفزيوني لدول الخليج العربية ، في مقر المركز الخليجي لتنسيق التدريب .

وقد شارك المركز الخليجي في جميع المؤتمرات الخاصة بوزراء الاعلام لدول الخليج العربية .

وفي المؤتمر الرابع لوزراء الاعلام لدول الخليج العربية الذى عقد في دولة البحرين في فبراير ١٩٧٩ اتخذ المجتمعون فيه التوصية التالية :

هذا ويقوم المركز المحلي للتدريب الاذاعي

لقطة من الفيلم القطري القصير « حارس الفنار » الذي قام ببطولته الممثلان القطريان : محمد البلم وحسن ابراهيم



فريق العمل الذي اشرف على دورة الاخراج التليفزيوني التى قامت بتدريب بعض المخرجين فى التليفزيون القطري

والتليفزيوني فى الدوحة بالعمل كمركز لتنسيق التدريب فى المنطقة ، واقتراح خطط التدريب السنوية وتعميمها على الدول الخليجية

متطلبات التدريب

من وظائف المركز : عمل الدراسات الدورية فى إذاعات وتليفزيونات دول الخليج ، لمعرفة المتطلبات المتجددة لنوعيات التدريب واقتراح الخطط اللازمة لمواجهة هذه المتطلبات بالاشتراك مع المسئولين عن التدريب فى الدول المختلفة ، مع عمل تقييم للدورات ومدى نجاحها عقب الانتهاء من كل دورة .

كما يتم تجميع مايلقى من محاضرات وبحوث فى الدورات والندوات وطبعه فى كتب وكتيبات ونشرات دورية ، هذا بخلاف تجميع ماتم انتاجه فى المحطات العالمية من افلام وشرائط مرئية وشرائط صوتية ، تتصل بالتدريب الاذاعي والتليفزيوني لتعمم على المحطات المختلفة للاستعانة



اسماعيل عبد الرحمن العباسي

صورة تذكارية لبعض الاساتذة الزوار للمركز وبعض المتدربين فى دورة المعلمين فى برامج الاطفال

من هنا
تبدأ السينما القطرية

به فى مجالات التدريب .

واحدث مشروع كان فى اكتوبر الماضى ، ويتضمن دورة عن « عناصر التشويق فى العمل الدرامي » ، قام بالاشراف عليها مجموعة من الاساتذة المتخصصين في الاخراج الاذاعي والتليفزيوني ، التصوير ، المونتاج الاليكتروني والسينمائي ، الصوت الديكور ، كتابة النص ، ... وقد عقدت في عاصمة المقر — الدوحة — لتدريب الاعلاميين الخليجيين فى هذه المجالات الفنية .

الاستعانة بالخبرات

ويتحدث عن كيفية تنفيذ هذه الدورات ومراحل الاعداد لها ، مدير المركز الخليجي لتنسيق التدريب الاذاعي والتليفزيوني ، وايضا مدير المركز الاذاعي والتليفزيوني ورئيس وحدة الافلام التسجيلية والوثائقية اسماعيل عبد الرحمن العباسي ، فيقول ان الفرق بين المركز الخليجي لتنسيق التدريب الاذاعي والتليفزيوني وبين المركز الاذاعي والتليفزيوني هو أن الأول مختص بالدورات الاعلامية المتعلقة بالتدريب الاذاعي والتليفزيوني بشقيه الهندسي والبرامجي لخدمة ابناء دول الخليج العربية .

والثاني يتولى تخطيط وتنفيذ الدورات الخاصة باجهزة الاعلام القطرية .

ويضيف اسماعيل عبد الرحمن العباسي قائلا :

— بناء على توصيات اجتماع خبراء التدريب ترفع تقارير سنوية عن المركز الخليجي الى مؤتمر وزراء الاعلام لدول الخليج ، الذين يقومون بدورهم بالاطلاع على هذه التوصيات والتقارير الواردة ، ويؤشرون بالموافقة على الدورات التى يرون تنفيذها ، في حين تؤجل بعض البنود الى اجتماعات قادمة ..

وإذا استقرت الموافقة على دورة ما ، مثل دورة « التصوير السينمائي والالكتروني » نأتي بعشرين اسما لذوي الاختصاص فى الوطن العربي بموضوع الدورة ، ثم ندرس هذه القائمة ، وانتاج وتاريخ كل شخصية ، وماذا قدمت فى هذا المجال ، لنبدأ على أساس ذلك اختيارنا لطاقم التدريس المناسب فى كل المجالات ، التصوير ، الاضاءة ، الصوت .. وغير ذلك ..

بعد ذلك نعطي هؤلاء الاساتذة فكرة تمهيدية عن المستوى الدراسي للمتدربين ، ومدة خبرتهم في العمل الاذاعي او التليفزيوني ، حتى يكون هناك تنسيق منظم بين اعضاء مجموعة الدورة الواحدة . فنحن نطالب في الدورات بان تكون مستويات المتدربين متقاربة كالمراحل الاعدادية او الثانوية ، اما الأعلى من ذلك فمستحيل الجمع بينهما .

الاذاعيون الموهوبون

ثم يوضح مدير المركز الخليجي اسماعيل عبد الرحمن العباسي علاقة المركز بالدورات الاعلامية الخليجية فيقول :

— مثلما يتم إعدادنا للدورة الاعلامية داخل دولة المقر — قطر — ، يكون اعدادنا للدورات — التى تفرض مواضيعها — على حسب احتياجات اجهزة إعلام الدول العربية الخليجية الاخرى . فتكون مهمتنا ربط دول الخليج بشبكة من المعلومات عن الدورات ومواعيدها ونوعيتها والاساتذة المشاركين فيها ، وتوفير المناهج والكتب والسكن والمكافات والتنقل والتلكس .

كما تعمل على تنظيم اللقاءات والندوات بين العاملين فى دول الخليج لمناقشة ودراسة كل جديد في عالم الفن الاذاعي والتليفزيوني .

● ولكن ماهو دوركم بالنسبة لاختيار وتحديد موهبة المذيعين والمذيعات ، وصلاحيتهم لهذا العمل قبل تعيينهم ؟ .

قال لي :



فن الماكيـــاج .. علم قائـــم بذاتـــه .. كان لـــه دورات خاصـــة



التراث القديم الذى ساهم فى ديكـور الفيلم القطري

ـ بالنسبة للمذيعين والمذيعات يجب ان يمروا بفترة اختبار وتلقين قبل استلامهم للعمل وظهورهم على الشاشة ، لأن ذلك سيوفر مدة تدريبهم وحتى لا يتعودوا على نمط خاطىء يصعب تغييره ، لكن لقاؤنا معهم ـ عن طريق الدورات ـ لا يتم إلا بعد فترة طويلة من تاريخ ممارستهم للعمل .

● وماذا عن مقر المركز .. إنه يبدو ضيقا لاستيعاب جميع العناصر المتدربة فى كل دورة ... هل استطعتم التغلب على ذلك ؟ .

ـ فى الوقت الحالي بالتعاون مع الاذاعة والتليفزيون هناك تغطية فى القاعات ، لدينا فى مقر المركزالخليجي قاعة واحدة ، كما يمكننا الاستعانة بالقاعة الموجودة بالاذاعة . وتليفزيون قطر يفتح لنا أبواب استديوهاته ويجيب كل طلباتنا .

● إذن ماهي نتائج هذه الدورات على نشاط المتدربين ؟ .

ـ لقد لمسنا هذا التطور بالنسبة لوكالة الأنباء القطرية ، بعد دورة الصحافة المحلية التى عقدناها وحضرها محررو الوكالة ، حيث ارتفعت خدماتها الاخبارية لدرجة ملحوظة ، تصل الى حوالي ٤٠ فى المائة وهذه النسبة معقولة بالمقارنة مع مدة تدريب تبلغ شهرا ونصفا فقط .

اهم الافلام

● ولكن .. هل هناك اوجه نقص فى المركز الخليجي يحد من تقديم نشاطه ؟ ..

ـ المركز ينقصه مبنى خاص مزود بالاجهزة الفنية اللازمة ، ومهيىء بكـادر من المدرسين المتخصصين ، وبدلا من حصر المدة الزمنية للدورات فى شهر أو شهرين ، يجب أن تمتد الى الستة أشهر كاقل تقدير ، حتى يرتفع الاستيعاب من ٣٠ فى المائة الى ٧٠ فى المائة ..

● وماذا عن مجموعة الافلام التسجيلية التى تجرى عليها الدراسة لتنفيذها فورا ؟

ـ الفيلم الأول عن « التعليـم فى قطـر » (١٩٠٠ ـ ١٩٨٢) .

والفيلم الثاني عن « صيد الأسمـــاك » قديما وحديثا .

والفيلم الثالث عن « مياه الشـــرب فى قطـر » .

وهناك كذلك فكرة فيلم عن « الازياء فى قطـر » قديما وإلى الوقت الحاضر ، تاريخ كل زي ومصدره ومناسبته ومن الذي يرتديه وقد تم الاستعانة فى ذلك بمصادر كثيرة للتاكد من صحة المعلومات التى تعود الى التاريخ القديم ..

مثلا الفيلم الذى يتناول مراحل التعليم فى قطر منذ بدايتها ، رجع كاتبها الى ١٢ مصدرا مكتوبا يستقى منها المعلومـــات التاريخية . كما تحول النص بعد كتابته الى لجنة مختصة قامت بدراسته والتاكد من صحة بياناته . وارسلت نسـخ منه الى الشخصيات التى عاصرت هذه الفترات التعليمية لتعطي رايها حول ما ورد به .

إن مدة الفيلم نصف ساعة لكن عملية إعداده استغرقت ستة اشهر من العمل المتواصل .. وهو يعتبر عمل متميز من ناحية الموسيقى التصويرية ، والتصوير والمونتاج .. وغير ذلك ..

وقد أصبح لدى المركز امكانية تحقيق فيلم روائي ، لكن افتقار الموضوع الجيد أجل تنفيذ هذا المشروع .

معهـد للاعـلام

وطموحات المركز ـ حاليا ـ تنحصر فى ان يتحول مركز التدريب الى معهد إعلامي له مناهجه الخاصة واسلوبه المتميز .. فقد اعدت مناهجه بالاتفاق مع الجامعة ووزارة التربية والتعليم ، وسوف يكون القبول للحائزين على شهادة الثانوية العامة ، لتكون دراستهم للاعلام بجميع فروعه وتخصصاته لمدة سنتين .

وفى سبيل انجاز هذا المشروع تشكلت لجنة من جامعة قطر وهيئة اليونسكو ووزارة التربية والتعليم ، اطلعت على خلاصة الاجتماعات والدراسات التى تم التوصل اليها حول هذا الموضوع ، وابدت الموافقة على ماورد بها .

ومن كل ذلك وغيره ، نرى كيف أن هذا المعهد الاعلامي الهام سوف يخدم ابناء قطـر والدول العربيـة الخليجيـــة .

مريم آل سعد

شهادات على سياج الضمير

قصة بقلم: حمدي الكحلوت

(١)

كان اخر ضوء فى نهار ذلك الخميس .. ولم يكن كاي خميس فى ايلول .. وكنت اغذ السير فى طريقي الى اقرب دكان لبيتنا .. دكان أبي رشيد .. اتوكا على عصا .. اهرش الشعرات البيضاء الباقية على جانب الراس .. افكر في ثمن المطلوب ..

بعض علب الخضروات وقليل من الارغفة .. تسكت الأفواه التى نسيت طعم الأشياء وروائحها .. ولم يعد لها من مطلب الآن سوى بعض الخبز .. وقليل من الامن .. اه .. اين الامن ؟ لم يوفره لي ابي .. ولم استطع توفيره لاولادي فى الغربة .. القلب يتوجس والعين المثقلة بالحزن تتلفت .. فى الجو روائح ونذر .. ليس قليلا ما حدث .. والآتي اكثر ..

عندما ودعتهم .. كان طعم الدمع مرا .. طارق ورفيق ومنذر .. ثلاثة كالسهام المشرعة .. لاول مرة تذوب صلابتهم فى قطرات من الدمع .. اجهشوا على كتفي .. انفجرت شهقاتهم كصليات رشاشاتهم .. «لاول مرة نغادر شاتيلا .. الى المجهول .. سامحنا يا ابي .. نلقى بالحمل كله عليك .. خد بالك من الوالدة .. ومن الأخت الصغيرة والزوجات وبراعمنا الحبيبة» وحبات دمع وحبات رصاص .

لا عليكم .. انتبهوا لانفسكم .. نحن بخير .. ويمتزج ذوب الحزن .. بفضح الكذب .. لن نكون بخير بدونكم .. ودعتكم عشرات المرات .. كنتم تعرفون وجهتكم .. لم يرتجف لي جفن .. كانت ابتساماتكم تشع من حبات العيون .. واعده بالعودة لي ومعكم حبة ليمون او حفنة رمل .. فيتجدد العمر وتزهر خلايا الجسد المتهالك .. لكن الحال الآن غير الحال .. «ياويلنا من بعدكم» تنوح امراة من بعيد .. وتنشد بمواويل حزينة .. فيرتفع النشيج .. «اسكتي ياامراة .. يالطيف من فالك» .. وفى القلب توقر كلماتها وتستقر .. محقة انت ايتها العجوز المحنكة . فى القلب توجس وريبة وهوة ضياع اتية بعرض الافق .. وفى عرض البحر تنعق سفينة .. تحث على العويل .. تفتح فاها القبيح .. تلتهم فلذات الكبد .. وتبتعد .. تبتعد .. ويصبح الافق اياد ملوحة .. تصغر السفينة .. تصغر .. تصبح فى حجم دمعة .. وتذوب فى الغسق .. تتلاشى .

كنت اغذ السير متوكا على عصاي .. وكان الزقاق المفضي إلى دكان ابي رشيد يقترب من نهايته ، ملتويا كثعبان مرقط .. تتخلله الحفر وبقايا الفضلات .. وتحفه الأشجار المهيبة على الجانبين .. ومع اقتراب الغروب يزداد وحشة وكابة .. وكان هدير مركبات ثقيلة ياتي من بعيد .. ربما على طرف المخيم .. او فى المدينة المجاورة .. التى سمعنا فى الاخبار انهم اخيرا دخلوها .. يزداد دبيب التوجس في الاعماق .. وسحابة قاتمة من السكون والترقب تلف صفيح المخيم وازقته .. تمتد يدي الى جيب معطفي المهترىء .. اشير الى ما احتاج باليد الاخرى .. يفهم ابو رشيد ما اريد .. نتبادل النظرات الغاضبة المقهورة فى صمت .. ادس الاشياء فى كيس وادفع عكازي فى طريق العودة .. لم يعد فى العمر بقية .

يا احلك الساعات .. ماذا تخبئين ؟! .. لمن هذه الرشقات .. والشهقات ؟ وعامود دخان يتصاعد من بيتي ؟!! ويمتزج الكل بضحكات همجية ؟!! وإذن وقع حدسك ياقلبي .. وتحقق نواحك ياعجوز الوداع .. «قف .. تعال هون» كانوا اربعة .. ولباسا غريبا ولكنة مالوفة .. وعيون ذئاب .. وايد تقبض على رشاشات وسواطير ..

وزجاجة خمر تدور بينهم وانا .. ياحلك الساعات .. لم يعد فى العمر بقية لاي شيء و.. و .. ويدفعني الاول .. فيتلقاني الاخرون .. يدوسونني .. عفوكم ايها الادميون .. انا شيخ عجوز .. رحمة بشيخوختي .. بمرضى .. بحزني .. يقهقهون .. تنهال الاتهم الحادة على جسدي .. تقطع اجزاء من جسدي .. اصرخ .. اتلوى الما .. يمتزج



صراخي بضحكهم وصخبهم وبالصمت الرهيب الذى يلف المخيم مع الظلام .. ارفرف كعصفور ذبيح .. ازحف من بينهم وانا اجر معي بركة الدم .. افسد عليهم متعتهم .. يغضبون .. تسكت ضحكاتهم .. تصرخ رشاشاتهم فى ساقي .. فى كتفى .. ذراعي .. واتخبط فى دمي .. ويغرق كل شيء فى الظلام وفى انعدام الحس والحركة وسائل دافىء احمر يغطي البصر.

(٣)

الحاسة السادسة .. والقذائف المضيئة .. يدفعاني الى المخيم .. شيء ما يجرى هناك .. لابد ان احقق ضربة .. سبقا ..

خزيا اشتم رائحته من بعد .. رشقات رصاص .. شهقات مكتومة .. صورة من بعد .. قف .. من قال لك ان تدخل .. هات الصورة .. اخرج .. انفذ بجلدك .. احمد ربك انك لست منهم .. لماذا تعطفون عليهم ؟! .. ياللعار .. إذن انتم تذبحون الجميع .. بدم بارد .. رسالة تبشير جديدة من عالمنا الحر .. كيف انام الساعات الباقية من الليل .. ؟ اصوات القتلة تطاردني .. اشباح القتلى تفزعني .. لابد ان الامر جسيم .. انقلب .. ادون بضع كلمات .. رسالة مستعجلة إلى صحيفتي ..

هناك امور هامة تحدث قربي .. ساوافيكم بالبقية بعد ساعات الصباح .

صباح السبت .. « شبات شالوم » .. عليك يا شاتيلا .. ياإلهي .. ماهذا ؟! اكوام البشر .. واكوام الاسمنت .. وعيون مفقوءة وبطون مبقورة .. وحبال فى الأيدي والارجل .. واطفال .. وشيوخ .. ودماء ..

ودماء .. وذباب ازرق .. وصمت .. لاشيء .. سوى طنين الذباب الازرق ..

« عودوا إلى مساكنكم .. لا تقلقوا » .. الموت فى انتظاركم .. تحت قناديلنا المتوهجة .. اغيثونا .. انهم يذبحوننا ..

« لا ...لا .. نحن لا نتدخل في شؤونهم الداخلية » .. لاتقلقوا .. سيكون كل شيء على مايرام .. لن تشعروا بشيء .. عودوا لمساكنكم .. لن اكمل الرسالة اليوم ..

ساوافيكم بتفاصيل اخرى فى المرة القادمة .. اشعر بدوار .. بغثيان .. بحمى .. ماذا سيقولون ؟ كجمع من اللصوص .. من القتلة .. سيشير كل إلى الاخر ويكـون الشيطان رابعهم .. وسيغضب الشيطان ..

ثم يباركهم .. سيقهقه الشيطان .. ويهمس لهم .. هذامهم للامان .. احسنتم وساصدر لارضيهم هم بيانا .. مجرد بيان ...

(٣)

قرات .. قرات .. سمعت .. سمعت .. ذهلت .. صدمت .. صداع وغضب .. ومذياع وتلفاز وحبة اسبرين .. وفى الصباح .. نظرت الى المراة .. بصقت ..

عاجز .. حقير .. خرجت الى الشارع .. لاشيء .. صمت .. جلدتني النظرات .. للمت شعري .. ثياب النوم .. وعدت ..

اضرب بقبضتي على الطاولة .. اكتب .. اكتب .. امزق واشطب .. كلام .. كلام .. كلام .. ادب .. مقال .. خطب .. بيان ..

شجب .. ادان .. وبركة الدم تعلو الركب .. مباشر .. عميق .. قصة .. شروط وفن ..

ونقد .. وتسطيح .. ورفض وتقعير وتجريح وفلسفة وزعيق .. وتعلو بركة الدم فوق الجباه .. ويظهر قرص الشمس .. وتمضى الحياة .. الملم اوراقي .. امزق .. شهاداتي .. وارمي بها على السياج ..

حمدي الكحلوت

ليدي هاملتون
الفاتنة
التي أسرَتْ بطل البحار!

بقلم: جمال الكناني

قصة «إما» ليدى هاملتون ، فيها من الغرائب والمآسى ما يغنى كاتبها عن كل مبالغة او تانق فى الاسلوب او صنعة يستهوى بها القارىء او يجذب انتباهه .. فالقصة غنية عن كل ذلك ، تبدا من الحضيض وترتفع الى السماء ثم تهبط الى اسفل سافلين ... تبدا بجوار الكير ثم تنتقل الى القصور وتنتهى فى السجون ... اولها فقر وضعة ووسطها عز وجاه واخرها ذل ومسغبة .

والخير ان نبدا القصة من البداية .

لما ولدت زوجة حداد فى قرية من قرى شمال انجلترا طفلة ، لم تتحرك فى القرية كلها شعرة واحدة ولا احس بالمولودة غير امها انسان .. بل ولم يعلم ابوها بمولدها حتى عاد من دكانه فى اخر النهار .. ولسنا نعرف تاريخ هذا الميلاد .. لان الوليدة «إما» لم تقيد فى سجل المواليد ولكنها عمدت فى الكنيسة فى ابريل ١٧٦٥ تحت اسم «إميلى» ... ومات ابوها قبل ان تتم العام الاول من عمرها وكانت امها تخدم فى البيوت حينا وتحترف الخياطة حينا اخر بينما كانت الجدة تشرف على تربية البنت .

ولحكمة لا ندريها غيرت الام اسمها الى مسز «كادوجان» وغيرت البنت اسمها من «إميلى ليون» الى «إما هارت» .. فلما بلغت العقد الثانى من عمرها لم تجد صعوبة فى الحصول على عمل فى لندن ، فدخلت «إما» خدمة المنازل وهى فى الثالثة عشرة ... وبدأت العمل فى بيت الدكتور «رتشارد بد» حيث كانت تخدم «جين باول» التى اصبحت فيما بعد من اشهر الممثلات فى انجلترا .



الاميرال لورد هوراشيو نلسون الذي كتب اخر رسائله « لاما » اثناء معركة الطرف الاغر في ١٩ اكتوبر عام ١٨٠٥



« إمـــا » او ليـــدي هاملتـــــون التى كانت لهـــا جـــاذبية خـــاصة ، جعلـــت الفنانيـــن يلاحقونهـــا ويطلبون رسمها وتصويرهـــا

ويقال إن إما خدمت بعد ذلك فى احد المتاجر ثم فى «حان» وعملت بعد ذلك رفيقة لامراة مشبوهة السمعة ، ويقول البعض إن «إما» نفسها سارت على ذلك الدرب حينا ، ولكن العارفين ينفون ذلك تماما ويبرئونها من تلك الفرية .

أبواب المجتمع

كان المجتمع البريطانى فى القرن الثامن عشر ، لا يحرم على المتزوج ـ من الاغنياء خاصة ـ اتخاذ صديقة له ، وكان المالوف إذ ذاك ، و «الموضة» الشائعة ، هى ان يتباهى الرجل بصديقته ، مما ارغم حتى الامناء من الازواج على اتخاذ صديقات «بالاسم فقط» لكى لا يتهمهم الاصدقاء بالرجعية والتخلف ... فكان هدف الفتيات الفقيرات هو الحصول على رجال اغنياء يتخذون منهن صديقات ، وخاصة وان هذه الحالة كانت مقبولة لدى المجتمع !!

بدات «إما» تنضج وتتفتح اكمامها ويبهر جمالها الانظار ، وحصلت على صديق ريفى هو السير «هارى ستون هاو» وكان من سادة الريف يقيم حفلات الصيد فى المواسم ويدعو السادة والنبلاء ، رغم ما كان يتصف به من عبط ... وتعلمت «إما» ركوب الخيل والاختلاط بعلية القوم ومنهم ابن «ايرل اف واريك» وهو تشالز فرانسيس جريفل .

وكان جريفل هذا اصغر اولاد «الايرل» ولذا لم يكن له الحق فى ان يرث لقب ابيه او ممتلكاته ، فكان يعيش على راتب ربطه له ابوه ، وهو حوالى ٦٠٠ جنيه سنويا يضاف اليه ما كان يتقاضى من وراء شغل بعض الوظائف الحكومية الصغيرة ، يساعده فى الحصول عليها خاله السير وليام هاملتون ، سفير بريطانيا لدى بلاط الملك فرديناند ملك نابولى .

ولفتت «إما» نظر جريفل واسال جمالها لعابه ، فاستغل غفلة السير «هارى» صاحب «إما» واخذ يغازلها ويتودد اليها حتى استطاع ان يفوز بقلبها .. وساورت الشكوك السير هارى رغم غفلته ، فثار لكرامته فقرر طرد «إما» فى ديسمبر ١٧٨١ وهو يعلم انها فقيرة معدمة وانها حامل ولكن كان عنده من الاسباب ما اقنعه بانه غير مسئول عن ذلك الحمل ، وان الجنين الذى تحمله «إما» ليس من ظهره .. فخرجت من داره باكية لا تلوى على شىء .

وضاقت بها السبل فكتبت لصاحبها جريفل فى يناير ١٧٨٢ ، وكان قد شجعها من قبل على الكتابة اليه واعطاها ظروفا معنونة باسمه ، ولعل فى ذلك ما يبرر او

الفاتنة التي أسرت بطل البحار!



يؤكد ما كان بينهما من علاقة ويوجه اصبع الاتهام اليه ويعزز شكوك السير هارى .. قالت فى خطابها لجريفل انها كتبت سبع مرات تستجدى السير هارى وتطلب مساعدته ولكنه تجاهل رسائلها وتمنت لو انها اصبحت صديقة جريفل وملك يديه كما ملكها السير هارى من قبل ، وطلبت منه ان يعينها فى محنتها ، دون ان تفصل اسباب المحنة مما يوحى بان جريفل كان يعرف انها حامل ، بل ولعله كان يعرف انه هو المسئول .

كان رد جريفل على «إما» غاية فى البرود اتسم بالصلف ... نصحها بان تحاول اصلاح ما فسد بينها وبين السير هارى ، فاذا فشلت واختارت ان تكون صديقة له ، فانه لن يسمح لغير امها من افراد اسرتها ـ او اطفالها ـ بالعيش فى بيته ...

وضع جريفل هذه الشروط رغم انه كان يتلهف على صحبتها ولكنه كان يعرف ان الصديقات غاليات يكلفن الكثير من المال ... ولم يكن ماله كثيرا وهو فوق ذلك بخيل بفطرته .

ولدت «إما» فتاة اسمتها «إما الصغيرة» هى لاشك بنت جريفل ، فوكلت امر تربيتها لجدتها الطيبة «مسز كد» ورضى جريفل ان يربط لها جعلا شهريا لقاء ذلك .. وكانت الجدة الحنون تنفق على الصغيرة اكثر من ذلك الجعل بكثير ..

كانت «إما» وامها صفقة رابحة بالنسبة لجريفل فقد وجد فى «إما» صديقة رائعة وفى امها مديرة حكيمة مدبرة لبيته فهبطت نفقات البيت الى ١٥٠ جنيه فى السنة ولم يزد ما كان يعطيه «لاما» اسبوعيا عن جنيه واحد يغطى جميع نفقاتها الشخصية .

لم يكن جريفل لين العريكة ولا كان سمحا متساهلا فى معاملة «إما» ، يعيب عليها جهلها وعدم تهذيبها وعدم إلمامها بقواعد اللياقة والاصول المرعية فى المجتمع ، فكانت كلما اخطات اغلظ لها القول وقسا عليها ولكنها ، لفرط حبها له ، كانت تغتفر له قسوته وتتقبل ما يفرض عليها من عقوبات بصدر رحب .

بدا الرسامون والفنانون يلاحقون «إما» ويطلبون رسمها وتصويرها ، فزاد احساسها بما لها من جاذبية واثر على الرجال ، وانها واحدة من فاتنات عصرها تنهال عليها العروض من اشخاص لهم فى المجتمع مراكز مرموقة ... ولكنها رغم كل المغريات ظلت مخلصة وفية لصاحبها جريفل الذى لم يعاملها معاملة الخليلات ، فلا اهداها ماسا او جواهر ولا قدم لها الهدايا .. فقد كانت تعجب به كل الاعجاب وتخلص له وتحبه بكل جارحة فيها .

الخطة الجهنمية

عاد السير وليام هاملتون ، السفير البريطانى لدى بلاط الملك فرديناند ملك نابولى ، وهو كما قلنا خال جريفل الذى يكبره بعشرين عاما ، عاد الى انجلترا لقضاء اجازته السنوية فى عام ١٧٨٤ وكان إذ ذاك ارملا فى الرابعة والخمسين من عمره ، لا ولد له ولا بنت ، فكان يعتبر جريفل ابنه ، حتى انه قرر أن يكون هو وريثه الشرعى .

كان السير وليام رجلا رياضيا يحب المشى ويحافظ على صحته فكان يبدو اصغر سنا من سنه بكثير وخاصة انه كان مرحا بفطرته يحب النكتة الحلوة ويجذبه الوجه المليح .. فلا عجب انه ارتاح «لاما» ورضى عن المحاولات التى بذلتها للترحيب به ارضاء لصاحبها جريفل الذى كان يتطلع لوضع يده على ثروة خاله ويحرص على ان لا يتيح له فرص الزواج لكى لا يعقب خلفا يحرمه من الميراث .

استطاع السير وليام هاملتون ان يطمئن جريفل على مستقبله المالى بان تعهد بضمان اى قرض معقول يريد جريفل ان يحصل عليه .. وبذا تفتحت أبواب فى وجه جريفل وتحسنت فرص زواجه وبدا فترت علاقته بصديقته وبدا يفكر فى سبل الخلاص منها واستبدالها بزوجة غنية ... والتقاليد تحرم الجمع بين الزوجة والصديقة تحت سقف واحد .

وفكر فى إغراء «إما» وتشجيعها على قضاء عطلة طويلة فى دار السفارة فى نابولى ، ضيفة على خاله السفير ، تصحبها امها ، وهو على يقين من ان خاله لابد يتخذها صديقة له فلا يفكر فى الزواج فبدا جريفل يمهد لخطته الجهنمية فى حذر تام ، ويحدث خاله ـ كلما لاحت فرصة ـ عن جمال إما وإقبال الفنانين على رسمها ومحاولة علية القوم أن يتقربوا منها ، ويتفاخر بانه هذب سلوكها ونبه وعيها بالآداب الاجتماعية .. فلما عاد السفير الى نابولى اخذ جريفل يلاحقه برسائله يطالبه بدعوة

«إما» وامها لقضاء عطلة طويلة فى نابولى .. ورضخ السفير .. وقبلت «إما» السفر على مضض لانها كانت تكره فراق حبيبها جريفل .

وصلت «إما» ومعها امها الى نابولى يوم ١٦ ابريل ١٧٨٦ وهى فى الحادية والعشرين من عمرها ، اكثر ما تكون جمالا واروع ما تكون سحراً وجاذبية .. واحسن السفير استقبالها هى وامها واكرم وفادتهما ولكنها احست بحنين قاتل فاخذت تكتب لجريفل تبثه اشواقها وتطالبه بالكتابة اليها ولكنه تجاهل رجاءها .

بدات «إما» فى السفارة حياة جديدة .. حياة الطبقات العليا فاخذت تتردد على المسارح ودار الاوبرا والحفلات الموسيقية فى صحبة السير وليام ... ولكنها لم تنقطع عن الكتابة لجريفل تؤكد له ان الحياة بدونه موت ولكنه لم يابه بالرد عليها .. وفى كل حب من يقبل ومن يسمح لنفسه بان يقبل وفى كل حب قلبان احدهما دافىء والاخر بارد .. للبارد قيمة لا تقدر ، والدافىء عديم القيمة جزاؤه ان يطرح بعيداً .. ولقد طرح جريفل قلب إما ورماه بعيداً ..

وبدات علاقة السير وليام الافلاطونية تجاه إما تسخن وتتغير .. كان دبلوماسيا دربا محنكا .. فتمهل ولم يتعجل .. تقرب اليها بحذر ولم يعترض ابداً على كتابتها لجريفل .. وبدات هى من ناحية اخرى تدرك ان فى علاقة جريفل فتوراً شديداً فحاولت ان تثير فى قلبه الغيرة وبدات تعدد فى رسائلها اسماء من وقعوا فى غرامها من الكبراء والنبلاء ... الملك نفسه يرفع قبعته تحية لها .. ولم تدرك ان جريفل باعها يوم ركبت السفينة الى نابولى ... وبعد فترة وجه جريفل اليها طعنة فى الصميم واهانها اعظم إهانة إذ طلب منها ان تقدم نفسها لخاله وقال «حاولى ارضاء السير وليام» ... وطار صوابها وردت عليه تقول «لو كنت امامى فى هذه اللحظة لقتلتك وقتلت نفسى .. لن ارضى إلا بالعودة إليك » ....

وانهمرت دموعها بعد ذلك اياما .. وواساها السير وليام وطيبت امها خاطرها .. وتغير الحال وبدات إما تهدد جريفل بانها قد تتزوج السير وليام ... واخذت تسعى لذلك جاهدة ووجدت ان امر الزواج من السير وليام جد عسير لانه كان يعتز بمركزه وحياته فى السلك السياسى وكان يرى فى وضوح الفرق بين ان تكون «إما» صديقته وان تكون زوجته .. هل يقبلها ملك بريطانيا زوجة لسفيره ؟ وهل يرضى بها ملك نابولى وملكتها والكل يعرف انها من اصل متواضع وان سمعتها لا ترتفع فوق الشبهات ...

وكانت هى بذكائها الفطرى تدرك ذلك كله ، وترى ان السير وليام قد يعمل على راحتها وسعادتها دون ان يطلب يدها .. فاخذت ترتب وتدبر لتحقق رغبتها فى الزواج من السفير .

الصدفة المدبرة

كان بين مبنى السفارة البريطانية فى نابولى وبين القصر الملكى ارض فناء فيها الكثير من الاشجار والخمائل ، اطلق عليها اسم الحديقة الانجليزية ... وكانت «إما» تعرف يقينا ان ملك نابولى كثيرا ما يخرج للنزهة فى تلك الحديقة .. وخرجت «إما» ومعها تابع ، للنزهة فى نفس الحديقة .. وهناك اقترب منها رجل بادرها بالكلام .. وعرفته «إما» ولكنها تظاهرت انها لم تعرف الملك الذى كانت تعده من بين المعجبين بها .. وصدت الرجل صداً اقرب ما يكون للدعوة .. وعرف الملك انها غير جادة ، وإلا لعادت لتوها للسفارة بدلا من ان تتجه الى خميلة منعزلة ... واعطى الملك تابعها بعض المال وصرفه ... وتقدم «لاما» باقتراح لا ترضاه امراة شريفة فقالت له انها لا يمكن ان تعير الاقتراح اى التفات إلا إذا كان مكتوبا ... وقدمت له ورقا وقلما فكتب الملك ما اراد ...

ومن البديهى ان «إما» قد دبرت تلك الصدفة وذلك اللقاء ، لان النساء لا يخرجن مزودات بالورق والاقلام ... وحملت «إما» اقتراح الملك المكتوب وراحت تبكى للملكة تشكو من ان رجلا غريبا لا تعرفه دهمها فى الحديقة واقترح عليها ما خطته يده .. وعرفت الملكة خط زوجها ، وكانت تعرف الكثير عن سلوكه ومطاردته للنساء ... ورات الملكة فى «إما» الجميلة خطراً داهما فاخذت تدبر لدرء ذلك الخطر .

وبعد تفكير وروية قررت الملكة ان سبيل الخلاص من «إما» هو ان تيسر لها الزواج من السير وليام ... واخذت تتحين الفرص لتلمح للسفير البريطانى بان بلاط نابولى يرحب باما زوجة للسفير .

وفى ١٧٩١ سافر السير وليام الى انجلترا وطلب من الملك جورج الثالث الاذن له بالزواج من إما ... وامتعض الملك ولكنه وافق على مضض وعلى شرط ان لا تدخل إما اى قصر من قصور ملك بريطانيا وان تستقبل فيها ... وتم الزواج فى لندن ..

لم يكن أول لقاء

وفى يناير ١٧٩٣ اطاحت الجليوتين براس لويس السادس عشر ملك فرنسا لاتهامه بالتآمر ضد سلامة الدولة .. واطاحت المقصلة ذاتها براس اخته وراس ملكته بعد ذلك وسرعان ما شبت الحرب بين فرنسا وانجلترا .

وكتب نلسون حال قيام الحرب ، الى الاميرالية يلتمس أن يعطى سفينة حربية مهما كان نوعها واعطته الاميرالية سفينة من الدرجة الثانية وصدرت له الاوامر بالانضمام للاسطول البريطانى فى البحر الابيض المتوسط ، وكانت مهمته إذ ذاك ضمان حبس الاسطول الفرنسى داخل موانىء جنوب فرنسا فاشترك نلسون فى حصار جزيرة كورسيكا ، واصيبت عينه اليمنى اثناء إحدى المناوشات وفقدت جل بصرها دون ان يتشوه شكلها .

اخذت جيوش نابليون تفوز فى المعركة بعد المعركة ، فطردت النمساويين من شمال ايطاليا واقتربت من نابولى ، وعلم ملكها فرديناند من شقيقه ملك اسبانيا ، ان فرنسا قد تحالفت مع اسبانيا .. وكانت الصداقة قد توطدت بين ملكة نابولى وبين إما هاملتون ، فاخبرتها الملكة بما تم من تحالف بين فرنسا واسبانيا ، وبذا تمكن السير وليام من ابلاغ الحكومة البريطانية بذلك .

فلما تمت هزيمة النمسا وانسحبت بروسيا من الحرب وانضمت اسبانيا لفرنسا وقفت بريطانيا وحدها امام نابليون فاستدعى الاسطول البريطانى من البحر المتوسط لحماية سواحل الجزر البريطانية ، وانضم نلسون الى الاميرال السير جون جارفس الذى كانت سفنه تراقب سفن الاسطول الاسبانى الذى بدأ يتحرك لينضم للاسطول الفرنسى فى برست . ووقعت بين الاسطولين معركة سانت فنسانت ، احرز فيها البريطانيون نصرا مبينا وابلى فيها نلسون بلاء حسنا فمنح لقب الفروسية .

وفى صيف نفس السنة صدرت الاوامر لنلسون بغزو تناريف ووضعت تحت قيادته قوة بحرية لا تتناسب مع المهمة التى وكلت اليه . وحدث اثناء اشتباكات لم يوفق فيها نلسون ان فقد ذراعه الايمن .

وما ان حل عام ١٧٩٨ حتى خيل لنابليون انه البطل الذى لا يهزم ولا يقهر ... وقرر ان يغزو مصر ليتخذ منها قاعدة يغزو منها الهند ... وعاد نلسون الى البحر الابيض المتوسط فى مايو ١٧٩٨ بعد ان صدرت له الاوامر بالعثور على الاسطول الفرنسى واعتراضه حتى لا يتمكن من الهروب .

وبعد بحث دام شهراً كاملا نقص تموين سفن نلسون لدرجة مقلقة فاراد ان يلجا الى سيراكيوز ، ميناء صقلية ، يلتمس منها ماء او ميرة ولكن محافظ الميناء لم يسمح



القصـــر الـــذي خدمـــت فيـــه « إمـــا » لأول مـــــــرة في حياتهـــــــا

له بالدخول . وعلم السير وليام هاملتون بذلك ، وما كان من «إما» إلا ان ضغطت على صديقتها ملكة نابولى فسمح للاسطول بالدخول ... واتجه نلسون بعد ذلك الى «ابو قير» وهناك حطم الأسطول الفرنسى فى موقعة النيل وفيها اصابت شظية جبين نلسون فتهدل جلده حتى غطى عينه وظن انه قد فقد بصره .. فلما رد الجلد الى موضعه استرد نلسون بصره ولكن هذه الاصابة كانت السبب فيما كان يحس به من صداع دائم بعد ذلك .

لما عاد نلسون الى نابولى بعد بلائه فى موقعة النيل استقبلته «إما» ودموع الفرح تنهمر من عينيها ، ثم غابت عن الوعى .. ولم يكن ذلك اول لقاء بين ليدى هاملتون ونلسون لانه كان قد زار السفارة من قبل .

كان نلسون إذ ذاك فى الاربعين وكانت إما فى الثالثة والثلاثين . والمعروف عن نلسون انه يتمسك بأهداب الشرف والفضيلة وانه كان متدينا كل التدين ولم يكن من المعقول أن رجلا هذه صفاته له ما لنلسون من شجاعة ، يخون صديقا له فى زوجته ... ومن ناحية اخرى كانت إما قد ذاقت طعم السمعة الطيبة لما غطى رداء الزوجية ما وقع منها فى الماضى وما ارتكبت من اخطاء ، فلم يكن من المعقول أن تسعى وراء فضيحة جديدة ... ولكن كلا منهما وقع فى غرام الاخر رغم كل ذلك ، وخطا معاً فى كتاب الغرام قصة من أروع قصص الحب واكثرها المًا وإيلامًا .

فى ضيافة ليدى هاملتون

كان من الممكن بل ومن المحتمل ان تختفى صورة «إما» وتطوى فى لا شعور نلسون وان ينسى حتى اسمها لو ان سفنه رست بعد موقعة النيل فى ميناء غير نابولى ، وكان من الممكن ان يعتبر نلسون انه رد لاما جميلها لما اهداها امة نوبية جاء بها من مصر . ولكن شاءت الأقدار ان ترسو سفن نلسون فى نابولى ، وأن تكون سفينة القيادة نفسها قد اصيبت بعطب يستلزم الاصلاح مما اضطر نلسون أن يطيل اقامته فى نابولى ، فى ضيافة ليدى هاملتون ... او فى أسر سحرها .

لم يكن سير وليام هاملتون فى غفلة ... فاختار بين أمرين أحلاهما مر ... اختار بين الصمت والفضيحة ... وآثر الديبلوماسى ، وكان قد بلغ الثامنة والستين واعتلت صحته وهيض جناحه ، أن يغمض عينيه ويتشاغل بمصير نابولى التى عرضت نفسها لسخط فرنسا لما قدمت العون للاسطول البريطانى ، وأصبح من الواضح لكى ينجو ملك نابولى وملكتها فلايصيبهما ما أصاب لويس السادس عشر ومارى انطوانيت ، ضرورة الهروب الى مكان امين لا يمكن أن يهاجم إلا عن طريق البحر وبذا يمكن الأسطول البريطانى ان يدافع عنه ...

وكانت صقلية هى المكان المناسب فاهلها يكرهون الفرنسيين ويحبون الملك فرديناند .

وتم نقل الأسرة المالكة وحاشيتها من نابولى الى صقلية فى سرية تامة ، وفى معيتها السير وليام وزوجته إما ... ولكن ترى هل فكرت إما فيما يكنه المستقبل ؟ لقد وقعت فى حب نلسون معبود بريطانيا فهل فكرت كيف تلقى زوجته الشرعية «فانى» ؟

انتشرت الاخبار وعرف العالم ان نلسون على علاقة غرامية باما ، ليدي هاملتون ... وكتب الاصدقاء ينبهون نلسون فى لباقة ويرجونه أن يعني بصحته ... وأدرك نلسون انهم يوصونه لسمعته خيراً ، وكان هو بدوره يهتم بسمعته ... ولكن إما .. امرأة مغامرة ، فى نشوة الحب ، فاخذت تكثر من الحفلات ليراها الناس الى جانب بطلها ومعبودها وكانها تتحدى العالم وتقول « نددوا ماشئتم » ، ومن يدري فلعلها كانت تعرض على العالم قوامها قبل ان يدركها السمن الذى يدهم بعض النساء فى الثلاثينات وبعدها .. او لعلها كانت تخشى السمن لعلة اخرى تعرفها هي وحدها .

اعتبر السير وليام هاملتون انه اتم مهمته فقدم استقالته التى قبلت فورا ... وكانت الملكة ماريا كارولينا ، ملكة نابولي قد قررت فى اوائل صيف ١٨٠٠ ان تزور النمسا وان تكون إما وزوجها فى صحبتها ... وراق ذلك « إما » لأن نلسون كان قد اضطر للعودة الى انجلترا بطريق البحر ، ودعته الملكة لمرافقتها فى الرحلة .. بذلك



إحدى اللوحات التى رسمها لها الفنان .. اللوحة عنوانها : غازلة الصوف




الفاتنة التي أسرت بطل البحار!

يتحقق لاما ان تعود باطول طريق فى صحبة نلسون بعيدا عن اعين الرقباء الذين قد يكشفون سرا دفينا كانت تحمله فى بطنها .. وهو ثمرة علاقتها بنلسون وسبب خوفها من زيادة وزنها وترهل جسمها .

استقبل الناس نلسون في فيينا استقبالا شعبيا وكانوا يتهافتون على اي مسرح او مكان يزوره . وانتقل الركب الملكي وفيه بطل موقعة النيل الى براغ ثم الى درزدن وفيها ذاقت إمـا طعم اول اهانة توجه اليها من أسرة حاكمة ، إذ ان حاكم درزدن وجه الدعوة لنلسون وحده .

ووصلت إمـا الى انجلترا بسلام .. وفى اواخر ١٨٠١ لزمت الفراش بحجة انها مصابة ببرد شديد ، وفى الاسبوع الاول من فبراير حملت إمـا وليدها الى بيت سيدة تدعى مسز جيبسون .. واعلنت اسمها وطلبت من السيدة ان تتولى تربية الوليدة وادعت إنها ولدت فى شهر اكتوبر من العام السابق ١٨٠٠ محاولة بذلك ابعاد الشبهة عن نفسها لانها كانت إذ ذاك على سفر فى صحبة الملكة ولكن عيني المسز جيبسون ادركت ان عمر الوليدة لا يزيد عن اسبوعين او ثلاثة ... وعرفت المربية ان اسم البنت « مس هوراشيا » دون اي لقب .. وكان نلسون فى البحر إذ ذاك ، فلما علم بمولد بنته طار لبه فرحا .

لم تنل الأيام من عمق او حرارة الحب الذى جمع بين قلب نلسون وقلب إمـا ، ولعل فترات غياب نلسون في البحر حدت من احتمالات سوء التفاهم .. كانت الاخطاء تنسى وتغتفر اثناء الفراق وكان كل لقاء شهر عسل جديد ... كان نلسون يعرف اخطاء إمـا وعيوبها ويعرف اسرافها وميلها لصحبة العامة وفتور شعورها تجاه بنتهما هوراشيا .

اعتلت صحة السير وليام هاملتون فى عام ١٨٠٣ وكان قد بلغ الثالثة والسبعين فلما احس بوطاة المرض وهو على سفر عجل بالعودة الى داره ... ومات الدبلوماسى العجوز ونلسون وإمـا بجوار فراشه وذهب البعض إلى ان حزن « إمـا » على موت زوجها كان مصطنعا ، ولكنها عبرت عن شعورها بدقة إذ قالت إنها بموته فقدت صديقا وابا .

حملت « إمـا » مرة ثانية ، ولكنها هذه المرة وضعت مولودا ميتا واستعانت بمسز جبسون على دفن الوليد سرا . اما الذي لم تستطع اخفاءه على الناس فهو وزنها الذى زاد بعد الوضع الثالث زيادة استغلها رسامو الكاريكاتير الى ابعد حـــد .

ضياع الحب العظيم

يقال إن الانسان يشعر بقرب المنية قبل بدء اية معركة حربية ، ولكنه لا يابه بذلك . والمعروف ان نلسون كتب اخر رسائله لامـا وهو على ظهر السفينة « فكتوري » اثناء معركة الطرف الاغر يوم ١٩ اكتوبر ١٨٠٥ عدد فيها خدماته لوطنه ، وكرر نفس المعنى فى مذكراته ، إذ قال « لو انني كنت اثاب على تلك الخدمات ، لطلبت ماشئت من بلادي ، ولكني على البعد ، اودع ليدي إمـا هاملتون امانة فى ذمة ملكي ووطني ليوفروا لها مايكفي ويزيد لكي تحيا حياة تناسب مقامها ومركزها ... واودع فى ذمة وطني كذلك بنتي بالتبني هوراشيا نلسون طومسون وامل ان تقتصر مستقبلا على اسم نلسون » .

هكذا احس نلسون بدنو الاجل .. فهل كان موته انتحارا ام قضاء وقدرا .. ؟ لم جعل من صدره هدفا لرصاص العدو ولم غطى صدره بكل ما يملك من اوسمة ، راها صاحبه الوفي هاردي تلمع فادرك ان نلسون يريد ان يتحدى الفرنسيين ويقول هانذا نلسون ، سددوا رصاصكم لصدري . فطلب هاردي من اميره ان يغير سترته فتعلل بقصر الوقت ولكنه اخذ يطوف برجاله يشجعهم ويشد ازرهم .فى ظهر ذلك اليوم حطمت رصاصة العدو فقرة فى وسط ظهر نلسون وحمله رجاله الى كبينته حيث اسلم الروح .

ونقل الخبر لامـا فخرت مغشيا عليها ، فلما افاقت اخذت تسال فى ذهول .. ماذا افعل ؟ كيف اعيش ؟ نعم .. كيف تعيش بغير حبها العظيم ؟ .

اغدقت الحكومة العطاء على شقيق نلسون وشقيقاته .. واهملت عشيقته وبنته فلم ينلهما اي خير ولم يرحم القدر إمـا بل اضاف الى همومها فى عام ١٨٠٦ لما اعلنت اولى بناتها « إما الصغيرة » انها بنت ليدي هاملتون فدوت اصداء الفضيحة ولاكتها الألسن .

الحت الأزمة المالية واذلت عشيقة نلسون فاخذت تكتب العرائض والشكاوي للحكومة وتذكر الدولة بما قدمت من خدمات وما أوصى به نلسون ولكنها لم تجد من يستمع لها او ياخذ بيدها .. فاستمرت فى بيع ما تملك دون ان تكبح زمام اسرافها .. فحملت هم الدين ومذلته وطاردها الدائنون ... كانت تخرج من ازمة مالية لتدخل ازمة مالية تالية ... وضيق الدائنون عليها الخناق .. وانتهى بها الامر فى سجن المدينين ومعها بنتها من نلسون ، وكان ذلك في يناير ١٨١٣ . وتقدم اهل الخير لنجدتها وجمعوا من المال ما مكنها من الخروج من السجن مؤقتا ... ولكنها عادت تسرف وتبذر وتقترض ، وزج بها فى معتقل المدينين فقضت فيه عاما كاملا ، فلما خرجت اضطرت ، تحت ضغط الدائنين ، الى الهرب مع بنتها الى كاليه بفرنسا فى يونيه ١٨١٤ . وهناك نزلت فى افخم فندق املا منها ان تلقى هناك من اشراف الانجليز من ياخذ بيدها او من يتزوج بنتها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث فاضطرت الى الاقامة فى بعض بيوت الريف وواصلت الكتابة لكل من تعرف من عظماء انجلترا فكان البعض يتصدق عليها بجنيهات معدودات تنفقها على نبيذ تشربه لبتلم حدة الامها وينسيها ما انحدرت اليه بعد العز والجاه .

وتدهورت صحة إما ونال المرض منها ولكن علتها الرئيسية كانت روحها المحطمة التى افقدتها الرغبة فى الحياة .. فماتت غير ماسوف عليها فى ١٥ يناير ١٨١٥ وتولت القنصلية البريطانية فى كاليه امر دفنها وسددت ديونها وكان اخرها ٧٧ جنيها لتاجر الخمور .

كان في جنازة إمـا رغم بساطتها ، امر واحد لابد كان يسرها .. نالت إمـا هاملتون فى حياتها شهرة وطاردها العظماء والملوك يطلبون القرب منها ، ونالت سمعة عالمية سيئة بسبب ما احاط بحياتها من فضائح ، وصادقت ملكة وذاقت احتقار ملكة اخرى ، وانفقت المال دون حساب وبعثرت منه الكثير وماتت فى فقر ومسغبة ، ملابسها فى دكان الرهونات ... احبت بلادها ، انجلترا ، وخدمتها باخلاص وتنكر لها الوطن فماتت فى قطر اجنبي ومع ذلك فقد لبس كل بحار وقبطان فى كاليه افخر ماعنده وساروا جميعا وراء نعشها يشيعون جنازتها ... رجال اشداء عاطفيون لا يابهون للقيل والقال .. نلسون هو بطلهم وهي ـ كما كانت دائما ـ معبودته إمـا .

جمال الكناني ـ لندن

بقلم: الدكتور محمد البهي



يجيء البخل في ايات القران الكريم بمعنى : الامساك والمنع عن انفاق المال على النفس ، او على الآخرين ، وليس بمعنى الطبع المؤدي للمنع ، الذي هو الشح .

فيقول الله تعالى فى سورة الليل : وأما من بخل واستغنى (اي امسك عن انفاق المال ، وراى الاستغناء بامساك المال وجمعه : عن الناس ، وعمل الخير) وكذب بالحسنى (وتبعا لما راه من الاستغناء بجمع المال وعدم انفاقه : يكذب باثار العمل الخير وبما يحسن الى الآخرين) . فسنيسره للعسرى (اي فسينتهي امره الى الشدة والازمات فى علاقة الآخرين معه فى مجتمعه ، بسبب حقدهم عليه وتربصهم للنيل منه ، فضلا عن شدة العذاب المرتقب له فى الآخرة) .. فالبخل اتى هنا بمعنى انفاق المال بوجه عام .

ويخاطب القران المؤمنين فى سورة محمد ـ عليه السلام ـ بقوله : ياايها الذين امنوا: اطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا اعمالكم . إلى ان يقول: انما الحياة الدنيا لعب ولهو (اي لا ثبات لها ولا اعتداد بها) وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم (والاجور هي جزاء الايمان والتقوى فى الآخرة) ولا يسالكم اموالكم (اي لا يطلب منكم فى دنياكم مع الايمان والتقوى : التنازل عن الاموال ، بحيث يخل التنازل عنها جميعا بمعاشكم . ولكن ما يطلب من أموال المؤمنين هو جزء يسير منها لمعاونة اصحاب الحاجة فى مجتمعهم) . إن يسالكموها فيحفكم (لان الله يعلم : انه إذا طلب منكم المال فان الطلب سيكون له كله) تبخلوا ويخرج اضغانكم (وعندئذ إذا ما طلب المال كله منكم فانكم تبخلون به اي تمنعونه وتمسكونه عن الاعطاء وفى الوقت نفسه سيظهر مافي اعماق نفوسكم من الكراهية لدين الله ولرسوله عليه السلام حقدا عليهما ، بسبب احراجكم فى اموالكم بالتنازل عنها جميعها). هاانتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله (باخراج الزكاة فى حدود ما يساوي ربع العشر للمال) فمنكم من يبخل (ومع ذلك فبعض منكم يمسك عن الانفاق والعطاء فكيف إذا طلب المال كله ؟ .. او على الاقل تراوده نفسه بالتردد فى الانفاق) ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه (ولكن من يمسك عن انفاق هذا الجزء اليسير ـ وهو ما يعبر عن الزكاة الواجبة ـ فانما فى واقع الامر : ضرر امساكه يعود على نفسه وحده . اي ان عقوبة الامساك للمال عن الانفاق فى سبيل الله تعود على الممسك وحده)

وقد جاء التصريح بذلك فى قول الله تعالى : ولا يحسبن الذين يبخلون (اي من المؤمنين) بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة .. والله الغني وانتم الفقراء (ولم يكن طلب هذا الجزء القليل من اموال المؤمنين كزكاة لاصحاب الحاجة بينهم .. بسبب احتياج الله سبحانه وتعالى . بل الله هو الغني دائما ، ومن عداه من الناس جميعا هم فقراء إليه دائما . ولكن بسبب الترابط بين افراد الامة وعدم حقد صاحب الحاجة على مافى يد صاحب الثراء) .

وجاء البخل كذلك بمعنى الامساك ومنع الانفاق للمال على العموم فيما يقصه القران من شان المنافقين كصفة من صفاتهم فى قول الله تعالى : ومنهم (اي من المنافقين) من عاهد الله : لئن اتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما اتاهم من فضله بخلوا به (اي امسكوه عن الانفاق) وتولوا وهم معرضون (اي عن طاعة الله وتنفيذ ماعاهدوه عليه ، من الانفاق والصلاح) فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه ، بما اخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون .

وإذا كان البخل بمعنى الامساك ومنع المال ياتي من المؤمن والمنافق .. فان الشح وهو طبع للانسان يكون من المادي الذى يؤمن بنفسه وحدها ، دون ان يؤمن بالله واليوم الآخر .

وثيقة تاريخية بالغة الأهمّية

في المسألة الصهيونية الفلسطينية بالكونجرس الأمريكي (١٩٤٣ - ١٩٤٥)

بقلم : الدكتور عاصم الدسوقي

لماذا طال الحوار حول هجرة يهود أوربا إلى فلسطين ؟

فى العدد السابق استعرضنا شهادة وليام برنارد زيف أمام لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس فى موضوع انقاذ يهود اوربا . وقد بدأ زيف من حيث انتهى الشاهد الذي سبقه (دين الفانج) ، فوجه نقداً مريراً للسياسة البريطانية فى فلسطين وخاصة للكتاب الأبيض (١٩٣٩) ، كما اتهم تلك السياسة بمعاداة السامية . ولقد وصل الحوار معه إلى مازق طريف عندما اصر على ان يهتم الكونجرس بتوفير المكان الذي يلجا إليه اليهود المهاجرون اولا ويعني به فلسطين . بينما اعضاء الكونجرس يرون ضرورة ان يسبق ذلك تسهيل خروج اليهود من أوروبا أولا وتامين وصولهم الى المكان .

ورفض الشاهد فكرة توطين اليهود فى كندا او فى الامريكتين او في اي مكان اخر عدا « وطنهم » فلسطين . كما رفض فكرة إحالة المشكلة الى اللجنة الدولية المشتركة لشئون اللاجئين على أساس أن مشكلة اليهود تتمايز عن مشكلة اللاجئين الدوليين وهي نغمة مسيطرة على شهادة الموالين للصهيونية .

ونتابع فى هذا العدد الجزء الأخير من جلسات الاستماع ..

دارت المناقشات حول قضيتين محددتين من اعمق المشكلات التى تمس موضوع انقاذ يهود اوربا من هتلر وموضوع فتح ابواب فلسطين كملجا يؤسسون فيه وطنا قوميا لهم .

وفيما يتعلق بالقضية الاولى نشا اتجاه بين اعضاء لجنة الشئون الخارجية حول ضرورة توسيع مهمة هيئة الانقاذ المقترحة بحيث تشمل كل الأقليات والعناصر التى تعانى اضطهادا فى اوربا بشكل عام دون ان تركز فقط على اليهود . وقد تزعم هذا الاتجاه روبرت شيبرفيلد (جمهورى) ، وكارل موندت (جمهورى) ، وجيمس وادزورث (جمهورى) . ولا يبعد ان تكون هذه محاولة من الجمهوريين لاحراج الحزب الديموقراطى الحاكم وافشال تبنيه لمشروع القرار الخاص بانقاذ اليهود .

وكانت البداية عندما وجه شيبر فيلد سؤالا لعمدة نيويورك (لاجوارديا) (١٩) ، عما إذا كان لا يمانع فى توسيع مشروع قرار الكونجرس ليشمل الاقليات والعناصر التى تعانى اضطهادا فى اوربا بشكل عام

● هل كان اليهود وحدهم هم الذين اضطهدهم هتلر ؟

● عضو في الكونجرس يطالب بالدفاع عن كل الشعوب المضطهدة من النازية بدلا من التركيز على اليهود وحدهم .

● اتجاه ـ لم ينجح ـ في الخارجية الأمريكية يدعو إلى عدم الموافقة على إقامة دولة اسرائيل



دون التركيز على اليهود فقط . فقال لاجوارديا انه لا يمانع فى ذلك . وهنا التقط موندت الخيط وساله عما اذا كان لا يمانع إذن فى تعديل مشروع القرار بحيث تحذف «اليهود» من المشروع وتحل محلها كلمة «الشعوب المضطهدة» او كلمة «الاقليات المضطهدة» ، او الجمع بين الاثنين حيث ان البولنديين مثلا وهم مضطهدون لا يعتبرون اقلية فى بولندة بطبيعة الحال . فقال العمدة ان هذا يحتاج الى دقة وحرص ومهارة فى الصياغة والتعديل حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه . غير ان رئيس الجلسة وهو ديموقراطى تدخل فى الحوار مشيرا الى ان حذف كلمة «اليهود» قد يساوى عدم الموافقة على المشروع برمته . ولكن الابقاء عليها واضافة كلمة «الشعوب المضطهدة» لا يضر بالمشروع .

ثم اقترح موندت (جلسة ٢٦ نوفمبر ١٩٤٣) ادخال تعديل على مشروع القرار بحيث يشمل برعايته كل اللاجئين والمضطهدين بصرف النظر عن جنسياتهم . وعرض هذه الفكرة على مساعد وزير الخارجية (لونج) عندما كان يلقى بيانه امام اللجنة طالبا منه وجهة نظر الخارجية الامريكية تجاه فكرة من هذا النوع من حيث مدى القبول او الاعتراض . فلم يمانع لونج من توسيع المشروع ليشمل كل المضطهدين بصرف النظر عن الجنس والمعتقدات الدينية والسياسية . ولكنه اوضح ان المشروع كما هو معلن خاص بانقاذ اليهود فقط ما لم يدخل الكونجرس تعديلا اخر . وفى هذه الحالة قد تكون هناك مشكلة ما بشان هذا التعديل عند الجانب اليهودى .

وقد قال موندت شارحا مقصده ان المشروع بصيغته المقدمة يعد سابقة خطيرة فى تاريخ الولايات المتحدة تقوم على استثناء فئة معينة من البشر بالاهتمام والرعاية . وهى بهذا تفعل نفس ما يفعله الالمان بصورة عكسية .. فالالمان اختصوا فئة معينة بالاضطهاد ، وامريكا تختص هذه الفئة نفسها بالرعاية . ومن ناحية اخرى ـ كما يقول موندت ـ فان التركيز على انقاذ اليهود فقط قد يجعل الالمان يسرفون فى قمع اليهود والقضاء عليهم .

وعندما قال موندت انه بعد التفكير فى تقديم اقتراح بالتعديل اتصل به بعض الشهود راجيا منه ان لا يقدم التعديل «على اساس ان كل مجموعة من المجموعات المضطهدة فى اوربا اليوم لها هيئة رسمية تمثلها فى اى مكان اخر من دول الحلفاء (في المنفى) فيما عدا الشعب اليهودى الذى لا يتمتع باية هيئة من هذا النوع .. وان مشروع قرار الكونجرس قد يؤسس لليهود هذه الهيئة الخاصة التى تمثلهم ...» . وهذه الهيئة قد توحى بانها حكومة فى المنفى سوف تتولى بحث مشكلات اليهود بعد الحرب وهى مشكلات لابد وان تتصل بفلسطين . ومن ثم فهو يسال لونج .. هل الحكومة الأمريكية لديها الاستعداد للتعامل مع مشروع القرار الذى يرمى الى انشاء هيئة الانقاذ لتقوم بمسئوليات اليهود بعد الحرب فيما يتعلق بفلسطين وبانشاء وطن قومى لليهود هناك .

فى اجابة لونج نلمس انه لا يشجع مثل هذا الاتجاه . إذ يقول اننا فى الولايات المتحدة لا نفرق بين الناس على اساس العقيدة ، فاليهود موجودون فى كل مكان كمواطنين وفى كل الوظائف التشريعية والتنفيذية ، ولهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات . ولكننا لا نعرف سياسة الحكومات الاخرى تجاههم . ولا يوجد من اليهود من يعاني وضع المواطنة سوى فئة قليلة لا تتمتع بحقوق المواطنة فى البلاد التى تعيش فيها ، او بمعنى اخر ليس لها حكومة مسئولة عنهم Stateless ، وهي المجموعة التى كون لها برجسون جيشا خاصا كما سبقت الاشارة . وهؤلاء الناس يؤخذون الآن الى بلاد مختلفة كلاجئين ، ويمكنهم البقاء فى هذه البلاد كمواطنين إذا ما رغبوا ، بل وبامكانهم ان يكونوا كذلك هنا فى الولايات المتحدة التى ادخلت الى اراضيها ستمائة شخص من اولئك الـ Stateless خلال الستة شهور الماضية .

ومن هنا يمكن القول إن الخارجية الأمريكية على لسان مساعد وزير خارجيتها ترفض انشاء دولة يهودية تقوم على الدين الواحد ، وانها تفضل ذوبان اليهود فى البلاد التى يعيشون فيها كمواطنين .

ثم جاءت الضربة الأخيرة من وادزورث حينما طلب من مساعد وزير الخارجية الأمريكي (لونج) ان يذكر التعديلات المقترح اضافتها الى مهام اللجنة الدولية المشتركة لشئون اللاجئين ، وهي تعديلات كانت ما تزال سرية حيث لم تكن قد عرضت بعد (حتى ٢٦ نوفمبر ٤٣) على جميع الدول المشتركة فيما عدا بريطانيا

هجرة يهود أوربا إلى فلسطين؟

والولايات المتحدة اللتان وافقتا على التعديل . فقال لونج إن التعديل المقترح كما يلي :

« إن اللجنة بتفويض من الدول الاعضاء تقوم بالتفاوض مع الدول المحايدة ودول الحلفاء والمنظمات المختلفة لاتخاذ الخطوات اللازمة للمحافظة على هؤلاء الاشخاص المطرودين من ديارهم ، ورعايتهم ، ونقلهم بجهودها الخاصة للهروب من المناطق التى تتعرض فيها حياتهم وحريتهم الى الخطر بسبب الجنس الذى ينتمون إليه او بسبب معتقداتهم الدينية والسياسية . وسوف تتسع عمليات اللجنة لتشمل كل البلاد التى يخرج منها مهاجرون بسبب حالة الحرب فى اوربا أو في اي مكان اخر تجد فيه لاجئا . ولسوف تفوض اللجنة التنفيذية فى استلام الاموال الخاصة والعامة التى تصل اليها وانفاقها على الأهداف التى سبق ذكرها » .

وهنا قال وادزورث انه إذا ما وافق عدد معقول من الدول الأعضاء فى هذه اللجنة على هذا التعديل بشكل اغلبية ، فان هذا « يمثل إجابة كاملة لكل المشكلة التى نحن بصددها اكثر مما يعني به مشروع قرار الكونجرس لأن التعبيرات المستخدمة فى هذا التكليف او مهام اللجنة الدولية المشتركة واضحة ومحددة وقوية بحيث ان نشرها على الملا سوف يعيد تاكيد كل الجهود التى يحاول الكونجرس التوصل إليها ، وافضل من ابقائها سرية ، وافضل من استمرار لجنة الشئون الخارجية فى تلك المناقشات » .

ثم حدث اختلاف بين المجتمعين من اعضاء لجنة الشئون الخارجية بين اذاعة هذه النصوص وبين ابقائها سرية أو اذاعتها فى وقت واحد وباتفاق جميع الدول الأطراف . وقد تزعم وادزورث وموندت فكرة اذاعتها .

ان هذه المناقشات من جانب الأعضاء الجمهوريين فى اللجنة تبين بوضوح انهم كانوا ضد تخصيص هيئة بعينها للعمل على انقاذ يهود أوربا ، وانهم كانوا يفضلون ايكال هذه المهمة الى اللجنة الدولية المشتركة لشئون اللاجئين ، وهى اللجنة المسئولة عن كل اللاجئين الدوليين دون تمييز عنصرى او دينى او سياسى .

اما القضية الثانية فهى خاصة بمدى علاقة مشروع قرار الكونجرس بفتح ابواب فلسطين لتهجير اليهود اليها . وكان الشهود الذين يمثلون اللجنة العاجلة (وهى لجنة صهيونية للتذكرة) قد قالوا فى شهاداتهم امام جلسات الاستماع ان مشروع القرار يعنى فتح ابواب فلسطين لليهود وانشاء وطن قومى لهم هناك ، وان لجنتهم سوف تمارس ضغطا على هيئة الانقاذ المقترحة لكى تبادر بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

غير ان اعضاء لجنة الشئون الخارجية للكونجرس من الديمقراطيين والجمهوريين على السواء نفوا بشدة ان يكون للمشروع اتصال من قريب أو بعيد بفتح ابواب فلسطين للهجرة امام اليهود . وشاركهم فى هذا الاتجاه الشهود الاخرون من غير التنظيمات الصهيونية .

وكان هربرت مور اول من نبه الاذهان الى خطورة اقحام المسالة الفلسطينية او العربية فى موضوع مشروع القرار من حيث ضرورة ارغام بريطانيا على فتح ابواب فلسطين (جلسة ٢٦ نوفمبر ١٩٤٣) ونادى بضرورة ان تنحصر المناقشة فى اخراج اليهود من اوربا دون تحديد بلد معين ينقلون اليه . ويكفى ـ كما يقول ـ القول بان البرتغال واسبانيا والسويد وفنلندة وسويسرة وتركيا ، يمكنها استضافة اليهود ، ودون تخصيص نسبة معينة لكل منها خاصة وان بلدا مثل اسبانيا اخذ بالفعل عددا من اليهود ثم نقل بعضهم الى المكسيك وبوليفيا والدومينيكان . كما قال هربرت مور ان الذين يقحمون المسالة الفلسطينية بهذا الشكل يقومون بدور تخريبي لجهود الكونجرس ، ويعملون على احراج امريكا مع حليفتها بريطانيا .

وعندما سئل مساعد وزير الخارجية الامريكى (لونج) عن ذلك نفى ان يكون للمشروع اتصال بفلسطين بشكل محدد فيما عدا ان الاشخاص الذين يخرجون من افريقية مصادفة يمكنهم ان يدخلوا فلسطين اذا كانت الفرصة قائمة (جلسة ١٩ نوفمبر ١٩٤٣) .

اما فرانسيز جونتر فرغم انها تعمل امينة صندوق اللجنة العاجلة ، الا انها ابدت اقتناعها اثناء الحوار معها ، بان يكون دور هيئة الانقاذ المقترحة ترتيب معسكرات مؤقتة فى بلدان مختلفة لاستقبال اليهود واقامتهم مدة الحرب ، وانه ليس من ضرورة للتدخل فى شئون السياسة البريطانية فيما يتعلق بفلسطين (١٩) .

وعندما انتهى الحاخام ستيفن وايز رئيس المؤتمر اليهودى من القاء بيانه (٢٠) ، طالب بتعديل مشروع القرار باضافة ملحق او نص يسمح بفتح ابواب فلسطين امام اليهود المهاجرين . وعندئذ قال له بورجين (ديموقراطى) : هل يعنى ذلك انه اذا ما تمت الموافقة على المشروع وتعيين « هيئة » خاصة لهذه العملية ، ان يتضمن ما يشير الى الاصرار على ان تفتح الحكومة البريطانية ابواب فلسطين . فاجاب وايز على ذلك بقوله ان هذا يتعلق بالفهم الذى يجب ان يكون بين اعضاء هذه اللجنة واعضاء الكونجرس ، وحريتهم فى مناقشة موضوع ابقاء ابواب فلسطين مفتوحة بواسطة الحكومة البريطانية . كما قال انه لا يعنى بذلك ارغام بريطانيا بالقوة على ذلك ، بل يجب ان يكون واضحا فى ذهن اعضاء اية هيئة سوف تعين لهذا الغرض ، وبحيث لا تبحث هذه الهيئة فى فتح ابواب بلغاريا او يوغسلافيا او مراكش بل تبحث فى فتح ابواب « الوطن القومى لليهود (فلسطين) كما نفهمه وكما كان خلال قرون التاريخ ، وكما اشير اليه فى الانتداب البريطانى » .

ونظرا لأن الحاخام وايز يمثل نسبة كبيرة جدا من المنظمات والجمعيات اليهودية فى الولايات المتحدة (٦٥ منظمة) فقد استطال الحوار والجدل معه حول هذا التعديل الذى يريد اضافته للمشروع ، اذ قال له هيرمان ايبرهيرتر (ديموقراطى) ان الربط بين مشكلة انقاذ اليهود من اوربا وهى مهمة عاجلة ، وانشاء وطن لهم فى فلسطين ليس عملا مناسبا الآن وقد يفسد القضية الاساسية وهى قضية الانقاذ . فوافقه الحاخام على ذلك ، ولكنه قال انه لا يتكلم عن وطن قومى لليهود فى فلسطين ولكنه يطالب بفتح ابواب فلسطين فقط لانها اقرب مكان ليهود أوربا الهتلرية من امريكا اللاتينية ومن انجلترا ومن اى دولة اخرى ، خاصة وان البحر المتوسط تحت

سيطرة امريكا وبريطانيا وليس تحت سيطرة هتلر وموسوليني ، ومن الممكن القيام بذلك بكل سهولة لو ان هناك ارادة واعية مصممة . وعندئذ قال ايبرهيرتر انه يرفض تضمين مشروع القرار اية عبارة عن فلسطين او الوطن القومي لليهـــود او الكومنولث اليهودي .. فاكد الحاخام مرة اخرى انه يريد فتح ابواب فلسطين . فعاجله ايبرهيرتر بقوله « .. للاقامـــة المؤقتة .. » ، فقال الحاخام يمكنك ان تقول ذلك ، ولكنى اخبرك بان اى يهودى تطا قدمه ارض فلسطين فلن يغادرها مرة اخرى مهما كانت الاحوال ، لانه ظل ينتظر هذه اللحظة الفى سنة منذ تحطيم هيكل اورشليم فى القرن الاول على يد تيتوس وفسبسيان .. » .

وهنا اضطر روجرز مقدم المشروع الى القول ان الهدف من انشاء « هيئة الانقاذ » ان تقوم بالاجراءات التى لم تقم بها اى من الهيئات او الافراد انذاك ، حيث لا توجد فى الولايات المتحدة وكالة واحدة تكرس وقتها كله لكيفية اخراج الناس من البلاد التى تحتلها المانيا . وهو يقول ان هناك وكالات اخرى وخاصة اللجنة الدوليـــة المشتركة تختص بمباشرة امور اللاجئين عندما يصلون الى اراضى الدول المحايدة او اراضى دول الحلفاء . وعلى هذا فان هدف « هيئة الانقاذ » اخراج الذين يعانون اضطهادا لكى يصبحوا لاجئين تتولاهم بعد ذلك الوكالات الاخرى المتخصصة . ولما كانت مشكلة اللاجئين مشكلة كبرى ومعقدة ، فان مشروع القرار – كما قال روجرز وزميله بولدوين مقدمي المشروع – يختص بجانب صغير من جوانب هذه المشكلة وهو بهذا لا صلة له بفلسطين باى حال من الاحوال .

ثم طلب روجرز من الحاخام وايز رايه بشكل محدد فيما اذا كان يعتقد بوجود صلة ما بين المشروع كما هو موضوع وبين فلسطين ، فاجاب الحاخام انه اساسا يعترض على عدم وجود هذه الصلة اصلا ، وهو امر غير مفهوم عنده ، فقال روجرز ان المشكلة تنقسم الى شقين مختلفين : الاول يختص بانقاذ اليهود ورعايتهم وهذا هو هدف المشروع ، والثانى ويختص بالمكان الذى يذهب اليه هؤلاء وهذا من اختصاص هيئات اخرى مثل اللجنة الدوليـــة المشتركة . واشار على الحاخام بان يتقدم اليها باقتراح فتح ابواب فلسطين ، وان كان ذلك لا يعنى الفصل بين الشـــقين (الانقاذ ودخول فلسطين) من الناحية النظرية . ولكن فتح ابواب فلسطين لم يكن فى ذهنه او ذهن زميله بولدوين عند صياغة المشروع .

وهنا انتهز رئيس الجلسة الفرصة وقال حيث ان اللجنة الدولية المشتركة تقوم ايضا بانقاذ المضطهدين سواء كانوا او يهودا او غيرهم (الشق الاول) وتختص بالبحث عن المكان الذى تنقلهم اليـــه (الشق الثانى) ، فلماذا لا يكون الشق الثانى ايضا من مهام « هيئة الانقـــاذ » المقترحة فى المشروع . فقال روجرز بحدة ان البحث عن اماكن للاجئين تقوم به جهات ومنظمات متعددة . اما اخراج اليهود من اوربا فلا توجد له هيئة مختصة وما يحاوله المشروع هو تحويل اليهود المضطهدين الى لاجئين ليكونوا بعد ذلك من مسئوليات اللجنة الدولية المشتركة .

واستمرارا فى الحوار مع الحاخام وايز قال تشارلز ايتون (جمهورى) لعـــل موقف بريطانيا من عدم فتح ابواب فلسطين امام اليهود الآن راجع الى ان هذا قد يؤدى الى انتفاضة بين المسلمين هناك تنتهى الى اوضاع غير مستقرة كما هو حادث فى الهند حيث الصراع بين المســـلمين والهندوس ، ومن هنا تحاول بريطانيا بهذا الموقف تاجيل اشعال نار من هذا النوع ريثما تستقر نار الحرب العالمية المشتعلة لتتمكن من التعامل مع المشكلة بعد ذلك . فقال الحاخام ردا على هذه الملاحظة ان خطر انتفاضة بين المسلمين لهو محض وهم وخيال كثيرا ما اسىء استخدامه وفهمه فى العلاقات الدولية ، اذ ليس هناك خطر من انتفاضة المسلمين . واشار الى ان احد المسئولين من الحكومة الامريكية وكان فى شمال افريقية ، قال له ان المسلمين فى شمال افريقية لا يعرفون بالوجود العربى ، فليس هناك اتصال بين الشعوب العربية ، وكل منهم يقف منفردا ومنعزلا عن الآخر . فالسعودية مثلا لا تهتم بشرق الاردن وشرق الاردن لا يهتم بسوريا ، وسوريـــا لا تهتم بفلسطين . كل منهم فى واد ، ثم قال ايضا انه لا بود اثارة مشكلات مع العرب ، ولكن يمكن لانجلترا ان تقول لهم فى تبرير فتح ابواب فلسطين : « عليكم ان تساعدونا فى حل المسالة التى تمس ضمير العالم المتمدين .. ليس فى وسعنا ان نترك ملايين اليهود بلا وطن على الارض » . وان على اللجنة الدولية المشتركة ان ترسل اليهود الى المكان الذى يختارونه بانفســـهم (فلسطين) ، وليس الى المكان الذى تختاره اللجنة لهم .

وخلال المناقشات الحادة حول رغبته فى اضافة تعديل يشير بفتح ابواب فلسطين للمهاجرين اليهود ، قدم اندرو سخيفلر (جمهورى) اقتراحا بصيغة للتعديل كما يلى : « ان يقوم الرئيس الامريكى بمقتضى التفويض المخول له بتعيين هيئـــــة commission تضم خبراء دبلوماسيين واقتصاديين وعسكريين للتعاون مع وكالة اللجنة الدولية المشتركة التابعة لوزارة الخارجية لوضع خطة تهدف الى العمل على انقاذ من تبقى من الشعب اليهودى من جراء ابادتهم على يد المانيا النـــازية ، والمطالبة بفتح ابواب فلسطين فورا لاى عدد من اليهود التعساء الذين نجوا من الموت » . وقد اعلن الحاخام موافقته على هذه الصيغة .

وعند هذا الحد انتهت جلســـات الاستماع التى استعرضنا جوهر ما دار فيها من مناقشات . اما البيانات التى القاها كل من لويز هاينز مندوب فيدرالية عمال امريكا ، وكيرمت ابى Eby مندوب مجلس المنظمات الصناعية ، فهى لم تثر اى جدل او نقاش لانها كانت بيانات قصد بها محاولات انقاذ اليهود دون الدخول فى تفاصيل تثير الجدل والخلاف . ولا ننسى ان هذه المنظمات تمثل قطاعا كبيرا فى المجتمع الامريكى الا وهو قطاع العمال واصحاب الصناعات المختلفة .

د. عاصم الدسوقي

هوامــش

(١٩) جلسة ٢٤ نوفمبر ١٩٤٣ .

(٢٠) انظر نص بيانها امام اللجنة فى ٢٤ نوفمبر ١٩٤٣ بالملحق رقم (٣) . ومن الملاحظ ان بيانها لم يثر اسئلة جوهرية معها حتى لقد اعربت للحضور عن اسفها ، لكن رئيس الجلسة قال ان هذا دليل مدح لك وتحية لان بيانك كان واضحا .

(٢١) انظر الملحق رقم (٤) ، بنص البيان كاملا .

الجزء الخامس فى العدد القادم

من وثائق التاريخ المعاصر

اتصالات فاروق بالألمان

بقلم : د. السيد فهمي الشناوي

عندما قامت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) كان فاروق ملك مصر فى ذلك الحين ، قد عاد منذ ثلاث سنوات (١٩٣٦) من مدرسة بريطانية ، هى المدرسة الوحيدة التى دخلها فى حياته والتى لم يتم فيها إلا بضعة شهور ..

وكان فاروق يجلس على عرش اعتاد الانجليز ان يختاروا الجالس عليه ، فهم الذين خلعوا عباس الثانى واجلسوا حسين كامل بقرار من نائب السفير (تشيهام) وهم الذين خلعوا اسماعيل واجلسوا ابنه توفيق باشا .

وكان رئيس الوزراء فى هذه الفترة هو احد ثعلبى السياسة المصرية علي باشا ماهر (والآخر هو اسماعيل صدقى) خرج علي ماهر (بك) من الوفد فى اوائل حياة الوفد لما وجد ان لعبة السياسة لها اطراف ثلاثة هى الوفد والسراى وقصر الدوبارة . وانه يمكنه الاستفادة من التناقضات والاختلافات بينها فى تكوين مستقبله السياسى . وكان احب شىء اليه ان يعتبر «رجل الساعة» . لا رجل الأمة ولا رجل السراى ولا رجل الانجليز . فهو الذى تولى الوزارة عندما كان فؤاد يحتضر . ثم هو الذى تولاها عندما تلبدت السماء بغيوم الحرب العالمية الثانية . ثم هو الذى تولاها بعد حريق القاهرة مباشرة . واهم من هذا كله انه هو الذى تولاها بعد خلع فاروق وبتكليف من رجال الثورة !

مثل هذا الرجل كانت السراى تعتبره رجلها . وكان الانجليز يجدونه احب اليهم من الوفد والطف نوعا من السراى وكان الوفد يراه اقل شرا من السراى ومن الانجليز وفيه بعض الاثر القديم الوفدى .

وعندما قامت الحرب كان يجب ان تفهم جميع الاطراف المعنية ان هذا الرجل «رجل الساعة» لابد ان يرنو الى المنتصر فى الحرب بعين مفتوحة اثناء نومه . لأن طبيعته السياسية لا تستطيع غير هذا . ولكن لم تكن صورته «كرجل الساعة» بهذا الوضوح امام كل الاطراف . ثم ان كل طرف كان لا يكف عن الأمل فى هذا الرجل ان ينضم الى معسكره غدا او بعد غد .

وعندما دخلت ايطاليا الحرب ـ وكانت تحتل ليبيا عسكريا بينما السنوسى ملكها فيما بعد لاجئا فى مديرية البحيرة يتقاضى مرتبا شهريا من السفارة البريطانية جنيهات قليلة معدودة (قرات مرة انها خمسة جنيهات !!٠) . عندما اعلنت ايطاليا الحرب سئل علي ماهر ما هو موقف مصر وهل ستعلن الحرب على ايطاليا كما هو متوقع لوجود معاهدة صداقة مع بريطانيا . وكان دخول ايطاليا هذا لم يحدث إلا بعد اجتياح هتلر لبولونيا ثم هولنداء بليجكا وفرنسا وكانت باريس على وشك السقوط وسقطت فعلا فيما بعد . فكان طبيعيا ان يراود علي ماهر عقله مرات ومرات . اجاب علي ماهر اجابة لها معناها ولا تنفى تطلعه للشمس المشرقة وتحوله عن غروب القمر البريطانى : قال «الله معنا» . وطبعا لم يعمر كثيرا فى الوزارة .

قبيل هذا التصريح وفى اثنائه وبعده كان هناك اتصالات اكيدة وفعلية بين فاروق والالمان لم تتضح فى وقتها على الاقل للمواطنين فى مصر . وحتى الانجليز لم يتوسعوا إطلاقا فى الاعلان عنها لا فى وقتها ولا بعدها كنوع من حفظ هيبتهم . ولكن جاء الاعلان عنها بعد انتهاء الحرب ذاتها ومن المصادر الالمانية ذاتها .

المراجع التى كشفت هذه الاتصالات

لابد ان تكون هناك مراجع كثيرة . ولكن الذى وقع فى يدى فقط هو كتاب الاستاذ لوكاس هرسزوسك بالالمانية . ومؤلفه هو استاذ مادة الشرق الاوسط فى جامعة وارسو . وكذلك بعض كتابات الاستاذ

العراقى الأصل مجيد خدورى بالانجليزية وهو استاذ الدراسات الدولية بجامعة جون هوبكنز فى امريكا وكذلك ورد فى مذكرات شيانو وزير خارجية ايطاليا وريبنتروب وزير خارجية المانيا عنها . ولكن اهم من هذا كله هو الوثائق النازية التى كان قد استولى عليها الحلفاء بعد هزيمة المانيا والتى اعادتها روسيا الى حكومة المانيا الغربية . وهناك بعض النتف التى وردت فى مذكرات الانجليز والالمان والطليان واليهود .

اما ما يكون قد ورد فى مذكرات شخصيات عربية فانها تكاد تكون معدومة لان السياسيين فى مصر لا يكتبون مذكراتهم وان كانوا فى العراق او سوريا يكتبونها فعلا . ولا يوجد فى المصادر المصرية شىء إلا ما ورد فى مذكرات صليب سامى باشا الوزير فى وزارة حسين سرى .

رواية صليب باشا سامى

يقرر صليب سامى فى وضوح قاطع ودقيق ماشابه بالاحكام القضائيـــــة في ثلاث وقائع عاصر هو بنفسه كل واقعة منها ومن ثم لا نرى اى محل للشك فى روايته ،

١ ـ واقعة محطة الارسال : قال انه كان هناك محطة ارسال فى قصر عابدين بالقاهرة . وان الانجليز طالبوا حسين سرى رئيس صليب سامى فى الوزارة بانتزاعها بنفسه من القصر مهددين بمهاجمة القصر وانتزاعها بالقوة فاخطر حسين سرى لنزعها بنفسه . فكان ذلك من عوامل الجفاء بين الانجليز والملك وبين الملك وحسين سرى . هذا ويبدو لنا ان بدء فكرة مهاجمة القصر بالدبابات نشأت من هذه اللحظة .

٢ ـ واقعة بدويين فى الصحراء : شكا فاروق لحسين سرى من انه لا يدرى شيئا عن شئون الحرب بينما هى تدور فى بلاده وهو سيد البلاد . نقل حسين سرى هذا الى الانجليز كمحاولة للتقريب بينهما وإزالة اثر واقعة اللاسلكى السابقة واقترح حسين سرى أن يكاشفوا الملك بخطط الحرب . قابل الملك بعد ذلك قائدا من الانجليز واذاع له انهم شرعوا فى القيام بهجوم كبير عام يوم كذا . وبعد بضعة ايام عثر الانجليز فى الصحراء الغربية على اثنين من البدو يحملان كتابا من سفير فرنسا فى مصر (وكانت خاضعة لهتلر) يشير فيه الى هذا الهجوم وموعده . طبعا كان الهجوم مفتعلا من الانجليز وبقصد اختبار الملك . ويفهم من الواقعة انه سرعان ما صدق الخبر وافشاه لسفير فيشى المتعاون مع الالمان



الملك فــاروق اثنــاء الحــرب العالميــة الثانيــة .. كانــت لــه علاقــة بالالمــان انتهــت مــع هزيمــة هتلــر وســقوط النازيــة

اتصالات فاروق بالألمان

والاخير اراد توصيله الى رومل فارسله مع بدويين فى الصحراء .

٣ ـ واقعة قطع العلاقات مع حكومة فيشى فى غيبة الملك : هذه هى اهم الوقائع التى أوردها صليب سامى لأنه هو وزير الخارجية وقتئذ ولانه هو وحده فقط الذى اصطلى بالواقعة واهم ذلك انه يعطيها تفسيرا لما حدث فى ٤ فبراير ٤٢ .

يقول ان سرى باشا استدعاه وقال له ان الانجليز طالبوه مرارا بقطع العلاقات السياسية مع فيشى لأنها حكومة المحور وتابعة لالمانيا وحكومة معادية . وان الملك رفض على الدوام هذا القطع . وأن السفير البريطانى اطلع سرى باشا على برقية ايدن طالبا فيها من السفير ان يبلغه فى ظرف ٢٤ ساعة بان العلاقات مع فيشى قد قطعت وينص صليب سامى على «كنا نخشى فعلا إذا بلغ الخلاف اشده فى هذا الموضوع أن يصر الانجليز على خلع الملك وتنصيب امير من العائلة يميل اليهم بل كنا نخشى إعادة اعلان الحماية البريطانية على مصر بحجة انها ضرورة حربية . كما فعلوا فى الحرب الأولى . ولذلك وافق سرى باشا على عرض الأمر على مجلس الوزراء حتى اذا اصدر قرارا بقطع العلاقات اخذت الوزارة على عاتقها تنفيذ هذا القرار قبل الملك تلافيا لمسئوليته واتقاء للاخطار التى قد تهدد الوطن ومراعاة لمصلحة الملك بالذات» . «وقد وافق مجلس الوزراء بالاجماع وفوض لي تنفيذه . وابلغت زملائى اننى سانفذه على خطوات مراعاة للظروف حتى اخفف وقع القرار على الملك بقدر الامكان ثم مراعاة لمصلحة الفرنسيين الذين لا ذنب لهم فى تصرفات حكومة فيشى الخاضعة للالمان ثم اقترح على السفير البريطانى أن يكتفوا بجعل حكومة فيشى تستدعى سفيرها . فقال السفير لا يكفى الاستدعاء هم لا يريدون أى سفير لفيشى فى مصر لا هذا ولا من ياتى بعده ، فسجل صليب سامى عليه قوله هذا .

وافتى بان يكون الحل هو وقف العلاقات السياسية بين مصر وفيشى لا قطعها .

كان فاروق فى الحرب العالمية الثانية مطمئن البال وواثقا من عجز الانجليز وضعفهم امام الالمان

والفارق الذى أفتى به هو ان الموقف يعنى ايقاف التمثيل الدبلوماسى دون اعتقال الفرنسيين او الاضرار بهم كاعداء . ولما قيل له ان القانون الدولى لا يعرف وقف علاقات ولكن يعرف القطع فقط قال ان القانون الدولى هو حصيلة ممارسات دولية وان الوقف ممارسة جديدة يمكن ابتداعها واضافتها وتصبح من القواعد الدولية.»

وانتهز صليب سامى فرصة غياب الملك عن القاهرة فى رحلة فى البحر الأحمر وقام بتنفيذ قرار مجلس الوزراء . وعاد الملك غاضبا واستدعاه ودافع عن فرنسا بانها عاونت مصر منذ ايام محمد علي وهى اول دولة ساعدت مصر على نشر التعليم وردد حججا كان قد كتبها سفير فيشى بالاشتراك مع محمد محمود خليل رئيس مجلس الشيوخ يومئذ فرد صليب سامى بان فرنسا هى التى سحبت اسطولها عند ضرب الاسكندرية عام ٨٢ وهى فرنسا نابليون التى احتلت مصر وحاربها جدكم وهى فرنسا لويس التاسع الذى احتل مصر فى الحروب الصليبية . وهى فرنسا التى حطمت فى نفارين أسطول جدكم . وقال صليب سامى انه تعمد اتخاذ القرار وتنفيذه فى غيبة جلالته ودون علمه وذلك لمصلحته . فقال له الملك لو كنتم فى بلاد ديكتاتورية لعرفتم كيف يكون مصيركم !! ثم قال له لا تخافوا من الانجليز ليس فى وسعهم فى ظروف الحرب هذه ان يقوموا على امر خطير مثل خلعى الذى تشير اليه.

ثم يذكر صليب سامى ما هو اخطر من كل ذلك بكثير وربما كان فيه التعليل الحقيقى لحادث ٤ فبراير : يقول انه منذ وقف (او قطع) العلاقات مع حكومة فيشى والملك يجتمع فى عوامة فى النيل لأحد كبار رجال الدين (هل هو يقصد المراغى ويتحرج



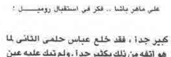
الجنرال مونتجمرى قائد معركة العلمين الذى واجه قوات المحور فى العلمين



هتلر .. اعلن ان مصر من نصيب ايطاليا !



روميل .. سعى للدخول الى مصر بجيوشه المنتصرة



علي ماهر باشا .. فكر في استقبال روميل !

عن ذكره بالاسم) يجتمع فيها مع اثنين هما علي ماهر ومحمد محمود خليل رئيس مجلس الشيوخ .

ويخطط لطرد حسين سرى وإسناد الوزارة الى محمود خليل اسما ، وفعلا الى علي ماهر وينسق بينهما على ذلك .

ومحمود خليل كان شخصية تقبل أن تلعب دائما الدور الاسمى فكان مثلا وفديا بالاسم للتكتكة السياسية وها هو يجتمع مع الملك .

وكان الانجليز فى نفس هذه الفترة يراقبون الملك بشدة وذعر معا . فهم فى الصحراء الغربية يتلقون اللطمات من روميل ثعلب الصحراء حتى أصبح أسطورة وشبحا مرعبا للجندى المعادى . وها هو الملك او بالادق على ماهر يطبق عليهم من ظهرهم . وكان واضحا ومتداولا بين وزراء سرى وغالبا بين جميع الساسيين فى البلد ما ذكره صليب سامي من أن الانجليز يخططون لخلع الملك واسناد العرش الى الامير محمد علي الموالى لهم ويخشى الكثيرون منهم إعلان الحماية للمرة الثانية فى تاريخ مصر .

وكان سبق لهم من مدة قصيرة اقتحام القصر فى عابدين ليس باشخاصهم ولكن بواسطة حسين سرى وبالاكراه .

وكان فاروق بطبعه مقامرا . وكانت هذه المرة مقامرته على أن الانجليز لابد من انهزامهم وانه واثق لدرجة أن يراهن بالعرش على ذلك . وكان احمد حسنين باشا كبير الأمناء يوحى للملك وللسياسيين وبخاصة الصحفيين بان الوضع الحربى الضعيف للانجليز ضمان لعجزهم عن أن يمسوا الملك . وكان هذا صحيحا الى حد كبير جدا ، فقد خلع عباس حلمى الثانى لما هو اتفه من ذلك بكثير جدا . ولم تبك عليه عين واحدة رغم انه كان يساند بالشعور والمال والعمل التيار الشعبى الوطنى متمثلا فى مصطفى كامل . ورغم انه ملأ القاهرة منشئات عمومية من مستشفيات ومدارس وبنى حى العباسية وخلافه . والحقيقة انه كان يستصغر شان الشعور الشعبى لدرجة انه قال لمصطفى كامل «اى شعب هذا الذى تتكلم عنه . انا لو لبست برنيطة ومشيت فى وسطه ما انتقدنى احد ولصفقوا لى!!».

وسبق لهم خلع الخديوى اسماعيل وهو الذى انشا امبراطورية مصرية شملت السودان وكينيا وزامبيا واوغندا ومالي والنيجر وكل وسط افريقيا وايضا لم تبك عليه عين واحدة . ولو انهم خلعوا فاروق ما بكى عليه مخلوق ، ولما كان ٤ فبراير قد

اتخذ هذه الأهمية ولا أثار هذه الضجة . ولكنها الضربة التى لم تكتمل استغلها المضروب الذى لم يضرب وهو فاروق أحسن استغلال ربما فى تاريخ الدعاية والاعلام العالمى .

• • •

هكذا يبدو ان علي ماهر الذى تولى الوزارة عند وفاة فؤاد وعند اعلان الحرب وعند حريق القاهرة وعند قيام ثورة يوليو كان يحلم ان يتولاها فى مناسبة اكثر بريقا وهى عند دخول رومل مصر ! واحلام هذا الرجل كانت واسعة وكان دائما يحققها من خلال الملك . الملك اسهل له من الشعب ومن الانجليز . فبعد ثورة يوليو كان من وثائق عابدين التى ضبطت تخطيط منه يبين انه يزمع تزويج شقيقات فاروق من شخصيات هامة فى المنطقة المحيطة بمصر (ولا شك عندى ايضا فى انه هو صاحب فكرة مؤتمر انشاص اول مؤتمر قمة عربى) . ولكن تدبيره فى استقبال رومل هذا لم يفشل فقط ولكنه اعتقل بعد ان احيط به فى داخل مجلس الشيوخ . وظل معتقلا فى تفتيش السرو فى محافظة دمياط طوال الحرب العالمية الثانية .

المراجع الأجنبية تكشف اتصالات فاروق تفصيلا

قلنا إن الكتب والأبحاث الأجنبية عن هذا الموضوع أكثر كثيراً جداً من الكتب العربية . ولكن لاشك عندى ان وثائق عابدين ــ التى لم تنشر حتى الآن ــ لابد ان يكون فيها القول الفصل . وهذه مهمة المصريين .

أسماء عملاء الملك فى الاتصالات

تحدد المراجع الأجنبية بان رجال الملك الذين كلفوا بان يكونوا حلقة الاتصال هم القائم بالأعمال المصرى فى برن فى سويسرا عسل بك . والبرنس محمد ابراهيم . والقنصل المصرى فى اسطنبول حافظ عمرو . وسفير مصر فى طهران وهو حمو الملك ــ ذو الفقار باشا وشقيقه ايضا . وكان هؤلاء الاشخاص فى هذه المراكز فى طهران واسطنبول وبرن يتصلون بالمراكز الدبلوماسية الالمانية فى نفس المدن وجميعها بلاد محايدة . ويرجع تاريخ الاتصال الى ما قبل هجوم المانيا على روسيا .

اما سمير بك ذو الفقار شقيق حمو الملك فقد كان اتصاله مباشرة مع فون بابن فى ترابيا عن طريق البعثة الدبلوماسية المصرية فى فيشى .

أهم الاتصالات

عندما قابل ذو الفقار باشا سفير مصر فى طهران فون إتل رئيس البعثة الدبلوماسية الالمانية فى طهران وصف ذو الفقار هذا الاجتماع بانه اجتماع رسمى وانه بتكليف من فاروق وانه يجتمع معه باسم الملك فاروق وبتعليمات مباشرة منه . وانه اى فاروق يشكو اليهم انين فاروق من الضغط البريطانى المتزايد يوما بعد يوم والذى لا يعوضه اى عطف من الشعب فالشعب كله مع الوفد . وان فاروق إذن لا يجد جهة ولا شخصا يؤمل فيها وينتظر منها ويحترمها إلا المانيا وهتلر . وانه يتمنى النصر لالمانيا وواثق من قدومه . وانه فى هذه النقطة بالذات ــ نقطة النصر للالمان ــ فان كل الشعب المصرى رغم شعوره السلبى نحو الملك إلا انه يتقد حماسه للألمان . وانهى كلامه بأن «الملك والشعب يتمنى وينتظر رؤية جيوش هتلر قادمة لتحرير مصر بأسرع ما يمكن».

فى أبريل ٤١ تلقى ذو الفقار باشا رد للمانيا على الرسالة السابقة وكان ردا رسميا . سلمه إتل رسميا الى ذو الفقار باشا وهو «ريبنتروب (وزير خارجية المانيا) يؤكد للملك باسم هتلر ان حرب المانيا ليست موجهة ضد مصر ولا ضد اى دولة عربية ولكن فقط ضد انجلترا . وان خطة المانيا صريحة وهى خلع بريطانيا من اوربا ومن الشرق الأوسط . ثم إقامة نظام دولى جديد مبنى على احترام حقوق الشعوب . واقترح ريبنتروب أن يكون الاتصال بين فاروق والألمان إما عن طريق تركيا او رومانيا لانه طبعا كان يتوقع تمزيق إيران بين روسيا والغرب .

ولكن ذو الفقار باشا كان يريد لنفسه ان يكون هو ــ وهو وحده ــ الواسطة وحلقة الوصل بين مصر والمانيا دون غيره .

وظل فاروق على اتصال مستمر مع الألمان طوال عام ٤١ . ففى ٤١/٦/٢٩ لرسل يحذر إتل من ان الانجليز سوف يحتلون آبار بترول ايران .

ولكن طوال هذا الوقت كان الالمان يضعون ثقة كبيرة فى الوفد ويحاولون الاتصال به . كان الوفد فى هذه الفترة هو المعارض القوى لحكومة حسين سرى . وكانت حكومة حسين سرى تبدو عميلة للانجليز وكان الوفد يبدو كانه يزلزل الأرض تحت أقدام الانجليز . وكان الالمان يرون ان هذه القوة الشعبية الموجهة ضد الانجليز هى التى يبحثون عنها . بل ظلت هذه الرغبة لدى الالمان حتى بعد تولى الوفد الحكم بعد ٤ فبراير عام ٤٢ (انظر وثيقة ملشر ترجمة رقم ٢٢٦/١٧٣٦٢٨ ــ ٣٠ برلين . من وثائق الخارجية الألمانية . وانظر مقال ولز ساكر فى ٤١/٩/٢ فى صحيفة دوتش انفور ماشنيفل) .

فى ٤١/٧/٢ قابل اتل سفير المانيا فى طهران ، ذو الفقار باشا سفير مصر حاملا من حكومة المانيا استفساراً عن مصير ومكان عزيز المصرى وعبد الرحمن عزام وعلي ماهر .

فى ٤ اكتوبر قابل الدكتور سمير بك ذو الفقار شقيق حمو الملك قابل فون بابن فى ترابيا متكلما باسم وبامر فاروق ووصف نفسه بانه مندوب ثلاثة احزاب هى الوفد والحزب الوطنى والأحرار الدستوريين طالبا تأكيداً رسميا بتمام استقلال مصر وانها لن تضم الى منطقة نفوذ ايطاليا . وطالب بوقف الغارات على القاهرة وأعطى معلومات عن الجيوش البريطانية وبعض المنشئات فى مصر .

هذه المقابلة خطيرة جدا . هل عندما احس فاروق ان الالمان يأملون ان يتصل بهم الوفد او هم يتصلون به ، جعل مندوبه يزعم انه الى جانب كونه المندوب الشخصى لفاروق فانه مندوب هذه الاحزاب جميعا . أم هل فعلا كلفته هذه الاحزاب بهذه الرسالة او على الأقل هل حدثت اية اتصالات فعلية مع الوفد ؟ إن ظهور المقال الذى ذكرناه فى ٢ سبتمبر ٤١ باسم ولز ساكر يتمنى الاتصال بالوفد . ثم حدوث هذا الاتصال فى أكتوبر يوحى اما بحدوث اتصال فعلا او بان الملك أسرع بجعل مندوبه يزعم للألمان انه ايضا مندوب الوفد .. للأسف لم يكتب رجال الوفد او الاحزاب مذكراتهم !

اما خشية مصر من أن تضم الى املاك إيطاليا التى وردت فى رسالة هذا الاجتماع



الخديوي عباس الثاني
خلعه الانجليز بقرار من نائب السفير البريطاني

فتجعلنى ارجح انه فعلا كان هناك اتصال تم مع الوفد . لان ايطاليا كانت دائما ذات علاقات متصلة مع السراى . فافندينا اسماعيل نفى واختار منفاه فى ايطاليا وليس فى تركيا . وابنه احمد فؤاد ـ الملك فؤاد ـ تعلم فى المدرسة الحربية فى تورينو بشمال ايطاليا . وملك ايطاليا البرتو عندما خلع من العرش جاء الى مصر بل ودفن فى مصر . ومعظم حاشية الملك من مهندسين ومربى الخيل وسياس الخيل كانوا طلاينة . وكانت تصريحات موسولينى نفسها صريحة فى انه يطمع فى مصر لدرجة انه أعد حصانا ابيض مخصوصا ليدخل به الى شبرد فى ميدان الاوبرا فى القاهرة .

الاتصال بالمصريين فى أوربا

مما يجعلنا نشك فى وجود اتصال فعلى من الألمان مع الاحزاب فى مصر انه كان هناك اتصال فعلى بين الالمان وبين المصريين فى أوربا كانت هناك جمعية طلبة برأسها الدكتور الطبيب ناصر . وكان اسمها الجمعية المصرية الوطنية بل وجعلوا ايطاليا تناصر هذه الجمعية بشدة . وكان هناك اتصال مع شخصية مصرية خطيرة تعيش فى أوربا هو عباس حلمى الثانى . فهل كان يمكن ان تحدث مثل هذه الاتصالات الهامشية ولا يحاولون الاتصال بالاحزاب خاصة الوفد .

اتصالاتهم بعباس حلمى الثانى لها طابع خاص واهمية خطيرة . هذا الخديوى خلعته بريطانيا العظمى عام ١٤ ومن ثم فهو عدو جاهز ضد الانجليز . ثم انه هو نفسه كان صديقا شخصيا لرجال الصناعة الالمان ولقيادات النازى وكان نشطا وطموحا وهو الأب المؤسس للحزب الوطنى. ولكنّ اراءه كانت خليطا من الواقعية السياسية والغرور الارستقراطى . ورغم ان وجوده فى اوربا كان يقلق باستمرار "فؤاد" ثم "فاروق" إلا انهم ارضوه ماديا حتى كف عن المطالبة بالعرش عام ٣١ لنفسه ولكنه ظل يطالب به لابنه الامير عبد المنعم زوج الأميرة نسل شاه . وطبيعى ان يتصل الالمان بهذه الشخصية الهامة والخطيرة والكارهة للانجليز والحاملة ثأرا لهم بالمطالبة بالعرش والتى تعيش فى وسط اوربا ربع قرن كامل بعد الخلع .

ظلت الاتصالات به قائمة بين سفارة المانيا فى باريس وبينه . وزار هو برلين حيث الرياسة العليا من يوم ٢٥ سبتمبر الى ٢٨ سبتمبر ٤١ . وقد سببت هذه الزيارة قلقا بالغا لدى القصر الملكى فى القاهرة .

وكنتيجة لقلق فاروق البالغ من هذه الاتصالات امر ريبنتروب بعدم اجراء اى اتصالات به ولكن قوى صديقة لعباس حلمى الغت هذا الخطر ولكن ايضا ظل عباس حلمى يلاقى صعوبات فى محادثاته مع الالمان . ويبدو ان فاروق كان يراقب اتصالات الالمان بعباس وكذلك كان عباس يراقب اتصالاتهم واحس الالمان انهم قد يفقدون الاثنين معا . فقرروا فى النهاية عدم ترشيح احد لعرش مصر عند دخول مصر .

٤ فبراير

صمم الملك على اخراج صليب سامى من الخارجية رغم انه اقتنع به فى مناقشته عما جنت يداه من قطع العلاقة مع فيشى فى غيبة الملك . ولكنه صمم على اخراجه حتى يستقيل حسين سرى نفسه . وهو يريد إخراج حسين سرى حتى يعهد بالوزارة الى علي ماهر فعلا ولكن تحت اسم محمد محمود خليل . سيَّر علي ماهر مظاهرات من الطلبة الذين كان يتصل بهم من عناصر الازهر ومصر الفتاة تهتف:الى الامام يا روميل.وكان الجو مهيئا فى ان يردد هذا الهتاف الاف الناس خلف اى واحد يؤدى الهتاف لان حسين سرى مفصول فلن يتعرض للمظاهرات ولان الغضب يغلى بالشعب بسبب صعوبات التموين ولان انتصارات الالمان فى ليبيا وهزائم الانجليز والامريكان فى الشرق الأقصى كفيلة بكتم انفاس الانجليز .

استقال حسين سرى فى ٢ فبراير . والسفير البريطانى زار الملك فى ٣ فبراير طالبا تكوين وزارة برأسها مصطفى النحاس وهو يعلم تماما ان النحاس يرفض رياسة اى وزارة ائتلافية كمبدأ منذ سنوات والملك ايضا يعلم شرط النحاس هذا . تلكأ الملك فى الرد على السفير بحجة انه يجرى اتصالات . وعندما اجرى الاتصالات أوحى للاحرار والسعديين بالمطالبة بوزارة ائتلافية وهو يعلم ان النحاس يرفضها . كان الملك يتلكأ توقعا لانتصار المانى جديد يحدث ، ويخرجه من الأزمة بطلا .

والوفد نفسه كان الى هذه اللحظة يطالب بجعل القاهرة مدينة مفتوحة والحياد بين الانجليز والمحور ويوجه انتقادات عديدة للانجليز تتزايد يوما بعد يوم . ولم يكن فى موقفه اى تضاد ضد الالمان لو دخلوا . ولو ان الالمان دخلوا وتعاونوا مع الوفد بدلا من الملك لما كان عجبا وربما كان عباس حلمى يعاد الى العرش . وكانت هذه هى ارجح الاحتمالات

بعد ظهر ٤ فبراير انذر السفير البريطانى ملك مصر بان يتحمل النتائج إذا وصلت الساعة ٦ دون أن يتولى النحاس الحكم . لم يستجب الملك . حضر السفير بنفسه ومعه الجنرال ستون وفرقة مشاة و ٣ دبابات خفيفة . بعد ساعة اخطر الملك الاحزاب عن عزمه بتكليف النحاس بالحكم .

موقف المحور من الملك والوفد

١ ـ ايطاليا كانت تعتبر الوفد عدوا منذ عقد معاهدة ٣٦ . وانحازت فى التعليق على حادث ٤ فبراير مع الملك عن طريق وكالة انبائها «ستيفانى» وكانت العلاقات العائلية بين قصر عابدين وروما أقوى من الاحزاب فى البلدين .

٢ ـ المانيا كانت تعتبر انه من السابق لأوانه قبل دخول جيوشها مصر اتخاذ اى موقف فى النزاع بين الملك والوفد .

ولكن مذكرات ملشر فى برلين فى ٤٤/٢/٩ (٥ ايام بعد الحادث) تقول ان حكومة الوفد حكومة وطنية وحكومات الاقليات حكومات انجليزية حتى لو كانت خارج الحكم وحتى لو ادعت معاداتها للانجليز .

رفضت المانيا موقف ايطاليا الدعائى الصريح ضد الوفد . هذا رغم اتصال

الحكومة الايطالية بسفيرها ماكنزن (سفير المانيا فى روما) ورفضت نشر الوثائق التى قدمتها ايطاليا لالمانيا للنشر ضد الوفد .

كاد الموقف أن ينفجر بين ايطاليا والمانيا بسبب الوفد : الايطاليون يطالبون سفير المانيا فى روما ماكنزن والمندوب الخاص فون بسمارك بنشر الوثائق كاملة ، وذلك لأن ايطاليا كانت حساسة جدا فى الشئون الافريقية وتعتبر ان افريقيا هى مجالها الحيوى اما مجال المانيا الحيوى فهو أوربا . ولقد كان فقدهم للحبشة ثم هزائمهم فى شمال افريقيا ذا تأثير شديد على الشعب الايطالى . كان موسولينى شخصيا يريد اعتبار الشرق ميدانا خاصا لايطاليا دون المانيا لدرجة انه عارض طويلا فى اشتراك الالمان فى حرب شمال افريقيا وكلما زاد دور المانيا وزادت انتصارات روميل كلما زادت شكوك موسولينى وغيرته . وزاد غيظه هذا موقف الالمان من الوفد والنحاس .

التخطيط المحورى لمستقبل مصر

ظل هتلر يعلن ان مصر وقنال السويس يجب أن يكونا من نصيب ايطاليا . بل انه قرر ان تكون روما هى مركز البروباجندا الموجهة لمصر والعرب جميعا . ولكن هذه الاذاعة (مقرها بارى بجنوب ايطاليا) تجاهلت اى اعتراف باستقلال مصر فى حالة الغزو .

صدرت تعليمات من وايز ساكر فى برلين الى فون توراث فى قيادة روميل بأنه فى حالة الغزو يجب إعطاء فاروق صورة ومركز الصدارة فى أول الامر ثم بعد ذلك يعاد تشكيل الصورة . واصدر هتلر اوامره الى ادارة «اوسوارتج امت» باتخاذ احتياطات ضد خطف الانجليز لفاروق وحملهم له معهم عند انسحابهم .

ثم أرسل وايز ساكر (وكان سكرتير هتلر الخاص) تعليمات بان النحاس والوفد هم اعداء للسراى ولايطاليا فقط وليس لألمانيا . وانه رغم انه حزب وطنى إلا انه فى حالة الغزو سوف يأخذ فى اعتباره راى الوفد - مدى القوة الألمانية الرادعة كما هو يأخذ الأن مدى القوة الرادعة البريطانية داخل بلاده . وان كل المطلوب الآن هو ضمانة ان يظل الوفد وكذلك الجيش المصرى سلبيين فى النزاع بين المانيا وايطاليا .

فى يوم ٢ يوليو ٤٢ صدر اعلان من المحور بالحاح من ايطاليا على المانيا يقول «فى هذا الوقت الذى تتقدم فيه قوات المحور المنتصرة نحو مصر يهم المحور ان يحترم ويؤكد استقلال مصر ، إن قوات المحور داخل مصر ليست قوات فى ارض معادية ولكنها قوات تهدف الى طرد الانجليز وتحرير الشرق من نفوذ انجلترا . ان سياستنا هى مصر للمصريين» . واضح ان هذا الاسلوب اسلوب ايطالى وليس المانيا . ويلاحظ انه خلا من نص الاستقلال الكامل والسيادة التامة لمصر وهو النصر الذى كانت تحرص عليه الدوائر المصرية والذى كانت قد وجهت المانيا مثيله للعراق أثناء ثورة الكيلانى - كما لم يحتو الاعلان شيئا عن امال العرب ولا عن وحدة مصر والسودان وهى من اساسيات السياسة المصرية .

ولما كان ريبنتروب فى توجيهاته للدعاية الالمانية يركز دائما على ضرورة الاشارة الى الوحدة العربية والوعد بها من جانب المانيا فلنا الحق ان نعتبر الاعلان السابق الصادر فى ٢ يوليو هو من وضع ايطاليا اساسا . ومعنى هذا تنازل من الدعاية النازية الى الدعاية الايطالية .

هذه التنازلات توقفت حالا . إذ ان الالمان كانوا قد بدأوا اتصالات مباشرة مع مصر بعد ان كانت هذه الاتصالات قد توقفت بفشل تهريب عزيز المصرى على يد الضباط الاحرار . فقد اسقط الالمان جاسوسين قرب الفيوم ومعهما جهاز لاسلكى قام بتشغيله انور السادات .

وطوال شهر يوليو واثناء تقدم الجيش الألمانى فى الصحراء حاولوا تجديد الاتصال بفاروق ذاته لنقل رسالة من هتلر وريبنتروب اليه محذرين إياه من مؤامرات انجلترا لخطفه معهم عند انسحابهم وداعين إياه الى الهرب من مصر الى القيادة الألمانية فى كريت . وطالبوا باقامة وسيلة اتصال دائم مع الملك واقترحوا استعمال الاذاعات الخاصة بكل من البلدين فى هذه الاتصالات . طلبات الالمان هذه جميعا كانت من وراء ظهر الطليان !!

هذه الاتصالات الألمانية مع فاروق اعلم بها واشترك فيها كل من الحاج امين الحسينى ووكيل القمصان الخضراء (مصر الفتاة) الدكتور مصطفى الوكيل . كانت موجة القمصان الملونة هى طابع النشاط الشبابى المتعاطف مع النازية فى العالم كله . تفاصيل هذا الدور لمصطفى الوكيل هو انه فى ٣٠ يوليو ٤٢ طار حاملا باسبور باسم كورت هوفمان صادر من ادارة «اوسوارتج إمت» ومعه العميل الالمانى شرينر ومعهما رئيس البعثة الدبلوماسية الالمانية فى طهران وهو الشخص الرئيسى فى موضوع اتصالات فاروق واسمه إتل . طاروا جميعاً من برلين الى صوفيا . ثم من صوفيا بالقطار الى اسطنبول . حيث وصلوها يوم ٢ يوليو . قابلهم زوج اخت المفتى واسمه اسحق درويش ونصحهم بمقابلة قنصل مصر امين بك زكى . بعد هذه المقابلة مباشرة طار امين زكى الى القاهرة عن طريق اطنة القاهرة وفى طائرة بريطانية !! حيث انه كان يحمل توصية خاصة بريطانية تسمح له بركوب الطيران الحربى البريطانى وهو الطيران الوحيد الشغال . هل كانت هذه غفلة من الانجليز أم كان تغافلا لمراقبته وتغافلا مقصودا ؟

وصل امين زكى القاهرة يوم ٥ يوليو . وقابل فاروق . يوم ٩ يوليو كان امين زكى فى اسطنبول يحمل رد الرسالة ومؤدى هذا الرد أن «فاروق تلقى الاشارة المرسلة اليه ووصلته فعلا» . ثم فى يوم ٢٣ يوليو طار اتل من طهران الى اسطنبول وقابل امين زكى حيث نقل اليه هذا الاخير رسالة فاروق الشفوية وصلبها هو «فاروق يشكر هتلر على اعلان المحور بخصوص مستقبل مصر ولهذا فانه يرفض مغادرة مصر الى مقر روميل أو الى كريت . وانه فى اللحظة الحرجة بالنسبة للانجليز عند انسحابهم سوف يختفى فاروق بحيث لا يمكنهم اختطافه ولن يكون عندهم وقت كاف للبحث عنه بينما هم فى عجلة من أمرهم . وكل ما يطلبه من الالمان فقط أن يعطوه إنذاراً مباشراً صريحاً قبل هذه اللحظة الحرجة» (فاروق يقصد ان ينبئوه بموعد الضربة القاضية ضد الانجليز !) .

فى نفس هذا الشهر يوليو الساخن وفى يوم ٦ يوليو بالذات هرب ضابط طيارهو احمد سعودى حسين من مصر الى قيادة روميل بتخطيط من فاروق . ولكن مدافع روميل اسقطته ميتاً . ومع ذلك ففى اليوم التالى مباشرة ٧ يوليو هرب صول الطيران محمد رضوان ونجح فى اجتياز المدفعية المضادة للطيران لدى كل من الانجليز والالمان . لاحظ ان هذه المدفعية كانت بدائية جدا على مستوى العالم كله لدرجة أن البكباشى عبد المنعم رياض المعار للانجليز أثناء الحرب كان هو احسن مدفعجى ضد الطيران فى الجيش

الانجليزى كله .

حمل الالمان صول الطيران محمد رضوان من شمال افريقيا الى برلين يوم ٢٠ يوليو . ولكن وثائق «الولهمستراس» تقول ان سؤال رضوان كشف انه لا يحمل اية معلومات سياسية او حربية ذات قيمة .

ولكن رضوان قرر لهم انه عضو فى تنظيم سياسى سرى فى مصر يعتمد على خلايا كل خلية من ٥ افراد . وطالب فى تقريره الموجود فى ادارة «اورسوارتج إمت» نصا الآتى «لابد من اعطاء العمال والفلاحين فى مصر وسيلة تعبير عن نفسهم . ووصف فاروق بانه تركى ولا يهمه مصر ولكن تهمه ثروته الخاصة فقط . ثم عارض الوفد وجميع الاحزاب القائمة ونادى أن يقوم حكم عسكري» . وهناك تعليقات بخط محرر المحضر مع رضوان تبين انه لا يوافق على اراء رضوان لان خط المانيا السياسى هو استخدام فاروق والطبقة الحاكمة المصرية .

أعيد رضوان الى تركيا . وعمل مع الفيلق الألمانى كمترجم . بعد نجاح ثورة يوليو دلت بعض الدلائل على ان سعودى ورضوان كانا مبعوثين من الضباط الاحرار وان الضباط الاحرار كانوا على اتصال بالقيادة الألمانية فى ليبيا طوال عام ٤١ ولكن قطعت الاتصالات بعد فشل هروب عزيز المصرى .

الاتصال بالاذاعات

عندما عاد امين بك زكى قنصل مصر من مصر الى اسطنبول قابل اتل وحمل اليه رسالة من فاروق . رسالة شفوية تقول ان فاروق أمر طياراً وصولا بالطيران . بالهرب سراً الى روميل ؟! وان معهما خرائط هامة ! وطلب فاروق فى حالة وصول سعودى ان تذيع اذاعة الرايخ الموجهة للعرب فى افتتاح الصباح سورة الاخلاص . واذا وصل رضوان تذيع سورة الفلق . ولكن من المهم الذى تؤكده الوثائق الألمانية ان الألمان لم تصلهم اى خرائط . وان الالمان ساورهم شك شديد حول سعودى ورضوان . وقد اذيعت سورة الفلق يوم ١٣ اغسطس وبعد عدة تاجيلات . ويبدو أن فاروق كان عنده مندوبون خلاف سعودى ورضوان . ومازال سرا غامضا هل هو فعلا الذى أرسلهم ام كانت حيلة منه ليعرف من الالمان اسماء اى مصريين يكونون على اتصال بالالمان بعد ان فوجىء بهرب هذين الشخصين . هل كان يراقب الضباط الاحرار أو يراقب الأحزاب .

كان هناك تجهيز لاحتلال المحور وهنا رفض الألمان اعطاء اى تنازلات للطليان بل رفضت اعطاء روما اى تصورات عما تنويه. كانت المانيا قوية فى شمال افريقيا وكانت هى التى تحتمل عبء المجهود الحربى كله فى عملية الغزو المزمع .

كانت القيادة العليا معقودة لروميل . ولكن لا أحد يعرف حقيقة غريبة وهى ان روميل كان عليه رئيس ايطالى اسمه باستيكو . كان باستيكو مكتفيا بالادارة المالية فقط ؛ وكان الالمان واثقين بانهم بعد الغزو سوف يكونون متمتعين بحرية كاملة فى التصرف دون الطليان . وكان الالمان يزمعون ان يتركوا الادارة وشئون المال للطليان بعد غزو مصر ولكن تظل الشئون الحربية فى يدهم وحدهم . وكان تقدير الالمان ان تغذية الشعب المصرى والانفاق عليه تحت ظروف الحصار البحرى الذى تفرضه الحرب مسالة صعبة تترك لايطاليا لتوحل فيها .

وكان الطليان يدركون هذه الصعوبة . فقد عقد موسولينى مع شيانو يوم ٢ يوليو اجتماعا لدراسة هذه المشكلة . وكان موسولينى يستعجل الغزو يوميا بل كل ساعة وكان يتوقع دخوله شخصيا كانه يوليوس قيصر الرومانى القديم وفى صورة اكثر تفوقا وبريقا .

قرر موسولينى وشيانو فى هذا الاجتماع ان يظل روميل قائداً عاما بعد الغزو ولكن يظل خاضعا لباستيكو هذا . وقررا أن تؤلف حكومة مدنية خاضعة لادارة الـ «دلجاتوبوليتكو» . وان يراس هذه الأخيرة الكونت مازولينى سفير ايطاليا فى مصر ويكون معه ضابط اتصال المانى ليتفاهم مع روميل . أرسلت هذه المقررات الى هتلر . رفض هتلر كل هذا باعتباره سابقاً لاوانه . لكن ظلت ايطاليا تضغط الى أن وافق ريبنتروب عليها جميعا .

كان ترتيب الألمان ان يتولى روميل القيادة وان يكون فون فوراث ضابط اتصال بالطليان ولكن رفض الالمان ذكر بند «فون نوراث» هذا حتى يظل روميل الممثل الوحيد . كان هذا راى هتلر . وكان يرى ان اية مشاكل بين الالمان والطليان تحل عن طريق واحد هو السيطرة الحربية . اما من الناحية السياسية فكان لا يعارض فى اعطاء ايطاليا دوراً بارزاً وربما الدور الأول ليس فى مصر وحدها ولكن فى كل البلاد العربية أيضا .

كانت المفاوضات بين المانيا وايطاليا بخصوص توزيع الغنائم ليس فقط على المستوى الحكومى ولكن كاتفاقات محلية بين ضباط وجنود كلا الجيشين مع بعضهما البعض . كان راى الطليان ان غنائم مصر لهم وان غنائم الشرق الأوسط خارج مصر للالمان . وعندما عرض هذا على هتلر قال ان القاعدة العملية هى ان الغنيمة ملك من تقع فى يده ؛ اما روميل فقد رفض اى رقابة اقتصادية عليه من ايطاليا . ولكن ايطاليا احتجت بان هناك اتفاقية رسمية منذ شهور (١٤ مارس ٤٢) طبقت على الفرق الايطالية التى شاركت هتلر فى غزو روسيا وكانت السيطرة الاقتصادية عليه فى يد الالمان . وبالتالى طالبوا ان تكون السيطرة الاقتصادية على الالمان بصفتهم مشتركين فى الغزو مع ايطاليا تحت قيادة ايطالية (باستيكو) .

المهم أن الطليان ذكروا الالمان بانهم لا يتقنون الادارة المدنية والمالية وذكروهم بمجاعة اليونان بعد الغزو وحذروا من تكرارها فى مصر .

فاروق ينقلب على الألمان

بدا مونتجومري هجومه يوم ٢٣/١٠/٤٢ وكانت المعركة الفاصلة يوم ١١/١ . فقد روميل ٤٥٠ دبابة من ٦٠٠ وعشرة الاف قتيل وخمسة عشر الف جريح وثلاثين الف أسير ويوم ١١/٨ تمت حركة الكماشة المسماة «تورش» التى سحقت روميل بعد ١٨ يوما فقط من بدء هجوم مونتجمرى اى يوم ١١/١٩ هاجم الروس هتلر وسحقوه .

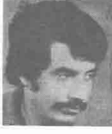
تقوضت آمال فاروق بل إنه ارتعش وانتابته حالة نفسية . ادرك أن هتلر لم ينهزم فى شمال افريقيا فقط ولكن فى روسيا وداخل أوربا . بدا يمالىء الانجليز . قدم لهم قصر راس التين ليكون مستشفى . فتح كل قصوره لجرحاهم وجنودهم . رقص مع جنودهم . نقل اتصالاته الى تشرشل بل الى المخابرات البريطانية نفسها .

وهذا حديث اخر .

د. السيد فهمي الشناوي

محمد عبدالملك

في مجموعته القصصية الثالثة



محمد عبد الملك

بقلم : عبدالله خليفة

● ● فى العدد الماضي نشرت « الدوحة » الحلقة الأولى من هذه الدراسة حول الكاتب البحريني محمد عبد الملك من خلال مجموعته القصصية الثالثة «ثقوب فى رئة المدينة» وفى الجزء السابق من الدراسة قدم الناقد نظرة عامة الى المجموعة وتناول بعض قصصها ، وهو فى هذا الجزء يواصل مرحلته النقدية مع المجموعة مبتدئا بقصة «الطائر الأبيض» ● ●

● الطائر الأخضر ●

« مختار القادري » رمز واضح مباشر ، انه ليس شخصية ، بل قناعا قنيا يحمل دلالات الخير والضوء والربيع . هو يسكن ذات الحـــــارة باسم اكثر اشراقا « حارة الوفاء » ، ولكنه ـ ايضا ـ ليس انسانا عاديا ، فحين يسقط اسمه فى مجالس الحارة تتفجر الأسئلة . من اين جاء ؟ متى جاء ؟ ما هى وجهته ؟ ولا احد يمتلك اجابة محددة .

علاقته بام سعد علاقة ذات خصوصية ما ، هى امراة بلا زوج ، تسكن مع ابنها سعد فى نهاية الحارة عند شواطىء القمر ، وكان القادري ياتى لزيارتها فى الليل .

وينفجر خبر فى الحارة : سياتى القادري هذا اليوم ، فتزغرد أم سعد ، وتنتشر الخبر ، وتفتح الفتيات شبابيكهن وقلوبهن ويعلقن الزهور ، ويعد الشباب مجلسا للشراب ، ويفتح سعد صندوقه وينتزع صورة مهداة اليه من القادري نفسه قبل سنوات . وامتنع البحارة القدامى عن دخول البحر وانتظروا قدومه .

ولكن القادري لم يات لأسباب مجهولة . فظلت الاكواب فارغة فى مجلس الشباب ، وتجمدت أم سعد وجلست تفكر ، ورقد سعد عند عتبة الباب وذبل الياسمين فى صدور العذارى ، ودخل البحارة القدامى البحر ، ولم يظهر الطائر الاخضر .

ومضت شهور ، وفى الليلة التاســـعة والتسعين ، اقبل طارق غريب وسلم ام سعد رسالة ومضى فى الظلام ، وفتحت الورقة فسقطت صورة القادري بعينيه الذكية ووجهه الصبوح .

فتحت الشبابيك ، واضيئت المصابيح وخرج سرب الاطفال يغنى ويدور فى الزقاق ، وعادت البنات يتراشقن بالياسمين من النوافذ ، ورايت ام سعد بثوبها الابيض ، وتواصلت الاغنية فوق السطوح .

اقبل الطائر الاخضر من الشـــــمال ، شاهدوا وجهه تحت ضوء القمر ، شعلة عينه المتقدة ، وتوجه الجميع إلى طريق واحد .

مختار القادري يظل إذن لا شخصية ، مجرد رمز ينبىء بعالم اخضر قادم ، كل اهل الحارة يتوقون الى قدومه ، وهو يغيب ويتاخر كثيراً ، غير انه حتما قادم ، ليس مثل الاسطورة الغربية عن « الذى ياتى ولا ياتى » بل هو حنين الفنان الشعبى الى العالم الأفضل القادم حتماً .

الادوات المنفذة للفكرة بسيطة تماما ، عبارة عن توزيع ما لاغنية شعبية ، تعبر عن إحساس عميق ودفين بقدوم شيء رائـــع يوما ما .

إن الكاتب لم يوسط النماذج للوصول إلى الظلال ، فبقيت الشخصيات مجرد أدوات للوصول إلى هذه اللوحة . ليس ثمة شخصية حية ، فيظل القادرى فكرة بلا تجسيد .

إننا ندهش لكون القادرى بهذا الســحر العجيب . فمن اين يمتلك هذا التاثير ؟ لم يستطع الكاتب ان يحيله الى شخصية ، ويقيم له صلة حدثية حقيقية بالحي ، ان قدرته على ان يشكل العالم بلون اخضر ليست لها حيثيات فنية تؤكدها ، فبقى المعنى العام بدون تشكيل مقام على عناصر القصة .

إن وجهه المتالق وشاربيه وعينيـــه البراقتين ملامح مادية لا تفيد معنى الحكاية ولا تضيف شيئا . فقط علاقات اخرى ، هامة وذات صلة عميقة بالناس ، يمكن ان تعطى شيئا .

وعلاقته باهل الحارة علاقة هامشـــية سطحية لا تضرب جذورا عميقة بالأرض ، وهى لا تتعدى علاقة سعد به . فهذا الطفل يتصور قدوم القادرى وهويدخل البيت ، يراه وهو يعانق امه ومن ثم يرفعه إلى أعلى ويقبله ويقذفه فى الهواء مرات فيطير ، ويضحك بصوت جهوري ، وتتحرك اصابعه فوق شاربه فى انتظام ورتابة .

لا تتعدى تصورات الشخصيات هـــذا المستوى المحدود من العلاقة . وذلك بسبب التصور السائد فى هذا النوع من القصص ، حيث يتشكل النـــاس إلى مجموعتين ، مجموعة النخبة وهم افراد قلائل بمثابة رموز تجسد النور والطهـــارة والخير ، ومجموعة الناس العاديين الذين ينتظرون فى واقعهم المؤلم مجيء هؤلاء المخلصين .

ان القادري لا يتشكل باعتباره إنسانا ، بل يظهر كشيء خارق ، وحينئذ تتتالى كل النتائج الاخرى .

لاشك ان مثل هذه القصة تمثل تقدما عن قصص التصوير المباشر ، ففيها اراد الكاتب ان يكسر طريقته العادية الرتيبة ، فحول

الأغنية الشعبية الى قصة، فحلق، وهشم المنظور العادى، وخلق حكاية تقترب من الأسطورة، وفى ظل هذا المستوى ليس من السهل خلق شخصية فنية. إن هذا التكسير هو حلقة الى الامام بالنسبة الى القصص السابقة. ولكن الى اين ؟ وما هى قوانين هذا التقدم الفنى وما هى وجهته ؟

إن هذا التكسير شيء إيجابى، فى ظل رتابة فنية معينة، ولكن يجب أن يتجه اتجاها صحيحا. فالبطل غدا مجرد عباءة فكرية وليس شخصية حية، وفى الوقت الذى يجب على الفنان ان يكسر رتابته، عليه ان يخلق شخصيات حقيقية.

هذا الترابط الوثيق بين العام والخاص، بين الموضوعي والذاتي، مفتقد فى شخصيته. ففى الوقت الذى يعبر فيه البطل عن معنى عام لابد ان تكون له ملامحه الشخصية. واذا كان رمزا فلابد ان يضمر هذا الرمز داخل الشخصية.

بهذا يقترب البطل من الأرض والبشر. إن تكسير الرؤية التقليدية أصبح أمرا ضروريا فى أدب الكاتب، ولكن ليس فى إضاعة الملامح الواقعية للانسان، بل من اجلها.

● امكانية حل التناقض ●

لقد راينا كيف توزعت ريشة الفنان بين اسلوبين فى خلق الشخصية. الأول يعتمد على التقاط المواد الخام المباشرة من الحياة وطرحها بصورة لا تتضمن إعادة الخلق الفني، وتضمينها ابعادا جديدة، ووضعها فى مسارات اكثر تطورا وتوغلا فى فهم الحياة وإعادة خلقها على اسس اخرى.

ولاشك ان هذه الشخصيات العادية لم تؤخذ بصورة عفوية، ان اهتمام الكاتب منصب على بسطاء الناس، وهذا ما يشكل جسرا كبيرا بينه وبينهم، ان ابداع الكاتب كان دائما يطمح الى تجسيد معاناتهم وطموحاتهم، واصفا التاريخ الماضى والتغيرات الجديدة، لكنه يكتفي بعرضها بمواصفاتها «الطبيعية». نتيجة لتمرسه الطويل على هذا النوع من العرض التصويري، ولعدم حدوث تغيرات كبيرة، وانعطافات فى رؤيته.

إن هذه الطريقة من التشكيل تعجز عن اكتشافات الصراعات الجوهرية فى المجتمع وتبقى فى حدود الثانوي والسطحي، على الرغم من موافقتها لمستوى أكبر عدد من القراء الآن، ولكن الفنان محمدا ذاته يبدو كانه يحاول تمزيق هذا الثوب الضيق عليه، ويحاول ان يتغلغل اكثر فى الحياة وصراعاتها، لهذا يبحث عن شخصيات اكثر غنى تحمل هموما جديدة وآفاقا اكثر تقدما. بالاضافة الى بقاء جسر التوصيل. إن الاتجاه الشكلى فى البحرين لا تهمه كثيرا هذه المسائل، لكنها بالنسبة للكتاب الواقعيين قضايا هامة.

لهذا تاتي شخصيات مثل «عوض الريحان» و «مختار القادري» كتجليات لمحاولة الخروج من مأزق الشخصيات المباشرة المحدودة. لقد رأينا منه الرموز تحمل ابعاداً جديدة وكبيرة، لقد صارت تحمل دلالة التغيير والثورة، فاذا كانت الشخصيات السابقة تعجز من الوصول إلى هذا المستوى، فان هذه راحت تحمل هذه القيم الجديدة. ولم تعد المقاييس الصغيرة تشكل صورتها، بل كثيرت الخطوط المحدودة والخانات الضيقة وانطلقت الى مستويات اكثر تعقيدا ولن تستطيع ردها إلى الواقع المباشر.

ولكن الوصول إلى هذا المستوى لم يتم بطريقة صحيحة، ان الفنان انتقل بطريقة سريعة من الخاص المحدود الى العام المجرد من الشخصية المباشرة الى الشخصية المجردة او اللاشخصية.

إن هذه الشخصية المجردة غدت مجرد قناع فني لفكرة عامة، ان تقديم شخصية عادية وحية تتضمن أبعاداً عميقة هو وحده التركيب الجدلي للتناقض الذى يشمل هذين النوعين من القصة.

إن الاتجاه الشكلى فى القصة بتركيزه على «المجرد» و «العام» وتثوير الشكل وحده يدفع فى طريق إعدام الشخصية الفنية الحقيقية، ويؤدي إلى دمار الشكل ذاته لأن هذا لا يغتني إلا بعقد علاقة حية مع الواقع، وابطال الحياة.

والتركيز على الخاص والمحدود يتضمن خنق الشخصية أيضا، لانه يتركها بلا أبعاد ولا يربطها بمجريات تطور المجتمع.

إن محمداً نفسه يحاول ان يتلمس مواقع الحل. ولقد كان ادبه محاولات لاكتشاف الواقع، وقد شكل علامة مضيئة فى الكتابة القصصية والروائية فى البحرين عموما، وحاول ان يقدم بعض الحلول للتناقضات التى تعاني منها القصة القصيرة عندنا. ففى قصة «قوس قزح» فى مجموعة «موت صاحب العربة» قدم شخصية نموذجية، يتالف فى كيانها الصراع الاجتماعى، وتلتهب بلغة مضيئة مكثفة، وتتشكل فيها الرموز وعلامات التاريخ، وتمثل هذه القصة علامة من علامات التطور فى قصتنا عموما.

وقدم شخصيات نموذجية اخرى فى مجموعته «نحن نحب الشمس» بشكل اكثر تماسكا وإيجازا. ففى قصته «فى القرن العشرين» قدم لحظة قصيرة متفجرة، وقابل بين شخصيتين، وكشف اعماقهما بصورة فريدة.

واذا اتينا الى مجموعتنا هذه سنجد ان ثمة استمرارا لتلك المحاولات وان كان محدودا جدا.

● الجبل ●

قصة «الجبل» تمثل احدى العلامات المضيئة فى هذه المجموعة، مهران عامل البترول السابق والعجوز الذى يحلم، ويرى نفسه فى أول شبابه، انه يقود فرقة الاستكشاف فوق قمة جبل الدخان وينشر اعلاما، ويرفع مطرقة، وهو يحلم فعلا، ويتزاوج الماضي الموغل بعيداً والحاضر والمستقبل، يحلم فياتى اسفل الجبل قطار اخضر طويل يصعد فيه احفاده العشرة، ويشاهد ليلة عرسه، ووسام النجمة الميت على صدره، ورجال يصفقون، وكانت ابتسامته تكبر حتى تغطى كل مساحة وجهه.

إن مهران متكور على نفسه، جفناه دافئان، وهو فى لحظته هذه يستكشف، ليس الجبل الذى فجر منه النفط، بل ايضا التاريخ والحاضر. وكانت الاحذية تقترب، واصوات تنطلق من الخارج، ولكنها من الداخل ايضاً: «إن الطريق الى الجنة طويل ..» ويرى نفسه يدخل فى حفرة، مربوطا من وسطه بحبل، وفى الأسفل قاع بلا نهاية، وظلمة، وفى يده راية ومطرقة، وتوغل. وتلاشى فى الظلام، وانقطع الحلم واقترب من حفيده «حسين» وراءه يتقدم منه وشمل البوابة، التى يتجمد عندها حارسا.

الهدوء، وشاهد وجهه فى احتفال وحمل نجمة من فضة، وانطلق اسمه عاليا، وعاد مهران الى النوم والوعى، واقتربت منه اقدام، وكان ثمة شاب يضحك، وتردد الصوت «ان الطريق الى الجنة بعيد»، ورأى نفسه مجدداً يمضي فى درب الصحراء الطويلة، الشاسعة، ومرة اخرى يرى

محمد عبدالملك

في مجموعته القصصية الثالثة

« حسين » الطفل السابق دون نمو هام يغني العملية المتطورة المتشابكة ، وتاتى الضربة الأخيرة حاسمة ، فمرة اخرى نراه فى اعماق الجبل وكان الذين يقفون فى أعلى الجبل يقولون « هو الآن فى قبر دقه بيده .. » لكنه خرج من الجبل مصفر الوجه ، غرس الراية فى اعماق الجبل ، وانحنت له قبعات اجلالا وشيدت مدن ، وقمر أبيض ، ورأى كفه فارغة وظل عند البوابة عجوزاً يحلم ، يقول له الحفيد « اتبعنى » فلا يستطيع ، « سر » ولا يستطيع ، وتلك لوحة صغيرة مكتملة ، عناصر متباينة تتآزر ، وتشكل شخصية حية ليس ثمة تجريد وقطع للانسان عن جذوره وتعليقه فى الهواء . ولا إعدام للخصوصيات البشرية الصغيرة ، مزيج جدلى ، تحركه لغة شفافة ، غنية بالايحاءات ، لا تتجمد عند التفصيلي بل تخطو به الى الهام .

المعطف الذى يلبسه ، والبوابة التى يحرسها ، وجو الشتاء الجميل وظلال الصحراء وصيحات الشباب ، ومصنع التكرير الهرم الذى يبدو كشبح فى عينيه ، وهو يتوغل فى الجبل ، رمزاً لجيل توغل واطلق الثروات من باطن الارض ، وحسين الذى يأتيه فى الحلم رمزاً للغد ، ولمواصلة السير ، كل هذه الجزئيات المختلفة من صور ولغة وذكرى تكون شخصية حية ، يتضافر فيها تاريخ طبقة وشعب وإنسان .

وقد استطاع ان يخلق هذه الشخصية فى قصة مكثفة ، مازج فيها بين القضـــية المحلية والهموم الانسانية العامة ، فغدت شخصية البطل لنموذج واسع تجري فيه عملية الاستغلال . لم يبق شخصية محلية فقط ، بل إنسانية ، بسبب ذلك . وهذا التوليف ، الذى يبدو عادياً فى القصة العربية والعالمية عامة ، فانه يبقى مفتقداً أو شحيحاً فى القصة القصيرة البحرينية ، حيث يتركز توجه لالغاء الوجه المحلى لحساب أساليب فنيـــــة مجردة يؤدى استعمالها ضمن هذا التوجه الى تدمير الشخصية الفنية الحقيقية ، محلياً وانسانياً .

● اصحاب الكهف

فى قصة « اصحاب الكهف » تشكيل حدثى متطور وجميل ، نعثر فى بدايته على سكان عمارة « النهر الازرق » الذين لا نعرف من اين جاءوا ، ولكن نميز فيهم هذا العلو الاجتماعى ، فها هم قد تعلقوا بالشرفات وفتحوا النوافذ ، واطلقوا من شقوقها الملونة المضيئة الموسيقى الصافية ، وقد جذبت هذه الأضواء والموسيقى الشق الثانى من التكوين الاجتماعى الا وهم الفقراء . وكان يمكن ان تكون المناسبة وقتاً جميلا للجانبين حيث يبقى الذين يجلســـــون فى الأعلى مستمتعين فعلا ، ويظل الذين يقفون فى الأسفل مشاركين على « الريحة » فحسب . ولكن الصراع يتسلل الى الموقف على شكل تكتة سوداء تتغلغل فى العمارة . وهـــذا ما يفسد جو العائلة المنتظر .

- إن ثمة شائعة تقول إن مجنونا تسلل إلى العمارة ، وقد فر الحارس صوب المخزن ، وتجمد هناك . ويدب الذعر فى سكان العمارة ويتصل المجنون فعلا باحدهم ويامره ان يضحك فيضحك وان يبكى فيبكى وان يحطم السماعة وينام على بطنه فيفعل ويسود الصمت .

وإذا كان سكان العمارة مجرد قناع لطبقة ما ، أو خط مجرد لا يدل إلا على شعار عام ، فان الفقراء اكثر وضوحا . و « الشيلان » رجل شعبى متسكع فى المقاهى يرمق العمارة بفضول ويتساءل مع صـــديقه « الربعى » عن المجنون المتسلل ، وفى الوقت الذى يبدى الربعى خوفاً يسخر الشيلان من الخوف والمجنون وسكان العمارة . وهو يحلم بحبيبته ويرى رموش عينيهـــــا السوداوين وهى تدعوه للتقدم اليهـــا ، للاقتحام ، فيسخر من رواد المقهى الجبناء الذين اختفوا خلف الصناديق الفارغة ، ويتجه إلى العمارة بكل هدوء ، رغم تحذيرات الرواد المذعورة .

وكانت « العبارة » ــ ما أثقل الأســـماء المستخدمة ! ــ تجلس مع ولدها كحارسة لعمارة النهر الأزرق أيضاً . لم تتسلل الى اى مكان ، ظلت تحاور ابنها منتزعة منـــه مشاعر الخوف والتوجس ، مضيفة الى حركة الشيلان ــ التى لا علاقة مباشرة بينها وبينه ــ بعداً اخر ، يتمثل فى إلقاء ضوء حول أصل الخوف ودلالته الاجتماعية . ولكن هذه المرة وابنها لا علاقة مباشرة لها بالحدث فتظل تعليقا خارجيا عليه ، وهنا من الممكن ان تضـاف تعليقات عديدة اخرى ، ولكن هذه التعليقات المرسومة والمجسمة لابد من تضفيرها مع الجزء الآخر الهام من الحدث ، حتى تعثر على مبررها الفنى وتكتسب ولادة شرعية .

و « الشيلان » نفسه تظل علاقته السريعة بالحبيبة بعيدة عن الحدث وسخونته ، ان طرحها ربما كان بهاجس إيجاد ملمح خاص للبطل وهذا الذى لم يتشكل بصورة فنية نابضة . والحوارات العديدة المبثة فى القصة لم توظف من اجل إضاءة البطل ، فعدة سطور من الحوار كان من الممكن ان تكشف اشياء كثيرة بدلا من تكرار الكلمات مع صديقه بلا طائل . اى ان اجزاء عديدة من البنية لم تستغل لتطوير الشخصية وتنامى الحدث وتماسكه .

إن الصراع الدائر بين سكان العمارة وأهل الشارع لم يصور بشكل اكثر قوة لضياع تاثير العديد من الجزئيات التى كان من الممكن ان تستغل للتعميق ، ولكون البطل لم يصور بشكل يجعل منه شخصية ورمزاً فى ان واحد . فاقتحام العمارة كان من الممكن ان يفجر دلالات اقوى ، نفســـية واجتماعية ، بدلا من ان يتبعثر ويضيع فى مسارب بعيدة .

ان اختفاء سكان العمارة بعد ان عادت الحياة من جديد إلى المقهى والرصيف بشكل قفزة غير مبررة ، ولا يشكل رؤية حقيقية للصراع لقد تحول هؤلاء إلى نماذج هشة فارغة بسبب التهويل الميلودرامى .

ان هذا ليس « حياداً » فنيا ، فمنـــذ البداية وقف الكاتب بوضوح مع اهل الرصيف .

● التناقض عميق فى المجموعة ، ولهذا نجد بعض الارهاصات الأولية التى تنبىء بالقدرة على حله فى القصتين الأخيرتين ، ولكن هذا التجاوز الحقيقى يتطلب وعياً كبيراً ومهارة وقدرة تكنيكية عالية .

إن هذه الارهاصات القليلة تعني ان الفنان استراح الى اسلوبه السائد ، فلم ير فى الواقع تحولات كبيرة تستدعي التحول والاكتشاف . اكتفى بما هو كائن ولم يتغلغل فى صيرورة هذا الواقع .

ان النماذج البشرية هى تجسيد لهذه الصيرورة ، هى اكتشـــــاف الصراعات والاتجاهات الاجتماعيـــــة فى النـــاس ، واكتشـــاف فاعلية هؤلاء الناس فى هذه الصراعات .. إن استيعاب ذلك يتطلب نفاذاً عميقا الى الحياة واستخدام رؤية علمية فى إدراك الطبيعة والمجتمع والانسان .

● نتائج اخيرة ●

(١) ان ملامح الشخصية الفنية متنوعة

في المجموعة . ففي الوجه السائد نرى ملامح شخصية محدودة ، ذات سمات مادية خاصة ، ولها موقع معين في الحياة الاجتماعية . ربما كانت شخصية مجنونة ، لا وعي لها ، تجلس في ادنى السلم عند مرتبة الحيوانات ، او ربما كانت انسانا تعذبه الوساوس والمخاوف وليس ثمة نوافذ اخرى مضيئة في حياته ، او رجل عجوز منعزل يجتر ذكرياته التي لا يقولها لاحد بل نسمعها من رواية الحي ، الذي عاش معه في الغوص مرة ، او رجل محترم عادي ينقلب فجاة إلى راقص في حفل ويظهر امام امراته كرجل « حقيقي » لا تسيطر عليه هي ، او فراش في ادنى السلم الاجتماعي يريد ان يسلط الاضواء على نفسه قليلا ويجعل هؤلاء الموظفين يحترقون بعض الوقت ريثما ينقل اليهم الخبر ، او بحار نادرا ما ابتعد عن البحر لكن البحر ابتعد عنه وغدا الصيد مهنة لا تطال ، فاتجه الى المدينة بحثا عن عمل .

هذا الوجه عبارة عن لقطة جزئية ، قطعة ما من الحياة العريضة ، استل من واقعه المعقد المتشابك وقدم الى المسرح في لحظة سريعة . ملامحه ، وتاريخه ، وحارته . قدم كل ذلك بصورة وثيقة اضيفت الى ارشيف غريب يقع بين الفن والتاريخ .

إن هذا الالتقاط السريع قد جمد الشخصية عند مستوى محدود من البناء الفني والفكري . فبقيت شخصيات ضحلة ، وليست « بسيطة » فالشخصية البسيطة غير موجودة ، احادية الجانب ، لا تخدم غرضا فكريا عميقا . ان القارىء حينما يقلب هذا الارشيف يجد ان هذا البطل هو هذا الشخص او ذاك ، فالمسافة بين الواقع والقصة قصيرة جدا ، ان هذا القصر نتاج الطريقة السريعة في الانتاج الأدبي ، بمعنى ان « الانسان الواقع » لابد له من فترة غنية وناضجة حتى يتحول الى « الانسان في الفن » . اعادة تملك هذا الانسان وتغييره واضفاء ابعاد جديدة قد لا تكون محمولة معه بالضرورة ، هذا هي الطريقة التي تغير من عملية نسخ النماذج الحياتية .

يجمد الكاتب عند هموم صغيرة في حياة البطل ، لها ارتباط بالحياة الاجتماعية ، غير انا نراها متاطرة بشخصه . ان البطل في هذا القسم لم يعد كالعديد من ابطال مجموعتيه السابقتين يحمل روحا متدفقة بحماس يدعو للنهوض والتغيير ، بل نراه في جنون مطبق او في ضحكات هستيرية او يعاني من وسوسة رهيبة او يمتلك وعيا محدودا تماما .

ان هذه النماذج لم تعد تطرح زخم الواقع وحرارته وتطوراته المتدفقة دائما . لانها نماذج لاتختار بدقة لتجسد اعماق الحياة ، فهي هامشية محدودة ، لا تمتلك في ذاتها بؤرا غنية بالظلال والدلالات .

(٢) يحاول الكاتب ان يخرج من المحدود الى الواسع . من الخاص الضيق إلى العام الغني بالرؤى . ان قصة مثل « القمر وجهه ازرق » او « الطائر الأخضر » تطرحان العديد من الملاحظات :

● أولا ، ثمة تميز هنا ومحاولة للخروج من صيغة مالوفة الى عالم محدود وثرى بالاصداء والاضواء . مع البساطة المرهفة واللمسات الشاعرية والاقتراب من الحكاية الشعبية واستخدام الاغنية .

لقد اتسعت المسافة بين الفن والواقع ، ولم يعد الابطال علامات ملخصة لاشخاص احياء او اموات عاشوا هنا او هناك ، بل صاروا رموزا منتزعة من اشياء كثيرة قاسية وباهتة ومن امال عميقة مزروعة في صدور بحارة وصيادين ، فغدا هؤلاء الابطال ثمرة التطلع الى عالم جديد ، مضيء ، اخضر . هنا محاولة للخروج من محدودية الابطال الذين اسر الكاتب نفسه بينهم ، استقى منهم مادته ولم يرتفع عنهم ، فكريا ، محاولة لمس ابطال اكثر خصوبة وتجسيدا للهموم الاجتماعية .

● ثانيا ، ولكن هذه المحاولة لم تكن مكتملة فنيا وفكريا . فقد تحول البطل المحدود الى وجه بلا ملامح ، بطل بلا سمات ولا شخصية ، وانتقل الى دور القناع الفكرى . لم يخرج من اعماق البطل السابق بوجهه المحدود ، ليجعله اكثر اتساعا ، بل تجاوزه إلى النقيض ، إلى إزالته .

وإذا كان الناس سابقا هم مادة القصص فقد غدوا الآن موضوعا للابطال ومادة للتغير . هذه الرؤية في رفعها للنموذج الرمز الى هذا المصاف تبرز طابعها الفردي . وان المازق الاجتماعي الذى تعانيه الحارة لابد له من منقذ فذ .

● ثالثا ، هذا يشير الى خفوت لغة الصراع في هذه المجموعة ، والتى رايناها ساخنة في مجموعتيه السابقتين . فالشخصيات تعيش اغلب لحظاتها سلبية ، حتى مرجان السعيد الذى واجه النوخذا في سفينة الغوص واشترك في حرب ، جلس صامتا كحجر . وتتفجر الصراعات النفسية الداخلية مدمرة قدرات الأبطال ، اذا استثنينا زهرة بطلة « اول الحب » لهذا يبحث القاص عن امل في هذا الليل الدامس فجده في رجل غريب يحمل النور للمقيدين في دياجير الظلمة .

(٣) ويحاول الكاتب في نماذج قليلة اخرى ان يخرج عن الصيغتين السابقتين ، ومن الملاحظ ان هذا الخروج نادر في المجموعة . بسبب ان القصاص لم يحدد لنفسه اهدافا جديدة اخصب واعمق .

إن قصة مثل « الجبل » قد تمثل طريقا جديدا في تشكيل الشخصية والحدث وقد تضاف الى محاولات اخرى جيدة لم تحدث فعلا انقلابيا في عالمه الفني . ظلت كاشارات مضيئة لم يتابعها الكاتب ، وانساق الى اسلوب سهل يرضي الكثير من القراء لكنه لا يرضي الفن وتطور الناس والحياة .

الجبل تقدم إنسانا ، وتاريخا كاشفا بلغة شفافة هي لغة الحلم والواقع المرير ، وتتزاوج الحياة الخاصة والعامة ، المحلية الشديدة الخصوصية والهموم الانسانية الكبيرة ، ليس ثمة تعسف في بناء الحدث ، فهو ينساق ببساطة ، متخذا حركات تذكر واحلام العجوز مهران ، ضافرا بين جلسته الحالية الجامدة ، وتحجر مكانته الاجتماعية ، وبين الثروات التى فجرها والجبل الذى اقتحمه مطلقا منه كنوزا لا تحصى . المرارة تتحول الى امل في غد اروع ، ولكنه غد يعجز عنه العجوز ويدعه لحفيده حسين .

لماذا تشكل امثال هذه القصة لحظة تخطٍ ؟

إن العديد من الكتابات القصصية لدينا تضع هدفا لها هو تحطيم الشخصية النموذجية . فثمة قطع لجذور هذه الشخصية وافقادها سماتها الخاصة الحميمة ، واعتبار هذا القطع شرطا للتطور والكتابة الواقعية الجديدة وهذا يؤدى الى غياب ليس الشخصية الوطنية المحلية بل الشخصية الانسانية ايضا . لان الاولى لا تظهر إلا من خلال الاولى . واية شخصية مطلقة مجردة ، لا تستند اولا على النموذج المحلي الخاص فذلك يؤدى الى دورانها في الفراغ ، وموتها فنيا وانسانيا .

وميزة محمد عبد الملك من بين مميزاته انه حاول السيطرة على هذا القانون الفني ، ويبقى ان تتعمق هذه السيطرة وتنتشر .

عبد الله خليفة ـ البحرين

قراءة في المجموعة الشعرية

من أحلام اليقظة

للشاعر القطري علي ميرزا محمود

بقلم : سنان المسلماني



غلاف المجموعة الشعرية

على ميرزا محمود

« من احلام اليقظة » مجموعة شعرية جديدة نشرت للشاعر الفنان علي ميرزا محمود ، انتظرناها بشغف ولاقيناها بود .

وهذه المجموعة تعد المجموعة الثانية للشاعر بعد مجموعته الاولى « اماني في زمان الصمت » نشرت فى ١٩٧٩ ، وهى تضم مجموعة من القصائد باللهجة العامية الخليجية .

ويعكف الشاعر الآن على تنسيق مجموعة قصائد جديدة ليصدرها فى مجموعة ثالثة تحت عنوان : « الرحيل فى عيون الذكريات » .

وعندما تعيش مع قصائد الشاعر علي ميرزا فى مجموعته الجديدة ، ستشعر ان قلب الشاعر يقفز بين السطور ، فالجرح غائر ، والالم شديد يشيع فى اعماقه حزن بحجم البحر .

ستحس ان القصائد تتواصل فى رباط متين رباط الحب ، الذى يشملها وينفذ خلالها ظاهرا امام عينيك دائما ، مؤكدا لك ان الشاعر استطاع ان يقدم احاسيسه الفياضة الثرية ، التى تعكس ذاته الضائعة الحائرة الحزينة .

واول ما تلاحظه فى المجموعة الثانية أن قصيدة « إني انا الفتى » تقطر نرجسية بصورة تجعلنا نرى انه كان على الشاعر ان ينحيها عن المجموعة اذ يبدأها علي ميرزا بقوله :

انا صاحب العلياء فيها فهللوا
وغنوا غداة البين لما تحاملوا

وهى قصيدة لها ظروف خاصة قاسية ، قيمة ، نظمت فى تجربة معاناة خاضها الشاعر ، إلا ان وجودها دخيل على قصائد المجموعة ، ولرنة الفخر والحماسة الزائدة اثر في احساسنا بعدم تلاؤمها مع باقى قصائد المجموعة ، لذا كنت اتمنى ان تحتل القصيدة الثانية « عشتار والوجه الغائب » مقدمة المجموعة ، لانها تمثل نوعية مختلفة تظهر قدرة الفنان الشعرية وحساسيته المفرطة وحزنه المتوثب دائما ، الساكن فى اعماق نفسه .

يقـــول :

سنابك خيل الحسان
تمر امامى
وتهوي الاعنة بين يدى
وبعض الوجوه على راحتي
يقولون خذنا
وودع زمانك في مقلتينا
ودع حزن عينيك بين يدينا
وسلم زمام الركاب إلينا
وخذنـــا ..
تدثر بنا في ليالي الشتاء اليتيمة
فانا على شدو حزنك من غابرات
العصور اتينـــا

يرى منابع القصيدة هذا الحزن القابع فى عينى الشاعر الذى يلون دائما سطوره ، فالوجوه تدعوه فقد اتت من العصور السحيقة الغابرة تحث الخطى على شدو حزنه ، ذاك الحزن المتوثب ابد الدهر ثم ينساب الحب كالمطر ، ليغسل كل الجراح ،

وتبكى السماء .. على حزنك السرمدى الاثر
فينهمر الحب ..

من شدو حور العيون المطر .. ويثمر بستانك الحزن فوق الشجـــر .. سيأتي المطـــر

سيغسل قلب الليالى الحزينة
ويسكن فى مقلتيك القمر
ويأتى المطـــر

تدعوه الوجوه فى تلك القصيدة ، وتعده ان تضمه كل الجفون ، ويسافر انى يشاء فى كل العيون ، وسوف تعطر اجسادها فى ليالى الشتاء اليتيمة بعطر اغانيه .. « تلك الاغانى الحزينة » .

يعذبه الرحيل ، فعيناه ترحلان فى كل الامكنة تبحث عن كوكب بعيد ، تعذبه الوحدة ، يتهاوى يتساقط ، يموت ويزرع بين الصخور حروفا تنادى إذا ما اتى الليل محبوبته عشتار تلك التى فى رؤوس الجبال تمارس فى نشوة الحب قرع الطبول .

وحين تقرا القصائد الاخرى فى مجموعة الشاعر علي ميرزا تتراءى امام عينيك مفرداته المتكررة دائما والتى تعكس ذاته مثل « الوب » « ابكي » يبكي » « بكى » « اجرى » « اموت » ، وصيغه وصوره التى تعبر عن روحه المتالم ، ذاك الروح التائه المتعب « وانا اليتيم » « قلبي المكلـــوم » « مازلت ابحث بين المعاني » « وتفجـــرى يا نفس » « يا فقراء العالم .. لو كان بوسعى كنت زرعت لكم قلبى سنبلة .. قبلة فى وجه الطغيان ، سدا فى وجه الطوفان » .

وتجرحك اسئلته الحائرة ، بعـــد ان اضناه البحث « متى سوف تنهار كل البرازخ .. حتى تفيض جميع البحار » ثم يصرخ مطالبا « هدوا البرازخ .. كي يغسل البحر وجه حبيبى » .

وقارىء المجموعة سوف يلاحظ ان شعر الفنان يعكس بعض النرجسية احيانا ويعبرها ويتجاوزها احيانا اخرى ، وهى قد تقبل من الفنان ...

ونحن لا نقف طويلا عند ذلك ، إذ اننـــا لا نستطيع ان نصادر احساس الشـــاعر وحقه فى التعبير عن بعض خلجات ذاته ، كما لا نستطيع الافراط فى رصـــد اناه الثمينة .

وهو لم يصل بحال من الاحوال إلى طغيان الذاتية او النرجسية ، بشكل بارز مرضي .

إذ ان طغيانها يخنق انطلاق الشاعر إلى افاق ارحب واخصب .

الحق ان لهذا الفنان الشاعر عدة قصائد مؤثرة ، بالغة الروعة تضعه فى مقدمة الشعراء الخليجيين الشباب ونحن مع اخر كلمة لنا ، نشكر الزميل علي ميرزا على هذا الاصدار متمنين له التوفيق فى مجموعته الشعرية الثالثة « الرحيل فى عيـــون الذكريات » التى ستقدم لنا الشاعر ـ بدون شك ـ مع تجربة جديدة اصقلتها الحيـــاة والخبرة .

الــــــدَّم ..

قصة بقلم : فــؤاد قنــديل



عندما وضعت قدمى على اول درجة من درجات السلم الحجرى ، استوقفنى للحظة منظر دم .. نقط من الدم ، لكنى لم اهتم فكل شىء ممكن حدوثه . والاهتمام يكون بقدر الانفعال .. والانفعال يكون بقـــــدر الخصوصية .

لكنى مع درجة اخرى وجدت نقطا اخرى من دم .. ثم درجة ثالثة ورابعة .. كلمـــا صعدت وجدت الدم يسبقنى . توجست بدات الاسئلة تدق راسى .. ما هذا الدم ؟ وهل تراه دم دجاجة او انسان .. ام دم قط ام دم ... أم مجرد لون .. سائل احمر .. وإذا كان دما بشريا فهل يخصنا ؟

ثقل دق الاسئلة وطرق الافكار على راسى .. هل يخصنى ؟ .. دق قلبى .. زوجتى وابنتى نهى ودينا .. فى هذه الحالات يسرع العقل فى طريق التشاؤم ، حتى يتخيل مثلا ان مخلوقا من السماء جـــاء خصيصا ليذبح ابنه ، وقد يتصور الانسان ان رصاصة خاطئة اصابت زوجته .. زوجته هو بالذات من دون كل الزوجات ربما نكون نحن ضمن هؤلاء المجانين .. لم تعد التصرفات الخرقاء فى هذا العصر مقصورة على الهمجى دون المتعلم او الريفى دون الحضرى .. لا .. لقد غدت الانهار بلا جسور .

ولكن انا بالذات دق قلبى بعنف .. وانا بالذات لم افكر فى المجانين ، ولم تشغلنى رصاصة طائشة ولكن ..

شلغتنى رصاصة حقيقية .. رصاصة تترقبنى طويلا لتنطلق إلى صدرى فتصيب وندمى ، وتنهى قضية .

فجاة تصورته امامى .. ارتسم فى راسى وقلبى وجهه الشرس وشاربه الضخم ونظراته القاتلة .. فجاة احاطنى من كل جانب ، لفتنى نظراته كثعبان .. قيدتنى . شنقتنى وقفت على السلم مجمدا .. ثم درت حول نفسى مذعورا .. هل جاء ؟ ، هل عرف مكاننا . ؟

لا يصعب عليه شىء ، إنه داهية .. ياتى من اسيوط إلى رشيد بحثا عنـــا ليصب رصاصاته فينا ويرتاح ، لا تسال كيف عرف .

يستطيع ان يبلغنا ـ وله عيون ـ حتى لو ابتلعتنا الارض او اختبانا فى بطن الحوت .. يستطيع ان ينفذ من ثقب الابرة .

ما هذا الدم .. دمهم ! . هل يمكن ان يكون قد .. ؟ .. لا اظن .

دق قلبى بعنف .

قفزت اتابع الدم .. الدم يقفز معى إلى ان بلغ شقتى وانتهى هناك .. نفذ تحت عقب الباب .. توقفت اقلب الامر .

لم اطرق الباب . بلغنى صراخ ابنتى ، فتحت بسرعة واندفعت فى اتجاه الصوت .. الفيت دينا الصغيرة غارقة فى دموعها ، لكن لا اثر للدماء على ملابسها .

ـ اين ماما ؟

لم ترد ولكنها كفت عن البكاء .. زادت حيرتى .. اوشك عقلى ان يطير شظايا .. عدت إلى الدم . سرت فى اعقابه ، تصورته خطا دمويا إلى مالا نهاية .. نقط حمراء ممتدة إلى نهاية العمر .. لها اسنان تنهش .. انتهى طابور الدم عند المطبخ دون بحيرة ودون منطقة تجمع واسعة كما كنت اتوقع وكالمفروض .. انتهى فى صمت وبلا نتيجة محددة . كدت اجن .

فجاة بعد التزام الصمت والحـــذر والسكون اخذت اقفز فى الشقة كالمذبوح ، ادفع الابواب وارتمى تحت السرير والمقاعد افتح الدولاب واحدق .. لم يعد لى راس افكر به . اسرعت اهبط الدرجات . إنعطفت إلى البواب . دفعت بابه . نهض من فراشه وتثاءب .

ـ اين الاولاد ؟

ـ اولادك !

ـ نعم .. اين ذهبوا ؟

ـ وكيف أعرف .

صعدت السلم فى قفزتين إلى الشقة المقابلة .. طرقت الباب بعنف .

ـ اين الاولاد ؟

ـ اليسوا بالشقة .

قفزت السلم هابطا .. فوجئت بزوجتى تجتاز باب العمارة ، تحمل ابنتى نهى ويدها مربوطة بالشاش . توقفت . جلست . تنهدت قالت : امسكت الصغيرة بالسكين وحاولت الكبرى ان ..

ليلى الحريري

حوار مع طبيبة عالمية



- **١٪ من عدد المواليد بقلوبهم عيوب خلقية ولكن الجسم يتغلب عليها خلال مراحل النمو .**
- **علاقة حميمة بين التهاب اللوزتين المتكرر وبين اصابة قلب الطفل .**

القلب .. ذلك الخافق الصغير والذى يبدو فى براءة الطفل الوليد .. هل يمكن أن يكون حقيبة كبيرة لمزيد من المتاعب والآلام ؟ .. وهل يمكن أن يكون فى بعض حالاته مسرحا لنزوات الطبيعة كالعيوب الخلقية التى يولد بها بعض الأطفال ؟

إن كل الة فى بعض أجزائها ومواضعها عرضة للتفكك والتصدع نتيجة الاستعمال والاجهاد .. والجسد الانسانى هو أكثر هذه الآلات تعقيداً دون استثناء . واحد اجزائه الذى يتكرر تصدعه ويشيع عطبه ، هو غالبا ذلك العضو الصغير الذى يشبه ثمرة الكمثرى فى شكله إلى حد بعيد ، ويحتل له موقعا فى الجهة اليسرى من التجويف الصدرى بين الرئتين .

ولكن .. إذا صحت القاعدة السابقة ، لماذا يولد أطفال بقلوب مضيفة لبعض العيوب الخلقية وهي حالات غير نادرة ؟ .. النسبة تمثل ١٪ من عدد المواليد ومع ذلك ما من أحد يعلم بالتاكيد الأسباب حتى الآن ..فهل يدعو ذلك إلى التشاؤم ؟

الطب يقول لا .. لأن نسبة كبيرة أيضا من هذه العيوب يتغلب عليها جسم الوليد خلال مراحل نموه إلى مرحلة البلوغ .. أما المتبقى منها ففى أغلب الحالات يعالج دوائيا أو جراحيا وبنجاح مطرد مع التقدم الطبى .

فما هى أكثر عيوب القلب الخلقية شيوعا .. وما هى الأنواع الاخرى المكتسبة والتى قد تصيب الأطفال ذوى القلب السليم ؟ ..

ما هو نصيب العوامل الوراثية أو البيئية فى نسبة إصابة بعض الأطفال بمرض فى القلب ، وهل يمكن تفادى الأسباب التى تؤدى إلى ذلك . ؟

هل يمكن للطفل المصاب أن يمارس مفردات طفولته بشكل سوي كسائر الأطفال ؟ أم انه يخضع لنظام طبى وحياتى صارم يحرمه منها .. ؟

أسئلة كثيرة كلها تدور حول قلب الطفل ومعاناته تجيب عليها اخصائية عالمية فى هذا المجال .



الاخصائية الاستشارية د. جين سمرفيل

الدكتورة چين سمرڤيل اخصائيـــة استشارية فى امراض القلب الخلقية عند الاطفال والمراهقين ، وعضو فى المستشفى القومى لأمراض القلب بلندن وهو مستشفى يختص بالتدريب فوق الجامعى . وقـــد استطاعت الدكتورة چين من خـــلال مساهماتها الطبية فى هذا المجال ان تثبت حضورا لفت الانظار إليها على المستـــوى الدولى .أسرتها جراحة القلب فى بعض مراحل حياتها العملية الأولى لانها تتناول الحالات الشاذة،ثم اكتشفت انها لن تقوى على الوقوف كل تلك الساعات التى تتطلبها العمليات الجراحية .. والأهم من ذلك انها تبينت أن قدراتها الذهنية افضل بكثير من قدراتها اليدوية . ومن هنا .. اتجهت مرة أخرى إلى الدراسة والتخصص فى موضوع فرعى دقيق هو تشخيص ومعالجة امراض القلب عند الاطفال منذ ولادتهم وحتى يصلون إلى مرحلة البلوغ . هذا التخصص مثير جدا من وجهـــة نظـر الدكتورة جين لانه اضفى عليها تميزا فى حياتها العملية .

وهى كأم لاربعة ابناء تشعر بالأسى تجاه أى ام يعانى طفلها ـ إن كان الأول على وجه الخصوص ـ من مرض خطير فى القلب ، ويزداد الاسى عندما تجد ان الظروف لا تسمح بعلاج قلبه بصورة كاملة فقد تجرى له عملية لانقاذ حياته .. ولكن البقاء حيا ليس كافيا بحد ذاته .

كانت الطبيبة العالمية د . چين سمرڤيل فى زيارة لمستشفى « حمد العام » فى الشهر الماضى .. وفى الدوحة كان هذا الحوار معها .

تقول د . چين سمرڤيل ..

امراض القلب عند الأطفال نوعان .. اما ان تكون خلقية اى ان يولد الطفل ومعـــه هذا العيب الخلقى الذى تكون خلال مرحلة تشكل القلب الجنينية داخل الرحم ، او أن تكون مكتسبة اى أصابته خلال مرحلة الطفولة .

واكثر انواع العيوب الخلقية فى قلب الطفل شيوعا واشدها تاثيرا عليه وان كانت لا تعيق نموه ، هو وجود ثقب صغير بين الجدار الفاصل لاى من غرف ضخ الدم فى القلب . ومع ذلك هناك انواع اخرى من العيوب الخلقية مثل ضيق الأقنيـــة والصمامات ، أو ان يكون اتصال احدها بالقلب غير صحيح فى موضعه سواء فى دخوله إليه او خروجه منه .

وقد يولد الطفل احيانا دون أن يكون هناك حاجز فاصل فى جزء من اجزاء قلبه وبالتالى بدلا من أن يضم اربع غرف كما هو تكوينه الطبيعى (الأذينان والبطينان) تجد به ثلاث غرف أو غرفتين فقط .. او قد يكون به تشوهات خلقية مجتمعه فى ان واحد .

وحالات أمراض القلب الخلقية عنـــد الأطفال معروفة فى العالم اجمع حيث انها تمثل نسبة ١٪ عـلى الأقل من عدد المواليد وليس لها علاقة بالمنطقة الجغرافية او باى من العوامل الأخرى . وهذا عكس امراض القلب المكتسبة التى تصيب الأطفال عادة فى سن الدراسة .

والصورة ليست قاتمة كما تبدو هكذا تؤكد الدكتورة چين .. فليس معنى ان يتاثر طفل واحد من بين مائة طفل مولود



ثقب فى القلب .. اكثر حالات التشوه الخلقى شيوعا

بمرض فى القلب أن الأمر خطير .. فكثيرا ما يقفل الثقب الموجود فى قلب الطفل من تلقاء نفسه عندما يكبر ودون مساعدة طبية . أو قد يظل موجودا بقلبه ولكنه لا يعيق نموه ولا يحول دون ممارسته لحياته الطبيعية ، هذا اذا لم يحدث اى التهاب للاغشية المبطنة للقلب لانها تشكل بعض المخاطر .

اما حالة ضيق الصمام الرئيسي الذى يسمح بخروج الدم من القلب ، فهو ضعيف الأثر فى مرحلة الطفولة ، ولكن بمرور الوقت والتقدم فى العمر يمكن ان يترسب على جدرانه مادة الكالسيوم فيصبح اكثر ضيقا .. وهنا يتدخل مشرط الجراح .

الأسباب مازالت مجهولة !

كم من حقائق نعرفها بالنتائج ولكن قلما نعرف الأسباب الحقيقية التى تؤدى إلى تلك النتائج .. وهذا ينطبق على الأسباب التى تؤدى إلى العيوب الخلقية فى القلب التى يولد بها بعض الأطفال .

الدكتورة چين سمرڤيل تقول .. نحن لا نعرف سوى القليل من هذه الأسباب الا أن بعضها تشكله عوامل البيئة المحيطة مثل إصابة المرأة الحامل فى فترة مبكرة من حملها ببعض الأمراض كالحصبة الألمانية أو الجديرى ، أو التهاب الغدة النكفية ، او بعض الالتهابات الحادة الناجمة عن عدوى فيروسية لبعض أنواع الانفلونزا الحادة وهى ليست شائعة لحسن الحظ . كما وان النسبة ترتفع بين الأطفال المولودين لأمهات مصابات بداء السكرى .

ومن الاسباب الاخرى التى تؤدى إلى اصابة قلب الطفل بعيوب خلقية ، تعاطى المرأة الحامل لبعض الادوية بكثرة خاصة المهدئات النفسية ، وبعض الهرمونات النسائية او تناول الكالسيوم او حقن الفيتامينات لغير ضرورة . وفى جميع الاحوال على الحامل الا تتناول اى نوع من الادوية الا اذا تقررت لها طبيا ، كما عليها الامتناع نهائيا عن تناول المشروبات الكحولية اثناء الحمل . وهناك الأعراض المتزامنه الأخرى التى قد تؤدى هى الأخرى إلى اصابة قلب الطفل بعيوب خلقية حيث تكون الكروموزومات غير طبيعية كما فى حالات البله والضعف العقلى (المنغولية) .

ويلعب عامل الوراثة دورا ثانويا فى الاصابة بامراض القلب الخلقية وهو يقترن عادة بعوامل بيئية اخرى خاصة تلك التى تصاحب التزاوج داخل الأسرة بين بنات وابناء العمومة . فان تكرار مثل هذا الزواج قد يزيد نسبة الاصابة بمرض القلب

الخلقى إلى ٧ أو ٨ ٪ .

الأمراض القلبية المكتسبة

وتضيف الدكتورة چين: هناك نوع اخر من امراض القلب يصيب بعض الاطفال ذوى القلب السليم فى سن الدراسة يسمى الامراض القلبية المكتسبة . وقد يعاودهم خلال فترة المراهقة وحتى أوائل سن البلوغ .

أهم الأمراض القلبية المكتسبة واكثرها خطرا وشيوعا فى نفس الوقت خاصة بين دول العـــالم الثـــالث ، هى الحمى الروماتيزمية (الروماتيزم القلبى) حيث تبين ان هناك علاقة حميمة بين التهاب اللوزتين المتكرر وبين إصابة القلب وخاصة الصمامات .

من الأمراض القلبية المكتسبة عند الأطفال أيضاً إصابة العضلة القلبيـــة بالتهاب ناتج عن بعض الفيروسات . وهذا الأخير يمكن التغلب عليه نهائيا باتباع العلاج السليم . ولكن اهماله يجعله عرضة للمضاعفات ويسبب اعتلالا دائما فى العضلة القلبية . وتنتشر امراض القلب المكتسبة بين دول العالم الثالث على وجه الخصوص حيث ينتشر الفقر ، عدم توفر الشروط الصحية فى السكن ، الزحام ، كثرة عدد المواليد ، سوء التغذية ، النقص فى التعليم ، عدم وجود الرعاية الصحية الكافية .. إلى اخر هذه المفردات التى ترتبط عادة بالبيئة والتى يمكن ايضاً العمل على تحسينها . ولكن .. هذا لا يعنى ان جميع الاطفال عرضة للاصابة بعدوى احد امراض القلب المكتســـــبة لأى من العوامل السابقة .. هكذا تؤكد الدكتورة چين .. فالذى يمكن انتقاله هو الجرثومة التى تسبب التهاب اللوزتين او الحمى القرمزية وهى معدية .. اما مسالة استجابة المرء لتلك الجرثومة فيعتمد على المناعـــة الشخصية للانسان نفسه .

وامراض القلب المكتسبة عند الأطفال ليست مشكلة مثل امراض سوء التغذية ، والدفتيريا والأمراض المعدية واســـعة الانتشار كالملاريا ، وبالتالى فان التغلب عليها يتوقف على مدى فهمنا للمشـــكلة ذاتها .

أما الوقاية وخاصة فى حالة الحمى الروماتيزمية فتكون بمعالجة التهابات اللوزات والبلعوم . لان نسبة اصابة القلب تزداد اضعافا بتكرار هذه الالتهابات .

اعراض يمكن ملاحظتها

هل يتعرض قلب الطفل فى بعض حالاته للسكتة القلبية كما يتعرض لها الكبار . ؟

تقول الدكتورة چين .. إن السكته القلبية او مرض القلب التاجى لا يحدث للمواليد والأطفال الا فى ظروف استثنائية للغاية ولأسباب تختلف عما يصاب بـه البالغون وبالتالى هى ليست مشـــــكلة بالنسبة للأطفال بنفس المعنى عند الكبار . ومع ذلك ، يمكن ان تحدث السكته فى حالات امراض معينة بالقلب ولأسباب غير طبيعية مختلفة كما هو الحال فى مرض القلب الأزرق الذى يسبب تقلصات شديدة او ربما يصاب الطفل باضطرابات فى انتظام ايقاع قلبه والتى تجعله مريضا بشكل مفاجىء .. ولكنها فى جميع الظروف حالات نادرة جداً .

ولتفادى العواقب الوخيمة التى قد تنجم عن اصابة ولو بسيطة فى قلب الطفل هناك بعض الأعراض يمكن للأم ملاحظتها فتسارع بعرض طفلها على الطبيب المختص .

تقول د . چين سمرفيل انه فى حالات التشوه الخلقى يتاثر قلب الطفل بطرق عدة .. مثلا فى حالة وجود ثقب به . يختلط الدم الاحمر المشبع بالاكسجين من خلال هذا الثقب مع الدم القاتم الوريدى وبالتالى تزداد كمية الدم الذاهبة إلى الرئتين فيؤدى ذلك إلى امتلائهما مما يسبب ضيقا حاداً فى التنفس . فاذا لم يستطع الطفل التنفس بشكل جيد فان ذلك يعيقه عن تناول غذائه . لذا فان اول ما ستلاحظه الأم ان طفلها يتغذى ببطء شديد مع سرعة فى التنفس وأن وزنه لا يزيد .

مثل هؤلاء الأطفال الذين تزيد كمية الدم برئاتهم عن الحجم العادى ، عادة يكونون عرضة لكثير من العدوى مثل التهاب الرئة الحمى ، سرعة التنفس ، الكحة .. الخ .

وفى بعض أمراض القلب عند الأطفال تكون الزرقة هى العارض الأول والبارز الذى تلاحظه الأم . وقد تكون هذه الزرقة خفيفة لا تظهر الا بعد جهد البكاء او الرضاعة ، وقد تكون شديدة يمكن للأهل تمييزها حتى أثناء راحة الطفل او نومه . وهى تصيب الطفل احيانا بالاغماء وتقعده عن الجرى والحركة . وقد تنتابه تقلصات وضغوط فى قلبه فتشعره بالم حقيقى مثل الكبار ولكنها حالات نادرة .

فى جميع الأحوال ، وجب على الأم عرض طفلها على الطبيب المختص فى اقرب وقت ممكن . ولحسن الحظ فان اغلب هذه الامراض اصبح من الممكن تشخيصها حتى خلال الايام الأولى من حياة الطفل ووضع خطة لمعالجتها سواء كانت دوائية او جراحية .

الجسم يتغلب على معظم المتاعب

ولقد كانت امراض القلب قبل سنوات قليلة مرادفة للعجز بسبب معتقدات خاطئة تسود اذهان الناس ــ اما الآن فان د . چين تقول .. ان من الحماقة القول بأن الطفل المصاب بمرض فى قلبه سواء كان خلقيا او مكتسباً لا يجوز له ان يمارس حياته العادية . ان القلب عبارة عن عضلة كسائر العضلات لابد من استعمالها حتى لا تصير ناعمة ومترهلة . ولكن المشكلة فى الأمهات اللاتى يغالين فى حماية اطفالهم المرضى فيحيلون حياتهم إلى جحيم . والغريب فى الأمر ان الطفل المريض يكون عادة أكثر تعقلا واكثر قدرة على التاقلم مع حالته الصحية اثناء ممارسة الحياة أكثر مما يتصوره الاهل .

فى النهاية اقول ان كثيرا من امراض القلب عند الاطفال لا تحتاج إلى علاج على الاطلاق حيث يتغلب الجسم عليها مـــع النمو وحتى مرحلة البلوغ حتى وان ظل القلب غير طبيعى . وبالطبع يمكن لأصحابها ان يعيشوا حياة عادية سليمة .

ولكن .. هناك حالات معينة خاصة تلك التى يتم علاجها بعملية جراحية فى مرحلة مبكرة من حياة الطفل حيث يزداد احتمال تعرض نسلهم للتشوه الخلقى . وتزداد هذه النسبة إلى عشرة أضعاف من الحالات التى تكون فيها الام نفسها ذات قلب مصاب بمرض خلقى ومن النوع الخطير ولكن احتمال ذلك اقل فى حالة الاب المصاب .

على كل حال .. من كانت بهن علل فى القلب بحاجة إلى نصح طبى سليم فيما يختص بتناول اقراص منع الحمل ، والزواج ، قيادة السيارات ، العمل ، والتامين على الحياة .

ولحسن الحظ فان إصابة احد الأطفـــال فى عائلة ما بمرض فى القلب لا يحتم حدوث مثيل له عند باقى الأطفال الذين سيولدون فى المستقبل .

ليلى الحريرى



هل يمكن ان تتضافر الجهود العربية لتصبح سيناء غابة كثيفة من النخيل تمشيا مع برامج الامن الغذائي العربي ؟؟ بادئين بقلعة الجندي فى سيناء ...

أطلال قلعة الجندي

بقلم : درويش مصطفى الفار

كان لزاما علي فى ايام قليلة معدودة ، ان استعيد مع جيولوجيي مركز تعدين شمال سيناء ، ذكريات اعوام طوال بين جبال سيناء واوديتها ، وان اتفقد معهم مواقع عديدة كانت ، ولا تزال ، مثار جدل اكاديمي ، ومواطن اخرى تكمن فيها رواسب ذات نفع اقتصادي ممكن ، وان نتحرى بصمات الاحتلال التى تركها الاسرائيليون لدى الارض ومن عليها على مدى خمسة عشر من الاعوام الثقال الطوال ...

ولقد حملتنا فى هذه الجولة سيارات روسية ، واخرى امريكية ، إذ لا توجد حتى الآن سيارات (عربية) لحما ودما ، تستطيع اجتياز دروب سيناء وشعابها ... ناهيك عن الطرق المعبدة فى كل المدن العربية دون استثناء ...

انطلقنا من العريش (رينوكولورا الفراعنة والرومان) صوب بئر الحسنة مخلفين وراءنا سهل السر وريـان عنيزة وجبال الحلال ولبنى والابرقين والمغارة ويلق والمنشرح ، ميممين صوب (جبيل حسن) الذي ترجع اساطير البدو تسميته إلى أن غلاما من البدو خطب ابنة عمه فاشترطت الا تقبل به زوجا إلا إذا اثبت فروسيته باختطاف ابنة امير الحاج ، وكان اسمها (حسن) بكسر الحاء وتسكين السين ... جهز الفتى حصانه وسلاحه واختبأ فى اكمة من اشجار الرتم الكثيفة قرب ذلك الموقع ، واستطاع ان يفك رسن الجمل الذي يحمل هودج حسن ، فلما استيقظت ، وقد انتحى بها جانبا ، لم تبد انزعاجا او هلعا ، بل رحبت به ، واشارت عليه أن يختبىء معها بعيداً عن الطريق ، وطلبت إليه أن يصعد ذلك الجبل الصغير المسمى باسمها اليوم ، ليراقب الطريق ويطمئن إلى ان احداً من القافلة لم يعد يبحث عنها ، ففعل ، ولما عاد وجدها قد ركبت حصانه وامتشقت بندقيته وسيفه ، وامرته بكل رباطة جاش ان يركب البعير ويسير امامها على قدميه ، حتى اوصلها صاغرا إلى القافلة عند بئر المرة ، ثم اذنت له بالانصراف بعد أن بصقت عليه ، فعاد خائبا ، وسمى التل بعد ذلك باسم جبيل حسن ، الذي تركنا قبالته طريق (نقب ام إثلة) متجهين إلى الجنوب قاطعين اودية ابي ثمير والغدري صوب ما يسمى على الخرائط (راس الجندي) ، حيث توجد بقايا قلعة حصينة فى اعلى الجبل ، تقول اللوحة المكتوبة على بابها إنه قد امر ببنائها (صلاح الدنيا والدين) فى جمادي الآخرة سنة ٥٨٣ هـ أى بعد معركة حطين بثلاثة اشهر ، فى أرجح الأقوال ...

يطلق البدو على هذه القلعة اسماء (قلعة الباشا) او (معصى الجندي) اي المكان الذي يتصورون أن احد القواد قد خرج على طاعة السلطان ، واعتصم به وعصى ، ويسمونها احيانا (قلعة الجندي) ... ولكن احداً منهم ، يقينا ، لا يعرف انتماءها فى التاريخ الى مجدد عزة هذه الامة السلطان صلاح الدين الايوبي ...



اطلال قلعة صلاح الدين قرب عين صدر ، هل يعمل العرب لانقاذها وإحيائها كرمز لفترة شامخة فى تاريخهم لا ينبغي ان ينطفىء نورها ؟



صعدنا إلى القلعة الخالدة على نفس الدرب التى نعرفها منذ قبل حرب ١٩٦٧ ، وهنالك ، تذكرت كل شيء يحدث بين المحيط والخليج ، واخذت اترنم بقول العماد الكاتب بعد نصر حطين وطبرية :

حططت على حطين قدر ملوكهم
ولم تبق من اجناس كفرهم جنسا
بطون ذئاب الارض صارت قبورهم
ولم ترض ارض ان تكون لهم رمسا
وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها ريا ويا حسنها مرسى

وساءلت نفسي ، كم ترى من المسئولين ، بل والمؤرخين ، واهل العلم ، من يعرف ان لصلاح الدين الايوبي ، رحمه الله ، قلعة بناها سنة حطين ، فى هذا الركن من سيناء وان هذه القلعة إن لم تدركها يد العناية والاهتمام ، سوف تصبح فى فترة قصيرة من الزمان مجرد كلمة على الخريطة ... وتساءلت عن السر فى إهمالنا لآثارنا الاسلامية بالذات جملة وتفصيلا ... الا تستحق بقايا قلعة صلاح الدين الأيوبي ، التي قد تكون (قلعة صدر) التي اشار إليها بعض المؤرخين ، من الاهتمام والعناية بالترميم وإحياء المعالم ما تستحقه آثار الفراعنة والبابليين والآشوريين والانباط والرومان ؟؟

وهنا يطيب لنا ان نقترح ، على الراي العام العربي ، بل والاسلامي ، الاكتتاب في مشروع تعميري يقضي :

● بترميم قلعة الجندي بسيناء ، وجعلها معلما سياحيا اساسيا وإصلاح الطريق إليها حتى اعلى الجبل .

● تاليف بحث علمي شامل عن تاريخها ومخططها واهميتها في التاريخ العربي والاسلامي ، إذ انه على حد علمي ، لم يتصد للكتابة عنها حتى اليوم باسلوب علمي سوى المرحوم الدكتور حسن صادق باشا فى بضع ورقات نشرها المجمع العلمي المصري بالقاهرة فى اواسط العشرينات .

● زراعة غابة من اشجار النخيل المستجلب من كل الاقطار العربية المشهورة بالنخيل ، الجزائر وتونس والسودان والعراق والاحساء وعمان ، بحيث تصبح المنطقة بين عين صدر وعين تيسار الملح وراس الجندي مغطاة بالنخيل المثمر تماما.

ولعل في مثل هذا المشروع ، ضوءا ، ولو خافتا ، على طريق التعاون المثمر معنويا وماديا بين الاقطار العربية ، لأن إحياء آثار صلاح الدين الايوبي بالذات ، في اي مكان، واجب مقدس فى هذه الحقبة المكفهرة من تاريخ العرب والمسلمين .

عجائب العالم السبع .. هل مازالت موجودة ؟



هل تعلم

عبد العزيز السيد المصري

لقد كان من الصعب على شعوب العالم القديم أن تتصور أن الآثار الكبرى التى سموها عجائب العالم السبع قد تفنى إلا واحدة منها فقط ، لأن جميع هذه العجائب اختفت ولم يبق منها غير أثر واحد وهو هرم خوفو فى الجيزة بجوار القاهرة الذى بنى منذ حوالى ٥٠٠٠ سنة ليكون قبراً لفرعون .

العجيبة الثانية .. كانت أسوار بابل العظيمة «حيث يوجد العراق الآن» ، وقد بناها الملك نبوخاتنصر من الطوب بارتفاع ٣٣٥ قدما حوالى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ولم يبق منها الآن غير أكوام من الأنقاض .

العجيبة الثالثة .. تمثال زيوس فى أوليمبيا ببلاد اليونان والذى صنعه المثال الاغريقى فيدياس ، وكان ارتفاعه حوالى ٤٠٠ قدم بأحزمة من الذهب ولحم من العاج وعيون من الجوهر ، ولم يبق أثر لهذا التمثال .

والعجيبة الرابعة .. هى معبد الإله ديانا فى إميقوس التى هى الآن تركيا وكان يحمل السقف عواميد من الحجر ارتفاع كل منها ٦٠ قدما ، وكان المعبد يحتوى على كثير من الأعمال الفنية اليونانية الثمينة ، وقد احرق المعبد فى أثناء الغزو القوطى سنة ٢٦٢ بعد الميلاد .

والعجيبة الخامسة .. كانت المعبد المقام فى مدينة هاليكادناسوس فيما يسمى بتركيا الآن ، وكان قد بنى للملك «ماو سولوس» الذى مات سنة ٣٥٣ ق . م ، كان بناء رائع الجمال وتكلف انشاؤه كثيرا من المال ولذلك فاننا الآن نطلق على كل بناء قد اتقن تزيينه «ماوسوليم» أى المزار الفخم .

والعجيبة السادسة .. كانت كلوساس روديس . وكان تمثالا من البرونز لهليوس ارتفاعه حوالى ١٠٥ اقدام ويقف على جزيرة روديس وقد حطمه زلزال حدث سنة ٢٢٤ ق . م .

العجيبة السابعة .. كانت آخر الأعاجيب وهى «فنار فاروس» الذى بدأ حوالى سنة ٢٨٣ ق . م . على جزيرة فاروس أمام شواطىء مصر (المعروف باسم فنار الاسكندرية) ويعتقد انه كان على ارتفاع ٦٠٠ قدم فوق الأساس الذى اقيم عليه ، وكانت فيه نار مشتعلة فى القمة تهدى السفن الى الميناء (الاسكندرية) ، وظل المنار يخدم حوالى ١٥٠٠ سنة قبل أن يحطمه زلزال .

لماذا كان الذهب معدنا ثمينا ؟

منذ أن عرف الانسان وهو يعتبر الذهب شيئا ثمينا وربما يكون أول معدن عرفه الانسان .

والذى جذب الانسان البدائى للذهب هو أنه كان يوجد فى حالة نقية .. ومعنى ذلك أنه كان يوجد فى قطع صغيرة تسمى «الركاز» غير مختلط بغيره من المعادن أو الصخور ، ولأنه كان يتميز بلونه الأصفر الناصع ومظهره اللامع ، فان الانسان الأول كان يحب أن يقتنيه وأن يصنع منه زينته .

وقد ارتفعت قيمة الذهب عندما تحقق الناس انه أسهل المعادن التى يمكن شغلها ، فركيزة الذهب يسهل طرقها حتى تصير رقيقة لينة بالقدر الذى يمكن ثنيها بدون أن تكسر ... وهذا يعنى أن الانسان الأول استطاع أن يشكل الذهب على أى صورة أحبها .. ففى وقت ما كان يصنع منه أطواقا لثنى الشعر وربطه ، ومن هذه الفكرة ظهرت فكرة تيجان وأكاليل الذهب .

والكمية التى كان يمكن الحصول عليها من الذهب بسهولة كانت كمية محدودة صغيرة . ولذلك فان الناس الذين لم يكونوا يستطيعون الحصول على ذهبهم من الأرض كانوا يقايضون عليه ببعض الأشياء التى يملكونها ... وهذا ما يوضح كيف أصبح الذهب واسطة التبادل .

ولقد لاحظ الانسان أن المواد التى يقتنيها تفنى ما عدا الذهب ، ولذلك صار الذهب هو الوسيلة للاحتفاظ بالقيمة المدخرة للمستقبل ، ومقياس الثمن والقيمة . وبعد قرون مرت صنعت النقود من الذهب كطريقة مريحة لتحديد وزن وجمال المعدن وقيمته وأخيرا صار الصيارفة يحفظون الذهب فى خزائنهم للمحافظة عليه ويعطون صكا مكتوبا بانه يدفع عند الطلب .. من هذه الفكرة بدأت الحكومات تصدر العملات أو النقود التى هى ببساطة صك لدفع مبلغ معين من الذهب عند الطلب .

وبهذه المناسبة ربما يهمك أن تعلم أن حوالى نصف الذهب المستخرج من مناجم الذهب فى العالم اليوم تملكه الولايات المتحدة الأمريكية .

من أين تأتي البكتيريا ؟



البكتيريا كائنات حية (عضوية) وهى صغيرة جدا لا نراها إلا بالمجهر «الميكروسكوب» الذى يكبرها عدة مئات من المرات ، ولهذا نسميها الاجسام المجهرية .

وقديما قبل أن يرى الناس البكتيريا كانوا يعرفون آثار وجودها ، فاللبن يحمض ، والنبات والحيوان الميت يتعفن .

ونحن اليوم نعرف أن البكتيريا حولنا من كل جانب : فى الهواء ، والطعام ، والجلد ، وحتى داخل الجسم . وتتكاثر البكتيريا بالانقسام ، أى أن كلا منها تنقسم الى اثنين ، فليس بين البكتيريا ذكور وإناث .

والبكتيريا لها خلية واحدة أشبه بخلية النبات منها بخلية الحيوان ، ولها غطاء خارجي يشبه الجلد لا يحميها من الماء ، والداخل مليء بمادة تسمى البرتوبلازم وهي ـ عادة ـ ليس لها مركز مفرد أو نواة .

والغشاء الخارجي للبكتيريا مهم جدا لأن أية مادة كيميائية تستخدم للقضاء على البكتيريا لابد لها أن تنفذ من هذا الغشاء ...

وحول الجميع مادة مخاطية لزجة تستطيع أن تغير الشكل وهي غالبا ما تكون ذيلا دقيقا يشبه الخيط يسمى « السوط » وتستطيع البكتيريا أن تتحرك بالرغم من أنها ليس لها أقدام .. فالبعض يتحرك بتحريك هذا السوط كحركة الموج ، والبعض يبدو أنه يتحرك بتقصير الخلية وتطويلها بنفس الطريقة التى تتحرك بها الدودة .

وتسبب البكتيريا الأمراض التى نسميها « العدوى » . ولكن هناك أنواع من البكتيريا يمكن أن تكون معاونة ونافعة جدا للنوع الانساني .

أوراق خضراء

الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد حجماً لأمع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة

● طه حسين وتلميذه .. ●● اعترافات مؤمن ●●● براقو .. وكلمات أخرى
●●●● عالم يعض كلبًا ●●●●● جائزة ألف جنيه لتيسير الكتابة باللغة العربية

طه حسين وتلميذه ..



طه حسين



سيد درويش

وبالطول شقائى بالدكتور طه ! الناقد الجبار الذى لم يستطع ان ينقدنى انا ! كنت انقش وانا فى العباسية الثانوية على اركان كراساتى وكتبى اربعة اسماء ... نقشتها على كل كراسة وكل كتاب هى : « مصر . سعد . طه حسين . سيد درويش » . وكان أساتذة اللغة العربية فى العباسية الثانوية ينهوننى عن الدكتور طه ، فكنت اثور واعرض نفسى لسخطهم وعقابهم ما لم تنقذنى شفاعة

من احد الأساتذة الثلاثة المستنيرين الذين كانوا يحبون معى الدكتور طه وهم : محمود مرعى ، ومصطفى السقا ، واحمد الشايب . وسمانى زملائى فى الثانوية باسمه من فرط ما كنت اقلده فى تفكيره واسلوبه . واحسب نفسى إلى اليوم مطبوعاً بطابعه ، ولما كنت فى كلية الآداب كنت اضع على عينى منظاراً اسود إمعانا فى « الطحسنة » وفى معهد التربية كان زملائى وبعض

اساتذتى يجلسوننى إليهم ويطلبون منى ان احدثهم اى حديث وانا الدكتور طه ... وعندما كان الأستاذ الههياوى مشرفا على اول عهدى بالكتابة كان يقول لي : إنى اخاف عليك ان تكون نسخة ممسوخة من الدكتور طه . وعاب علي الأستاذ الزيات يوما اننى افقد توازنى احيانا فيما اكتب فاضمحل واذوب ويتبلور من بقاياى بعد ذلك طيف من الدكتور طه يكتب هو ويقول ما يريد .

والدكتور طه الذى غزانى هذا الغزو لا ادرى كيف لم يشعر بى . وكيف لم يعطنى من نفسه ولو عشر ما احتل من نفسى .. كلما اقبلت عليه صدنى ، وكل ما قيل له عنى فيه صدقه ... وإلا فاى شيء كان يبغضه فىّ ... لقد كان من اثر ذلك انى تابعته بالذى تعلمته منه ... الصد بهجر ، والنكران بخدش .

واين انا من استاذى الذى إذا كره امرأ حرض الناس عليه حتى اذا راهم اجمعوا على كراهيته معه ، عاد هو فكره ان يكون معهم فى إجماعهم فراح يعلن حبه لهذا الأمر ويحرض الناس على حبه حتى يعودوا إلى حبه معه ، فيعود هو فيكرهه ويحرضهم على كراهيته ... وهكذا .

عزيز احمد فهمى
١٩٤٠

اعترافات مؤمن



بقلم : الدكتور محمد مندور
١٩٤٥م

لا يستطيع مثلى ان يتنكر لجلال الفكر البشرى ، وهو منبع شقائنا وعزائنا على السواء ، ولكنني احسب ان هناك انواعا من ذلك الفكر ، فالمرء قد يفكر بعقله وقد يفكر بخياله وقد يفكر بقلبه . فالتفكير بالعقل هو ما ينفر منه طبعي وذلك لانه مالم يحلق الفكر إلى عالم الصور الجميلة بخيال قوى او يرسب إلى اعماق القلب بحرارة حية لم تهتز له نفس ولا اطمان إيمان ، وإن كنت لسوء الحظ مضطرا كغيرى من البشر أن اكسر فى بعض الاحايين جناح الخيال وان اطفىء حرارة القلب حين لا يكون بد من ان نتناول الامور ببرودة العقل اللصيق بالارض .

منذ ازمة الايمان التى صـــادفتنى فى اليفاعة كما احسبها صادفت غيري وانا دائم التفكير فى حقيقة ذلك الايمان . ولقد مرت بي عقب تلك الازمة مباشرة اعوام كنت اناقش فيها كل من القى عن المشاكل التى يثيرها العقل عن وجود الله وكيف كان ذلك الوجود وعن علاقته بهذا العالم وما فيه من خير وشر . ولا شك اننى كنت ابحث عندئذ على غير وعى منى عن يقين اطمئن اليه ، ولكننى اعترف فى بساطة اننى ما قرات ولا سمعت ما يوجب ذلك اليقين ، حتى اصابنى ما يشبه الملل فلم اعد اطيق الحديث فى هذه الامور واصبحت كلما سالنى عنها سائل او تحدث بها متحدث رميته بالتفاهة وذلك بوعي منى او غير وعي ، ولكنها تفاهة لا يمكن ان اعفيه منها مهما بلغ سؤاله او حديثه من عمق او اصالة . ولقد حاولت غير مرة ان اتبين السر فى موقفي هذا فوجـــدته ، او خيل إلى اننى قد وجدته ، فى امرين : اولهما ان العقل نفسه نشاطه الاكبر موجه الى تقويض ذاته ، فهو لا يزال يبحث عن حدود قدرته ويتناول بالشك ما يصل إليه من اراء ونظريات يعاود فيها البحث فيقوضها حتى اصبح نقده لنفسه خليقا بان يهدم ثقتى فيه . وثانيهما اننى كنت احس دائما فى غموض ان تطاول العقل إلى مالا يستطيعه دليل ضعف فيه لا قوة ، ولهذا كم كانت فرحتى يوم سمعت عميداً لكلية الطب بباريس يقول : «إن من امارات الضعف العقلى ان نبحث بعقولنا عما لا نستطيع ان ننفذ إليه ، والعقل القوى هو الذى يعرف حدود قدرته » . لقد خيل إلى عندئذ ان هذه الالفاظ قد اضاءت مظلما فى نفسى فرايت بوضوح ما كنت احسه غامضاً .

ومنذ ذلك الحين امنت بتفاهة من يناقشنى فى الايمان بعقله فهذا رجل ضعيف العقل مبدد لنشاطه هدراً .

انا إذن لا احب الحديث عن الايمان ولا اؤمن بالدعوة إليه ، ولكننى مع ذلك مؤمن إيمانا راسخا ، وليست لى فى الحياة قوة غير هذا الايمان ، فقد تهب اعاصيرها ومن الممكن ان تتنكر لى يوما عناصرها ذاتها ، ولكن ذلك لا اظنه ينال منى شيئاً ، وذلك لا اعتزازاً منى بعروض حياة او مواهب نفس ، ولكن لاننى مؤمن بالله عادل اطمانت إليه نفسى بحيث لا اذكر اننى قد اتجهت إليه يوما فلم اجد تاييده ، وعند ما ادعوه يسكت فى نفسى طنين الفكر فلا احس غير الصمت الساكن ولا افكر حتى فى وسائل القوة التى ابغيها ، وإنما اساق بعد ذلك فى غير وعي إلى تلك الوسائل كالآلة المسيرة وهى تعرض لخاطرى فى لمحات خاطفة فاسير إليها دون أن اتبين حتى مواقع اقدامى ، وإنما اكتفى بما استشعر من ثقة من اننى مادمت قد تركت السكون إلى الحركة فاننى فى سواء السبيل . ومهما تكن بعد ذلك من صعوبات ، فلا يمكن ان يساورنى شك فى انها ستذلل ولو فى اللحظة الاخيرة وذلك هو الايمان الهادى .

من اين لى بهذا الايمان وقد لقيت ضروبا من الناس وقرات الوانا من الكتب ودرست انواعا من اللغات والثقافات ، بل وخبرت الحياة هزلها وجدها فى كافة الأجواء وتحت مختلف السموات . استطيع اليوم بعد ان نضجت ملكاتى أن اقول اننى لم يقنعنى احد به ، ولا اكتشفته فى بطون كتب ، ولا تلقيته من افواه بشر ، بل ولا غرسته بمواصلة القيام بشعائره كما تغرس فى النفس مختلف العادات بدوام مزاولتها وإنما هو إحساس قديم مكنت له فى نفسى حوادث صغيرة كانت بينى وبين ابى .

ولا أرى ضيرا من ان أقص طرفا منها على القراء فتلك تجارب بشرية قد تكون اجدى فى إلقاء بعض الضوء على مشكلة خطيرة هى مشكلة الايمان من كثير من موسوعات علوم التوحيد والكلام . ولها على الاقل ميزة الصدق النابض بالحياة ، وهي صادرة عن نفس فيها من القـــوة مالايصرفها عن ان ترد كبار الامور إلى صغائر الاشياء عندما تؤمن ان تلك الحوادث الصغيرة هى الأسباب الحقيقية التى تتضاءل إلى جوارها كبرياء العقـــل ومغالطات الاحساس .

عندما اخذت ادرك علمت ان والدى قد بنى باحد حقوله « خلوة » لا منفذ لها غير الباب وانه قد هجر زوجته وابناءه اربعين يوما ليقيم فى تلك « الخلوة » يعبد الله فيها اناء الليل واطراف النهار لا يرى احدا ولا يراه احد ، وإنما يحمل له الطعام من خصاص الباب . ولقد اثار هذا الخبر خيالى فكنت الاحق ابى بالسؤال عنه ولكنه رجل كتوم لسره فلم احظ منه بجواب غير ان دافعه كان عبادة الله وكفى . ثم علمت ان الشباب كان قد ساقه فى مهاويه فلم يجد عصمة خيرا من معاهدة احد علماء الدين على التوبة إلى الله . وكان هذا العالم نقشبندى المذهب وكان رجلا خيرا ، فلم يعد تاثيره على والدى حد توجيهه نحو تجنب الاثم ، وعبادة الله ، والاحسان إلى الناس وقراءة كتب الدين.ولكم من مرة حاولت ان اعرف شيئا عن هذه الطريقة فكان ابى يرفض الادلاء ، مكتفيا بان يخبرنى بان تلك اسرار لا يجوز ان تباح ، ومن غريب الأمر اننى علمت منذ ثلاثة اشهر فقط ان لفظة نقشبند معناها النقش على القلب . واستنتجت من ذلك ان سر هذه العبادة هو ان يستشعر الفرد دائما ان اسم الله منقوش على قلبه . ولقد لاقيت والدى منذ ايام فاخبرته فرحا مسرورا اننى قد عرفت معنى اللفظة دون بحث عنه ، ولكن بتوفيق من الله ساقه إلى سوقا ، فدهش الرجـل وقال : « هو هذا وهو سر العبادة » وإذن فقد خلا ابى لعبادة الله اربعين يوما ، وتحرك خيالى لتلك الخلوة ، ولكننى لم يُكْشَف لى عن سرها . واقتنعت بانه لا يجوز لى ان اتطاول إلى معرفة هذا السّر ، ولقد امن ابى سنين طويلة بانه قد نقش اسم الله على قلبه واتخذ من هذا النقش سبيلا إلى حمده منعما وسالبا ، وسمعت بذلك ، ولكنى ايضا لم اكتشف سر هذا الحمد ، وامنت انه لا يجوز لى ان اتطـــاول إلى كشفه ، وهكذا تهيات نفسي إلى الايمـــان بالمجهول والاطمئنان إليه والثقة به ، واكبر ظنى ان الخير ما اراد الله . فلو ان ابى بصرنى بما اردت لخلت نفسى من الأسرار ولاصابها العقم . واتفق ان ابى لم يستطع ان يتم حجه فى بعض المرات إذ اصيب بنقرس شديد فى السويس وانا عندئذ فى السادسة من عمرى ، والزمه المرض الفراش عامين كاملين قاسى فيهما من الالم الوانا حتى لا ازال حتى اليوم كلما ذكرت انينه اقشعر جلدى . ولست ادرى لاى سبب ارتبط هذا المرض فى نفسى بالايمان حتى لاحسبه ثمن ما افاض الله على والدى منه ، ولا زلت منذ ذلك اؤمن بانه لابد ان يبتلى الله المؤمن ليختبر إيمانه وان المرء لابد ناج ما سلم الايمان فى قلبه .

وعندما اختارتنى الجامعة لبعثتهـــا حدث حادثان صغيران كان لهما فى نفسى ابلغ الاثر : اولهما اننى قبل سفرى رتبت كتبى فى صندوق كبير وبغير وعى منى وضعت « المصحف » على قمة الكتب ، وراى والدى ذلك عرضا فسر سرورا لم اقصد إليه ، ولربما جاء بتوفيق من الله . وحدث إخوتى عما راى قائلا « إن إخاكم فلان سيكون الله دائما معه وسيوفق فى كل ما يعمل » فسالوه « ولم ذلك » فاجـــاب « لاننى لاحظت انه وضع كتاب الله فوق كل كتاب » ثم إننى فى يوم السفر فوجئت بهدية من والدى اوصانى ان احتفظ بها مدة غيبتى وان اعود بها إليه ، وكانت تلك الهدية عبارة عن منديل للشيخ العـــالم النقشبندى الذى عاهده والدى على الهدى ولقد اخذت المنديل واحتفظت به تسعة الاعوام التى مكثتها باوروبا وعدت وهو لايزال إلى اليوم بين ملابسى . ولا استطيع ان ازعم اننى قد علقت به إيمانا خاصا او قوة معينة بل ولا فكرت فى ذلك ، ولكنه نوع من الاطمئنان السلبي المريح . وقد اختلطت فى نفسي قيمة الهدية بمحبتى لمهديها وإيمانى به ، وكان لهذين الحادثين فضل دائم فى ردى إلى الايمان كلما تجهمت لى الحياة .

ولقد اتخذ الايمان فى نفسى وجهـــة الاحسان إلى الغير ، حتى لاحسب اننى عاجز عجزا اصيلا عن بغض احد ، فقد يقسو قلمى وقد يلذع لسانى ، ولكننى ما عدت إلى نفسى إلا احسست بفيض من التسامح لا استطيع دفعه . واكبر ظنى ان هذا الاتجاه كان ايضا لاشعاع من والدى ، وليسمح لى القراء ان اقص حادثا عائليا كان له فى هذا الاتجاه اكبر الاثر .

كان لوالدى تسعة إخوة وكان يحبهم جميعا حبا قلبيا صادقا حتى لقد كان يذهلنى عندما يموت احدهم ان اراه وهو الشيخ الكتوم لسره يبكي بدمع حار ، وكان اصغر إخوته رجلا كريما متلافا ، وكان والدى يهتز فى دخيلة نفسه لكرمه وإن احزنه إتلافه لماله ولقد هدد هذا الاتلاف ثروته حتى اوشكت ان تضيع ، وكان والدى يحرص على ان يستنقذ من تلك الثروة ما يستطيع ، وحدث ذات يـــوم ان الح الدائنون بالمطالبة وكان الوالد يستطيع عندئذ ان يسكتهم ببعض ماله الخاص ولقد فعل ، وكنت عندئذ فى السابعة عشرة من عمرى وكانت والدتى ككافة الامهات تحرص على ان يستبقى الوالد امواله لابنائه ، وكان اخى الاكبر يناصرها فى الراى فانتحى بى والدى فى الليل ناحية واسر لى بنيته طالبا إلى ان اخفي الامر عن والدى واخى . ولقد رايت فى هذه الحركة ثقة بى برغم حداثة سنى اثرت فى نفسى ابلغ الاثر ، فتحمست منذ ذلك اليوم لعمل الخير وامنت انه جزء من الايمان حتى استقر بى الراى إلى ان عون الملهوف وإسداء المعروف إلى الناس لابد ان يخلفه الله بالخير على صاحبه ، ولازلت حتى اليوم اعتقد ان بركة الله قد حلت بمال والدى منذ ذلك الحين . وذلك لانه مال لم يطهره بالزكاة فحسب ، بل زكاه بالاحسان .

هذه هى عناصر الايمان فى نفسى ، اطمئنان إلى المجهول ، وعدم تطاول بالعقل إلىمالا يستطيعه ، وربط للاخلاق بالايمان ، وتسامح مع الناس . وعمل للمعروف حيث نستطيعه . واما منابع ذلك الايمان فهى كما ترى لم تكن محاجة عقلية ولا إثارة عاطفية ولكنها حوادث صغيرة كانت ابلغ فى تمرسه بالنفس من كبار الموسوعات وطوال الخطب .

براڤو.. وكلمات أخرى

عباس محمود العقاد

« من مقال للعقاد بعنوان لوازم الحديث نشره في مايو ١٩٤٧ »

خطرت لي لوازم الكلام عند اكثر المتحدثين ، فسالت نفسي : ايها ياترى خير وافضل . «لا» هذه التى تقال في كل جواب ؟ او «نعم» ومرادفاتها التى تعود بعض الناس ان يعقبوا بها على النقيضين فى مجلس واحد ؟ .

ـ حبذا لو خلت مصر من الاحزاب .

ـ صحيح .

ـ ولكن الاحزاب ضرورية فى الامم الديمقراطية.

صحيح واللــــه !

إلا ان الديمقراطية قد تستغنى عنها فى بعض اوقات التطور والانتقال .

ـ معك حق . فهذا صحيح .

فكم من المتحدثين يستمع إلى امثال هذا التعقيب في كل يوم وبين كل طائفة من الناس ؟ وكم تسوءهم هذه الموافقات وهم ينتظرون الشجاعة الادبية من ذوي الرأى فلا يرون بينهم وبين الجهلاء الإمعات من خلاف ؟ .

إن كانت هناك « نعم » شر من «لا» فهذه النعم شر من جميع اللاءات وجميع ادوات النفي على الاطلاق .

ومن اللوازم ماهو اعجب من الموافقة والانكار على هذا المنوال : لانها لازمة

عباس العقاد

تلقي على المستمع تهمة لا ذنب له فيها ولا مناص له من دفعها .

تلك هي لازمة « على رايك » عند بعض الناس .

يحدثك عن رجل لا تعرفه ولعلك لم تذكره قط فى حياتك ، فاذا به يقول : «على رايك إنه رجل لئيم » .. ويمضي فى تحميل رايك المظلوم تبعات هجائه وإنحائه وانت لم تر شيئا مما اتهمك برؤيته ، ولم يفكر هو بعقله فى إسناد التهمة إليك ، وإنما جرت التهمة «البريئة» على لسانه من حيث لا يريد .

وحضرت مجلسا فيه واحد من اصحاب هذه اللازمة وهم غير قليلين . فصرخ احد السامعين الذين اتجه اليهم الحديث مستغيثا :

يا شيخ حرام عليك ! متى وصفت الرجل بهذه الصفات ؟ وهل هو رايك او رايى الذى تحكيه وترويه ؟

وضحك صاحبنا وكان ظريفا حسن التخلص . فراح يقول : هو التواضع يا فلان . هو التواضع . وهل يليق بادب الحديث ان اقول : هذا رايى ! هذا رايى ! فى كل ما ارويه واحكيه ؟

ومن اللوازم ما يبعث الضحك ولا يبعث الفزع كهذه اللازمة التى يلازمها الاتهام ، بل قد يضحك الحزين إذا غلبت عنده روح الفكاهة على روح الجد والصرامة .

من هذه اللوازم لازمة كانت لاحد القضاة المشهورين يرددها وهو ذاهل عما يسمع وذاهل عما يعنيه . وهى لازمة «برافو برافو» التى يتخلص بها من التفكير فيما يقول .

ولقى شابا كان يعرف اباه فساله : اين انت الآن ؟ قال : موظف فى هذا الديوان ...

قال : برافو برافو . واين ابوك ؟

قال : تعيش .. مات منذ شهور .

فلم يلبث ان حيا اباه تحية الاستحسان . لانه مات ! لكن اللازمة البغيضة حقا تلك اللازمة التى تضطرك الى الجواب على كل فقرة من فقرات الحديث كانك فى محضر تحقيق .

ـ اخذت بالك ؟ «فاهمنى ؟» .

ولابد من الجواب ، ولابد من انتظاره جوابا ملفوظا لا يغنى عنه الايماء ولا السكوت .

ومن هؤلاء من يبدى لك الراى ثم يسالك :

هل انا غلطان ؟

فتقول مثلا : معاذ الله . بل انت على صواب .

فلا يكتفى بذلك ويعود سائلا : إن كنت غلطان قل لي . هل انا غلطـــان بالله ؟

ـ لا لست بغلطان .

ـ لا لا ، إن كنت غلطان فقل لى ولا تخف الحقيقة عنى . انى رجل صريح ، اليس هذا الواجب ؟

ويكررها : اليس هذا الواجب ؟ اليس هذا الواجب ؟ حتى تفض المشكلة بقسم غليظ .. فيصدق انك امنت بانه ليس «بغلطان» .

وقد تكون اللازمة التى من هذا القبيل عقلية تاتى من نقص الوعى

والادراك ولا يقف بها الامر عند حب التكرار والاعادة مع فهم الحديث المعاد

تسال احدهم : هل لقيت فلانا ؟

فاذا هو قد اعد كلمة الاستفهام فى منتصف السؤال وبادرك مستفهما : نعم

– هل لقيت فلانا ؟

– فلانا ؟

– اى نعم فلان !

– ماله ؟ او ما باله ؟ او علام تسال عنه .

ولايعى انك تساله عن لقائه إلا بعد السؤال الثالث او الرابع على هذا المنوال . وهى عادة غالبة على الطبقة الجاهلة فى بلاد الريف على الخصوص مرجعها بطء الحركة الذهنية وإهمال الكلام واعتباره لغوا لا يرتبط بالتفكير ولا يجعل معناه إلا مع التوكيد والترديد .

وبعض هذه اللوازم لازم فى الحديث المفيد ، لانه يعينك على تتبع الحديث والوقوف على مراحله وغاياته . كلازمة «نهايته» فى موضعها الصحيح ، او لازمة «علىكل حال» او «لاتؤاخذنى» إذا كانت تهيىء الذهن حقا لسماع شيء يحتاج الى الاستئذان او طلب السماح ، فهذه اللوازم فى المحادثات اشبه بعناوين الفصول والابواب فى الكتب والمخطوطات . ولكنها قد تتواتر وتتكرر حتى تفقد معناها ولا تتعدى ان تكون حشوا بغير دلالة ... ومن قبيل ذلك فنان قدير فى فنه تلازمه كلمة «ثانيا» حين يقيم الادلة على صحة فكرة او مذهب من المذاهب الفنية فاذا «بثانيا» هى اولا وثانيا وثالثا ورابعا الى اخر العشرة او تزيد !

وكفى بمراقبة هذه اللوازم انك تستمد منها سببا للاصغاء الى الاحاديث سواء منها ما استحق الاصغاء وما استحق الاعراض ... لانك تسمع على الاقل «لوازم» تصلح للتفكهة وتصلح للدلالة على الفوارق بين «الشخصيات» والفوارق بين اساليب الالسنة وحركات العقول .

جائزة ألف جنيه لتيسير الكتابة باللغة العربية

يعلن مجمع فؤاد الاول للغة العربية انه قد خصص جائزة مقدارها الف جنيه تمنح لاحسن اقتراح فى تيسير الكتابة العربية على الا يكون لاعضاء المؤتمر الحق فى دخول المسابقة ، وقد تحدد اخر اكتوبر سنة ١٩٤٦ موعدا لقبول المقترحات ، وترسل باسم المجمع بعنوانه شارع قصر العيني رقم ١١٠ بالقاهرة . وسيطبع المجمع كل ما قيل حول تيسير الكتابة فى مؤتمره الذي انعقد سنة ١٩٤٤ ، ويتخذ الوسائل لنشره .

ملحوظة :

هذه المسابقة اعدها مجمع اللغة العربية « وكان اسمه قبل الثورة مجمع فؤاد الاول » وكان إعلان المسابقة فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، ومن الواضح ان المسابقة « قد مر عليها حتى الآن سبع وعشرون سنة » لم يكن لها نتيجة ، ولم يواصل المجمع جهوده المطلوبة والضرورية فى سبيل تيسير كتابة اللغة العربية منذ ذلك الحين حتى الان ... فهل يتذكر المجمع هذه المسابقة ؟! .

عالم يعض كلبا

كان انحى من اخذ عن ابى على ، وأرواهم لشعر شاعر ، حتى قال له ابو على يوما : «ما بقى شيء تحتاج إليه ، ولو سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد اعرف منك بالنحو » .

وكان احسن ما كتب ، واجدره بالتقدير ، شرح كتاب سيبويه ، إلا انه غسله ، وذلك ان طالبا نازعه فى مسالة فقام مغضبا ، واخذ هذا الشرح ، وجعله فى إناء ، وصب عليه الماء ، وجعل يلطم به الحيطان ، ويقــول – تعريضا بالطالب – « لا – والله – لا اجعل أولاد البقالين نحاة » .

وكان مبتلى بقتل الكلاب ، وكسر سوقها « اى ارجلها » .

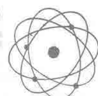
وكان يحضر درسه من الأكابر وعلية القوم من يقدرون فضله ، ويغضــون عن سقطاته . فاستتم الدرس ذات يوم ، وقال فجود ، فلما هم القوم بالانصراف استاناهم ، وسالهم ان يمضوا معه على خيولهم ففعلوا ، وهو سائر على قدميه يابى أن يركب ، فلما بلغوا ما شاء وقف عند إحدى الخرائب ، واطل من بعض الكوى ، ونظر الجماعة فاذا استاذهم يواثب كلبا ، والكلب يواثبه تارة ويهرب منه أخرى حتى اعياه ، فعاونوه ، وامسكوا الكلب فجعل يعض الكلب عضا شديدا ، والكلب يعوى ويتململ ، فما تركه حتى اشتفى .

ثم نظر إلى الجماعة وقال : هــذا عضنى بالأمس ، فاردت ان اخالف فيه قول الأول :

شاتمنى كلب بنى مسمع
فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقارى له
من ذا يعض الكلب إن عضا ؟
هانذا أعض الكلب إن عض !

ذلك هو علي بن عيسى الربعى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

كامل السيد شاهين
١٩٤٥



● مدينة بلا نقود ●

تجرى حاليا تجربة فريدة فى ثلاث من المدن الفرنسية لالغاء استخدام النقود او الشيكات في المعـاملات التجاريـــة .. واستبدالها بما يطلقون عليه « بطاقة الدفع الالكترونية » .

وهي عبارة عن مستطيل صغير من البلاستيك ينقسم الى قسمين :

القسم الأول عبارة عن ذاكرة ثابتة لها بيانات الهوية الشخصية .

اما القسم الثاني فهو ذاكرة متغيرة مسجل فيها رقم يمثل الحد الأقصى للانفاق خلال الشهر .

ويتعامل حامل هذه البطاقة مع محال تجارية لديها خزانة تحصيل إلكترونية من نوع خاص بحيث يضع بطاقته فى فتحتها بعد الشراء فتخصم قيمة المشتريات من الرصيد .

ولا تتعامل هذه الخزانة مع البطاقة إلا بعد أن يضرب على لوحتها الرقم الكودي الخاص بصاحبها . فاذا اراد شخص اخر استخدام البطاقة ولكنه يجهل هذا الرقم الكودي فان البطاقة تتلف نفسها ذاتيا بعد ثلاث محاولات متتالية . حيث ان هذا الكود الشخصي غير مسجل على البطاقة ومن ثم فعلى صاحبها وحده حفظه عن ظهر قلب .

ومع بداية كل شهر يعدل العداد الموجود داخل البطاقة الرصيد اتوماتيكيا . وفي مساء كل يوم تقوم المحال التجارية بتحصيل قيمة مبيعاتها بتوصيل الخزانة الالكترونية بالكمبيوتر المركزي لمجمع المصارف فى المدينة .



الخزانة الالكترونية عند إدخال البطاقة

● الة تكتب وتسجل ●



إنها اول الة لمعالجة النصوص يمكن حملها فى حقيبة اوراق عادية .. فحجمها أصغر قليلا من حجم عدد من مجلـــة « الدوحة » .. وهي يابانية الصنع . وتضم هذه الالة الجديدة بالاضافة الى لوحة مفاتيح عادية مثل اية الة كاتبة ، شاشة تتسع لأربعة سطور بحيث يضم كل سطر ٢٠ حرفا ، وطابعة صغيرة حجم السطر فيها ٢٤ حرفا . كما انها مزودة بشريط مغناطيسي صغير يتسع لتخزين مايوازي مائة ورقة ولا يتعدى وزن هذا الجهاز ككل ١,٦ كيلوجرام . وهو بالتالي يتيح لصاحبه العمل فى أي مكان يريد .. لأنه مزود ببطارية تمده بالطاقة اللازمة لتشغيله لمدة خمسين ساعة متواصلة .

وعند العودة الى المكتب يمكن توصيل الجهاز بشاشة التليفزيون او اية شاشة اخرى لعرض ما تم كتابته ولكن بخط مكبر. كما يمكن توصيله بالهاتف لارسال ما سجل على شريطه من رسائل .

● السيراميك وعلاج الأورام السرطانية ●

إن تاثيـــر الحـــرارة عـــلى الأورام السرطانية معروف منذ عدة سنوات . بل ان نقوش قدماء المصريين على المعابد تؤكد استخدامهم للحرارة فى علاج بعض الامراض .

ولكن بالرغم من فاعلية مثل هذا العلاج الذي يعتمد على رفع درجة حرارة الخلايا المصابة بحيث يؤدي ذلك فى كثير من الأحيان الى تلاشي الورم او على اقل تقدير الى تناقص حجمه وانكماشه .. فانه يواجه مشكلة جوهرية نظرا لانه يستحيل حصر التاثير الحراري على مد[illegible] ررم وحدها . وبالتالي فان التاثير [illegible] يمتد الى الخلايا السليمة المجاورة .

ولقد دفع ذلك فريقا من الباحثين الامريكيين إلى إيجاد حل لهذه المشكلة عن طريق إدخال جزيئات من السيراميك متناهية الصغر الى منطقة الأورام ، ثم تعريض هذه الجزيئات لمجال مغناطيسي بحيث تحدث ارتفاعا فى درجة حرارة الورم دون غيره .

وعلى عكس الطرق الفنية الأخرى المستخدمة للعلاج بالحرارة والتى تعتمد على الموجات القصيرة او الموجات فوق الصوتية فان هذا المجال المغناطيسي يسمح بتسخين الورم الى درجة حرارة محددة مسبقا بينما تظل الخلايا المجاورة عند درجة حرارة الجسم العادية .

يجرى حاليا إعداد الأجهزة اللازمة لتوليد المجال المغناطيسي المطلوب . ولقد اثبتت التجارب التى اجريت على الفئران ان هذه الطريقة تؤدي إلى شفاء ٥٠٪ من الأورام .

● الفيزيوفون ●

يشهد العام القادم دخول التليفون المرئي الى مدينة « بيارتز » الفرنسية . والفضل فى ذلك يرجع إلى شبكة كابلات الألياف الضوئية وإلى اشعة الليزر .

إذ تعمل هذه الألياف الزجاجية التى لايزيد سمكها عن بضعـــة ميكرونـــــات (الميكرون يساوي واحد على الف من المليمتر) على نقل الاشارات الضوئية لشعاع الليزر . ومن ثم فهي تتمتع بطاقة إرسال خيالية سواء من حيث الكم أو النوعية .

وتستطيع هذه الألياف نقل الصوت والصورة ، والمعطيات الاعلامية . كما انها ثنائية الاتجاه بحيث تسمح باجراء حوار بين طرفين . بالاضافه الى كل ذلك فان الارسال خلال هذه الألياف لا يتاثـــر باي تشويش .

ويظهر فى الصورة جهاز « الفيزيوفون » او التليفزيون المرئي الفرنسي . وهو مجرد بداية يتوقع الخبراء أن يتطور شكله وحجمه ليصبح أصغر ، وتنمو امكانياته ليستقبل المكالمات الدولية .



الفيزيوفون الفرنسي

● الجناح الحلقي ●

تتنوع الابتكارات فى مجال هندسة الطيران بهدف تحسين اداء الطائرات وتوفير استهلاك الوقود .

وتركز هذه الابتكارات على شكل وتصميم الأجنحة بشكل خاص . فبعد الأجنحة المثقبة والأجنحة المتحركة مثل الطيور تقدم صناعة الطائرات الأمريكية الجناح الحلقي ، الذي يبدو فى الصورة وهو يحيط بالطائرة فى شكل حلقة .

ويرتفع الجناح الحلقي المصنوع من قطعة واحدة أعلى الطائرة بمسافة كافية محيطا بالنصف الثاني منها ، وذلك لتسهيل عمليات الهبوط والاقلاع ولزيادة التحكم فى الطائرة اثناء الطيران .

وبينما تلتحم الحلقة بهيكل الطائرة من أسفل ، فان دقة متحركة تصل بين الجناح الحلقي والطائرة من اعلى .

ويؤكد مهندسو الطيران الأمريكيون الذين صمموا هذا الجناح المبتكر ، ان هذا التصميم يخفف من وزن الطائرة ويقلل من عوامل المقاومة وهو مايؤدي إلى خفض استهلاك الوقود .



الطائرة ذات الجنـــــاح الحلقي

ولكن دون أن يكون ذلك على حساب امكانيات الشحن على الطائرة .

ولقد اجريت التجارب المعملية على ماكيت لهذه الطائرة وكانت النتائج مرضية للغاية .

● معدة صغيرة للتخسيس ●

ابتكر جراح كندي طريقة جديدة لعلاج السمنة المفرطة تعتبر حلا سحريا لمن لا يستطيعون التحكم فى انفسهم واتباع نظام غذائي محدد .

وتعتمد هذه الطريقة على إجراء جراحة بسيطة تؤدي الى الحد من الشهية تلقائيا دون اللجوء الى عقاقير او ادوية . إذ يتم تقسيم المعدة الى قسمين غير متساويين بواسطة مشابك معدنية بحيث لا يزيد حجم الجزء العلوي الذي يتخذ شكل كيس صغير عن حجم كرة التنس . ويتصل هذا الكيس بالجزء السفلي عن طريق فتحة ضيقة .

وبالتالي فعند تناول اقل كمية من الغذاء تمتلىء المعدة الجديدة الصغيرة سريعاً ويشعر من يعاني من السمنة بانه متخم على الدوام . في حين يمر الغذاء ببطء خلال الفتحة المتروكة بين جزئي المعدة ، ومن ثم لا يشعر الشخص بالرغبة فى تناول المزيد من الطعام وهو مايؤدي الى تنظيم شهيته بشكل ذاتي .

ولقد ادت تجربة هذه الجراحة مع إحدى السيدات إلى إنقاص وزنها لأكثر من النصف . إذ كان وزنها قبل الجراحة ١٥٧ كيلوجـــرام ، ووصل بعدها الى ٦٤ كيلوجرام فقط .



بين الماضي والحاضر..

حكايات من السينما المصرية بمناسبة عيدها الأول..

بقلم: رءوف توفيق

احتفل السينمائيون فى مصر ، بالعيد الاول للسينما المصرية فى الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر الماضي ..

نظمت الاحتفال ، ودعت إليه ، نقابة المهن السينمائية التى يراسها الكاتب الفنان سعد الدين وهبة .

واختارت النقابة ان تكون مناسبة هذا الاحتفال ، هو ذكرى انشاء « استوديو مصر » ، قلعة السينما المصرية ، التى قامها الاقتصادى الوطنى « طلعت حرب » .. وقد تم افتتاح هذا الاستوديو فى يوم ١٢ اكتوبر ١٩٣٥ .. ومن هنا كان اختيار هذا التاريخ ، كعيد سنوى للسينما المصرية ، يتم فيه تكريم رواد السينما ، وتوزيع الجوائز على احسن فروع الفن السينمائى من خلال الأفلام التى عرضت فى الموسم الأسبق .. والجوائز مادية وادبية .. وتبدا من خمسة الاف جنيه لأحسن فيلم .. إلى احسن اخراج .. واحسن تمثيل .. الى ان تصل لجوائز الماكياج والصوت ، والمؤثرات الخاصة .

وفى احتفال هذا العام ، وهو اول احتفال بهذه المناسبة ، اعيد بناء ديكور فيلم « العزيمة » داخل استوديو مصر .. واخرج العرض المخرج الفنان كمال الشيخ .. وشارك فى الاحتفال ما تبقى من جيل الرواد الأوائل الذين قامت على اكتافهم صناعة السينما المصرية ..

فاطمة رشدى وحسين صدقى فى فيلم العزيمة للمخرج كمال سليم الذى قال عنه المؤرخ الفرنسى «جورج سادول» انه يستحق ان يقارن بانجح الأفلام الفرنسية الكبيرة التى ظهرت قبل الحرب العالمية الأخيرة



عادل امام .. النجم الذى يتنافس عليه صناع الافلام .. فرفع اجره الى ٣٥ الف جنيه في الفيلم الواحد ..

سعاد حسني .. النجمة التى يكفى اسمها لبيع الفيلم قبل تصويره .. تواجه مؤشرات جديدة فى السوق السينمائى وتحاول البحث عن طريق وسط هذه المؤشرات

العصر الذهبى

ولا يختلف اثنان من المؤرخين او النقاد على دور (استوديو مصر) فى السينما المصرية .

مثلا المؤرخ السينمائى الأستاذ احمد كامل مرسى فى كتابه الهام (معجم الفن السينمائى) .. يتوقف عند الفترة من عام ١٩٣٦ الى ١٩٤٠ .. ليصفها بأنها مرحلة العصر الذهبى للسينما فى مصر .. ويقول محللا رأيه « ان الفضل فى هذا يرجع الى « استوديو مصر » ، الذى جهز بأحدث المعدات الآلية والكفاءات الفنية ، وسار العمل فيه الى الامام نتيجة التعاون الصادق بين الخبراء المصريين والأجانب ، من اجل تقديم الأفلام المصرية ، ذات القيمة الفنية والموضوعية ، وقد حذت حذوه الشركات والاستوديوهات الأخرى .. وزاد الاقبال على مشاهدة الأفلام المصرية عاما بعد عام ، سواء فى مصر أو العالم العربى » .

والناقد السينمائى المرحوم الاستاذ سعد الدين توفيق فى كتابه « قصة السينما فى مصر » .. يقول عن فترة « استوديو مصر » إنها اهم مرحلة من مراحل تطور الفيلم المصرى .. « كان هذا الاستوديو بمثابة مدرسة جديدة فى السينما المصرية .. وهى مدرسة نقلت الفيلم المصرى خطوات واسعة الى الامام .. اذ انه كان اول استوديو للسينما مجهزا تجهيزا كاملا » .

الأوراق القديمة

واذا تصفحنا بسرعة الأوراق القديمة للسينما المصرية .. لابد ان نتوقف بالتامل والاعجاب لمنطق رجل الاقتصاد الاول فى مصر بتلك الفترة « طلعت حرب » ، الذى انشأ اول بنك وطنى فى مصر « بنك مصر » وامتد نشاط البنك وخدماته فى كافة فروع الاقتصاد الوطنى من صناعة وزراعة .. وبتفكير متقدم جدا ، وبوعى كامل للتطور الحضارى ، قرر طلعت حرب أن يمتد نشاط البنك ليشمل رعاية الفن سواء مسرح أو سينما .. ففى مارس ١٩٢٧ ، افتتح بنك مصر رسميا شركته الجديدة « شركة مصر للتمثيل والسينما » .. بعد أن ظلت هذه الشركة تعمل تحت التجربة لمدة عامين داخل اربعة غرف فوق سطح مبنى مطبعة مصر بشارع نوبار (الدواوين حاليا) .. وكانت هذه الغرف تحتوى على معمل لتحميض الأفلام .. وكان أهم ما تنتجه هذه الشركة فى بدايتها .. مجموعة من الأفلام القصيرة والاخبارية والدعائية .

فى تلك الأيام .. عاد « محمد كريم » من ايطاليا والمانيا بعد رحلة خاصة لدراسة أصول الفن السينمائى .. بعد أن ظهر كممثل فى فيلم « شرف البدوى » عام ١٩١٧ .. وكان أول مصرى يقف امام الكاميرا كممثل .. ولكنه قرر أن يتجه للاخراج .. وعندما عاد من رحلته الدراسية انضم الى شركة مصر للتمثيل والسينما .. ليصبح فيما بعد من رواد السينما المصرية الأوائل



بين الماضي والحاضر..

حكايات من السينما المصرية بمناسبة عيدها الأول..

ام كلثوم واحمد علام فى فيلم « وداد » أول انتـــــــــاج لاســــــــــتديو مصر .. حقق الفيـــلم نجاحــــــا كبيرا .. وذاع صـــيته من الهنـــد إلى امريكا الجنوبيــــــــة

.. والذى استحق لقب « شيخ المخرجين » .

فى هذه الفترة ايضا .. انضم الى شركة مصر للتمثيل والسينما المصور « محمد بيومى » الذى قام باول تجربة مصرية فى التصوير فى فيلم « الباشكاتب » عام ١٩٢٣ .. ويعتبره بعض مؤرخى السينما المصرية بانه اول مصرى فكر فى صنع فيلم مصرى .. فقد اهتم بتاسيس استوديو صغير بالاسكندرية ، كانت كل معداته من تصنيعه الخاص ما عدا الكاميرا .. وقدم فيلم « الباشكاتب » وجريدة « آمـــون » السينمائية .. ولكنه لم يستمر فى الاخراج واكتفى بان يكون مصوراً .

أول بعثـــــة

فى وسط كل هذه الظروف المليئــــة بتجارب النجاح والفشل .. والارهاصات المتعددة لقيام صناعة السينما فى مصر .. والتى شهدت اول فيلم مصرى (١٦ نوفمبر ١٩٢٧) .. وهو فيلم (ليلى) لعزيزة امير .. ثم فيلم « زينب » لمحمد كريم (عام ٢٨) .. ومحاولات يوسف وهبى فى الاستوديو السينمائى الخاص به (رمسيس) والذى انشاه فى بداية الثلاثينات متخطيا كل عقبات صعوبة استيراد أدوات الاضاءة وآلات تسجيل الصوت .. ورغم كل هذه العقبات اخرج أول افلامه (الدفاع) عام ٣٥ .. وايضا محاولات آسيا وبهيجة حافظ فى شركاتهما السينمائية .

فى هذه الظروف .. قرر « طلعت حرب » ان يضمن لشركته الســــــينمائية بداية مستقرة تقوم على الدراسة والعلم .. ولهذا اوفد اول بعثة دراسية لدراسة السينما فى الخارج عام ٣٣ .. وكانت البعثة تتكون من احمد بدرخان وموريس كساب لدراســـــة الاخراج فى باريس .. ومحمد عبد العظيم وحسن مراد لدراسة التصوير فى برلين ..

مقالات ترشحه للبعثة

كيف كانت تمضى الحياة الفنية فى ذلك الوقت ؟

من المثير ان نقرا بضع فقرات من مقال كان قد كتبه الفنان الراحل المخرج احمـــد بدرخان فى مجلة السينما التى كان يراس تحريرها ، والتى كانت تصدرها مؤسســـة السينما المصرية ..

تاريخ المقال نوفمبر ٢٦ .. ومناســـــبة المقال الاحتفال بمرور ١٠ ســــنة على السينما المصرية ..

كتب احمد بدرخان فى تلك المقــــــال يقول :



احمد كامل مرسى

احمد بدرخان



« دفعتنى هوايتى للسينما ، ان التحق بمدرسة للمراسلة بباريس لدراسة (فن السينما) .. وبدات اترجم دروسى للعربية وانشرها تباعا فى مجلة (الصباح) لمــدة ثلاثة أعوام .. وكنت فى ذلك الوقت ايضا اتردد على مسرح رمسيس لا كمتفرج .. بل كهـــاو اشاهد البروفات وكيف كان استاذنا الكبير « عزيز عيد » يكون البراعم الفنية الجديدة بعبقريته الفذة .. ولعل هذه الفترة كان لها أكبر الأثر فى تكوينى الفنى .. وانئى لأعترف هنا ان ما جنيته من مسرح رمسيس لا يقل بحال عما جنيته من بعثتى الفنية التى اوفدنى فيها بنك مصر الى الخارج لدراسة فن السينما مع ثلاثة من الزملاء هم الأستاذ موريس كساب ، وقد درس معى الاخراج فى فرنســــــا .. والاستاذين محمد عبد العظيم وحسن مراد لدراسة التصوير بالمانيا .. وقد تم اختيارى فى هذه البعثة بينما كنت ادرس القانون بكلية الحقوق .. فقد قرأ المغفور له طلعت حرب مجموعة مقالاتى فى مجلة الصباح .. فاستدعانى لكتابة تقرير عن انشـــــاء استوديو للافلام الناطقة .. وكان الزميل نيازى مصطفى يدرس الاخراج فى جامعة ميونيخ بالمانيا ، فاستعنت به فى اختيار المعدات اللازمة لهذا الاستوديو ووقع الاختيار على تقريرى للتنفيــــــذ .. وكانت مكافأتى ارسالى فى بعثة لدراسة الاخراج على حساب البنك ..

« واثناء بعثتى أرسل الى الاســــــتاذ احمد رامى قصة (وداد) لأقوم بعمـــــل سيناريو لها .. وفى سنة ٣٤ بدا استوديو

ان الاعتراف بالنجاح ليس مسالة شخصية . ولكنه أمانة التاريخ التى يجب أن تقال بموضوعية .

الود المفقود

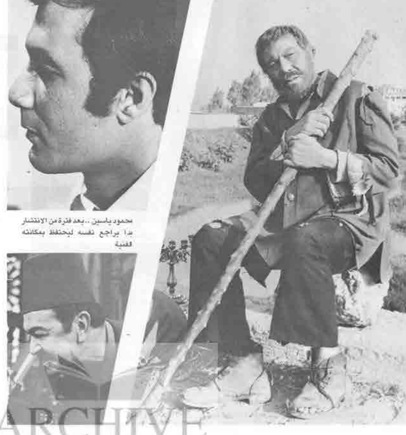
ونعود إلى مقال احمد بدرخان .. نسترجع معه الذكريات وروح العمل الفنى فى ذلك الوقت .. كتب يقول :

« فى نفس العام أصدرت أول كتاب عن فن السينما باللغة العربية باسم (السينما) .. وعاد نيازى مصطفى من بعثته وانضم الى استوديو مصر ، كما تعرفت بصديقى الراحل الاستاذ كمال سليم ضمن شلة من الأدباء كنا نجتمع فى ندوة الأستاذ عباس محمود العقاد التىكانت تعقد بمنزله بمصر الجديدة عصر كل يوم جمعة ، وكانت تضم الاساتذة احمد خورشيد (المصــور السينمائى) والزميل احمد كامل مرسى والفنان صلاح طاهر (الرسام المعروف) والموسيقى حسن الشجاعى ، والأديب سيد قدرى ، والشاعر السودانى معاوية نور ، وكنا نخرج من هذه الندوة الى مرسم صلاح طاهر الذى اقامه على سطح العمارة التى كان يسكنها بمصر الجديدة ، وهنالك كنا نتناقش فى كافة الفنون وكل منا يقص على زملائه ما قرا .. وفى هذه الندوة سمعنا لاول مرة قصة فيلم (العزيمة) .

« ثم انضم الأستاذ كمال سليم بعد ذلك الى استوديو مصر ، ككاتب سيناريو .. ولعل اجمل الأيام هى تلك الأيام التى قضيتها مع كمال سليم ونيازى فى غرفة واحدة ، وكانت تضم مكاتبنا الثلاثة باستوديو مصر .. ولقد كان التعاون بيننا نحن الثلاثة صادقا .. فكنا ننقد افلامنا بقسوة وهى مازالت بعد كلمات على الورق .. ولعل المستوى الفنى الذى كانت تمتاز به افلام استوديو مصر فى ذلك العهد يعود الى هذه الجلسات التى كان يسودها الود والنقد البناء .. الشىء الذى تفتقر اليه السينما المصرية فى هذه الايام » !

تعليق مراقب يقظ

ونتوقف عند هذه العبارة من شريط الذكريات .. ونغمض اعيننا على صورة الزمن الجميل .. وكأننا نريد أن نستبقى الحلم ، قبل ان يجبرنا الحاضر على مواجهة زمن التسابق الرهيب المجنون من



محمود ياسين .. بعد فترة من الانتشار بدأ يراجع نفسه ليحتفظ بمكانته الفنية

عادل الامام .. احد النجوم الذين ارتبط بهم الجمهور فى ادوار ابن البلد

فريد شـــوقى .. مازال متربعــا على القمـــة .. يعرف كيف يخاطب جمهــــوره

قنع المسئولين عن الاستوديو بخطورة اسناد هذا الفيلم الى مخرج ناشىء مثل احمد بدرخان .. ونجح احمد سالم فى حملته بعد ان كان احمد بدرخان قد استعد تماما لاخراج الفيلم وانتهى من كتــابة السيناريو وتقطيع المشاهد لتصويرها ..

وتفسر هذه التعديلات ان وراء حملة احمد سالم ضد احمد بدرخان .. اســباباً نسائية كانت تربط احمد سالم بالخبير الالمانى « كرامب » .

ولكن احمد بدرخان عندما يعود بذاكرته للوراء ليحكى ما حدث .. يسقط هــــذه المسائل من حسابه .. ويتعامل مع الامور بكثير من الترفع والسمو ..

إنها اخلاق الفنان الحقيقى .. والــذى لا يجد اى غضاضة فى الاعتراف بالنجاح الكبير لفيلم « وداد » .. هذا النجاح داخل مصر وخارجها حيث عرض فى مهرجان فينيسيا السينمائى عام ٣٦ .. وعرض لمدة اسبوعين فى لندن .. وعرض أيضا فى الهند وامريكا الجنوبية .

مصر انتاجها وقامت ببطولتها كوكب الشرق أم كلثوم .. ويعتبر هذا الفيلم نقطة التحول فى تاريخ السينما المصرية » !

اخلاق الفنان

(ملحوظـــة) اجـــدنى مضطرا للتوقف عن نقل سطور بعض ما جـــاء فى هذا المقال .. لأشيد بهذه الروح العالية التى تجاوز فيها احمد بدرخان الصدمة الأولى ، والقاسية ، التى واجهها بعد عودته من بعثته الدراسية ليفاجأ بعد ان كان مرشحا لاخراج فيلم وداد .. انه استبعد من اخراج الفيلم ليقوم الخبير الالمانى « فريتز كرامب » بهذه المهمة على ان يساعده جمال مدكور .

وقد اختلفت التفسيرات حول هـــذا التصرف .. وقيل من ضمن ما قيل .. ان احمد سالم والذى كان يدير استوديو مصر





فريد شوقى وتحية كاريوكا فى فيلم « السقا مات » اخر ما اخرجه صلاح ابو سيف فى مصر (عام ٧٧) ثم اختفى من السينما المصرية

اجل الربح .. الذى اصبح سمة واضحة فى اغلب تعاملات الوسط السينمائى فى مصر الآن .

فهناك رغبة جامحة لدى معظم صناع السينما المصرية فى تقديم افلام تجارية سريعة ، تحقق اكبر عائد مادى فى اقصر وقت . !

وهذا الصراع ادى بالضرورة الى سحق علاقات الحب ، والود ، والاحساس بالمشاركة ، فى اسلوب التعامل اليومى بين صناع السينما وفنانيها ..

وكما يردد دائما المؤرخ السينمائى احمد كامل مرسى فى نبرة حزن واسف : « لقد فقدت الأسرة السينمائية الروابط التى تجمعها .. وتفرق كل انسان فى طريق .. وضاع الحب الذى كان يجمع الفنانين .. وجاء الجشع والصراع من اجل جمع الأموال .. حل الطمع محل الطموح ، وانعكس هذا كله على الفن .. فلم يعد هناك مستوى ولا حماس ولا غيرة للتجويد والابتكار .. » !!

وهذه المرارة التى يتحدث بهـا الآن الاستاذ احمد كامل مرسى .. هى وجهة نظر مراقب يقظ عاش مراحل صناعة السينما المصرية .. وشارك فيها كمخرج وكناقد ، وكصديق شخصى لاغلب رواد السينما الأوائل .. الى اخر جيل من المخرجين الشبان الذين يلجأون إليه يسالونه الراى والمشورة فيما يواجهون من مشاكل العمل .. وهو حتى هذه اللحظة مازال الحكم الامين على المستوى الفنى للافلام .. ولهذا تسعى إليه الجمعيات السينمائية فى مصر ، وايضا اجهزة وزارة الثقافة ، ليراس لجان التحكيم فى مسابقات الأفلام .. فهو لا يعرف المجاملة .. ولا تشوبه اية شائبة من المصالح الخاصة او الغيرة الفنية .. فقد اعتزل العمل السينمائى كمخرج منذ عام ١٩٥٥ .. واكتفى بالبحث والقراءة والمتابعة عن بعد ..

النجاح بمقياس الايرادات

وإذا حاولنا ان نحدد العوامل التى تؤثر فى صناعة السينما المصرية الآن .. لوجدنا انفسنا امام حقيقة هامة .. وهى أن الفيلم المصرى اصبح يغطى تكلفته من السوق المحلى بعد ان كان إلى زمن قريب يعتمد على السوق الخارجى بنسبة تصل الى ٦٠ فى المائة من ايراد الفيلم ! .

واصبحت قوائم ايرادات الافلام تشهد ارقاما قياسية فبعض الأفلام تحقق فى الاسبوع الأول من عرضها فى دار سينما واحدة بالقاهرة .. ايرادا يتراوح ما بين ١٨ الف إلى ٢٢ الف جنيه !!

وقد يهبط الايراد فى الأسبوع التالى بمقدار الفين او ثلاثة الاف جنيه .. ولكن مع استمرار عرض الفيلم على مـدى عشرين او ثلاثين اسبوعا واحيانا اكثر ـ هذا فى دار عرض واحدة بالقاهرة بخلاف عروض الاقاليم ـ وبخلاف طبع الفيلم على شرائط فيديو وتوزيعها على نطاق واسع وبارقام ايرادات تبدا من ثلاثين الف جنيه ! .

وبعملية حسابية بسيطة نكتشف ان الفيلم يغطى تكلفته من السوق المحلية فى خلال شهور قليلة ثم يصبح اى عائد بعد ذلك هو ربح صاف يدخل جيب صناع الفيلم .

وإذا اضفنا إلى هذا الحساب ، قيمة بيع نسخ الفيلم إلى الأسواق العربية لوجدنا ان صناعة الافلام اصبحت مسالة رابحة تماما !

جمهور السينما

وهذا بالطبع ينطبق على بعض الافلام .. وليس كلها ..

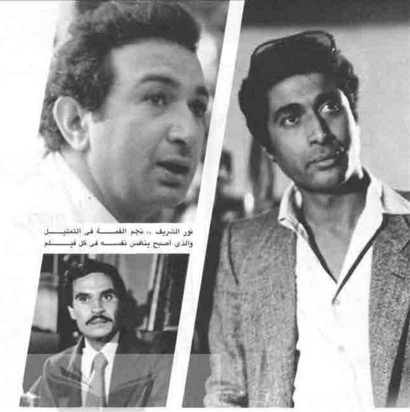
ومن هنـــا ظهر تعبير « الأفـــلام الجماهيرية » وهى الافلام الموجهة اساسا إلى جمهور السينما الدائمين واغلبهم من العمال الحرفيين والفئة الوسيطة فى اعمال التجارة والنقل والخدمات والذين يشكلون ما اتفق على تسميته فى مصر باصطلاح « الطبقة الجديدة » .. هذه الطبقة التى استفادت من النمط الاستهلاكى وارتفعت دخولها بمعدلات كبيرة سمحت لهم بارتياد دور السينما والمسرح وشراء شرائط الكاسيت ..

وهذه الطبقة شكلت بذوقها الخاص مستوى الفن الذى يسعى إليها .. سواء أكان هذا الفن ، فيلما او مسرحيـــة او اغنية ..

واستغل تجار الفن فى مصر ، هذه الظاهرة الاجتماعية .. واغرقوا السوق بكل ما يرضى ذوق هذه الطبقة .. وتسابقوا فى الانحدار به ..

فاذا كان امبراطور الغناء الشعبى فى مصر اسمه احمد عدوية يحقق الارقام الخيالية فى شرائط الكاسيت التى يغنى فيها « السح الدح امبو » .. « واحنا اللى دهنا الهوا ؛ دوكو » و « حبة فوق وحبـــة تحت » ..

فلماذا لا تكون الافلام السينمائية على نفس المستوى .. وايضا بنفس الطراز من هذه العناوين « مرسى فوق .. مرسى تحت » .. « مخيمر دايما جاهز » .. حسن بيه الغلبان » .. « مرسى فوق الشجرة » ؟ ! الخ .. ! !



نور الشريف .. نجم القمة في التمثيل والذي اصبح ينافس نفسه في كل فيلم

عزت العلايلي .. قرر أن يخوض تجربة الانتاج حتى يقدم نوعية الافلام التي يرضاها لنفسه وللجمهور

احمد زكي .. الموهبة الجديدة التي انطلقت كالصاروخ .. وارتبط اسمه بالافلام الجيدة

وادرك صناع هذه السينما ان جمهورهم الذي يمكن ان يدفع عشرين الف جنيه في الاسبوع الواحد .. هو في اغلبه جمهور يخرج من عمله مرهقا يرغب في التسلية والضحك .. وعلى حد تعبير احد افراد هذا الجمهور المواظب على السينما .. « مش معقول الواحد يدخل سينما علشان يفكر ويعيط ويحل رموز .. احنا عايزين نضحك ونتبسط » !! .. من هذا المنطق حشد صناع هذه السينما في افلامهم نجوم الكوميديا .. ونجوم الغناء الشعبي .. داخل توليفة من الضحك والمغامرات .

وتسابق صناع هذه السينما على نجوم مسرحية « مدرسة المشاغبين » عادل امام وسعيد صالح ويونس شلبي .. واصبحت تفصل الأفلام على مقاسهم ليضحكوا الجمهور كل حسب مقدرته ..

وانضم الى هؤلاء النجوم .. سمير غانم واسعاد يونس ليصبحا من صانعي الضحك في الأفلام .

ولا مانع بالطبع من وجود احمد عدوية وفاطمة عيد وبعض الأغاني الشعبية لاستكمال الوجبة المسلية ..

وهكذا أصبح الاتجاه الى اعتبار السينما وسيلة تسلية تخاطب الاجساد المرهقة .. ولا تقترب من العقول !

الصعود والاختفاء

وكان من نتيجة هذا الاتجاه .. حدوث اختلال واضح بين نجوم التمثيل والاخراج .. فقد رفع نجم الكوميديا عادل امام اجره الى ٣٥ الف جنيه عن الفيلم الواحد .. بينما توارت فاتن حمامة ونادية لطفي .. وتعثرت سعاد حسني .. في نفس الوقت الذي اطلقت فيه نادية الجندي على نفسها لقب « فنانة الجماهير » بعد النجاح التجاري الساحق لفيلمها « الباطنية » .. وتجني الآن نفس النجاح بفيلم « وكالة البلح » .

واصبح المخرج الشاب « محمد عبد العزيز » هو المخرج المضمون لمثل هذه الأفلام السريعة .. بعد أن كان يبشر بالخير في فيلمه « انتبهوا ايها السادة » .

وشهدت قائمة المخرجين اكبر صدمة بانحدار المخرج « بركات » الى قبول اخراج افلام مثل « حسن بيه الغلبان » و « العسكري شبراوي » .. وهو المخرج الذي ابدع في يوم من الايام « دعاء الكروان » .

وواجه « حسن الامام » الفشل في افلامه الأخيرة .. وهو الذي كان يعلن دائما في مواجهة النقاد انه اكثر مخرج يفهم الجمهور .

واختفى « صلاح ابو سيف » من الساحة المصرية .. كما اختفى « عاطف سالم » داخل نفسه !

ماذا يقول المتفائلون ؟

ولكن رغم ضجيج ظاهرة الأفلام الجماهيرية .. يبقى للسينما المصرية بعض حراسها الذين مازالوا يؤمنون بدور السينما في ايقاظ المشاعر واضاءة العقل .

ويبقى للسينما المصرية هذا الرصيد المتجدد دائما من الفنانين في التمثيل والاخراج .. ومن الفنيين في التصوير والمونتاج والديكور والموسيقى الفنية وخصوبتها مهما تناثرت الشوائب هنا وهناك ..

ويقول المتفائلون .. يكفي السينما المصرية أن تقدم خمسة أفلام جيدة على المستوى الفني والفكري من مجموع انتاج يصل الى خمسة واربعين فيلما كل عام .. فهي نسبة متعارف عليها عالميا .. فالسينما الامريكية رغم امكانياتها وانتشارها ونفوذها .. والسينما الايطالية رغم صراع فنانيها للتغلب على مشاكل العمل .. لا تصل نسبة الأفلام الجيدة في انتاجها الى عشرة في المائة من مجموع ما يقدمانه من أفلام كل عام .. هذا اذا ادركنا أيضا ازمة السينما الفرنسية والسينما الانجليزية والتي تهددها الازمات بالتوقف

يقول المتفائلون .. لا تنزعجوا مما يحدث في السينما المصرية الآن فالمشاكل في كل مكان .. والازمات عالمية .. والظواهر غير الصحية تطبق على الانفاس من كل جانب ..

ونحن لا يسعنا الا أن نتعلق بحبال الأمل .. وان نكون متفائلين .

وكل عام والسينما المصرية بخير .. وافضل مما هي عليه الآن .

« رءوف توفيق »

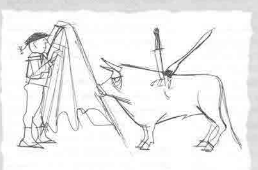


ضحكات الشهر

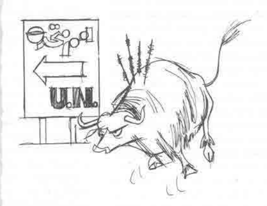
أندلس
SPAIN
أخرى

– .. بدون كلام .. !!





– .. بدون كلام .. !!



– .. بدون كلام .. !!!



« المشانـق » .. !!

ـ .. رقبتي .. سدادة .. !!

طارق بن زياد ـ زيارتها بـ ٤٠٠ .. وفتح الاندلس بكام .. ؟ !

تور ـ تشتري .. OXTAIL !!

استراحة الدوحة

مجموعة مسابقات بالرسوم بريشة:

روءوف



دوري الكاريكاتير



اقتحم احد اللاعبين ارض الملعب كالصاروخ .. وسجل هدفا قويا فى مرمى الخصم .. هل تستطيع ان تعرف رقم فانلة صاحب الهدف .. بدون الاستعانة بالقلم الرصاص او اصبعك ؟ .. إذا استطعت فجائزتك هي .. شهادة منا بانك قوى التركيز والملاحظة .. وذلك بالاضافة لحصولك على (٦٠ ريالا) .

المثل يقول



هذه الصورة الساخرة .. تعبر عن مثل شعبي ... حاول معرفته لتحصل على جائزة (٦٠ ريالا) .

خيال من ؟



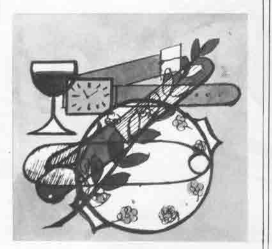
هل تستطيع التعرف على صاحب هذا الخيال .. مع العلم بانه لفنان كوميدي احتل القمه فى السنوات الأخيرة ؟ ..
الجائزة (٦٠ ريالا)

لعبـــــة الظـــــلال



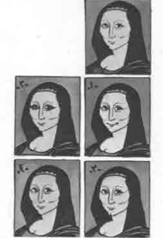
هل تستطيع أن تساعد هذا اللاعب في معرفة ظله الحقيقي؟ الجائزة (٦٠ ريالا)

لأقوياء الملاحظة فقط!



أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة .. هل تستطيع التعرف عليها إذا عرفت الحل ارسله إلينا ولك جائزة (٦٠ ريالا) .

يخلق من الشبه أربعين



الصور الأربع المنشورة لأربع لوحات مقلدة للوحة الجيوكندا ، للفنان العالمي ليوناردو دافنشي من بين هذه اللوحات الأربع واحدة فقط تشبهها تماما ، وفي الباقي اختلافات بسيطة .. هل يمكنك التعرف عليها .. ؟ الجائزة (٦٠ ريالا)

هات أجمل تعليق



حاول أن تجد تعليقا خفيف الظل على هذا الرسم الكاريكاتيري .. فقد يسعدك الحظ وتفوز بالجائزة (٦٠ ريالا).



من أدب المرأة في قطر

رحلة.. في عقل أم

بقلم: د. زهرة المالكي

وتمضي الأيام بنا فى سيرها الأبدي المتواصل الذي لا يمل .

كل يوم يمر ، يعجل فى إطلالة الحدث العظيم في حياتي . واظل ارتقب مسيرة الأيام بمشاعر مختلطة متناقضة .. فيها القلق والخوف . وفيها الفرح والسرور . فيها الرغبة وفيها الرهبة . واحيانا اتمنى أن تظل فى مكانها لا تتحرك ولا تتبدل . وبين امتزاج مشاعري المتناقضة ، تتوالد الأماني والأحلام فى نفسي . احدث نفسي بأن القادم الجديد الذى سيزورنا لأول مرة سيكون طفلا . واقضي الساعات الطوال ابحث له عن اسم جميل تالفه الاذن وتسعد به الشفاه حين تنطلق بحروفه .. ثم اتخيل وجهه وقسماته ورنة ضحكته إذا ضحك ، وصدى بكائه إذا بكى ... واراه يكبر ويترعرع امامي ليصبح شابا ينهي دراسته ويخوض مجال العمل . ثم ياتيني ذات يوم ليقول لي فى حياء وإطراق : اماه .. أريد أن اتزوج . وتشتعل البسمة فى صدري ، وانظر إلى وجهي فى المراة ، فاراه فعلا كان هذا واقعا ، لا مجرد خيال ام لم تر ابنها فعلا !!

لكنني اعود واحدث نفسي من جديد : من يدريني أن القادم سيكون طفلا ؟ ربما يكون طفلة . هذا افضل لو تحقق فعلا . فتربيتها تصبح اسهل وايسر . إذن لابد من اختيار اسم لها .. ماذا تراني اسميها ؟ كل الاسماء التى ترد على ذهني الآن اسماء مالوفة معتادة ، تكررت الاف المرات . وانا اريد لطفلتي اسما جديدا مبتكرا . ساؤجل البحث عن اسم صغيري حتى ان اخر ، وعلي أن افكر في أشياء اخرى قد تكون اهم .

ياطفلتي العزيزة التى لم تولد بعد .. ساخيط أثوابك بنفسي وازينهابالشرائط الحريرية الملونة . وساختار لك الكثير الكثير من الدمى واللعب الجميلة حتى تسعدي وانت تقضين معظم اوقاتك معها ، تناجينها وتخترعين لها اسما ووجودا وحركة لا يحس بها سواك . وحين تكبرين قليلا ستذهبين إلى المدرسة . ولن اكتفي بتعليمك المدرسي ، بل ساعلمك كيف تصبحين سيدة بيت ممتازة فى المستقبل عندما تتزوجين وتتركينني انا واباك وحيدين . نرنو إليك وإلى زياراتك التى نسر لها ايما سرور .

وتتحرك الأيام فى سيرها بينما احيا انا فى عالم خاص افرشه احلاما وامنيات . وتاتي اللحظة الموعودة التى انتظرتها طوال تسعة شهور كاملة باعصاب مشدودة . ويطل المولود على الدنيا بلا بكاء ولا صوت كبقية المواليد حين ياتون عالمنا للمرة الاولى . واقول فى نفسي وجسدي نهب للآلام التى لا ترحم : إن مولودي يبدو عليه الهدوء والتعقل منذ لحظة ميلاده . وفي عناء ومشقة شديدين افتح عيني ، واحرك لساني لاسال : هل المولود طفل او طفلة ؟ ولا ياتيني الجواب .. بل ارى يدا تمتد نحوي لتربت فى حنان على وجهي ، وافهم من لمسة تلك اليد الحنون أن مولودي العزيز قد جاء الى الدنيا ميتا بلا حياة !